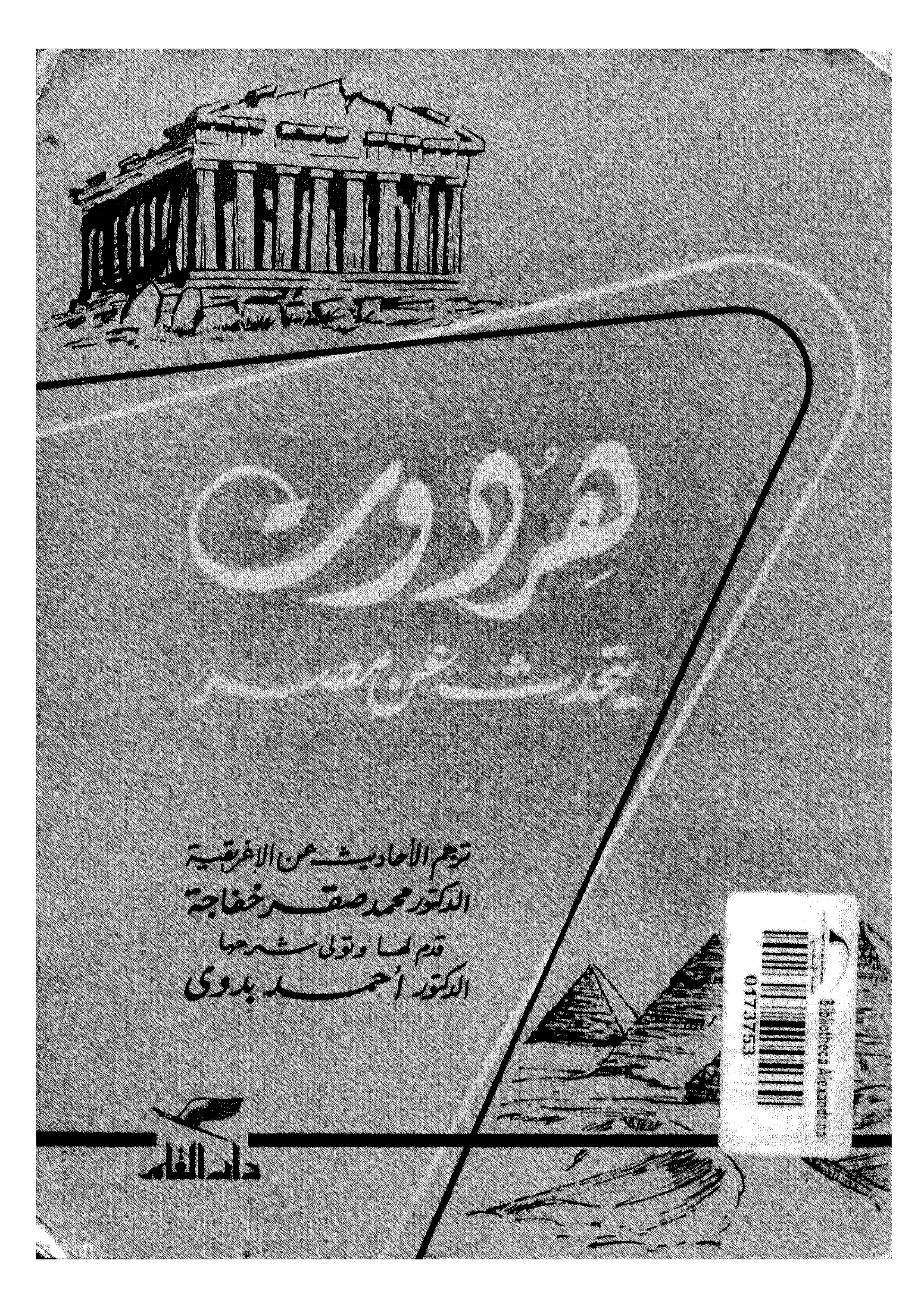
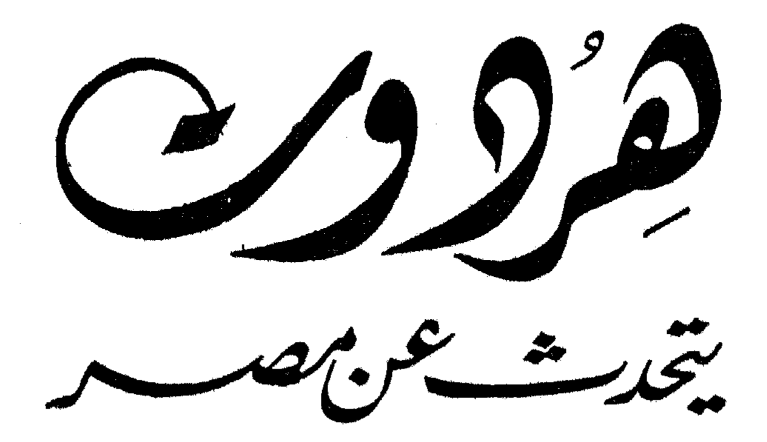


هيرودوت
يتحدث عن مصر
ترجم الأحاديث عن الإغريقية
الدكتور محمد صقر خفاجة
قدم لها وتولى شرحها
الدكتور أحمد بدوي
دار القلم

هِرُدوت

يتحدث عن مصر



ترجم الأحاديث عن الإغريقية
المرحوم الأستاذ الدكتور
محمد صقر خفاجة
عميد كلية الآداب سابقاً

قدم لها وتولى شرحها
فى ضوء ما عرف من تاريخ الحياة المصرية
الدكتور أحمد بدوى
عضو مجمع اللغة العربية



١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هِرُدوت يتحدث عن مصر

فى « كتابه الثانى » « Εὐτέρπη »

إنه ثانى كتبه التسعة[1] وأحبُها إلينا ، وأعزُّها علينا ؛ ذلك لأنه اختص به وطننا الحبيب « مصر » وشعبَها العظيم المبتكر ، الذى لفتت عظمته ، وجلائلُ أعماله ، وفضائله ، أنظار الدنيا ، واقتادت العيونَ نحو دياره الحلوة الغنية المترفة ، وما حملت أرضها من مختلف البدائع والروائع .

وشعبنا عظيم لا يشك فى ذلك أحد ، آمن بربِّه ووطنه إيماناً لا نعرف أنه اتفق لغيره من شعوب الأرض ، وأحب وطنه أرضاً وسماء وماء وهواء وزرعاً وحيواناً ثم قَدَّسَ كل أولئك .

ولم يكن حبه ذاك مصدره الهوى ، ولكن كان حبا مصدره اليقين ؛ بحيث أضحى لدى أصحابه من قواعد الإيمان .

وشعبنا آمن بكرامة إنسانيته فاستحق الخلود ، واحتل من تاريخ الإنسانية صفحة الذهب من هذا الوجود .

حسبنا أن تاريخ هذا الشعب قد أضحى نغماً حلواً فى فم الدهر يغنِّيه فَيَطْرَبُ له الكون ، وسيظل يَطْرَبُ ما بقيت مصر وبقى فى الدنيا من يَقْدُر تاريخ مصر ؛ بل إلى أن يأذن الله فتتبدَّل هذه الأرض غير الأرض .

---

(١) أنظر : ص ١٦ ، ١٧

ذلك كتاب كتبه كاتبه منذ خمسة وعشرين قرناً ؛ فأطلع الدنيا على كثير مما لم تكن تعرف من صور الحياة التى عاشها أسلافنا على ضفاف النيل . وإنها لصور — شهد الحق — مُشرِقَةٌ وضَّاءة ، ثم هى فوق ذلك مُشَرِّفَةٌ ترضينا وتسعدنا ، وتعطينا حقنا فى اختيار مكاننا فى الحياة دون أن تَحْمَرَّ وجوهُنا فى طلبه .

وإذا كان « هردوت » قد ودع الدنيا إلى الآخرة ليلقى جزاءه بين يدىْ عَالِمِ الغيب والشهادة ؛ فإن من الحق علينا — نحن أبناء هذا الشعب الأمام البنَّاء ، وخلفاء ذلك السلف الصالح الذى سبقنا إلى تعمير هذا الوطن ، والإسهام فى تأدية رسالة النور والخير إلى العالم الإنسانى كلِّه — أن نذكر « هردوت » بالخير والشكر وعرفان الجميل ، وأن ندعو الله أن يغمره ببره ورحمته ، وأن يغفر له ما قد يكون وقع فيه من سوء بجهالة أو خطأ فى التقدير ؛ فالله سبحانه وتعالى واسع المغفرة ، وهو الغفور الرحيم .

وبعد ، فأشهد أننى عَشِقْتُ هذا الكتاب منذ عرفته قبل أكثر من ثلاثين عاما ، ثم ازداد تعشُّقى إياه ؛ فأكبرتُ كاتبه ، وأخذت أعجب بقدرته ، وأذيع تصويبه كلما تَقَدَّمتُ فى قراءة فصوله (١) بين يَدَىْ أستاذٍ من أساتذتى مضى إلى جوار ربه منذ أعوام ، وأعنى العالم البريطانى Waddell أستاذ الدراسات القديمة يومئذ .

كان ذلك أيام مرحلة الطلب فى الجامعة المصرية(٢) . ولست أنسى مقدار فخرى واعتزازى بما وعيتُ يومئذ من فصول هذا الكتاب ، ولا مقدار أمانتى وحرصى على ما ادخرت فى صدرى من أحاديثه وأنا أمضى إلى أوربا لطلب العلم فى معاهدها . ولا مبلغ وفائى لتلك الذخيرة وفاء كان يلح على إلحاحاً شديداً

(١) انظر : ص ٧ هامش رقم ١ .
(٢) جامعة القاهرة الآن .

فى العودة إلى معينها و الرَّشف من قَرَاحِه الصافى ما استطعت إلى ذلك سبيلا .
ولا ما ملأ نفسى من غبطة حين أكرمنى الله فيسَّر علىَّ مهمتى بأن أتاح لى استكمال متعتى بالإفادة من هذا الكنز ، فأخذت أقرؤه مُتَرْجمًا إلى بعض ما كنت أعرف من لغات الغرب .

أذكر كل ذلك ولا أنساه ، وإن أنس لا أنس ، يوم تَمَّتْ لى السعادة بهذا الكنز أو كادت ، وذلك حين سعى إلى عالمٌ عربىٌّ مصرىٌّ شاب ، كنت قد عرفته فألفته ، ثم توثقت صلتى به فأحببته . جاءنى رحمه الله ذات يوم يسعى على استحياء ، والكتاب الذى نتحدث عنه — مترجمٌ بقلمه إلى العربية — مطوىٌّ بيمينه . فلم يلبث أن نشره بين يدىَّ ، وطلب إلىَّ فى حياءٍ أن أنظر فيه ، راجياً أن أجد من الوقت وفراغ البال ما يتيح لى ذلك ، ويمهد لى السبيل إلى تحقيق فصوله(١) ونقدها وشرحها فى ضوء ما قَدَّرَ — رحمه الله — أن أعرف من تاريخ هذا الوطن .

وما كان أصدقه حين أنبأنى أنه ليس بأول عربىٍّ نقل هذا التراث إلى اللغة العربية ، وإنما سبقه إلى ذلك زميل كريم هو المرحوم الدكتور «وهيب كامل» الذى مضى إلى جوار ربه بعد أن اختطفه الموت فى عمر الزهر(٢) .

ترددت يومئذٍ كثيراً ؛ لأننى كنتُ أعرف ضعفى ، ثم عُدْتُ فقبلتُ لأننى كنت أُحِبُّ صاحبى كما كنت أحبُّ الكتاب وأُقَدِّرُ صاحبه ، ولأن صاحبى لم يسع إلىَّ متطفلا ، ولا راغباً فى كسب مادى . ولستُ أذكر منذ عرفته أنه سعى متطفلا إلى أحد ؛ وإنما عرفت الناس يسعون إليه . ولا أذكر مطلقاً أنه تهافت على صدارة بالرغم من غزارة علمه واتساع معارفه ؛ إذ كان يمنعه من ذلك حياء نبيل واستعلاء كريم .

---

(١) إنها ليست فصولا بالمعنى المعروف ولكنها أحاديث . وإنما أسميناها كذلك فى الشرح والتعليق تيسيراً على القارىء .

(٢) أنظر : كتابه « هيرودوت » فى مصر (دار المعارف سنة ١٩٤٦) .

نعم ، هكذا والله كان صديقي وولدى « محمد صقر خفاجة » ، وهكذا عرفته وقدرته ، ثم ألفته فأحببت عشرته ، ونعمت بها أياما قصاراً كانت فى حياتى كأنضر أيَّام الربيع .

يرحمك الله يا بنىَّ الصديق ؛ لقد كنت فى حياتى كنجم شاء الله ألاَّ يُطْلِعَهَ إلا بقدر امتداد النظر إليه ، وارتداد الطرف عنه . نجم ما كاد يطلع حتى أفل . فكانت فجيعتى فيك عظيمة .

أى بنىَّ وصديقى .

عرفتك مثالياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، توَّاق النفس إلى أعلى مثال من الكمال ؛ ترى بينك وبين الكمال شقة واسعة تشعرك دائماً بقصورك وعجزك ، فاسأل الله العون والعزاء لصديقك الشيخ الذى يعلم من كفايتك وباهر مواهبك ما لا يعلمه الكثيرون .

وإذا كان الموت قد فجعه فيك ؛ فإنه ظل وفياً بعهدك ، أميناً على تراثك ، قرأ الترجمة التى خَطَطْتَها بيمينك مرة ومرات ، وقرأ غيرها أكثر من مرة . ثمَّ رأى أنه لاينبغى لمثله أن يغيِّر فى الترجمة أو يبدِّل ، وإنما سعى ماقَدَرَعلى السعى ، وبذل ما وسعه البذل ؛ فحقق ونقد وشرح فى ضوء ما قَدَّر أنه يعرف من تاريخ هذا الوطن ، ثم رأى أن يَطْمَئِنَّ إلى نتيجة ذلك ؛ فقصد إلى رحاب أستاذه وأستاذك « طه حسين » غير مرة ، وقرأ عليه ما سطَّر فى مقدمة الكتاب ، وما رأى فى بعض فصوله ، كما سعى إلى أستاذه « شارل كونتز » فقرأ عليه الكتاب كله ليطمئن قلبه ؛ كل ذلك قبل أن يسعى بالكتاب إلى المطبعة .

فإلى هذين الصديقين الكريمين ، وإليك أيها الإبن البار العالم المتواضع أتقدم بأصدق الشكر وأجمله وأوفاه ، راجياً أن يجد القراء فى تراثك هذا أكثر ما كانوا يبتغون من علم ومعرفة وثقافة .

وعلى الله قصد السبيل

أحمد بدوى

أبو التاريخ « هردوت »

« ملأ الدنيا وشغل الناس » !

فأما أنه « أبو التاريخ » (أى إمام كتّاب التاريخ) ؛ فذلك رأى رآه الناس منذ نظروا فى تراثه وقلّبوا فيه . ولا حيلة لنا فيما رأى الناس أو اصطلحوا عليه . وتلك كنية لم تعرف لواحد من قبله ولا من بعده . وستظل له ما بقى التاريخ وبقى فى الدنيا من يقرأ التاريخَ أو يكتبُ فيه .

وأما أنه « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فذلك رأى — إن رأيتُه اليوم فيه ، وصفة إن استعرتها اليوم له — فما أحسبنى قد ظلمت «المتنبىّ» أو تجنّيتُ عليه. فالمتنبى شاعر فحل وقادر فذّ ؛ لا خلاف فى ذلك ولا جدال فيه . إلا أنه — مهما تكن فحولته بين شعراء العرب ؛ بل مهما تكن قيمته بين شعراء الدنيا ، ومهما يكن له من بعد الصيت واتساع الشهرة بين أجيال الشعراء وطبقاتهم — لا يمكن أن يبلغ من القيمة فى تاريخ الإنسانية ما بلغ « هردوت » ؛ ذلك لأن أثر «المتنبى» لا يكاد يهز غير قرائه من العرب ، ولا يكاد يجاوز البيئة العربية.

فأما تراث « هردوت » فلم يكن — ولن يكون — ملكاً لشعب من الشعوب ، وإنما هو مشاع مشترك بين شعوب الدنيا فى الشرق والغرب .

فإذا قلت إن « هردوت » قد « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فما أحسبنى شططت ، ولا جاوزتُ الصواب ؛ فما أكثر ما ردّدت الأيّام اسم «هردوت» ، وما أكثر ما سترَدّدُه ، وما أكثر ما نظر الناس فى تراثه وما سينظرون ،

وما أكثر ما كتبوا عنه ، وماسيكتبون(١) ، وما أكثر ما جادلوا

---

(١) بدأ الاهتمام بتراث هردوت ، وبخاصة كتابه الثانى ، بعد ذلك الكشف الخطير الذى لفت أنظار الدنيا بين أيدى رجال الحملة الفرنسية ، وأعنى تلك الوثيقة التى يسمونها « حجر رشيد » والتى عُدَّتْ بحق مفتاح الدراسات الفرعونية .

كان الذين ينظرون فى دراسة هذه الوثيقة يعرفون كتاب هردوت المشار إليه وجزءاً من كتابه الثالث ، ويعرفون فضلا عن ذلك بحثين : أحدهما ذلك الذى أخرجه المواطن المصرى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس وأعنى « Horapollon » انظر : (Hori Apollinis، Hieroglyphica ed. Francesco Sbordone,Napoli,1940) وحاول فيه تفسير الأشارات الهيروغليفية .

وثانيهما ذلك الكتاب الذى أخرجه أحد الآباء اليسوعيين ويدعى « Athanasius Kircher » وأسماه Sphinx mystagoga 1676 انظر : (Erman, Entzifferungen der Hierogl. Sitz.-Bericht. Berl. Akad. 1922) . نعم كان هذان البحثان ومن قبلهما كتاب هردوت الثانى وجزء من الثالث من البحوث المعروفة لدى المعنيِّين من رجال الحملة الفرنسية ومن اهتم بعدهم بدراسة « حجر رشيد » . وقبل أيام الحملة لم يكن من السهل على المعنيين بتلك الدراسات أن يزوروا آثار مصر . لا نكاد نذكر منهم غير مستشرق دينماركى يدعى Niebuhr الذى استطاع زيارة مصر فى عام ١٧٦١ انظر :
(Erman, Die Welt am Nil, (Leipzig 1936) S. 11)

ولا يفوتنا أن نذكر أن أول العلماء المحدثين الذين اهتموا بدراسة كتاب هردوت عن مصر وتدريسه للطلاَّب فى جامعة Thuering قد كان العالم الألمانى Friedrich Andria Stroth ، وكان ذلك فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر . إلا أن جهود هذا الأخير لم يُنظَرْ فيها إلا بعد ظهور « شامبليون » ومن جاء بعده من العلماء أمثال Lepsius ، Brugsch ، ثم Erman . وتتابعت دراسات المؤرخين الذين نظروا فى هذا الكتاب ، وكان أول بحث صدر فى ضوء التراث الفرعونى ، هو ذلك البحث الذى أخرجه المؤرخ الألمانى Alfred Wiedemann انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch mit sachlichen Erlaeuterungen Leipzig 1890) . والذى يقرأ هذا البحث ، يشعر فى سهولة ويسر أن كاتبه شديد الميل إلى عدم تصديق هردوت فى كثير مما روى عن مصر والمصريين .

فيه ، واختلفوا فى أمره . وما أظن أن جدلهم فيه واختلافهم فى الحكم على تراثه قد انتهى ؛ بل ما أظن أنهم سوف ينتهون من ذلك فى وقت قريب .

إن الناس ما زالوا فى شأنه فريقين : فريقٌ له وفريقٌ عليه(١) .

على أن اختلافهم هذا ، لم يغضَّ مطلقاً من شهرته ، ولم يُنقِصْ ولن ينقص أبداً من قدره ؛ فهو بين الناس دائماً « أبو التاريخ » ؛ وبين المؤرخين إمام خالد ، ومثلٌ غيرُ مسبوق .

---

(١) من الذين انصفوا هردوت :

(١) العالم الألمانى G. Mueller فى بحث قام به عام ١٩٢٠ ثم توفى عنه ، ويعده الآن للنشر عالم ألمانى شاب اسمه Luddeckens .

(٢) العالم الألمانى W.Spiegelberg (أنظر : Spiegelberg, Die Glaubwuerdigkeit von Herodots Bericht ueber Aegypten)

(٣) وأخيراً العالم البلجيكى De Meulenaere فى بحثه الذى نشره عام ١٩٥١ انظر : (De Meulenaere, Herodotus over de 26ste Dyn. Leuven 1951)

ومن الذين أثاروا الشك فيما كتب ، فقسوا عليه وغضوا من أمانته :

(١) العالم الألمانى « Wiedemann » الذى تقدم ذكره .

(٢) العالم البريطانى « Sayce » فى كتابه « امبراطوريات الشرق القديمة » الذى صدر فى لندن عام ١٨٨٣ .

(٣) « Heidel » انظر : (William Arthur Heidel, Hecataeus & the egyptian priests in H. Book II (Memoirs of the American Academy of Arts & Sciences Vol. XVIII, part 2, (Boston 1935, p. 113 ff.)

(٤) وأخيراً العالم السويدى « Saeve — Soederberg » .

انظر : (Soederberg, Zu den Aethiopischen Episoden bei Herodot, in Eranos 44, (1946) S. 68 — 80)

والعجيب من أمر ذلك الذى ملأ الدنيا بحق ، وشغل الناس بحق ، أنه لم يملأها بغير تراثه العقلىّ العظيم ، ولم يشغل الناسَ بغير ذلك التراث . ولا أدلَّ على ذلك من أن حياته الخاصة ما زالت مجهولة لا نكادُ نَعْرِفُ عنها غير القليل .

اسمه ونسبه

فإذا ما عرضنا لحياته العامة ، ذكرنا اسمه « هردوت » « Ἡρόδοτος ».
وهو فى الغالب من الأسماء المركبة ؛ فهو مركب من صدر وعجز ، صدرهُ «هيرا» معبودة الأغريق المعروفة ، وعجزهُ «دوت» أو « دوتا » من مادة فعل « أهدى » أو « أعطى » ؛ فإذا الاسم من بعد ذلك يساوى عندنا « هديّة هيرا » أو « عطاء هيرا » ، مثله فى ذلك مثل « عطاء الله » فى اللغة العربية . واسم أبيه « Λύξος » ، واسم أمه « Δρυώ » .

مولده ونشأته

وُلِدَ «هردوت» فى « هاليكارناسوس » من مدائن الرُّكن الجنوبى الغربى من آسية الصغرى(١) . ويختلف الباحثون فى تحديد تاريخ مولده ؛ فمنهم من يجعله حوالى عام ٤٨٩ ق . م ، ومنهم من يجعله بعد ذلك بخمسة أعوام . إلَّا أنهم يتفقون آخر الأمر على أنه لم يكن مجهولَ النَّسب . وهو نفسه يكاد يشير إلى هذا فى تواضع ومن طرف خفىٍّ ؛ وذلك حين يتحدث فى الفصل الثالث والأربعين بعد المئة من كتابه الثانى فى معرض الكلام عن نسب سلفه « هيكاتيه الملطى » .

---

(١) اسمها الحديث « Budrun » ، وموقعها فى إقليم « كاريا »

كانت أسرة « هردوت » معروفةً ، موسرةً غيرَ مُعسِرة ، مؤثِّرةً في توجيه السياسة التي كانت تهدف يومئذ إلى الحرِّية والخلاص من ظلم الطغاة .

فهذا عم له أو خال يدعى «پانياس» ، كان من الشعراء المعروفين المجيدين كما كان زعيم الحركة القوميَّة التي هبَّت ثورتها لتحرير وطنه من حكم الطاغية « لجداموس الثاني » . وما نحسب أن ذلك كله قد وقع دون أن يؤثِّر في حياة « هردوت » ؛ فهو قد نشأ إذن في بيئة حبَّبَتْ إليه الثَّقافة والمعرفة ، ورغَّبته في الاستزادة منهما ؛ فأكب صبيًا على قراءة الأدب عامة ، وقراءة ما كان منه شعراً بخاصة .

وما من شك في أن أسرة هردوت الفتى — بمشاركتها في أحداث السياسة — قد تعرّضت لألوان من المحن التي أثَّرت في حياته ؛ وقد كان مشاركا فيها ولمَّا يبلغ العشرين من سِنِيها ؛ فآثر الهجرة يَنْشُد الحرية ويسعى في سبيل الوصول إليها .

ويكاد من يقرأ تراثه يتبيَّنُ فيه ميلَه إلى الديموقراطية بمعناها المعروف يومئذ ، وبغضَه للطغيان وأهله .

هاجر الفتى إلى « ساموس » وهي يومئذ عامرةٌ بالصناعة ، مزدهرةٌ بالتجارة ، غنية واسعة الغنى ، كما كانت فضلاً عن ذلك كله مركزاً للثقافة أيام « Πολυκράτης » ، وكانت — حين وصل إليها هردوت — قد فازت باسترداد حريتها ؛ فأقام فيها حتى هيأت له الظروف أن يبدأ أسفاره التي أتاحت له أن يسمعَ ويرى ويسألَ ويناقشَ ويفكِّرَ ويُفيدَ من كل ذلك ، ثم يعودَ آخر الأمر فَيسجِّلَ ذلك السِّفرَ الضخمَ الذي ضَمِنَ لاسمه الخلود في دنيا المؤرخين على الأقل .

وليس من المؤكد ما يراه بعض المؤرخين من أن « هردوت » قد عاد إلى وطنه ليشارك فى أحداث السياسة مرةً أخرى ؛ بل أكبر الظن أنه بقى فى « ساموس » حتى بدأ رحلاته . وليس من المؤكَّد كذلك أنه تعرَّض للاضطهاد فاضطر إلى رحلاته تلك ؛ ذلك لأن فكرةَ السفر والتنقُّل فى أقطار الأرض لم تكن يومئذ ، ولا قبلئذ ، بالشيء الجديد على الأغريق . ولم يكن « هردوت » أسبق الرحَّالين ؛ فقد سبقه فى هذا المضمار كثيرون يكفى أن نذكر منهم على سبيل المثال « هكاتيه الملطى » .

فأسفار « هردوت » إذن لم تجيء عفواً ، ولا هرباً من ظلم ، أو ضيقاً بعيش ؛ وإنما جاءت بعد تفكير وتدبير . وأحسب أنه كان مُعَدًّا لها إعداداً قويًّا ؛ كان معدًّا بحكم ثقافته الواسعة ومعرفته الغنيَّة ، ثم بشدةِ ميل معاصريه وألوان اتجاههم الفكريِّ يومئذ . وَأَحْسَبُ كذلك أنه زوَّد نفسه لأسفاره تلك ؛ مقدِّرا ما قد يلقى فيها من مشقة وعسر ، وأنه استطاع — بعزيمته ، وقوة إرادته ، واستعداده الذهنى ، وثقته بنفسه ، وإيمانه بما تفيد أمته من نتائج أسفاره — أن يردَّ عن نفسه المخاوف ، ويهوِّنَ عليها الصعاب ، ويذللَ أمامها العقبات . وقد تم له كلُّ ذلك فُوفِّق فى أكثر ما طلب .

وحين أحسَّ « هردوت » بضخامة ما اجتمع بين يديه من تراث ، عكف على التدوين ، واستطاع أن يترك للأجيال تراثاً — مهما يختلف الناس فى الحكم عليه — يعدُّ وَحْدة متَّصلة وبناء قوياً لم يهدمه الزمن ؛ وإنما بقى ثابتا كالطود الشامخ الأشم لا يتزعزع . ثم هو موردٌ عذب لم ينصرف عنه — رغم طول الزمن — واردٌ إلى يومنا هذا . وأحسب أنه سيظل كذلك دهرا طويلاً .

سمَّى «هردوت» كتابه « Ἱστορίης ἀπόδειξις » «تمحيص الأخبار»

فكلمة « Ἱστορίη » اليونانية و« HISTORIA » اللاتينية معناها « الفحص » أو « البحث » ؛ فكأنّ المعنى إذن ينصبُّ على خاصّتين من خواص الفكر الإغريقي فى ذلك الوقت وهما :

الرؤية (= المشاهدة) ، ثم التساؤل (= الاستفهام) .

وهاتان خاصّتان من الخصائص المميِّزة للروح اليونانى منذ أيام القرنين السابع والسادس قبل ميلاد المسيح ؛ ونعنى ذلك الروح الذى أخذ يُحرِّك الفكر عند اليونان ، ويوجِّهُ نحو أوطان الحضارات القديمة ؛ فنراهم يتجهون إلى أقاليم آسية ، ويركبون البحر إلى شمال إفريقية ؛ فينتشرون فى مختلِف بقاع الأرض بهاتين القارتين ؛ يصفون طبيعتها ، ويتحدثون عن مزاياها ، وعن كنوزها وأرزاقها ، ويتحسَّسون من أُممها وشعوبِها وقبائلها ؛ محاولين فهم طباعِهم ، وأهوائهم ، وأصولِ عقائدهم . وكانوا فى كل أولئك يتصيَّدون ، ويدوِّنون ، ويقيِّدون ؛ ملتمسين ما يؤمنون أنه يُشبع رغبتَهم فى العلم ، ويرضى فى نفوسهم حاجتهم الملِحَّة إلى المعرفة ، محيطين صُوَرَ كلِّ أولئك بإطار يُوشِّيه الخيال . فإذا ما عادوا إلى وطنهم أفرغوا عيابَهم الثقيلة ، وجعابَهم المْترعة بين أيدى قومِهم ، ثم عرضوها فى معرض شائق يثير الإعجاب ، ويَبْهر الأبصار ؛ ثم يهزُّ النفوس فيحركها إلى تلك البقاع الغنيَّة بأرزاقها وحضاراتها ، وعلومها ، ومعارفها ، وطرافةِ ما يمارس أهلُها من ألوان الحياة ، وغرائب التقاليد .

مثل هذا النحو الذى يهدف إلى جمع ذلك المزيج المختلط من ألوان المعرفة من جغرافىٍّ ، وتاريخىٍّ ، ودينىٍّ ، وقصصىٍّ ، هو نحْوٌ يونانى أصيل ؛ نحاه أصحابه مفترضين ثم داروا به حول محور وطنىٍّ واضح ؛ ونعنى تاريخ الحروب

وحوادثها ، الحروب والوقائع والحوادث التى أجرتها الظروف بين آسية وبلاد اليونان ، وشقى اليونان بأحداثها وعواقبها ، وصمدوا لشدتها ، وصبروا على أذاها حتى خرجوا منها آخر الأمر بعافية مهما يكن من أمر فإن . ذلك النحو الذى قدمنا فى إيجاز وجيز ، هو باكورة التاريخ المكتوب على كل حال .

وواضح من تاريخ « هردوت » أنه زار كثيراً من أقاليم الدنيا فى آسية وإفريقية — وهما أقدم قارتين ؛ بل أقدم وطنين من أوطان الحضارات الإنسانية — ثم فى أوربة أيضاً . ولكن مسيرته فى أسفاره تلك غير واضحة المنهج . وليس من السهل علينا أن نرتب أسفاره ترتيباً تتابعيًّا .

وكل ما نعرف ، أن «هردوت» حين انتهى من أسفاره توجه تلقاء THURII إحدى المدائن الواقعة فى الجنوب من إيطاليا ، وكان ذلك حوالى عام ٤٤٤ قبل مولد المسيح . وأقام هناك حتى أدركه الموت ؛ فودع دنياه حوالى عام ٤٢٥ ق.م . وَدُفِنَ فى سوق المدينة (١) . ولشدة حبه تلك المدينة ، وتعلقه بها ، وطول إقامته فيها ، ثم لموتِهِ آخر الأمر بها ، نسبه بعض المؤرخين إليها فأسموه أحيانا «هردوت التُّورى» . وفى تلك المدينة عكف «هردوت» على كتابة سفره الضخم ، إلاَّ أن الموت أدركه قبل أن يتمه . والكتاب فى صورته التى نعرفها من حيث وضعه فى أجزاء تسعة ، من عمل النحويين السكندريين ؛ كل جزء منها لإحدى

---

(١) الواقع أن المؤرخين لا يعرفون كيف يحددون تاريخ وفاته تحديدا مضبوطا ، ولكنهم يستنتجونه استنتاجا ، ويقربونه تقريباً ؛ فيجعلونه فى أواخر الربع الأخير من القرن الخامس ق . م .

عرائس العلوم والفنون من بنات « زيوس » التسع . فأما « هردوت » فقد كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه لا يسميها بغير عبارات عامة كالأحاديث الليبية ، أو الروايات الآشورية . . . الخ وهلم جرا .

والكتاب فى جملته وَوَحدته إنما يدور — كما قدَّمنا — حول محور واحد وهو تاريخ الحروب والوقائع التى جرت بين قومه الهلِّينيِّين الأوربيِّين وبين أعدائهم من الفرس الأسيويِّين .

وقوم « هردوت » فى نظره أبطال أمجاد نبلاء ، استطاعوا — على قلة عددهم ، وبفضل شجاعتهم ، ونبل مشاعرهم ، وحميد سلوكهم ، وتأييد أربابهم — أن يُنَجُّوا أوطانهم من هوان الاستعباد ومَذَلّة الرِّق(١) .

وكتاب « هردوت » لم يوضع عفواً ، ولا ارتجالا ، وإنما فيه مقصدٌ واضح ، جعل له وَحدةً ظاهرة ، هى أنه أوردَ قومه الأغريق أعمق وأعذبَ معين يرتشفون منه ما يروى غُلَّتَهم من مختلف ألوان المعرفة التى ترضيهم من وصف أوطان الأرض ، وخصائص الشعوب التى تسكنها برغم ما فيه من تلك الصور التى حشاها بين صحائفه من ملاحم الأبطال ، والاستطراد فى سرد الحوادث ، ثم من تلك الأوصاف الجغرافية والصور التاريخية والقصصية(٢) .

وليس من شك — كما قدمنا — فى أن النحو الذى نحاه «هردوت» فى وضع كتابه هذا نحوٌ قديم ، وأنه لم يكن وقفاً عليه ، وإنما ألفَه قومُه من قبل ، واتّبعه أمثاله ممن جاءوا بعده .

---

(١) انظر (Heubeck, Das Nationalbewusstsein des H. 1936.)

(٢) انظر الكتاب الأول (فصل ١٨٦) والكتاب الرابع (فصل ١٩) من كتب هردوت .

وظاهر فى تراث «هردوت»، أن معارفه وثقافته الإغريقية قد لوَّنت أسلوبه فى وضع كتابه بلون خاص ؛ فهو متأثر أشد التأثر بشعر الملاحم «ملاحم الأبطال» ؛ ذلك الشعر الذى شاع بين القرنين الثالث عشر والحادى عشر قبل مولد المسيح. ثم هو متأثر أشد التأثر بفن القصص المنثور الذى حلَّ محلَّ القصص المنظوم فى بلاد اليونان أيام القرنين الثامن والسابع قبل مولد المسيح. وهو متأثرٌ آخر الأمر بمذهب السوفسطائيين وحركتهم التى عمَّت بلاد اليونان أيام القرن الخامس قبل مولد المسيح ؛ ونعنى تلك الحركة التى قيل إنها أيقظت الناس من سبات الفكر، والرُّكون إلى التقاليد المألوفة، والعادات الجارية، والتى أيقظت فى نفوسهم الشك النَّظرىّ والشك العملى ؛ كما أدَّتْ لديهم إلى خلق ملكةٍ أدبيَّة وذوقٍ فى النقد لم يكن للناس بهما عهد من قبل.

ولكن هذه الحركة — على الرغم من الوصف الذى قدمنا — قد «جَرَّت أنصارها إلى المتاجرة بالعلم ؛ فقلَّت مبالاتُهم بالحقائق، وباعدت بينهم وبين روح البحث النزيه المقرون بالأمانة، المبرأ من الغرض والهوى، كما أضعفت فيهم روح الصبر على تحرِّى الحقائق المجرَّدة. ثم هى بعد هذا كله قد جَرتْ بهم وراء شقشقة اللسان ؛ بحيث ضعفت لديهم العناية بالإقناع ؛ فباتوا منصرفين عن المعرفة الأمينة، والبحث عن الحقيقة، كما مالت بهم إلى المظهر ؛ فأصبحوا مشغوفين بالأثر الخارجى، كلفين بالمنافع العاجلة» (١).

---

(١) أدين بما أعرف عن هذا المذهب لزميلى وصديقى الدكتور «عثمان أمين» رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، كما وصفه فى كتابه المُمْتِع «شخصيات ومذاهب فلسفية».

ترى هل نستطيع بعد هذا أن نعفى « هردوت » من آثار ذلك ؟

فى رأينا أن الحكم على ذلك لن يصح إلا إذا استعرضنا كتبه التسعة وقلّبْنا فيها . وما نظن أن ذلك ممكن فى هذه المقدِّمة التى قُصد بها إلى النظر فى واحد من تلك الكتب ؛ ونعنى « كتابه الثانى » الذى حدَّثنا فيه عن رحلته إلى مصر .

ثم إن تراث «هردوت» ؛ونعنى كتابَه كلَّه ، قدظلَّ دهراً موضع جدل طويل ؛ شغل النقّادَ من القدماء والمحدثين ، فتجادلوا فى الغرض منه وتساءلوا ؛ أأراد به صاحبه أن يكون مدوَّنة لتاريخ من عرف من شعوب الدنيا ، أم قصد به إلى أن يكون سجلاً لبعض الحوادث والأوصاف العامة التى رأى أنها تُرضى حاجةَ المشغوفين من قومه بالمعرفة ؟

لم يفت النقّاد بحث المراجع التى اعتمد عليها « هردوت » واستمد منها معارفه ، وتشكك بعضهم فى قيمة عمله ؛ بل إن منهم من اتهمه صراحة بالسرقة والانتحال والكذب ، وعلى رأس الذين اتهموه من القدماء « پلوتارخ » الذى رماه بالخبث[1] ، ثم THUCYDIDES . ومن المحدثين الناقد البريطانى SAYCE فى كتابه الذى أخرجه عام ١٨٨٣ بعنوان « إمبراطوريّات الشرق القديم » وحاول فيه أن يُثبتَ جهل « هردوت » وعجزَه عن إدراك الحقائق ، كما اتهمه بأنه كان ينقل عمن سبقوه دون الإشارة إليهم[2] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، مكَّن الزمن لهردوت أن يكسَب فى عالم المؤرخين كثيرين من الأنصار والمعجبين والمريدين ، والمقلِّدين أيضاً .

---

(١) إن لپلوتارخ فى هذا مقالاً خصصه للتدليل على خبث هردوت .

(٢) انظر ماسبق من حديث عمن كانوا له وعمّن كانوا عليه (ص ١١ هامش رقم ١)

واستحق كتابُه أن يكون كتاب الدهر الخالد الذى لا يهرم ولا يشيخ .

وقد يكون من الخير فى هذه العجالة أن نكتفى الآن بنظرة سريعة فى أقرب كتبه إلينا ، وأثرِها عندنا ؛ ونعنى « كتابه الثانى » الذى اختصَّ به وطنَنَا المصرىَّ الحبيب وشعبنا العظيم البنَّاء .

وهو كتاب لا يفوت من يقرؤه — على مكث — أمران :

الأول : أن « هردوت » لم يترك فرصة تمر — وهو يعرض ما سمع ورأى فى هذا الوطن — دون أن يُعبِّر عن إعجابه الشديدِ بالمصريين ، ودونَ أن يُشيد بتفوقهم وعظمتهم وسبقِهم فى ميادين العلوم والمعارف . ثم هو يمتدح فضائلهم ، ويستريح إلى تقواهم ، ونزاهتِهم ، ويُثبتُ لهم الفضلَ فى الكشف عن كثيرٍ من العلوم والمعارف التى أفادت منها الإنسانية عامة ، وأفاد منها قومهُ الإغريقُ خاصة . وربما كان ذلك مما أسخط عليه « پلوتارخ » فاتهمه بأنه صديق للبرابرة(١) .

والأمر الثانى : الذى يَلفتُ نظر من يقرأ الكتاب ، هو الحذر الشديد ، والحيطة البالغة عند الكلام عن دين المصريين . وحَسْبُنا أن المؤلف قد ذكر فى صراحةٍ أنه لا يتكلم عن الدين إلا إذا اضُطر إلى ذلك اضطرارا (٢) .

أيكون مصدر حذره احترامَه البالغَ للأديان ؟ أم هى لباقة الرجل حين أحس أن الكلام عن الدين قد يؤذى عواطف المصرِّيين وينفِّرهم منه ؟

أكاد أشعر أن سبب الحذر والحرص قد كان شيئاً مرجعه إلى الجهل بأمور الدين ، وأن الرجل أراد بسلوكه هذا أن يُخفى جَهْلَه ؛ فإقامته القصيرة

---

(١) انظر : ص ١٩

(٢) انظر الفصول (٣ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٥) من كتابه الثانى

فى مصر ما كانت لتتيح له — ولو طالت — أن يُدْرِكَ من أمور هذا الدين القديم العتيقِ المعقد كثيراً ولا قليلاً (١).

وإنا لنعجب أشدَّ العجب — ولا ندرى كيف نستطيع تصديقَه حين يزعم فى الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب — أن كلَّ ما ورد فيه إنما هو نتيجةُ ملاحظاته الشخصية، ومشاهداتِه، وبحوثِه الخاصة. مع أن إقامتَه فى مصر لم تجاوز فى الغالب أربعة أشهر (٢).

افتتح هردوت كتابَه عن مصر بجملة « قمبيز » عليها، ثم خلُص من ذلك — مستطرداً — إلى الحديث عن طبيعة أرض مصر؛ فتحدَّث عن مائها، وهوائها، ثم تحدَّث عن أصل سكانها وتقاليدهم، وعن طعامِهم وشرابِهم ولباسِهم، ثم عن حيوانهم أيضاً. وأضاف إلى كل ذلك ما زعم أنه رأى وسمع ولاحظ فى البلاد أثناء إقامته فيها.

ويُعدُّ كتابه هذا ملحمةً طريفةً مختلفة الألوان؛ جمَّع عناصر نسجها من كل ما زعم أنه رأى وسمع، ثم حشا بين طيَّاتها ألواناً مختلفة من معارفه اليونانية، ووشَّى إطار صورها بكثير مما سمع من الشعب عن حياة السلف من ملوك مصر وحكامها.

---

(١) وعلى الرغم من كل ذلك، لا يجد أكثر علماء الدراسات المصرية مناصاً من تصديق « هردوت » فى أكثر ماروى عن الشعائر الدينية.

(انظر: Erman, Relig. d. Aeg. S. 331 ff.)

(٢) يكاد المؤرخون المحدثون وفى مقدمتهم Ed.Meyer — يتفقون على أن الزيارة وقعت حوالى عام ٤٤٠ ق. م، وعلى أنها كانت فى أيام الفيضان.

(انظر: Ed.Meyer, Forschungen zur alten Gesch.I, (1892)S.156

ثم Sourdille, C. La durée et l'étendue du Voyage d'Hérodote en Egypte, Paris 1910)

لقد كانت مصر يومئذ وقبلئذ مطمحَ أنظارِ الإغريق ؛ يرونها من أغنى موارد الرِّزق ومهدا لأعرق الحضارات ، وَيمدُّون أنفسهم إليها مدًّا قوياً .

وظاهر من أحاديث « هردوت » أنه بذل غاية الجهد فى أن يحمل إلى قومه صورةً صادقةً من طبيعة هذه الأرض ومعالمها ، ومشاهدِها ، وأوصافِها ، وطباعِ سكّانها ، وعاداتهم ، وتقاليدِهم ، وخصائصِهم ، وسِيَرِ حكّامهم ؛ نعم فعل ذلك ليرضى فى قومه حاجة مُلحَّةً إلى العلم والمعرفة .

ثم هو قد ذكر فى مطلع كتابه أن حديثه عن مصر سيطول ؛ نظرا لكثرة ما تحمل أرضُها من عجائب المخلوقات ، ومن البدائع والروائع فى سائر الفنون والصناعات . وكان « هيكاتيه الملطى » قد سبقه إلى زيارة هذه الأرض وحمل إلى قومه كلاماً لم يرض «هردوت» عن أكثره كما أشار فى مواضع مختلفة(١). فرأى أن من واجبه أن يتحرَّى الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليعوِّضَ قومَه ما فوَّته عليهم سلفُه « هيكاتيه » .

ويتشكك بعض النقاد فيما روى «هردوت» . بل إن منهم من استطاع أن يثبت سطوه على تراث السلف من الكتّاب(٢) . كل ذلك يحملنا اليوم على اتهام « هردوت » فى أمانته(٣) ، وسوء الظن فى قصده ، والشك فى أمره .

---

(١) انظر : الفصول ، ٢١، ٦٨، ٧١، ٧٧، ١٤٣ ، ثم ١٥٦ من الكتاب الثانى

(٢) (انظر : Jacoby, Hekataios (Pauly - Wissowa, Sp. 2675 ff.)

(٣) ليس بين المؤرخين والكتّاب فى كافة ألوان العلوم والفنون والمعرفة من لم ينتفع بعلم من تقدموه فى البحث ، ولا ضير مطلقا على من يقتبس من جهود من تقدموه بشرط ان يكون أمينا فى الاقتباس ، بل أمينا فى النَّقل ؛ بحيث ينسبُ الفضل إلى أهله .

ولا بأس علينا فى أن نشك — على ضوء ما نعرف من حال مصر يومئذ، وتَطَلُّع الإغريق إليها — فى أن كتابَه هذا قد كان تذكرةً لقومه، وإغراءً لهم بالتطلع إلى هذا الوطن المصرىِّ الغنىِّ المُترف، وإرهاصاً بمشيئةِ القدر السياسى الذى قد يحقِّق للإغريق بعد ذلك ما كانت تنطوى عليه صدورهم من الطمع فى كنوز هذا الوطن، والتمتع بخيره الذى صوَّره لهم «هردوت» جَنِيًّا سهلَ المنال(١).

يضم كتابُ «هردوت» عن مصر بابين عظيمين؛ يتناول أولُهما الحديثَ عن أرض مصر وطبيعتها الغنِيَّة السمحة، وخصائصِ شعبها؛ مدَّعياً أنه اعتمد فى ذلك على مشاهداته وآرائه الخاصة. ويتناول الثـانى الحديثَ عن تاريخ من اشتهروا من فراعين الوادى وأعمالهم؛ زاعمـا أنه اعتمد فى ذلك على رواية الثقات من كهَّان البلاد؛ وهم يومئذ وقبلئذ أهلُ العلم والمعرفةِ وأصحاب الثقافة الواسعة والغنية المترفة فى آن معا(٢).

أطال «هردوت» وأسهب واستطرد حين تحدث فى الباب الأول عن أرض مصر، وتـكوينها الطبيعى وحدودها(٣)، ثم عن النيل وما راعه من طبيعته وأثرِه فى تـكوين هذه الأرض وتلوينها، وتشكيل طبيعتها، وتـكييفِ حياةِ أهلها، وعن فضل هذا النهر عليهم، ثم عن عقيدتهم فيه. ثم تحدث عن فيضانه السنوى وروعتِه، وعن منابعِه ومصبَّاته، ثم عن فروعه أيضاً.

---

(١) الله يشهد أن الشك لم يثر فى نفسى بالنسبة لهردوت وحده، ولـكن بالنسبة لـكثيرين غيره، وقد يكون سببُ ذلك هو طول النظر فى تاريخ وطنى الطويل، وما عانى أسلافنا وعانينا نحن من غدر المستعمرين قديماً وحديثاً.

(٢) انظر: Heidel, Hecataeus & the Eg. priestes in H.Book II p. 53 — 134

(٣) انظر: الفصول: ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ثم ١٨ من كتابه الثانى.

وتحدث عن أوجهِ الشبه أو الخلاف بين طبيعة ذلك النهر وطبيعةِ الأنهار في بلاد الإغريق(١) . ثم عاد ففصَّل الحديث عن تقاليدِ النـاس وعاداتهم وبعضِ عقائدهم ، وبخاصة ما اتصل منها بالموت ؛ كطرق التحنيط والدَّفن وكل ما يتصل بذلك من شعائر . ولم ينس في كل أولئك أن يتحدث عن تقدمهم في العلوم التي بزُّوا بها شعوبَ الدنيـا ، ودُورِ عبادتهم وما ضمَّت عمائرُها الرائعـة من قصورٍ ومسلاتٍ ، ومن تماثيلَ وصور ومحاريب ، ومن كنوزٍ رائعة . وتحدث عن الأهرام ، وعن قصر التِّيه « اللاَّبيرنت » ، وعن القناة التي تصل ما بين النيل والبحر الأحمر ، وعن بحيرة « موريس » وعظمتِها ، وعن قيمتِها وأثرِها في حياة البلاد الزراعية والاقتصادية .

كل أولئك أشياء وصفها « هردوت » . وليس من الإنصافِ أن نُنْـكر عليه فضلَه في ذلك . جزاه الله — برغم كل شيء ، وبرغم كل ظنٍّ — عن هذا الوطن وشعبهِ خيرا .

كيف تمت رحلته إلى مصر

الغالب أن يكون الرجل قد ركب إلى مصر إحدى سفائن التِّجارة الإغريقيةِ التي حملته إلى « نوكراتيس » ؛ وكانت يومئذ مركزاً من مراكز التجارة الإغريقية الهامَّة(٢) ، ثم تولَّى عنها فزار أقاليم الدلتا ، ثم غادرها مصعداً في النهر لزيارة أقاليم الوادي ؛ فلم يزل حتى بلغ أقصى حدودِهِ الجنوبيَّة من وراء أسوان(٣).

---

(١) انظر : (فصلي ١٩ ، ٣٤ من كتابه الثاني) .

(٢) انظر : (الفصل ١٧٨ وما بعده من الكتاب الثاني) .

(٣) يرى بعض النقاد أن « هردوت » لم تمتد إقامته في مصر أرض الدلتا وواحة الفيوم . (انظر Heidel, ibd. p 55) . ولكننا لا نعتقد أن هذا الرأي يقوم على أساس قوي ؛ فمن المرجح أن « هردوت » زار صعيد الوادي ، وإن كانت إقامته فيه لم تطل .

وكان يقيس مراحل انتقاله بحساب الأيَّام[1] . كما زعم أنه لقى فى سفره هذا كثيرين من أهل البلاد ، فتحدَّث إليهم ، وسمع منهم . وتلك مسألة فيها نظر ؛ ذلك لأنه لم يكن يعرف لغتَهم[2] ، وإنما كان يستعين بالأغارقة الذين كانوا يقيمون فى مصر من ناحية ، ثم بالأدلاَّء والتراجمة الذين كانوا يلقون الغرباء ويصحبونهم فى زياراتهم مشاهد البلاد وعجائبها ومعابدها من ناحية أخرى[3] .

تاريخ الرحلة

تمّت الرحلة فى القرن الخامس قبل مولد المسيح ، ومصر يومئذ تحت حكم الفرس ، وعادات أهلها وخصائصهم وتقاليدهم ومظاهر حياتهم باقيةٌ كما كانت لم يُغَيِّر منها الاحتلال الفارسى إلا بمقدار[4] .

---

(١) انظر : حديثه عن ذلك فى الفصول (٥ ، ٨ ، ٩ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١٣١) من كتابه الثانى .

(٢) نحب أن نقرر — إنصافا للحق — أنه على الرغم من أن « هردوت » لم يكن يعرف لسان المصريين ، وعلى الرغم مما وجد فى تفكير المصريين وسائر ألوان حياتهم من غرائب ، فإن قومه الإغريق قد أفادوا من الحقائق التى وردت فى تراثه ، كما أفاد منها القراء المحدثون أيضاً .

(٣) ما أكثر ماخُدِع المؤرخون بين أيدى التراجمة كما يُخْدَعُ السائحون اليوم ، وما أكثر ما ظهرت بساطة هردوت حين صدق ما سمع منهم ؛ ومن أمثلة ذلك ماجاء فى بعض الفصول (انظر : ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٦٤) من كتابه الثانى .

(٤) بقيت عقائد المصريين وتقاليدهم كما كانت على الرغم من وجود حاكم فارسى يمثل ملك فارس ، ويجلس على عرش مصر ؛ فيدير شئون البلاد ، ويجمع خراجها ، ويبعث به إلى فارس ، ثم يجعل على حدودها وثغورها حراسا من جنود الفرس .

وليس من شك فى أن ظروف البلاد يومئذ — بحكم وقوعها تحت سلطان فارس ، وبحكم انتشار الإغريق فيها — قد مهَّدت سبيل الزيارة أمام « هردوت » ، وسهَّلت عليه أمورَ التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدِها . وبذلك استطاع الرجل أن يرى مالم يكن يُقدَّر له أن يراه فى ظروف أخرى(١). ثم هو — كما ذكر — لم يعدم الوسيلةَ إلى بلوغ الغاية فى المشاهدةِ ودِّقة الوصف والتماس حقائق الأخبار(٢).

ومن المحقق أن « هردوت » قد خُدِع فيما سَمِع من روايات الأدلاء والتراجمة(٣). وذلك أمر من شأنه أن يكون له خطرهُ العظيمُ فى تقدير ما سجَّل لنا من معارفه . غير أنه — مهما أضعف من شأنها ، أو قلَّل من قدرها — لا يمكن أن يُفقدَها كلَّ قيمتها ؛ فالرجل قد زعم غير مرة أنه لم يكن يُصدِّق كلَّ ما كان يسمع ، وإنما كان له فيما يسمع تقدير خاص .

---

(١) كانت مقدسات المصريين أسرارا لا يعرفها إلا الكهان وخاصة الخاصة منهم ؛ ومع ذلك مَكَّنَتْ الظروف « هردوت » — كما زعم — من رؤية الحيوانات المقدسة والعناية بها فى الأماكن التى كانت مخصصة لها عند دور العبادة (أنظر : فصل ٦٨ وما بعده ، ثم الفصول: ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦) من كتابه الثانى .

(٢) يذكر « هردوت » أنه لم يكن دائما يطمئن إلى آراء مُحَدِّثِيه ، وإنما كانت له آراؤه الخاصة ؛ ومن ذلك ماجاء فى حديثه عن فيضان النهر (فصل ١٩) وعن منابعه (فصل ٢٨) . « وهردوت » بزعمه هذا قد حال بيننا وبين ما كان يمكن أن يتاح لنا من التماس العذر له من الخطأ فى التقدير أو الميل عن الحق والواقع ، ثم الغض من قيمة السلف الذين انتفع بسابق علمهم ومعارفهم .

(٣) أنظر : Saeve - Soederberg, ibd. s . 69 ff, 73 f ، ثم ما قدمنا عن ذلك من حديث فى ص ٢٥ هامش (رقم ٢ ، ٣) .

ومهما يكن من شيء ، فإن في كتاب « هردوت » عن مصر ما يدل على أنه بذل من الجهد في إخراجه ما يدفعنا إلى النظر فيه ؛ بل من الحق علينا أن نفعلَ ؛ ولكن في كثيرٍ من الحيطةِ والحذرِ والشكِ ، والحرصِ على تحرى الحقيقة المجردة في غير تعصبٍ أو تجنٍّ أو قسوةٍ في نقد .

فليكن « هردوت » إذن صادقاً في وصف كل ما زعم أنه شَهِدَ ورأى وسمع ، وليكن صادقاً أيضاً حين يزعم أن أكثر أخباره التاريخية مأخوذة عن الثقات من كهّان البلاد وأصحاب الثقافة فيها . ولن نتردد مطلقا في تصديقه مادامت أقواله ورواياته تلائم الواقعَ الثابتَ من آثار المصريين أنفسهم ، ثم ما حققه الكُتّاب والمؤرخون في ضوئها من ناحية ، وما دامت تتفق وواقعَ الظروف والأحوال السياسية والدينية التي كانت تسود مصر يومئذ من ناحية أخرى .

نعم . ليس من السهل علينا أن نمضي في تصديق «هردوت» دون أن نتصوَّر حوائل من الشك لا مناص من الوقوف عندها ومعالجةِ أسبابها المختلفة . إذ ليس من الصعب أن نفرض أن « هردوت» لم يكنْ يعرف من لغة المصريِّين كثيراً ولا قليلاً (١) . ولا نستطيع كذلك أن نُقدِّر أنَّ بين المصريين من كان يعرف لغةَ الإغريق إلا أن تكون قلةً نادرةً لن يلقاها الرجل في كل ما زار من مكان(٢) . فلم يكن هناك إذاً من سبيل إلى إدارة الحديث بين

(١) انظر الحديث عن ذلك ص ٢٥ وتعليقنا على ذلك .

(٢) جاء على لسان هردوت أن « ابسماتيك » قد عهد إلى الجالية الإغريقية في مصر بتعليم بعض الصبية الوطنيِّين اللسان الإغريقي ؛ ومن هؤلاء انحدرت السلالة التي وُجِدَتْ في زمانه من التراجمة (انظر : فصل ١٥٤) من كتابه الثاني . كما جاء على لسانه أيضا — عند الكلام عن طبقات هذا الشعب — وجود طبقة التراجمة (انظر : فصل ١٦٤) من كتابه الثاني . على أن عددهم — مهما كثر — لم يكن ينتشر في سائر الأقاليم ، فقد كانوا — أكبر الظن — يقيمون في الدلتا .

« هردوت » وبين من زعم أنه لقيهم من كهّان البلاد إلا بين يدى ترجمان[1] ، أو واحدٍ من بنى قومه يُلمُّ بشىء من لغة المصريين على الأقل . فأما التراجمة فما نذكر أن « هردوت » قد أشار إليهم إلا قليلاً [2] .

وأما الإغريق الذين لا نشكُّ فى أنه قد استعان بهم ؛ فما أقلَّ ما أشار إليهم إلا أن يكون ذلك غضاً من قيمةِ منْ سبقوه منهم إلى زيارة مصر وبخاصة « هيكاتيه الملطى »[3] . وذلك أمر قد يثير الشك فى قصدِه ويغضُّ من أمانته .

وقد يكون من الغفلةِ وقصر النظر حين نفكر فى الصلة بين المصريِّين والأغارقة فنتصورها سليمةً صافيةً ؛ ذلك لأن الناظر فى تاريخ مصر أيام « هردوت » لن يعدم الإحساس البيِّن الصريح بما كانت تنطوى عليه صدورُ المصريين من سُخْطٍ ومرارة ، وتفيضُ به قلوبهم من كره الغرباء والضِّيق بهم بسبب ما أصاب البلاد على أيديهم من قَرْح ، ونزل بأهلها من مِحَن .

ولقد يُقال إنَّ الأغارقة من أهل « أثينا » قد أعانوا المصريِّين فى ثورتهم على الفرس حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن ما الذى يمنعنا من أن نفرض أن ذلك لم يكن مبعثه حبَّ المصريين وإيثارَهم على الفرس . وإنما كان الغرض منه مناهضة الفرس بغية السيطرة على مصر . وليس أدلَّ على ذلك من أن الأغريق لم يغادروا مصر بعد النصر ؛ وإنما بقوا فيها سادة ، وظلوا كذلك حتى عاد الفرس فحاربوهم وأجلوهم عنها . فالأمر — كما نرى — كان أمرَ منافسةٍ بين قوتين من قواتِ الاستعمار تتناحران من أجل السيطرة على مصر .

---

(١) انظر فصلى ١٢٥ ، ١٢٩ من كتابه الثانى .

(٢) انظر الفصول ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٤ ، ١٦٤ من كتابه الثانى .

(٣) انظر ص : ٧ ، ١٠ ، ١٨

وليس من شك كذلك فى أن احتضان البيت المصرىّ الحاكم فى «سايس» النزلاء الأغارقة من المرتزقين وأصحاب التجارة ، قد أثار نفوس المصريين كرهاً لهم وفجّرها حقداً عليهم ، حتى باتوا يضيقون بجوارهم ، ويكرهون لقاءهم كما يبدو ذلك بوضوح وبخاصة أيام « أمازيس »(١).

وليس بخاف كذلك ، أن الإغريق الذين كانوا يقيمون فى مصر — سواء منهم من كان يرتزق من العمل فى الجيش ، ومن كان يعمل فى التجارة — إنما كانوا يؤثرون الفرسَ على المصريِّين طمعاً فى الكسب الوفير ، والعيش الرخيص . وذلك شأن الغريب المرتزِق فى كل زمان ومكان ؛ فهو واجدٌ — على الدوام — فى ظل الاستعمار فساداً يستطيع أن يُفيدَ منه فى سهولة ويسر(٢).

وهردوت الإغريقى لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بنى قومه أو عن غير بنى قومه من الغرباء الطامعين فى مصر ؛ بدليل أنه لم يستسغ ثورة المصريِّين فى سبيل الحرية (٣) ، بل ظلَّ يمتدحُ الفرسَ ، ويُشيد بنبلِ مسلكهم إزاء من

---

(١) انظر ص ٤٨

(٢) ظاهر أن احتلال الفرس أرض مصر قد أرضى الإغريق الذين كانوا يقيمون فيها ، وليس أدل على ذلك من انضمام بعضهم إلى صفوف الغزاة (انظر كتاب هردوت الثالث فصل ٤ ، ١٣ ، ١٣٩) . وقد ازداد نشاطهم فى البلاد يومئذ وتتابعت هجرة قومهم إليها ، كما ازدهرت تجارتهم فى «نوكراتيس»

(٣) يرجِّح بعض المؤرخين من أهل الشك أن «هردوت» قد زار مصر مزوَّداً بتوصية من الفرس (انظر: Jacoby, Herodot, Pauly - Wissowa, Sp. 266)
ويرى آخرون غير ذلك ؛ فيقولون إن الثورة التى هبت فى مصر لم يكن للمصريين يد فيها ؛ وإنما قام بها الليبيون الذين كانوا يسكنون أرض الدلتا وأطرافها الغربية.
انظر : Kienitz (Friedrich Karl), die politische Gesch. Aegyptens vom 7. bis zum 4. Jhd. (Berlin 1935, s. 68)

أخضعوا من شعوب الأرض[1].

كل أولئك أمورٌ أقلَّ ما يمكن أن يقال عنها إنها بغضَتْ الإغريق إلى نفوس المصريين، وقد كان بغضاً لم تخفَ أسبابهُ ومظاهرهُ على «هردوت»[2]. وكان على رأس الساخطين كُهّانُ البلاد؛ وهم يومئذ وقبلئذ قادةُ أهل الفكر، وأئمة المجاهدين، وأربابُ الثقافة، وأصحابُ التوجيه والإرشاد، وزعماء حركة التحرير فى هذا الوطن المصرى.

ألا إن أقل ما يمكن أن نستنتجه من كل هذه الحقائق، هو أن جلَّ اعتماد «هردوت» أثناء زيارته مصر — فى وصف مشاهدِها ومعالِمها، وآثارِها العمرانية، ونقلِ أخبارها التاريخية — قد كان فى الأغلب الأعم على النزلاء من بنى قومه؛ وهم ناسٌ — مهما طال مكثُهم فى مصر، ومهما ازدادت معارفُهم عنها — لم يكن من قدرهم، ولم يكن فى وسعِهم أن يبلغوا بثقافتهم تلك فهمَ الحياة المصريّة الطويلة العريقة، ولا فهمَ العقائدِ المصريَّة وأصولها العميقة المليئة بالأسرار، ولا فهمَ الروح المصرىِّ الذى ادَّخر من تراث الماضى وودائعه ومن أخباره وتقاليده، وتجارب أهله، وعبره، وعظاته، وأسراره، ما يضيق به وَعْىُ الغريب، مهما اتسع إدراكه وعظم حظهُ من العلم والثقافة.

فكيف إذن لهردوت — وهذه مصادر معرفته — أن يستطيع فهم الروح المصرى، وأن يبلغ من فهم حقائق الأشياء ما ينبغى للمؤرِّخ الثّبْت.

وكيف إذا جاءنا «هردوت» يزعم أن رواته فى مصر كانوا من الثقات؛

(١) انظر هردوت جـ ٣ (فصل : ١٢) .

(٢) انظر هردوت جـ ٢ فصل : ٤١ ، ٩١ .

منهم سمع ، وعنهم أخذ كلَّ ما سجل لنـا فى كتابه من عقائدِ قومهم وتقاليدِهم ومن سِيَرِ ملوكهم وحكامهم .

تُرى أيكون مبعث ذلك — إن صح زعمه — حِرْصَ الكهّان المصريين على الإلمام بعقائد الإغريق ؟ أم تُراهم أرادوا أن يُطْلِعُوا ذلك الزائر المثقَّف من بلاد الإغريق على مبلغ سلطانهم الرُّوحى بعد أن فقدوا فى غمرات المحن المتتابعة سلطانَهم السياسى ؛ وآثروا أن يتحدثوا إليه ليبادلوه علماً بعلم ، ومعرفةً بمعرفة ؛ يأخذون عنه ما يعرف من عقائد قومه ، ويعطونه من معارفهم مثلَ ذلك ؟

لقد نستطيع أن نقدِّرَ ذلك تقديراً ، أو أن نفرضَه فرضاً . ولكنَّا لا نستطيع أن نجزم بصحته على كل حال ؛ ذلك لأننا نعرف « العصرَ الصاوِّى » الذى جاء « هردوت » فى أعقابه ، ونعرف أحداثَه السياسية ، ونعرف سِيَرَ ملوكه وأمرائه . ونعرفُ ما بقى من تراثه بين أيدينا . ونرى آخر الأمر فى كلِّ ذلك أدلةً واضحةً على قيام نهضة يصفها بعض المؤرخين بأنها كانت نهضة بعثٍ وإحياء ؛ ذلك لأن قوّادَها وروّادَها كانوا يهدفون فى سيرتهم إلى الرجوع بالبلاد إلى مظاهر ماضيها ، وردِّ الناس إلى عقائدهم العريقة الأصيلة (١) .

ونستطيع بعد ذلك أن نقدِّر ما كان لتلك النهضةِ من أثرٍ ؛ أقل ما يمكن أن يوصفَ به أنه أيقظ فى الناس الشعورَ بوجوب تطهير حياتهم مما كان فيها من غرائب وشوائب أخذتْ تسعى إليها وتندسُّ فيها منذ أواخر أيام الإمبراطورية الفرعونية خلال القرن الرابع عشر قبل مولد المسيح(٢) .

---

(١) انظر فى « موكب الشمس » جـ ١ ص ٧٩ .

(٢) إن حياة المصريين فى ذلك الوقت ، وبين يدى تلك النهضة كانت قد صفت بحيث لم نعد نرى فيها أثرا من ذلك . وإيمان المصريين بتقاليدهم ، وصدهم عما =

ليس من السهل — بعد الذى قدَّمنا — أن نتصور أنَّ كهَّانَ البلاد الذين أسماهم هردوتُ الثقات قد أعطوه تلك الصورة المَمْسوخَةَ المشَّوهَةَ من تقاليدهم الدينية أو من تاريخ أسلافهم . ثم أن المؤرخين والنقاد الذين نظروا فى كتاب « هردوت » هذا — على ضوء ما قدمنا — يختلفون فى طريقة نقدِه والحكم على آراء صاحبه وصحةِ مصادرها، وإن كانوا يُجمِعون على إثارة الشك فيما روى ؛ فروايته التى تتصل بتاريخ الملوك تنقسم قسمين ؛ يضم أولُها تاريخَ الملوكِ وأخبارَ أيامِهم من زمان « منا » حتى مطلع أيَّام « ابسماتيك » . ويزعم أنه استمد معارفه عن ذلك من أحاديث الكهان المصريين(١) .

فأما ما عدا ذلك فيقول إنه قد ورد فيه معيناً مختلطاً من أحاديث المصريين والأغارقه(٢) .

والذى رواه « هردوت » فى القسم الأول من تاريخ الملوك لا يستقيم مطلقا إزاء ما كان معروفاً من مصادر التاريخ الفرعونى فى زمانه ؛ وكانت تنحصر يومئذ فى الأَثْبَاتِ المعروفة ؛ سواء منها ما نُقش على الحجر أو سُطِّر فى القراطيس.

= عداها من عقائد الشعوب الأخرى وتقاليدها قد كان شيئاً معروفا لا يكاد يخفى أمره على أحد ؛ بل إننا لنلمس الدليل على ذلك فى أخبار بنى إسرائيل التى وردت فى سفر الخروج (٨:٢٦)، ثم فى ثورة المصريين على اليهود فى جزيرة الفيلة وتخريب معبد إلههم « يهوى » ، وأخيرا فيما ذكره « هردوت » نفسه فى كتابه الثانى (فصل ١١٠) من أن كهان منف قد رفضوا أن يقام لدارا الفارسى تمثال فى معبد بتاح . ومن قبل رفض كهان مصر « مذهب فيفاروس » الاغريقى على الرغم من توصية مليكهم « أمازيس » .

(١) انظر : هردوت جـ ٢ (فصل : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧) .

(٢) انظر : هردوت جـ ٢ (فصل : ١٤٧ ، ١٥٤) .

ثم فى السِّيَرِ ، يحفظها الثقات من الكهّان الذين يقدسون أسلافهم ويعظّمون سيرَهم . ثم فى ذلك القصص الذى كان شائعاً بين الناس ، يرونه ويروُونه الناشئةَ من أجيالهم ، فيحفظونه ، ويوشّونه بألوان من الخيال الذى يشيع فى نسيج القصة ، فترقّ حواشيه بحيث تؤثر فى النفوس ، وتوقظُ العواطف ، وتلهبُ الحماس . ولكنها لا تطمس ما بين طَيَّاتِهِ من حقائق .

فكيف نطمئن إذا جاءنا « هردوت » بما صوَّر فى كتابه الثانى من تاريخ ملوك مصر فألفيناه خُلواً من كلِّ أثرٍ لذلك القصص الوطنىِّ الشعبىِّ الحبيب .؟

وكيف نطمئن إذا زعم لنا أن ثَبْتاً من أثبات أسماء الملوك قد قُرِئَ عليه فى معبد « پتاح » بمدينة منف[1] ، على حين نراه قد جهل ترتيب المشاهير من أولئك الملوك وتتابعَ عهودهم . وقد كان أمر أكثرهم — على الأقل — لدى المثقفين وأنصاف المثقفين فى مصر يومئذ أجلَّ وأخطرَ من أن يُهْمَل فيُنْسى؟

ثم كيف نطمئن إذا جاءنا كتابُ «هردوت» خُلواً من كلِّ خبرٍ من أخبار الملاحم التاريخية — وعلى الأخص تلك الملحمة الخطيرة — التى تصوِّر هجوم «الهكسوس» على مصر ، ثم ثورةَ المصريين عليهم ، ثم إجلاءهم عن أرض الوطن بعد أمة ؟ وملحمة الهكسوس ملحمةٌ ذاع خبرُها ، وَخلُد ذكرُها ، حتى أضحتْ

---

(١) انظر : هردوت جـ ٢ (فصل ١٠٠ ، ١٥٤) . والواقع أننا لن نكون منصفين إن نحن طالبنا « هردوت » بمعرفة التاريخ الرسمى لحكام مصر وسيرهم المضبوطة . فالمعقول أن نترك « هردوت » يعتمد على السماع ، وهو — من غير شك — قد سمع كثيرا ولا بأس عليه من ذلك ، سمع ماحفظت الأجيال من سير الملوك والأبطال فى قالب قصصى . إلا أن « هردوت » لم يحسن فهم ما سمع . وعذره فى ذلك واضح .

لدى المصريين من أحاديث العمر يروونها فى كل زمان ومكان ، ويروونها النشء فى مختلف دور التربية والثقافة (١) .

ألم يكن ذلك التراث وأمثاله معروفاً أيام جاء هردوت إلى مصر ؟ أم كان المصريون قد نسوه لطول عهدهم به ؟

لا نظن مطلقا أن المصريين نسوا ذلك مهما تقادم العهد عليه . ولو جاز ، لما وقع عليه مؤرخنا الوطنى السمنودى « منتون » الذى جاء بعد زمان « هردوت » بدهر طويل اللهم إلا أن يكون الكهان قد عمدوا إلى تضليل «هردوت» ضناً بأسرارهم ، أو أن يكون هو قد اتصل بأقلهم معرفة وأدناهم طبقة ، فأعطوه من صور البلاد المشوهة ما جعل كتابه محشواً بالأخطاء .

لو مال « هردوت » حقاً إلى الثقات — كما يزعم — واطمأنوا إليه — كما أوهم قراءه — إذن لأعطوه من معين معارفهم ما نفعه ، ولاستطاع أن يقدم لنا تاريخاً — إن لم يكن صحيحاً كله — كانت فيه فى نهاية الأمر أصالة على كل حال .

ولو تحرى الدقة ، وأعمل الفكر فيما سمع ، لاستطاع إذن أن ينقل إلينا عن الهرم وعمارته وقصة بنائه كلاماً — إن لم يكن سليماً كله — كان على الأقل أقربَ إلى الواقع وأبعد من الشطط والسخف الذى سجله فى كتابه .

---

(١) وجدت بعض أخبار تلك الملحمة التاريخية على لوح من تلك الألواح التى كان التلاميذ يكتبون فيها ما يحفظون من ألوان الدروس فى التربية الوطنية ويعرف ذلك اللوح فى كتب العلماء والمؤرخين باسم « لوح كارنارفون » .
(أنظر : فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣٥٤) .

يقولُ « هردوت » إنه زار الهرم ؛ ونحن نعتقد أنه فعل . وهو يذكر في مطلع حديثه أنه سمع من الكهان ، ثم لا يلبث أن ينسى ذلك حين يسند الرواية التي سمعها إلى ترجمان . وفي ذلك ما يدل على الخلط وعدم الدقة والنظر إلى الأمور في غير تحفّظٍ وتفكيرٍ ورويّة .

ولقد نفهم أن يُخدَع عامةُ النّاس عن الحقائق في كثير مما يرون أو يسمعون ، وأن يُخدَع السائحون في أكثر ما يسمعون من أقوال الأدلاّءِ والتراجمة . ولكننا لا نرضى أن تجوز الخديعةُ على «هردوت» ذلك الذي ادّعى العلمَ والمعرفةَ والثّقافة والتقوى وحصافةَ الرأى حتى خدَع قُرّاءه دهراً ، وحتى بات لديهم « أبا التاريخ » وإمامَ المؤرخين . فأكثر الحقائق كانت يومئذ ماثلةً أمامه ، وأمورُ البلاد كانت عاريةً غيرَ مستورة ، والاحتلال الفارسى قد مهّد له سبيل الزيارةِ وأتاح له ما لم يتح لغيره من قبل[1] .

ليس هناك شك في أنّ مصر قد كانت أيّام الاحتلال الفارسى تُمتَحنُ في عزّتها وكرامتها وأرزاقها وكافةِ أمور دنياها . ولكن أمورَ الدين قد بقيتْ كما كانت لم يُبْطِلها الاحتلالُ ولم تُبدِّلْ فيها رذائلُه كثيراً ولا قليلاً .

فكيف نُصدّق إذا جاءنا « هردوت » فزعم أن كره المصريين لذكرى «خوفو» وخليفته قد حملهم على الغضّ من سيرتهما ، والطعنِ عليهما بكل جارح من القول وشائن من الاتهام ؛ على حين يضع التاريخ بين أيدينا من الوثائق ما يشير إلى ما ترك الحكم الفارسى من آثار تدل على مشاركة الفرس في تعمير دور العبادة عامّة وعلى قيام الخدمة الدينية وشعائرِ الجنازةِ عند ضريح « خوفو » بخاصة .

---

(١) انظر ص ٢٦ و ٢٩

وليس هناك شكٌ فى أن « هردوت » قد سمع تلك القصة السخيفة عن بناء هرم « خوفو » والسبيلِ المنكرةِ التى سلكها الرجلُ ليحصلَ على نفقات البناء . ولسنا نكره منه تسجيلَ تلك الرواية — برغم ما فيها من سُخْفٍ ثقيل ومجون أقلُّ ما يوصفُ به أنه لونٌ من الافتراء المفضوح — وإنما الشىء الذى نأخذه عليه وننكره منه ، هو أن يقبل مثل هذا السُّخْف ، فيثبتهُ فى كتابه فى غيرِ نقدٍ ولاحرجٍ ولا ورع ، ليذاعَ على الناس ، ليُوصَمَ به شَعْبٌ كانت الفضائل لديه — وعلى الأخص ما اتصل منها بالعفة وصيانة العرض — من قواعد الإيمان .

فأين إذن ثقافة « هردوت » ، وأين علمهُ ، وأين دِقَّتهُ ، وأين روِّيتهُ ، وأين حصافتهُ ، وأين صدقهُ فى اتهام من سبقوه فى الحديث عن خصائص هذا الشعب . ثم أين تقواه آخر الأمر ؟

فى الحق إن الطعنَ فى مسلك « خوفو » وقبيله ، والتجريحَ فى عقائدهم لم يكن بالشىء الجديد على دنيا المصريين ؛ ذلك لأن مرجعَه إلى زمان الدولة القديمة ، وكان مصدره دعاية الدّاعين إلى مذهب عبادة الشمس من أعداء بيت « خوفو »(١) . ولكنه طعنٌ — مهما كان مبعثه ، ومهما قيل فيه — لم يبلغ من الأسفاف والتخريف والسُّخْف الثقيل ، وسوء التفكير ، مابلغته رواية « هردوت » على كل حال .

ولست أريد أن انتهى من حديثى القصير هذا عن « هردوت » ، دون أن أشيرَ إلى حقيقة واضحة ، وهى أن « هردوت » بشرٌ من أمثالنا يخطىء ويصيب ، وأن له ككافة البشر حسناتٍ وسيئات ، وأن الحسناتِ يذهبنَ السيئات .

---

(١) أنظر (فى موكب الشمس ج ١ ص١٥٩ ومابعدها ثم ص٢١٨ ومابعدها)

وأشهدُ لو كنتُ مكانه ، وعشتُ حياةً كحياته ، ولقيتُ ما لقىَ من ظروف دَهْرِه ، إذن لأخطأتُ أضعافَ ما أخطأ . ولضللتُ أكثر مما ضلَّ .

وإنى لأشعر آخر الأمر أننى قسوت عليه ، وأن من واجبى أن أشفق عليه ، وأن أعذره وأعتذر له ؛ لا أكاد آخذ عليه غير ما ادَّعاه من أن رواته كانوا من الثقات ، على حين تقوم الأدلة على أنهم لم يكونوا كذلك ؛ بل لم يصلوا فى معارفهم إلى طبقات أنصافِ المثقَّفين ، ولا إلى أرباعهم أيضاً . وأنه كان يُصدر فى أكثر ما روى عن معينٍ إغريقى ، وعن معارفِ أَدِلاَّء متأثرين بثقافة الإغريق وأساطيرهم ، وأنه كان يفكر — فيما يرى ويسمع — بعقل إغريقى ، ثم ينسج فى روايته على منوال إغريقى ، ويدسُّ بين طيَّات نسيجه ما كان قد وقع عليه فى كتب من تقدَّموه من أسلافه الإغريق وفى مقدمتهم « هيكاتيه الملطى » ، ثم يعود فى جرأة جريئة فينسبُ أكثرَ ما روى إلى رواته الثقات من كهَّان مصر .

ونستطيع — فى ختام الحديث ، وعلى ضوء ما قَدَّمنا — أن نخرج من الباب التاريخى فى كتاب « هردوت » عن مصر بحقيقة واضحة ؛ وهى أن الشطر الأول من هذا الباب ؛ وهو الذى ينتهى عند مطلع « العصر الصاوى » يكاد يخلو تماما من القيمة التاريخية . وأن الشطر الثانى الذى افتتحه بعصر « ابسماتيك » قد ظاهره فيه التوفيق ؛ وذلك لأن رواتَه كانوا من الإغريق ، وكانوا يعرفون أسرة ذلك الملك التى احتضنتهم وأكرمتهم وأشركتهم فى كثير من الأمر[1] .

أحمد بدوى

(١) انظر : ص ٢٩

تمهيد

نظرة سريعة فى أحوال مصر والشرق القريب قبيل أيام هردوت

لم تكد مصر الفرعونية تستقبل من تاريخها الطويل أيام القرن الثامن قبل مولد المسيح ، حتى كانت الشيخوخة قد وهّنت عظامها ؛ فباتت وكأنها لا تقدر على شيء .

وآية ذلك أن الزمن قد أغرقها فى بحر لُجِّى من الفوضى ؛ فأخذت أمواجه الطاغية العاتية تضربها من يمين ومن يسار ؛ حتى خارت قواها ، وظلت عواصفه الهوج تلطم شراعها الرقيق من كل جانب حتى مزقت أوصاله شرَّ ممزق .

ثم تسكن الريح ، وينصت الدهر ليستمع إلى صوت هذه الأمة المُغْرَقَة ، فإذا الفتنة قد استيقظ شيطانها ، وراح يوسوس فى صدور أمراء الأقاليم بشر ما كان يوسوس به يومئذ من أسباب الفرقة والخلاف ، حتى ملأت الأطماع نفوسهم ؛ فباتوا يتنازعون أمرهم بينهم (١) ولم يلبثوا حتى فشلوا وذهبت ريحهم ، حين دهمتهم جيوش الأثيوبيين من جنوب الوادى(٢) ثم انقضت

---

(١) بقيت مصر غارقة فى هذا النوع من ثمرات الانحلال نحو قرن ونصف قرن . يتقاسم حكمها أمراء الأقاليم وحكام المدائن . وكان من نتائج ذلك أن تعطلت فيها وسائل الإرواء ، والطرق العسكرية التى خلت من حراسها . وانعدم الأمن ؛ بحيث أصبح الناس لا يأمنون على حياتهم حين ينتقلون من قرية إلى قرية ، أو من مدينة إلى مدينة ، كما تعطلت التجارة الخارجية .

(٢) فوجئت مصر فى عام ٧٢١ قبل مولد المسيح بهجوم الأمير الأثيوبى =

عليهم جيوش الآشوريين من الشرق ، فدخلوا ديارهم عام ٦٧١ ق . م . ثم اصطدموا بقوات الأثيوبيين فطاحوا بأميرهم «طهرقة»(١) .

= « بعنخى » الذى دهم البلاد فاحتل صعيدها ، وطوى من ورائه أقاليمها الوسطى حتى بلغ « هرقليوپوليس » (إهناسية) ، ثم لم يلبث حتى بلغ الفيوم . وهنالك دانت له أكثر الأقاليم فى غرب الدلتا . ولقى « بعنخى » فى زحفه هذا مقاومة شديدة من أحد أمراء الدلتا وكان يدعى «تفنخت» الذى ظل يقاوم حتى استنفد كل ما كان يملك من وسائل المقاومة ؛ فلجأ إلى جزيرة معزولة عند مصب الفرع الغربى للنيل . ولما أعجزته الوسائل وأعيته الحيل ، سَلَّمَ أخيرا للغازى فأصبح « بعنخى » بذلك ملكا على مصر .

على أن الحوادث فيما بعد قد برهنت على أن تسليم ذلك الأمير المصرى المكافح لم يكن غير وسيلة إلى الخلاص من ورطة مؤقتة ؛ بل كان خدعة قصد بها إلى تمكين نفسه من الاستعداد لتخليص البلاد من يد الغاصب . فلما عاد الغازى إلى بلاده ، أخذ الأمير يعد نفسه لما أراد ، واستطاع أن يجعل من نفسه حاكما (بل فرعوناً) على مصر ثمانية أعوام . وفى غضون ذلك كانت الأسرة الثالثة والعشرون تقضى فى الحكم أو المشاركة فيه أيامها الأخيرة .

(انظر J.H. Breasted,Gesch. Aeg., Deutsch v. Ranke (1960) s. 284 ff)

واستطاع « بوخوريس » بن «تفنخت» أمير «سايس» حوالى عام ٧١٨ ق.م أن يحكم مصر السفلى جميعاً . ومعنى ذلك أن مصر كانت عام ٧١١ . ق . م . تحت سلطان الأثيوبيين . وعند مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » أن « شباكا » كان مؤسس تلك الأسرة الأثيوبية التى جعلها الخامسة والعشرين فى ترتيب الأسر التى حكمت مصر .

(١) لما دخلت جيوش الآشوريين مصر تراجع « طهرقة » متقهقراً حتى بلغ «منف» ، وتبعه « أسر حد ون » ؛ فحاصر المدينة وفتحها ، ثم نكل بأهلها ، وخَرَّبَ دورها ، ونهب أرزاقها . وفر « طهرقة » إلى جنوب الوادى .

(انظر Breasted, ibd. s. 292 ثم Zeisel (Helene von), Aethiopen und Assyrer in Aegypten (Aegyptologische Forschungen (14))

هنالك تراءى للآشوريين أن الخير كل الخير فى اجتذاب المتنافسين من أمراء الأقاليم ، ومحاولة إرضاء أطماعهم جميعاً ؛ وآية ذلك أنهم نجحوا فى جعل حكومة البلاد قسمة بين أولئك الأمراء ، ليضمنوا بذلك القضاء على وحدتهم ، وتحقيق سيادة آشور .

لم يكد أولئك الأمراء يتمتعون بمذاق ذلك العسل المسموم ، ولم تكد جيوش آشور تغادر البلاد ولها فيها حاميات ، حتى هتف الهاتفون منهم بطهرقة الذى كرّ على ديارهم فَخَفُّوا إليه يتفاوضون(١) .

ولما بلغ ذلك صاحب آشور ، أخذهم بالصارم العنيف ، حتى إذا ما أصبحوا فى يمينه ، لان لهم ، وأكرم منهم من وثق به ، واختص بعطفه « نخاو » صاحب إمارة « سايس » (صا الحجر) ، وكانت يومئذ من أشهر إمارات مصر وأظهرها ، ثم بالغ فى إكرامه والعطف عليه حين جعل ولده « ابسماتيك » أميراً على إقليم « أتريب »(٢) .

وكان « طهرقة » قد عاد إلى دياره ولبث فيها حتى هلك عام ٤٦٣/٤٦٤ . ق . م . فحمل راية الكفاح من بعده « تنتامون » ابن « شباكا » الذى بادر بالحملة على مصر فدخلها فى سهولة ، وأخذ يطوى أقاليمها طياً سريعاً ، حتى إذا ما بلغ « منف » ، طار إليه بعض أمراء الدلتا ممن خافوا بأسه وطمعوا فى عطائه(٣) .

---

(١) انظر : Breasted, ibid. S. 293

(٢) انظر : Breasted, ibd. S. 293

(٣) انظر : Winkler, Untersuchungen zur altoriental. Gesch. IV S. 925–928

فأما « ابسماتيك »[1] فقد خال السلامة عند صاحب آشور ، ففرَّ إليه ، ولقى عنده ما تمنَّى ، حين رآه يهبُّ لنصرته ، ويركب معه إلى مصر ؛ ليضرب فيها صاحب « أثيوبيه » ، ثم يتبعه بجنوده حتى يبلغ « طيبة » ، فيدخلها منتصراً عام ٦٦٣ ، ويخرب ديارها تخريباً منكراً . ثم يعود إلى بلاده تاركاً « سايس » و « منف » بين يدى « ابسماتيك » الذى لم يلبث أن بسط سلطانه على سائر أقاليم البلاد .

وتبتسم الدنيا لابسماتيك حين يجد من أيام دهره ، ومن ظروف نصيره ما مهد له السبيل إلى العرش والتاج ؛ فيظل وليا لنصيره ، ويبعث إليه بالجزية فى حينها ؛ فيبيت راضياً عنه كل الرضا ، مطمئناً إليه كل الاطمئنان . ولما كادت الأمور تستقر بين يدى «ابسماتيك» ، أحس أنه فى حاجة إلى أن يستوثق لنفسه ، ويحتاط لحادثات الأيام وفاجعات الليالى ؛ فنظر فى الدلتا ، وهى يومئذ غاصة بالأغارقة ؛ ينتشرن فيها للبيع والتجارة ، ثم ينتهون إلى سوق لهم فى « نوكراتيس[2] . فَقَدَّرَ أن يفيد منهم ، فوسَّع عليهم سوقهم تلك .

---

(١) كان صاحب آشور قد جعله على أقليم « أتريب » بعد أن جعل أباه « نخاو » على إقليم سايس (انظر : Breasted, ibd. S. 279)

(٢) كان الإغريق وبخاصة أهل « ملاطيه » ينتشرون فى الدلتا منذ أيام القرن الثامن . ق . م . حين أخذوا يمدون أنفسهم إلى مصر مداً قويا . وكانوا من قبل قد انتشروا فى حوض البحر الأبيض ، وأخذوا يترددون على ثغور مصر عند مصاب النهر ، وبخاصة مصبه الغربى عند « أبوقير » ؛ يبلغونه من « بحر إيجه » فى سهولة ، ويأمنون عنده نشاط من كان ينافسهم من الفينيقيِّين . واستطاعوا حوالى عام ٧٠٠ ق . م . أن يتخذوا لتجارتهم سوقا قرب « سايس » عرفت أول أمرها باسم « قاعة الملطيِّين » (انظر : Breasted, ibd, S. 373) ثم أطلق عليها من بعد ذلك اسم « نوكراتيس » .

وبذلك انتشر الرخاء المادى فى مصر ، وأفاد « اپسماتيك » نفسه من ذلك فائدة مادية كبرى . ولما أغراه كل ذلك ، استخدم من الأغارقة فى بلاطه وعساكر جيشه عدداً كبيراً(١). وهنالك أحسَّ بقوته فاطمأن إليها . وكان من نتائج ذلك أنه توقَّف عن إرسال الجزية إلى صاحب آشور . وكان هذا الأخير قد شغلَ عن أمور مصر لاشتباكه فى حروب مع العلاميِّين(٢) ، كما اضطرت حاميته فى مصر إلى الانسحاب حين هَبَّت الثورة فى « بابل » .

ويخلو الجو لاپسماتيك ، فيستقلُ بمصر عام ٦٦٣ . ق . م . ويجعلُ عرشه فى « سايس » (صا الحجر) . ويبدأ بذلك عصراً جديداً ، فيؤسس أسرة جديدة ، ويمكِّن لها فى أسباب الحكم ؛ فتجلس على عرش البلاد قرناً ونيفا . وتظل كذلك حتى يُدال من سلطانها إلى سلطان الفرس الذين دخلوا مصر عام ٥٢٥ . ق . م .

كانت أسرة « اپسماتيك » قد رأت من حسن السياسة أن تعود بالبلاد إلى مظاهر عهدها القديم ، فسارت فى نظامها وإدارتها ، ومظاهر عقائدها ، وثقافتها على سنة السلف الصالح من حكام الدولتين القديمة والوسطى . وطلعت علينا آثارها الدينيَّة والفنيةُ تتحدَّث بذلك فى صراحة ووضوح ، حتى اعتقد بعض المؤرخين والكتَّاب أن عصرها عصر بعث وإحياء(٣) ، وخُدِع أكثرهم فباتوا فاعتقدوا أن تلك الأسرة كانت

(١) انظر : ص ٤٤

(٢) كان ذلك فى عام ٦٥٢ ق . م . (انظر : Breasted, ibd, S.296)

(٣) أليست هذه طبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان ؛ تحن إلى الماضى وتنسى محنه وشروره كأنما هزها من الأحداث جديد . ولقد كان لأحداث الزمن التى أصابت نفوس المصريين من جراء الفتن والقلاقل الداخلية ، ثم لمحن الغزو =

مصرية وطنية لحما ودما ، وأن سياستها قد كانت سياسة قومية خالصة . إلى أن نبَّه إلى فساد هذا الرأى المؤرخ الألمانى Ed. Meyer حين قال إنها أسرة غريبة ، وإن أصلها قد يرجع إلى فلول أسرة ليبية نزلت بمصر وانتشر أفرادها فى أقاليمها أواخر أيام الرعامسة .

ومن الواضح فى تاريخ تلك الأسرة وسيرتها ، أنها اعتمدت فى كفاحها وتثبيت دعائم سلطانها على عناصر غريبة عن مصر ؛ إذ لم تكد أمور مصر تستقر بين يدى عاهلها « ابسماتيك » حتى بادر إلى مكافأة جنوده المرتزقين — وأكثرهم يومئذ من الأغارقة — فملأ بهم بلاطه ، وجعل منهم خاصة جنده وحراسه . ثم بالغ فجعل منهم حماة الثغور ، يردُّون عنها إغارات المغيرين، وعدوان المعتدين[1] وتزداد مبالغته فى إكرامهم حين يطلق أيديهم فى إنشاء

= التى زلزلت كيان المصريين أثر ظاهر فى سياسة هذه الأسرة التى كانت تهدف فيها إلى الرجوع بمصر إلى نظامها القديم ، (انظر : Breasted, ibd. 299 ff). ولم يكن مثل هذا التفكير بالشىء الجديد فى حياة المصريين ؛ فكذلك كانوا يفكرون ، وكذلك كانوا يُعَزُّونَ أنفسهم كلما نزلت بهم المحن (انظر فى موكب الشمس ج ٢ ص٨٠) . على أن الوسيلة إلى ذلك النصر المشار إليه لم تكن سهلة ولا ميسورة ؛ ذلك لأن الظروف قد تغيرت ، والأحوال قد تبدلت ، وأيام الدهر — بما امتلأت من ألوان المحن الخشنة الثقيلة المضنية — قد باعدت بين المصريين وماضيهم ذاك الذى كانوا يَحِنُّون إليه ، وعناصر القوة الحية التى كان يمكن أن تعينهم على ذلك قد ضعفت بحيث لم تعد تنهض بالمصريين إلى ما كانوا يبتغون . ولم تجد محاولات الأسرة الجديدة فى نفوس المواطنين صدى إلا فى العزوف عن تقديس المعبودات الدخيلة .

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد أصل « ابسماتيك » وأسرته ؛ ففريق يرجع بأصله إلى « ليبية » ، وفريق يرجع به إلى « إثيوبية » ، وفريق يرى أنه مصرى . فأما الذين يرجعون به إلى « ليبية » فهم :

المزارع ، والمؤسسات التجارية فى « سايس » ، « نوكرا تيس »،«أبو قير»[1].

= Lepsius انظر (Lepsius, Ueber die XXII. aegyptische Koenigsdynastie, 291)

ثم Stern) انظر : (Stern, Z.Ae.S. 21 (1883) S. 24

ثم Piehl) انظر : (Piehl, PSBA. 13 (1891) S. 236

ثم Erman) انظر : (Erman, Aegypten S. 52

ثم Hall) انظر : (Hall, CAH. III, p. 291

ثم Smith) انظر : (Smith, JSOR. 10 (1926) p. 132

وأخيراً Drioton) انظر : (Drioton — Vandier, L' Egypt p. 549

ويراه من أصل أثيوبى كل من :

Brugsch) انظر : (Brugsch, Gesch. Aegyptens S. 731 — 733

ثم Schaefer) انظر : (Schaefer, Z.Ae.S. 33 (1895) S. 116—120

ثم Petrie) انظر : (Petrie, Hist. O. Egypt III, p. 320, 321

وأخيراً Wadell) انظر : (Wadell, Manetho. p. 170, 172

وأما الذين يرونه من أصل مصرى فهم :

Ebers) انظر : (Ebers, Z.Ae.S. 19 (1881) S. 68

Wiedemann) انظر : (Wiedemann, Aeg. Gesch. S. 623

ثم Spiegelberg) انظر : (Spiegelberg, OLZ. 8 (1905) S. 559—562

وأخيراً Mueller) انظر : (Max Mueller, OLZ. 16 (1913) S. 49—52

أولئك هم الذين بحثوا فى أصل هذه الأسرة واختلفوا فى الرأى وكلهم من فحول العلماء ، « كل يؤيد رأيه يا ليت شعرى ما الصحيح » ؟ الله وحده يعلم .

(١) لما رأى ابسماتيك أن يحصن بلاده جعل على حدودها حاميات ثلاث كانت أولاها عند « جزيرة الفيلة » وكان جنودها من المواطنين ، وكانت الثانية والثالثة فى الشمال ؛ إحداها فى « دفنه » عند خليج السويس ، والأخرى فى « ماريا » (مريوط) . وكان الجند فى كلتيهما من الإغريق .

ولقد يكون من الأنصاف — على الرغم من كل ذلك — أن نقرر أن تلك الأسرة قد استطاعت — أن تقيل عثرةَ مصر ، وأن تُصلِح ما فسد من أمورها ، وأن تنهض بأحوالها الاقتصادية ، حتى استتب الأمن ، وعم الرخاء المادى ، وحتى استقامت أمور البلاد فى أكثر نواحى الحياة[1] وذلك بفضل ما بذلت من مختلِف الجهود فى سبيل تثبيت سلطانها على النحو الذى قدّمنا ، وبفضل ما أبداه عاهلها الأول من الدهاء والمهارة والحزم فى سياسة البلاد أيام حكمه .

ولم ير « ابسماتيك » — على الرغم من توفيقه ، وقوته التى مكنته من الاستقلال بمصر عن سلطان آشور — أن يقف من نصيره صاحب آشور موقف العداء . وإنما بقى له ولياً حميماً ، وظل حليفاً له حتى هلك عام ٦٠٩ . ق . م . وسار خلفاؤه من بعده على نفس النهج الذى سلكه فى سياسته الدّاخلية والخارجية ، وإن كان قد حاول ، وحاول خلفاؤه من بعده ـ كلما واتتهم الظروف ـ أن يتدخلوا فى الشئون الأسيوية بغيةَ استرداد أملاك الإمبراطورية المصرية فى الشرق القريب[2] .

كانت الأقاليم الأسيوية يومئذ مسرحاً للفتن والأحداث الخطيرة والقلاقل المثيرة ، فالثورات تشتعل نيرانها حول مُلْك آشور ، والاضطرابات السياسية تقيم بقية الشعوب الأسيوية وتقعدها . وفى غضون ذلك تُوْلَدُ على حدود آشور مملكة جديدة تجمعت عناصرُها من قبائل الميديّين . فأخذ أصحابها

(١) انظر : Mallet, Les premiers établissements des Grecs en Egypte (Mem. Miss. Archeol. Franç. (Caire XII, Y. Paris 1893).

(٢) انظر : Kees. zur Innenpolitik der Saiten Dynastie

يوسِّعون رقعتها، ويمدُّون فى أطرافها على حساب الفتن المضطرمة نيرانها فى آسية الدنيا؛ وآية ذلك أنهم تمكنوا من إخضاع القبائل الفارسية المتاخمة لحدود أملاكهم ، وجعلوا عاصمتهم « أكبتان »(١).

وتنتهز بابل فرصة هذه الفتن لتتخلص من نير آشور ، ولتظهر على مسرح الدنيا بين يدى عاهلها NABOPOLASSER الذى سارع إلى التحالف مع صاحب « ميديا » ليغزوا معا « نينوى » التى اندكَّ صرحها وتم تخريبها عام ٦١٢ . ق . م وهنالك استطاع الميديُّون أن يستقروا فى الشمال إلى الشرق والغرب من نهر دجلة ؛ على حين سيطر البابليون على شرق العراق ، وعلى سورية ، وحاول صاحب مصر « نخاو الثانى » أن يفيد من تلك الحوادث ، فسارع إلى التدخل فى الشئون الأسيوية متعلِّلاً بمساعدة حليفه « آشور بالبيت » صاحب آشور الذى كان قد تمكن من جميع فلول جيشه وظل يحارب به بابل وأنصارَها ثلاثة أعوام . فلما بلغ « نخاو » آسية ، أخذ يتقدم فيها بجيشه ؛ وكان غاصاً بالمرتزقين من الأغارقة ، فأخضع به سورية ، ثم مضى فبلغ الفرات ، وكان ذلك عام ٦٠٥ . ق . م . وهنالك تصدَّى له صاحب بابل بجيش عقد لواءه « لنبوخذ نصَّر » . فلما التقى الجمعان هُزِمَ جيش مصر وفَرَّتْ فلوله راجعة إلى الدلتا . وكان من نتائج تلك الهزيمة أن استولى صاحب بابل على كل ما كان لفرعون من حدود وادى النيل حتى الفرات .

وهكذا أخفقَتْ جميع المحاولات التى بذلها فرعون « نخاو الثانى » فى سبيل مساعدة حلفائه الآشوريين على أعدائهم البابليين . أو بعبارة أصح تبددت

---

(١) مكانها الحالى عند « همذان » .

أحلامه فى استغلال أحداث الشرق القريب لصالح مصر[١] ؛ فانصرف إلى النظر فى شئون بلاده الداخلية ، وراح يعمل على النهوض بأمور مصر الاقتصادية .

ولما ودَّعَ دنياه ، خلفه على العرش « إبسماتيك الثانى » ومن وراء « إبسماتيك » « أبريس »[٢] . وكان كلاهما يؤثر الأغارقة ويختصهم بعطفه . إلا أن الأخير قد بالغ فى ذلك إلى الحد الذى فَجَّرَ قلوب الوطنيين كرها وغيظا فأشعلوا من حوله نار ثورة حامية ؛ يحمل لواءها قائد من الوطنيين المغامريين يدعى « أمازيس » (أحموسى) ؛ فظلت مشتعلة حتى نودى بهذا القائد البطل المغامر ملكاً على مصر . فقام بالحكم إلى جانب « أبريس » ، وظل حكم البلاد شركة بينهما إلى أن انتهى الأمر بمصرع الأخير عام ٥٦٨ . ق . م[٣] .

استقل « أمازيس » (أحموسى الثانى) بعرش مصر ، ولم يستطع إزاء إلتفاف الوطنيين من حوله ومؤازرتهم إياه إلا أن ينظر إلى الأغريق فى مصر بأحدى عينيه ويستمع إليهم بأحدى أذنيه ؛ فسلك معهم طريقا وسطاً ؛ حين أجلى جنودهم عن الثغور ، فنقل حامية «دفنة» إلى «منف» ، وجعل من المحاربين الأغارقة حرسه الخاص ليكونوا تحت سمعه وبصره (انظر: هردوت ج٣ فصل ١٥٤) كما جمع المدنيِّين منهم فأنزلهم فى « نوكراتيس » (انظر: هردوت ج٣ فصل ١٧٨).

---

(١) انظر : (١) (سفر الملوك الثانى ٢٤ : ٧)

(٢) Wiedemann, (A.) Der Zug Nabucadnazar's gegen Aegypten, bestaetigt durch eine aeg. hierogl. Inschrift in Z. Ae. S. 19 (1878) S. 2 — 9

(٣) Wiedemann, Nebucadnazar & Aeg. ibd. 77—89

(٤) Breasted, Gesch. Aeg. S. 309

(٢) تصحيف أغريقى لاسمه المصرى (واح — إيب — رع)

(٣) انظر : ص ٥٠

كان عهد « أمازيس » (أحموسى الثانى) أشبه شىء بما يسمونه « صحوة الموت » فى حياة مصر ؛ فهى قد بلغت بين يديه أقصى ما كان يمكن أن يُهَيَّأَ لها من مكان ؛ فراجت تجارتها ، وازدادت ثروتها ، ونشطت حركة البناء فى عمائرها الدينية ، وازدهرت فى رحابها نهضة العلوم والفنون ، واطمأن الناس إلى حياتهم ؛ فباتوا يستمرئون لذاتها ، ويجنون من خيراتها ثمار ما أنفقوا من جهد فى كفاحهم المرير الطويل . وما كانوا يحسبون أن القدر قد كان يبيِّت لهم ولوطنهم شر ما يكرهون من نازلات الأيام وفاجعات الليالى .

ويكاد عصر « أمازيس » (أحموسى الثانى) من هذه الناحية يشبه عصر « أمينو فيس الثالث » الذى عاشه المصريون قبل عصر « أمازيس » بثمانية قرون .

كان «أمازيس» — كما صوره هردوت — صاحب لهو وشراب وزير نساء. وكان سلفه البعيد « أمينوفيس الثالث » صاحب لهو وصَيْد وتبع نساء أيضاً وكان « أمازيس » مع ذلك صاحب فطنة وذكاء وسياسة رشيدة ، وقد أعانه كل ذلك على تهيئة جو ملؤه الصفو الشامل والهدوء الكامل[1] ، فهو برغم

---

(١) ذكرنا فيما سبق كيف كان « ابسماتيك الأول » يعتمد على الإغريق ، وكيف أنه بالغ فى إكرامهم ، وأطلق أيديهم فى إنشاء المستعمرات الزراعية ، والمؤسسات التجارية . وقد استطاع أحد الدوريِّين يومئذ أن ينشئ مدينة على شاطئ ليبية عرفت باسم Cyrène (برقه) (انظر : De Muelenaer,ibid) وكره اللوبيون ذلك ، وظلوا يطوون صدورهم على هذا الكره أكثر من ستين عاما ؛ إلى أن كانت أيام «أبريس» ؛ هنالك أخذت طوائف الإغريق تتوافد على ليبية ، وتحتل من أرضها بقاعاً واسعة ، وأهاج ذلك الليبيين وأثارهم ؛ ففزعوا إلى « أبريس » ؛ يشكون إليه أمرهم ، ويلتمسون عنده العون والنجدة . ولم يكن =

انحيازه إلى قومه من الوطنيين ، لم يهمل جانب من آزروه من الإغريق ، بل عاملهم بالحسنى ، سواء منهم من كان يرتزق من العمل فى الجيش ومن كان يعمل فى التجارة . ثم بالغ فَوَثَّقَ صلاته بمن كانوا يقيمون منهم فى برقة

= فى وسع الرجل أن ينجدهم بالمرتزقين من الإغريق ؛ فبعث إليهم بنجدة من المصريين ، لم يواتها التوفيق ، ولم يحالفها النصر ؛ فهزمت وأبيدت عن آخرها على حد قول هردوت (انظر : كتابه الثانى الفصل رقم ٦١ وكتابه الرابع الفصل رقم ١٥٩) .

وكان وقع الهزيمة على المصريين شديداً ، واهتز لها الرأى العام فى البلاد اهتزازا دفع الناس إلى الثورة ؛ فاندلعت نيرانها . وبادر « آپريس » فعهد إلى القائد المواطن « أحموسى » (أمازيس) بإطفائها . فلم يلبث هذا أن أصبح نصير الثورة لا عدوها ، ومع الثوار لا عليهم . فحمل لواءها ومضى فى قيادتها ؛ حتى إذا ما استوثق الثوار لأنفسهم منه ، نادوا به ملكا على الوادى . إلا أنه لم يستطع يومئذ خلع « آپريس » الذى كان يتدرّع بالأغارقة ؛ وهنالك بقى أمر الحكم فى البلاد قسمة بين الرجلين — ولكن على كره منهما — أكثر من عامين . ولما كان العام الثالث ، سار « آپريس » بجيش من المرتزقين ليضرب به « أحموسى » (أمازيس) وقبيله ؛ فلما التقى الجمعان عند « موممفيس » ، تمكن « أحموسى » من إلهاب شعور المواطنين ، حين أخذ يذكرهم بوطنهم الجريح ، وبالمحن التى نزلت بهم على يد « آپريس » وأعوانه من الإغريق . واستطاع بذلك أن يفجر قلوبهم غيظاً ، وأن يملأ نفوسهم أملا . فمالوا معه على خصومهم ميلة واحدة ، كان النصر لهم من ورائها ، وسقط زعيمهم « آپريس » فكان « أحموسى » (أمازيس) كريماً إزاء خصمه ؛ بل كان أكرم مما ينبغى . أظهر الحزن على وفاته ، واحتفل بتشييع رفاته إلى مقرها الأخير . (انظر :

(١) Daressey, Rec. Trav. 22. p. 143 ff.

(٢) Breasted, A.R. IV, 1001, 1007.

(٣) Breasted, Gesch. ibd. S. 312.

(Cyrene) حتّى قيل إنه سعى إليهم فربط بينهم وبينه برباط من الصهر عندما تزوج أميرة منهم يسمونها LADYKE (انظر هردوت جـ ٢ فصل ١٨١) .

ويموت « أمازيس » ، (أحموسى الثانى) ، فتدق ساعة الخطر ، وتبدو عيون الشر حمراء ترمى بالشرر ، وتنـذر به مستطيراً على حدود مصر الشرقية .

وقد لا يعجز المطلع على تاريخ الشرق القريب يومئذ — فى ضوء الأحداث التى أجرتها الأيام على مسارحه فى القرن الخامس قبل مولد المسيح — أن يتبين ذلك النزاع الخطير الذى تفجّرت براكينه بين الميديّين والفرس ، وكيف انتهى الأمر إلى صالح الفرس (انظر : هردوت جـ ١ فصل ١٢٩) . وآية ذلك أن ينكشف الغبار عن آثار تلك الملاحم الخطيرة ، وترتفع الأستار عن مسارح الأحداث ، فإذا الدنيا قد تَجلّت بطلَها فى ذلك الوقت وهو «قورش» CYRUS وكان — كما قيل — سليل أسرة طامحة ، مارست ألوان الحكم فى بلاد ANZAN قبل ذلك بقرن من الزمان تحت سيادة الميديّين . واستطاع هو أن يَظْفَر بعاهلهم وهو يومئذ ASTYAGES بن KYAXARES . فأضحى بذلك سيد فارس وميديا فى آن معا . واهتزت آسية الدنيا كلها بهذا الحادث ، حتى ملأ الرعب قلوب الملوك والحاكمين . فسارعوا إلى إنشاء حلف ضم « ليديا » و « مصر » و « بابل » و « إسبرطة » . إلا أن ذلك الحلف لم يوقِّ أصحابه شر « قورش » الذى لم يلبث أن انقض على « ليديا » فانتزعها من يد مليكها CROISUS ، وكان هذا من أبرز ملوك زمانه ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم للإغريق ولاء . فلما ظَفِرَ به « قورش » أخذه أسيراً قبل أن يتمكن حلفاؤه من النهوض إلى نجدته (انظر : هردوت جـ ١ فصل ٧٧ وما بعده) .

ولم يكد « قورش » يتذوق حلاوةَ هذا النصر ، حتى ولّى وجهه شطر الشرق — وكان يومئذ هدفا لإغارة جديدة يحتمل أن يقوم بها مهاجرون من الآريِّين — فخرَّب كل ما لقى فى طريقه من بلاد آسية العليا بغية المحافظة على تخومه . وحين اطمأن إلى سلامة حدوده الشرقية ، أخذ يفكر فى الاتجاه إلى بابل ففعل ، ولم يلبث أن استولى عليها فى غير عناء كبير ، وكان ذلك فى عام ٥٣٩ ق . م. فأصبح بذلك سيد آسية الدنيا غير منازع . وظل يستمتع بتلك السيادة عشرة أعوام ، ثم ولاَّه الموت عنها عام ٥٢٩ ق . م .[١] فخلفه على العرش « قمبيز » ولده من « كاسندانى » بنت « فارناسپيس » فاستأنف سيرة أبيه ، وتطلع إلى مصر ، وأخذ يمد نفسه إليها مدًّا قويا . ولم يكن « أحموسى » (أمازيس) صاحب مصر بغافل يومئذ ولا قبلئذ عما يجرى فى الشرق من أحداث[٢] ، بل كان بصيراً بها مدركاً بأس «قورش» وشدته ، مقدِّرا عواقبَ

---

(١) يختلف الرواة فى وصف موته وأسبابه ، فيقول Xenophon إنه مات حتف أنفه . ويقول « ديودور » إنه أخذ أسيراً ثم مات مصلوبا ، ويقول Ktasius — وهو طبيب إغريقى ولد فى Kindos ثم ذاعت شهرته حوالى عام ٤٠٠ ق.م. بعد أن خدم فى بلاط « إجزرتسيس » سبعة عشر عاما وكان من عشاق « قورش » وأكثر الملمين بأخباره — إنه مات من جرح أصابه فى المعركة التى دارت رحاها بينه وبين رُحَّلِ المغول تحت إمرة مليكهم TOMYRUS .
(انظر : Lehmann H., Art. Kambyses, in RE. X2. Sp. 1812—1823)

(٢) يشاء القدر أن يكون « أمازيس » (أحموسى الثانى) بطلا كسلفه وسَمِيِّه « أحموسى الأول » الذى حرر مصر من الهكسوس بعد أن سيطروا عليها قرناً ونصف قرن . وإن كان — كما وصفه هردوت — بطلا مغامراً ، وصاحب شراب يكاد فى رأيى يشبه فى سيرته بطلا من المغامرين البنائين فى العصر الحديث ، وأعنى الغازى «أتاتورك »(انظر : Armstrong, The Greywolf)

نشاطه الخطير . فسارع إلى إخضاع « قبرص »(١) ، ومحالفة CROISUS صاحب « ليديا »(٢) . وحين سقط هذا الأخير بين يدى «قورش» على النحو الذى قدمنا(٣) سارع إلى محالفة POLYCRATE طاغية « ساموس » (انظر هردوت جـ ٣ فصل ٣٩) ، إلا أن هذا الطاغية قد اضطر أمام الرعب الفارسى إلى الانضواء تحت لواء « قمبيز »(٤) . وأعلن خضوعه وولاءه فى الوقت الذى كان « قمبيز » يتهيأ فيه للوثوب على مصر .

هنالك بقى صاحب مصر بلا نصير ، ثم ودع دنياه تاركاً أمور وطنه الملتاع بين يدى خليفته « ابسماتيك الثانى » . وكانت الدسائس يومئذ تملأ بلاط فرعون ، حتى قيل إن أحد قواده قد خانه ولاذ ببلاط «قمبيز» ، ودله على أقرب السبل وأيسر الوسائل إلى فتح مصر . وقيل إن القائد الخائن لم يكتف بذلك القدر من الخيانة المقنّعة بل أعلنها سافرة مفضوحة فقاد بنفسه جيش العدو (انظر : هردوت جـ ٣ فصل ٤) على « طريق حورس » المعروف ونعنى ذلك الطريق الممتد على ساحلَ غزّة ، والذى طالما ركبته جيوش مصر إلى الشرق أيام مجد الفراعنة ، والذى ركبه الآشوريين إلى مصر قبل الفرس بزمن قصير(٥) .

---

(١) انظر : الفصل الثانى والثمانين بعد المئة من كتاب « هردوت » الثانى .

(٢) انظر : ص ٥١

(٣) انظر : ص ٥١

(٤) كان ذلك بين عامى ٥٤٦ — ٥٤٠ ق م. (انظر Breasted, ib l. S. 316)

(٥) انظر : Meissner, Das Datum d. Einnahme Aeg. durch : Kambyses (Z. Aeg. S. XXIX 1891, S. 123—124).

وتحركت جيوش مصر فى ربيع عام ٥٢٥ . ق.م . فالتقت بجيوش فارس عند « فرمة » فقاتلوا — وكانوا خليطاً من الوطنيين والمرتزقين من الأغارقة — قتالا شداً . وحين اشتد الكرب على جيوش المصريين أخذوا يتراجعون حتى بلغوا « منف » ، وأتبعهم « قمبيز » بجنوده ، حتى إذا ما أدركهم فى «منف» ضرب من حولها الحصار ،وظل يُضيِّق عليها حتى اضطرت حاميتها إلى التسليم .

وجيء بصاحب مصر إلى حضرة « قمبيز » ، فقيل إنه أكرم لقاءه ، وأحسَن معاملته ، غير أن ذلك لم يثنه عن الكفاح ؛ فعمد إلى إثارة مواطنيه على الفرس . فلما أخفقت جهوده وتبخَّرت أحلامه ، آثر الانتحار خشية الوقوع فى يد « قمبيز » (انظر : هردوت جـ ٣ فصل ١٧) .

ولما اطمأن « قمبيز » — حين أدرك جيش مصر فى منف فضيّق عليه الحصار — أخذ فى إتمام الفتح؛فأخضع صعيد الوادى بعد أقاليمه الوسطى فى غير عناء ، ثم بعث بحملة على الواحات الخارجة ، وقاد أخرى إلى بلاد النوبة[١] .

ويقول « هردوت » إنه اقترف على أثر ذلك كثيراً من الشرور والآثام ، وشطَّ فى استعمال العنف والقسوة ،[٢] ، وظلَّ يمعن فى ارتكاب الآثام حتى

---

(١) أطال « هردوت » فى الحديث عن حملة « قمبيز » على أقاليم « إثيوبيه » (أقاليم النوبة الجنوبية) . ثم تحدث عن فشل تلك الحملة (انظر : هردوت جـ٣ فصل رقم ١٧ وما بعده) . والواقع أننا لا نملك من وثائق التاريخ فى مصر ما يشير إلى تلك الحملة غير رواية « هردوت » . فإذا صح ماورواه « هردوت » فأكبر الظن أن تلك الحملة قد وقعت فى زمان الملك الأثيوبى «NESTESEN» حوالى عام ٥٢٠ (انظر : Breasted, ibd. S. 295)

(٢) ذكر هردوت فى معرض الحديث عن مصرع الفحل المقدس (أبيس) على يد «قمبيز» ، أن فعلته تلك — بالإضافة إلى حملته على «إثيوبية» (النوبة) —

أصيب بلوثة فجن، ثم هلك عند سورية فى طريق عودته إلى فارس عام ٥٢٢ ق.م.
تلك فاتحة الخبر والحديث عن الفتح الفارسى كما رواها « هردوت » ؛ ولولاها لما وجدنا غير قليل من الحديث عن تلك الحقبة من تاريخ مصر . ذلك لأن الأيام لم تضع أيدينا ولا أبصارنا على شيء من الوثائق المصرية يمكن أن نقرنها بما جاء فى رواية هردوت ، وإن كانت قد ادخرت لنا بعض الخبر فى سيرة رجل يدعى « وازى — حور — رسنه) نقرؤه على تمثال له آل إلى متحف الفاتيكان(١) . عاش صاحب تلك السيرة أيام الفتح الفارسى . وكان فيما يظهر أميراً للبحر عند دخول جيش « قمبيز » . وقد جاء فى سيرته عبارات ملتوية ، يغشاها كثيرٌ من الغموض ؛ نفهم منها أن فتنة وقعت فى إقليم « سايس » ثم لم تلبث حتى عمت مصر جميعاً(٢) . ثم هو يزعم أنه استطاع أن

= إنما كانتا من نتائج الخبل الذى أصاب الرجل. فأما حملته على النوبة فليس فى حكم العقل ولا فى حكم الظروف يومئذ ما يمنع من أن تكون قد حدثت . وإنما الأمر الذى يحتمل الشك هو أن يكون « قمبيز » قد صرع الفحل المقدس ، وإن كان قد روى ذلك بعض الكتاب والمؤرخين القدامى من الإغريق والرومان أمثال بلوتارخ (فى قصة إيزيس وأزوريس ٤٤) و « كليمانت السكندرى » .

ولقد أنكر المحدثون تلك القصة وقالوا إن مبعثها الخلط فى تحديد التاريخ الذى نفق فيه الفحل والتاريخ الذى دفن فيه (انظر :

Posner, Le premier domination perse en egypte p. 174—5 .

(١) انظر : Schaefer, Z. Aeg. S. 37,72 ثم Erman, Relig. S. 331

(٢) الواقع أن حديث الرجل طويل ولكنه برغم ذلك سكت عن ذكر أصل الفتنة ولم يشر إلى أعمال الغزاة فى مصر ، ولا إلى الفظائع والأهوال التى ذكرها « هردوت » ، وإن كنا لا نشك مطلقا فى أنه كان يعرف كل ذلك . ولكنه كان — فيما يظهر — كغيره من الخونة والنهازين الذين يبنون مجدهم الباطل =

يدفع عن بلاده كثيراً من الأذى ، ويرد عنها كثيراً من الشر ، ذلك لأنه اتصل بالفاتح وأخذ يحدثه عن مصر وأهلها حديث العارف الواثق ، فدلّه على أرباب البلاد وعقائد الناس فيها ، فهو يذكر لنا كيف أن الفاتح اطمأن إليه وإلى صدق حديثه فصحبه إلى « سايس » ، وأظهره على عظمتها ، وروعة بيتها المقدس وفيه مزار ربتها NEITH وقُدْسُها . وكيف أن الفاتح لما دخل القدس خرّ لها ساجدا ، ثم قام فضحى لها وقرَّب كما كان يفعل فراعنة الوادى .

ويستأنف الرجل حديثه فيزعم أنه استطاع بسلوكه هذا أن يستدرّ عطف الفاتح على المواطنين ، ويثير اهتمامه بمعبد « سايس » حين شكا إليه ما يؤذى الحجيج فى هذا المعبد من عبث النزلاء الأجانب الذين يعيشون من حوله . وكيف أن « قمبيز » حين سمع ذلك فعل مالم يفعله الملوك من آل فرعون ، إذ أصدر أوامره بإخراج أولئك النزلاء من دورهم ثم أمر بها فهدمت وأسكن أصحابها خارج أسوار المدينة .

ويمضى الرجل فى حديثه فيذكر مآثر ملوك فارس من خلفاء « قمبيز » ، ويمجد أعمالهم فى مصر ، ويمتدح سلوكهم فى أسلوب يحملنا على الشك فى روايته وإن كنا لا نستبعد أن خلفاء « قمبيز » ، قد قصدوا إلى إزالة ما نزل بقلوب المصريين من رعب أيام سلفهم « قمبيز » ، وإلى استمالة نفوسهم بحسن المعاملة

= وسلطانهم الزائف على الأنقاض والأشلاء ، يرون القوة فى جانب الغزاة فينطلقون إلى صفوفهم ، وينطوون تحت أعلامهم ، يطلبون فى ركابهم السلامة ويلتمسون الرخاء المادى والعيش الخفيض فى الفتات من حول موائدهم . وليس ببعيد أن يكون قد اتخذ من زميله القائد الخائن الذى مر ذكره (ص ٥٣) مثلا فى الضعف والخيانة ، فانتقل إلى صفوف العدو ، وسلم الأسطول إلى « قمبيز » .

واحترام العقائد . وهناك من وثائق التاريخ ما يشير إلى ذلك ؛ فهذا « دارا » يقيم لآمون معبداً فى واحة الخارجة ، ثم نعثر على آثار له فى «منف» تشير إلى احترامه عقائد المصريين[١] . بل إنا لا نستبعد ما رواه DIODOR من أن المصريين قد قدّروا ذلك لدارا ، فرفعوه إلى مراتب ملوكهم من فراعنة الوادى[٢] .

أحمد بدوى

---

(١) انظر :
Amir (Mustafa), JEA. 43 (1948) p. 51—56 ثم JEA. (1941) p. 165

(٢) نستطيع أن نرى أثر ذلك على شاهد من حجر آل إلى متاحف برلين يحمل لدارا الفارسى صورة فى هيئة الصقر . هذا بالإضافة إلى أن من أيام هذا الملك آثارا تدل على حكمته ، وجمال سياسته ، وسلامة مسلكه ، وحسن معاملته ، وشدة حرصه على إرضاء عواطف المصريين وبخاصة الدينية .
(انظر : Ed. Meyer, Der Papyrusfunde von Elephantin S. 36)

نص الكتاب

١ — بعد وفاة « قورش »(١) تولى الملك « قمبيز » ، ولده من « كاسندانى » ، ابنة « فارناسپيس » . ولما ماتت هذه قبل زوجها « قورش » ، حزن هو نفسه عليها حزناً شديداً ، وأمر كل رعيته بأن تلزم الحداد أيضاً .

فأما « قمبيز »(٢) ، ابنها من « قورش » ، فكان يعد « الأيونيين » و « الأيوليين » عبيداً (٣) ، ورثهم عن أبيه . وعندما جهز حملة على مصر(٤) ، ضَمَّنَ من أخذ من شعوب مملكته ، اليونانيين الذين كانوا تحت إمرته .

٢ — قبل حكم « ابسماتيك » ، كان المصريون يعتقدون أنهم أقدم الناس فى الوجود(٥) . ولكن لما تولى « ابسماتيك » الحكم ، أراد أن

---

(١) مات « قورش » فى أواخر عام ٥٢٩ ق . م . (انظر : ص ٥٢

(٢) انظر : ص ٥٢

(٣) تلك كانت نظرة الغالب إلى المغلوب فى العالم القديم (وهى لم تزل كذلك حتى يومنا هذ) ؛ يفرض عليه سلطانه ، ويستغل أرزاقه ، ويسوقه مكرهاً إلى الحرب . هكذا فعل الفرس بمن غلبوا من شعوب الأرض ، وهكذا نظر المصريون من آل فرعون إلى أسراهم من شعوب الدنيا . وهكذا سلك اليونان والرومان إزاء من حكموا من الأمم والشعوب فى سائر أقطار الدنيا .

(٤) خلف « قمبيز » أباه « قورش » على العرش فى عام ٥٢٩ ق . م . وكان مقدَّراً أنه بدأ حملته على مصر فى عام ٥٢٧ ، ثم تبين من بعد ذلك أن الحملة وقعت فى عام ٥٢٥ ق . م . (انظر : ص ٥٣) .

(٥) الواقع أن ذلك لن يبدو غريباً من آل فرعون ؛ فتاريخهم بالقياس إلى من جاورهم من شعوب الأرض — وبخاصة فى حوض البحر المتوسط — قديم =

يعرف أيَّ الشعوب أقدم . ومنـذ ذلك الحين يعتقـد المصريون أن

= بل عتيق ، وحياتهم منذ قومتها مزدهرة بألوان من الحضارات الرفيعة ؛ لم يسبقهم إليها من تلك الشعوب سابق . وكانوا يعرفون ذلك ؛ فهم فى رأى أنفسهم « النـاس » وغيرهم من أشباه الناس ؛ لسانهم إلهى مقـدس ، وألسنة غيرهم — من أشباه الناس — رطانة . نيلهم بحر ، وأنهار من عداهم من شعوب الأرض ترع وجداول . أرضهم أرض السواد (أى الخصب) ، وماعداها من أرض أوطان الدنيا صحراء جدباء . تلك أمور عرفها الإغريق وتحدث عنها كثيرون من كتَّابهم الذين سبقوا « هردوت » .

ويزعم العلماء الذين كتبوا فى علم الأجناس أن البحوث التى أجريت على جماجم المصريين التى عُثِـرَ عليها فى كثير من قبورهم القديمة ، تشير إلى أن أقوى العناصر التى تكون منها شعب مصر قد كان عنصراً شمالياً ، على حين كانت العناصر الأخرى مزيجاً مختلطاً من سودان الأرض ومن القبائل السامية التى دخلت الوادى من أبوابه الشرقية .

ويرى المؤرخ الألمانى Ed. MEYER أن أكثر سكان وادى النيل الأسفل وأقاليمه الوسطى إنما يرجعون بأصولهم إلى ديار شمالية ؛ يجعلها عند جبال القوقاز ، ويرجح أن هجرتهم وقعت أيام العصر الجليدى فى أوروبا ، وأنهم بلغوا شمال إفريقية عبر « جبل طارق » ؛ فنزل بعضهم على هضاب « برقه » ، ومن هؤلاء قبائل البربر المعروفة . ونزل آخرون على عيون الماء المنتشرة فى بطون الصحراء الليبية وأوديتها ، على حين اندفع أكثرهم نشاطاً وأشدهم طموحاً إلى وادى النيل ؛ فنزل أكثرهم فى بقاعه الشمالية وبقاعه الوسطى ، ومنهم من بلغوا أقاليم النوبة واستقروا فيها ، ومن بلغ سواحل « الصومال » التى أسماها المصريون « بنط » . والواقع أن لرأى المؤرخ الألمانى المذكور من الشواهد والأدلة مايؤيده ويرجِّحُ صدقه ؛ فقبائل البربر شقر وذوو عيون خضر ، وكذلك كان سكان الواحات — كما نرى فى بعض صورهم التى رسمها المصريون القدماء — . والنوبيون كذلك ليس لهم من مميزات الأفريقيين غير السمرة الشديدة ، وأهل الصومال الذين أسماهم الفراعنة أهل « بنط » لا تكاد سحنهم وألوانهم — كما تبدو فى صورهم التى سجلها المصريون من رجال البعثة أيام الملكة « حتشبسوت » — تختلف عن سِحَنِ المصريين وألوانهم فى شىء .

« الفريجيين »(١) أسبق منهم ، وأنهم أنفسهم أقدم من الآخرين جميعا .
ولما لم يستطع الملك ، بأية وسيلة من الوسائل ، الاستعلام عن أى الشعوب أعرق فى الوجود ، فكر فيما يلى : —

عهد بطفلين حديثىْ المولد ، من بين العامة ، إلى راع ليربيِّهما بين ماشيته على النحو الآتى : أمر الملكُ بألا ينطق أحدٌ بكلمة ما أمام الطفلين ، وأن يوضعا فى مكان منعزل ، وأن يُحْضِرَ إليهما الراعى عنزات فى ساعة معيَّنة ، وبعد أن يشبعهما من لبنها ، عليه أن يقضى سائر حاجاتهما . قام « اپسماتيك » بهذا العمل ، وأصدر أوامره رغبةً فى أن يسمع أول صوت يصدر من الطفِّلين بعد أن يقدرا على إخراج المقاطع(٢) واضحة . وهذا ما حدث : انقضى عامان

(١) الفريجيون قوم سكنوا آسية الصغرى منذ عصور قديمة . وكانت ديارهم فى المناطق الوسطى منها . انظر : Breasted, Gesch. Aeg. SS. 227,263

(٢) يكاد الناظر فى هذه القصة يرى من خلالها أطيافا من الشك الذى يقفز فيشط بها إلى مواطن الخيال ؛ إذ ليس من السهل أن نتصور أن آل فرعون الذين أفنوا من عمر الزمان دهوراً يفاخرون أمم الأرض بمجدهم وعراقة أصلهم، وقدسية لسانهم ، ثم يرون أنهم ارتفعوا بكل أولئك من عوالم الأرض إلى أجواز السماء ، يلجأون إلى مثل هذه التجربة إلا أن تكون عقولهم قد شاخت فخرفت ، كما شاخ من حولها الزمان أيام « اپسماتيك » الذى تشكك كُتَّابُ التاريخ فى أصله حتى قال بعضهم إنه لم يكن من أصل مصرى عريق (انظر ص ٤٤/٤٥) . ولسنا نرى فى حكم العقل ، ولا فى حكم المنطق ؛ ولا فى حكم الزمن وظروف الحياة المصرية يومئذ ما يمنع من أن تكون القصة صحيحة ؛ فالأيام كانت قد تغيرت ، وألوان الحياة كانت قد تبدلت ، وكبرياء المصريين وعزتهم كانت قد رقت ؛ لكثرة ما نزل بهم من محن ، كما أن مليكهم « اپسماتيك » لم يكن مصرى الأصل — كما قدمنا — ، ولا مصرى الهوى فيما يبدو ؛ فرهطه الأدنون وعشيرته الأقربون ، ورجال بلاطه ، وأمراء عسكره ، لم يكونوا من الوطنيين ، وإنما كان أكثرهم — إن لم يكونوا كلهم — من الأغارقة النزلاء . ولن يستبعد =

والراعى يقوم بما سبق ذكره . ولكن حدث مرة عندما فتح الباب ودخل على الطفلين ، أن ارتمى كلاهما عند قدميه ونطقا « بِكُوس »(١) . وقد مدّا

== — بعد الذى قدمنا — أن يكون « ابسماتيك » قد قام بتلك التجربة ؛ فمثلها قد حكى عن « فردريك الثانى » ملك بروسيا ، وعن غيره من حكام العصور الحديثة . مثل Jacobus IV ملك اسكوتلانده . انظر :

(Waddell, W.G. HERODOTUS, (LONDON, 1939) Book II, p. 118, Note 1)

ثم (Wiedemann, Herodot's Zweites Buch S. 44 & 44—45)

مهما يكن من شئ ؛ فإنا نشعر أن هوى القصة إغريقى ، وأنها نسجت على منوال إغريقى ؛ فذكر العناز فيها يذكرنا بقصة « زيوس » عندما خشيت عليه أمه RHEA من بطش أبيه KRONOS فبعثت به إلى جبل IDA فى جزيرة « كريت » ؛ حيث قامت على رعايته أرواح الجبل يرضعنه من لبن عنزة أسموها AMALTHEA . وجائز بعد هذا كله أن تكون ثقافة « هردوت » الإغريقى ، وأثر بنى قومه من النزلاء فى مصر يومئذ ، قد مهدا لإخراج تلك القصة فى هذا الثوب الذى يلائم الثقافة الإغريقية ويستسيغه الذوق الإغريقى .

ولو كانت القصة مصرية الأصل والهوى ، لما اختير لغذاء الطفلين غير لبن البقر الذى عاش عليه « حورس الطفل » عندما اضطرت أمه « إيزيس » إلى تركه وحيداً بين أحراج الدلتا كما جاء فى الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » .

(١) إذا كان المعروف أن الطفل يحاكى كل ما يسمع من صوت ؛ فليس يبعيد أن يكون المقطع الأول الذى حاكاه الطفلان هو صوت العناز " Bek "

(انظر : LEGRAND, HERODOT II, p. 66, Nate 1—2)

والقصة بعد هذا كله — أيًّا كان بناؤها ولونها وهواها — إنما تدل على سذاجة فى التفكير . وأكبر الظن أن يكون مصدرها ما كان قائماً يومئذ بين الأغارقة النزلاء والوطنيين من أسباب المنافسة والبغضاء . وسنرى — فيما روى « هردوت » عن العلاقة بين الفريقين — ما يدل على ذلك فى صراحة ووضوح (انظر الحديث عن ذلك فى المقدمة ص : ٤٩ ، ٥٠) .

وينبغى أن نفرض كذلك أن « هردوت » لم يكن مجرداً من الهوى والميل ؛ فإذا لم يستطع أن يميز قومه الأغارقة على المصريين من حيث القدم وعراقة الأصل ، فلا أقل من أن يبحث بين الشعوب عمن يفضل المصريين فى ذلك على كل حال .

أيديهما نحوه . وعندما سمع الراعى هذه الكلمة التزم الصمت أول الأمر . ولكن لما تكررت الكلمة مراراً كلما ذهب لزيارة الطفلين والعناية بهما ، نقل الخبر إلى مولاه الذى أمره بإحضارهما أمامه . وعندما استمع « ابسماتيك » بنفسه إلى الطفلين ، أخذ يستعلم : أى الشعوب أطلق كلمة « بِكُوس » على شيء من الأشياء . وبالبحث اكتشف أن « الفريچيين » يسمون الخبز بهذا الاسم . وهكذا اعترف المصريون وحكموا فى ضوء هذه التجربة بأن « الفريچيين » أقدم منهم . ولقد سمعت من كهنة « هيفايستوس »(١)

---

(١) رأى الإغريق فى معبودهم «هفايستوس» نظيراً لمعبود المصريين «پتاح»؛ فخلعوا على هذا الأخير اسم معبودهم الذى ذكرنا . وهو لديهم ابن أكبر معبوداتهم « زيوس » ؛ أنجبته له زوجته « هيرا » ، وعرفه الرومان من بعد الإغريق فجعلوه من معبوداتهم ، ووسموه بصفته التى آمنوا بها فأسموه MULCIBER « مُلَيِّنَ الحديد » ؛ فهو لدى أصحابه المؤمنين به إنما يمثل النار المنبعثة من جوف الأرض ، لا تتصل ببرق السماء ورعدها وصواعقها . وكان « پتاح » فى عقيدة أصحابه من آل فرعون قد خرج من الأرض ؛ فصوروه فى هيئة آدمى . وكان الصراع بين أصحابه وبين منافسيهم من أصحاب المذهب الشمسى معروفاً منذ أواخر أيام الدولة القديمة .

كان « هفايستوس » عند الإغريق إذاً ، قريباً من الأرض بعيداً عن السماء ؛ يشير إلى ذلك ما جاء فى الأساطير من حدبه على أمه ، وبعده عن أبيه الذى كرهه وغضب عليه فقذف به من قمة جبل « أولِمْب » فظل نهاره يهوى متساقطا حتى إذا ما غربت الشمس وقع على جزيرة « LEMNOS » .

وفى رواية أخرى أن امه « هيرا » ألقته فى اليمّ فتلقّته الأرواح ورعته ؛ فعكف عندها على العمل فى صياغة الذهب . وإذ كان يمثل النار ؛ فقد اتصل عمله — فضلا عما ذكرنا — بكل ما يُستَوى على النار من صناعة ؛ كصناعة الفخار فى « أثينا » . هذا ؛ ولم يكن الفخار وحده ، ولا المعدن وحده ، ولا غيرهما معاً =

فى « ممفيس »(١) أن الأمر قد حدث كما شرحت . ولـكن يروى اليونانيون

= من كل ما يصاغ على النار من منافع البشر وحسب ؛ بل كانت النار فى الأرض خطوة مباركة فى سبيل تقدم الحياة البشرية على كل حال . والذى ينظر إلى قيمة معبود المصريين « بتاح » وعقيدة أصحابه فيه ، ثم إلى قيمة نظيره «هفايستوس» عنـد الإغريق ، يرى الأول يشير إلى ذلك التطور الرفيع فى سَيْر التقدم الإنسانى ؛ فتحت رايته وباسمه خرجت مصر من طور الحياة الزراعية إلى طور الخلق والتصنيع ، وكذلك كانت لمعبود الإغريق مثل هذه القيمة فيما يبدو .

كان « بتاح » يمثل « الصنَّـاع الأعظم » بين أرباب مصر ؛ يحمى الصناعات والفنون ، ويرعى أربابها ، ويلهمهم آيات الفن الرفيع . كما كان كبير أحباره « إمام الصناع » . وتحت راية « بتاح » ظهرت دنيا الفراعنة بخير ما أخْـرجَ للناس من بدائع النحت وروائع الفن . وفوق أديم « منف » وتحت رعاية كهانها صاغ صُنَّـاعها ورجال الفنون فيها من البدائع والروائع مالا يحصى ولا يوصف من تحف الذهب والفضة ، والبرنز والخشب والعاج والحجر ، ومن دروع الحرب وأسلحة القتال وعدته ، ومن عمائر الدين والدنيا ما يحير العقول ويبهر الأبصار .

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن نظيره «هفايستوس» عند الأغريق ؛ فهو الذى صنع درع أبيه «زيوس» وصاغ له صولجانه الرائع . وهو الذى سَلَّحَ «آخيل» وصاغ أسلحة «هرقل» ، ثم صاغ لنفسه — وكان أعرج — عكازتين من ذهب ، وأخرجهما فى هيئة جاريتين . وكانت له دار صناعة فى جبل AETNA بجزيرة «صقلية» ؛ يُعين من كنوزها أباه « زيوس » أيام الحرب والغارة ؛ فيبعث إليه بالأشداء من الآلهة مدججين بأجود أنواع الدروع والسلاح . والعجيب أن « ممفيس » مدينة «بتاح» وكعبته الخالدة ، قد جعلت منها الأيام والظروف معسكرا لجيوش فرعون ودارا لصناعة الحرب فضلا عن كل ماذكرنا من صناعات .

(انظر: BADAWI (Ahmad), MEMPHIS als Zweite Landeshauptstadt im NR. (Cairo 1948) S. 53

(١) ممفيس «منف» ثانية عواصم الدولة المصرية المتحدة فى تاريخ آل فرعون من حيث القدم ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ أيام الأسرة السادسة . وكانت من قبل ذلك تعرف بالقلعة البيضاء أو « الدار البيضاء » . =

— فيما يروون من سخافات متعددة — أن « اپسماتيك » قد أمر بقطع ألسنة بعض النسوة ، وطلب أن يقيم الطفلان بالقرب منهن(١) .

٣ — هذا ما قصه على الكهّان بشأن تربية الطفلين . وسمعت أيضاً فى « ممفيس » حكايات أخرى حين تحدثت مع كهنة « هيفايستوس » . ولقد توجهت كذلك تلقاء « طيبة »(٢)

= ينسب بناؤها إلى « منا » ما بين ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م . وقد أقامها يومئذ عند رأس الدلتا . وبعض أطلالها وخرائبها ما زالت بادية عند القرية المعروفة باسم « ميت رهينة » من قرى مركز البدرشين بمحافظة الجيزة . وإن لها فى تاريخ دنيا الناس عامة ، ودنيا المصريين بخاصة لشهرة فائقة ، كما أن لها من الأسماء والصفات غير ما ذكرنا .

(انظر : BADAWI (Ahmad) MEMPHIS. ibd S. 2 ff.)

ثم (أحمد بدوى ، « فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٠ وما بعدها) .

(١) انظر كيف يحاول « هردوت » تأكيد القصة حين يزعم أنه سمعها من كهان « منف » ثم استطرد مفترضاً ، ومحاولا فى آن معاً أن يستر غرضه ويدارى موقفه حين يرمى من تقدمه فى روايتها من قومه بالسخف ؛ ذلك لأنهم زعموا فى روايتهم أن « اپسماتيك » قد عهد بالطفلين إلى نسوة ، ثم أمر بقطع ألسنتهم حتى لا يستطعن الكلام .

(٢) طيبة : يرجع بعض كتّاب التاريخ بمهد نشأة هذه المدينة إلى أيام الأسرة الأولى (انظر: Beike, Egyptian Antiq. in the Nile Valley, p. 333) ويجعلون نواتها الأولى فى المكان الممتد بين معبديها العظيمين (الكرنك والأقصر) على شاطىء النيل الشرقى ، وبين « ذراع أبى النجا » و « مدينة هابو » على شاطئه الغربى .

ولهذه المدينة العظيمة كأختها « منف » أسماء أخرى . إلا أن اسمها « طيبة » قد اشتهر فى كتب المؤرخين القدامى من يونان ورومان حتى ملأ أسماع الدنيا ، وحتى تغنّى بمجدها الشعراء ومنهم « هومير » ؛ الذى أعجب بكثرة كنوزها =

و « هليوبوليس »[1] من أجل تلك الأمور بعينها ، رغبة فى التأكد من أن

= وعظمة قصورها ، وجعل لها « مائة باب » يتسع كل منها لمرور مائتى رجل (انظر المرجع السابق ص٣٤٢) . وبمثل ذلك وصفها كُتَّاب الغرب الأقدمون ومنهم « ديودور الصقلى » ، و « استرابون » ، و « بيلينيوس » ثم « اسطفانوس البيزنطى » حين أسموها EXATOMPOLUS (ذات المائة باب) أو « ديوس بوليس مجنا » ثم « ديوس بوليس هيميجالى » أى (مدينة الله الكبرى) . ولا يستبعد بعضهم أن يكون الاسم « طيبة » تصحيفاً لاسم مصرى قديم ، وأن يكون الأغريق قداختاروا هذا الاسم — على قلة ذيوعه لدىالمصريين يومئذ — بقصد الملاءمة بينه وبين اسم « ثيبا » الأغريقية ، وعلى ذلك يكون معناه — أن صح هذا التخمين — « القدس » . ولتلك المدينة فى تاريخ الدنيا عامة وتاريخ مصر والشرق القريب بخاصة شهرة لاتعد لها شهرة .

(انظر تفصيل الحديث عن ذلك فى الفصل السابع من كتابنا فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣١٧ وما بعدها) .

(١) هيليوبوليس : (مدينــة الشمس) اسم وَضَعَهُ الإغريق للمدينــة المعروفة فى قلب هذا الوادى ، وكانت أول عواصم المملــكة المصرية المتحدة . يرجع المؤرخون بتاريخ نشأتها إلى ما قبل عام ٤٢٤٠ ق . م . وذلك بعـد ما انسعت آفاق المصريين ، وفطنوا إلى قيمة الوحدة والائتلاف بعـد طول التجارب ، وبعد ما تبين لهم أن أمور حيـاتهم لا تستقيم فى هذا الوادى إلا على أساس الاتحاد الشامل ؛ فبذلوا فى سبيل ذلك كل ما ملـكوا يومئذ من جهد ، حتى بلغ بهم السعى غاية المنى ؛ فجعلوا عرش سلطانهم فى ذلك المـكان الذى يتوسط أقاليم الديار فيقع منها مكان القلب ، وأسموها يومئذ « أون » التى جاء ذكرها فى التوراة . وأكبر الظن أن الاسم كان لبرج يرقب الـكهان منه أفلاك السماء ؛ لا حبا فى النظر فيها ، والتطلع إلى سيرتها وحسب ؛ بل طمعا فى ضبط مواعيد فيضان النهر أولا وقبل كل شىء . فعلى فيضان النهر تتوقف أمور معاشهم . ولقد استطاعوا يومئذ أن يقيموا أمور حيـاتهم على قواعد ثابتة من النظام والحساب المضبوط . =

كهنتها يوافقون على روايات كهنة « ممفيس » ؛ إذ أن كهنة « هليوبوليس » يُعتبَرون أغزر المصريين علما (١) . أما الأحاديث التى سمعتها عن الآلهـة ، فلا أحب أن أشرحها بالتفصيل ، ولـكننى أكتفى بذكر أسماء الآلهة وحسب ؛ لأننى أعتقد أن الناس كلهم متساوون فى القدر الذى يعرفون عن الآلهة (٢) .

= ولم يبق من آثار تلك العاصمة العتيقة غير تلك المسلـَّة القائمة يقصد إليها الناس من السائحين أحيانا . وهى إحدى اثنتين أقامهما فرعون مصر « سنوسرة الأول » ثانى ملوك الأسرة الثانية عشرة (انظر : « فى موكب الشمس » ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها) .

وتعرف المدينة اليوم باسم « عين شمس » . ولسنا نستبعد وجود الصلة بين هذا الإسم الحديث و بين اسمها الفرعونى القديم ؛ ذلك إذا قدَّرنا أن لفظ «عين» تحريف أو تصحيف للفظ القديم « أون » وأن لفظ « شمس » قد أضيف إلى ذلك . ويكون معنى الاسم بعدئذ « برج الشمس » أو « معبد الشمس » أو ما يشبه ذلك . والله أعلم على كل حال .

(١) أما أن كهان « هيليوبوليس » كانوا أغزر الناس علماً ؛ فذلك أمر لا شك فيه . وما نعرف فى تاريخ آل فرعون الطويل، أن طائفة من كهـَّانهم قد استطاعوا أن يُـؤَثـِّـروا فى حيـاة مصر الثقافية والعقلية والروحية بقدر ما فعل أولئك الـكهان . وإن نظرة خاطفة فى مراحل التاريخ الفرعونى لتبيِّـن لنا تلك الحقيقة فى وضوح وجلاء . (انظر : كتابنا « فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٧٣ و ٧٩ و ١٢٩ و ١٥١ و ١٦٨ و ١٩٩ و ٢٧٣ و ٣٠٤ و ٣١٠ و ٨٠٥ و ٨٠٨ و ٨٦٧ و ٨٩٤ و ٨٩٧ و ٩١٣ و ٩١٩ و ٩٢٤ .)

(٢) ليس من المعقول أن يكون أمر الناس فى المعرفة على النحو الذى توهـَّمه « هردوت » ؛ فما من شك فى أنهم كانوا يختلفون فى معارفهم اختلافا شديداً ؛ فمعبودات مصر الأقليمية قد تعددت وتطورت خلال تاريخها الطويل ، وأهل مصر — وأن اتحدوا سياسياً وإدارياً واجتماعياً — قد كانوا يستمسكون بأربابهم الإقليمية ، ويدعون لها كلما أتيح لهم ذلك ؛ فيدفعون بها إلى أمام ، =

فأما ما عساى أن أذكره عنها ، فسأذكره مضطراً فى سياق الحديث(١) .

٤ — أما بخصوص المسائل الإنسانية ، فالكهنة(٢) متفقون فيما بينهم على أن المصريين كانوا — من بين سائر البشر — أول من عرف السنة الشمسية ، وأنهم قسَّموا فصولها اثنى عشر قسماً . ويقول الكهنة إنهم اهتدوا

= وينظمون فى رِقيَسِها وقدراتها ومناقبها ورِقدَمِها ، الطوال والقصار . وإنا لنظن أن أمر المعبودات فى مصر قد غمض على « هردوت » لكثرة ما سمع من مختلف الروايات ، فتعلل بأيثار الصمت عن جهل وعجز .

وليس يفوتنا بعد ذلك أن نشير إلى ما ذكرنا (ص ٢٥) من جهل « هردوت » بلسان المصريين من ناحية ، ومن كره المصريين للأجانب ونفورهم منهم من ناحية أخرى .

كل أولئك أمور كان من شأنها أن تعوِّق الرجل عن إدراك كل ما سمع من الأدلاء والتراجمة من بنى قومه ، خصوصا إذا أضفنا إلى ذلك طول العهد ، وجهل أكثر المصريين الذين اتصل بهم « هردوت » بأصول عقائدهم وتاريخ معبوداتهم . ثم لن يفوتنا بعد هذا كله مكر طوائف الكهان فى عواصم الديار المختلفة بعضهم ببعض ، وضنّ الكهان عامة فى كل زمان ومكان بأسرار عقائدهم .

(١) مثال ذلك ما ورد فى الفصل الخامس والستين من هذا الكتاب .

(٢) واضح أن « هردوت » لا يقصد كهَّان عاصمة بعينها ، وإنما يقصد كهَّان العواصم التى زارها ونعنى : « ممفيس » و « هيليوپوليس » و « طيبة » على النحو الذى مر ذكره فى الفصل السابق . أولئك هم الكهَّان الذين ذكر أنهم رواته ، وأنه سمع منهم ما ينسبون إلى شعبهم من فضل السبق فى العلم والمعرفة .

وواضح من ذلك أن « هردوت » يريد أن يقنع قُرَّاءَهُ بأن ما أثبت فى كتابه من معارف ومعلومات عن مصر وشعبها فى هذا الباب إنما مرجعه إلى رواية الكهان ؛ يثبتها كما نقلها عنهم ، فإن صدقت فهى لهم وعنهم ، وإن كذبت فهى عليهم وليست عليه . لكأنما يريد الرجل أن يعتذر لقومه من إثبات تلك الفضائل الإنسانية التى سبقهم إليها آل فرعون .

إلى معرفة هذا التقسيم بمراقبة النجوم . وهم ـــ فى نظرى ـــ يتفوقون بتقويمهم هذا على اليونانيين ، لأن هؤلاء يضيفون كل ثلاثة أعوام شهراً نسيئاً إلى السنة حتى تستقيم الفصول . أما المصريون فيعدُّون اثنى عشر شهراً ، ولكل منها ثلاثين يوما . ويزيدون على هذا العدد خمسة أيام كل سنة . وبذلك تنتهى دورة الفصول عندهم بنفس التاريخ الذى بدأ به التقويم[1] . ويقول الكهنة إن

(١) تلك حقيقة يقررها سائر الذين كتبوا فى تاريخ آل فرعون ؛ فهم يقررون أنهم قد عرفوا سنة شمسية عدة أيامها خمسة وستون وثلثمائة يوم ، وأنها تختلف فى كثير عن تلك السنة التى ترجع إلى زمان « يوليوس قيصر » .

وقد لا نعدو الواقع إذا نحن قررنا اليوم مطمئنين ؛ أن السنة الشمسيه التى عم التأريخ بها فى الغرب ، والتى جرى التأريخ بها فى سائر بلاد العالم المعروف ، إنما هى أصلا من حساب آل فرعون ؛ عرفوها منذ عصور بعيدة جداً ؛ عرفوها أواخر أيام الفجر الصادق من تاريخ حياتهم ، وجعلوا عدة شهورها اثنى عشر شهراً ، ثم جعلوا الشهر ثلاثين يوما ، ثم زادوا على أيام السنة من بعد ذلك خمسة جعلوها أعياداً يحتفلون فيها بذكرى موالد خمسة من أربابهم الكبرى ؛ وهى على التعاقب « أزوريس » و « إيزيس » و « ست » و « نفتيس » ثم « حوريس » . ثم وزعوا شهور السنة بين فصول ثلاثة ، يَعُدُّ كل منها أربعة أشهر كاملة . وأول هذه الفصول فصل الفيضان ، وثانيها فصل الفلاحة والزرع ، وثالثها فصل الحصاد والجفاف . وذلك تقسيم طبيعى يلائم وجه الأرض وألوانه المختلفة على مدار العام . وإن فى ذلك التقسيم الطبيعى الصادق وحسابه الفريد ما يشير إلى قيمة النيل وأثره الواضح فى تفكير المصريين الأصيل المنبعث من طبيعة أرضهم ، ولن يبدو غريبا أن يجعل المصريون من بشائر الفيضان مطلعاً لعامهم . غير أنه قد بدا لهم من بعد ذلك أن مطلع العام ربما يختلف عن موعد الفيضان مع مرور الزمن ، وذلك بسبب تكرار الأيام الخمسة الزائدة على حساب الدورة ، كما تبيَّن لهم أن أمر ذلك من العيوب الواضحة والقصور فى الحساب . ويتضح الفرق من بعد ذلك بين السنة المصرية التى تبلغ عدة أيامها خمسة =

المصريين كانوا أول من سَمَّى الآلهة الإثنى عشر بألقابها ، وإن اليونانيين

= وستين وثلثمائة يوم . والسنة القيصرية التى تعود دورتها كل خمسة وستين وثلثمائة يوم وربع يوم . ثم يبدو العيب آخر الأمر واضحا فى حساب السنتين معاً ، إذ أن الأخيرة تصبح سنة وستين وثلثمائة يوم كلّما ما استدار العام أربع دورات ، كما أن الأولى تقصر عن الأخيرة ربع يوم كلما استدار العام .

ويظل ذلك العيب واضحاً فى الإثنين حتى يتمكّن البابا « جريجوار » فى غضون القرن السادس عشر الميلادى أن يدخل على السنة من الإصلاح ما يسقط يومها الزائد كل مائة دورة .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نسجل للمصريين فى هذا المجال خطوة موفّقة ثانية ، وهى أنهم — لطول نظارهم فى نجوم السماء — قد لاحظوا مع مرور الزمن أن بشائر الفيضان كانت تطالعهم مع ظهور نجم يبدو فى سمائهم الصافية واضحا قبيل شروق الشمس ، وهو النجم الذى أسماه العرب « الشعرى اليمانية » ؛ مكانه فى دوائر الفلك خلف الجوزاء ، وهو أنورُ كوكبة الكلب الصغرى . وكانت « الشعرى » من معبودات قريش ، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم (سورة النجم) لكثرة عُبّادها الذين افتتنوا بها فعشقوها .

ومن قبلهم عَشِقَ المصريون بهذا الكوكب، وتغنوا بطلعته فى أشعارهم وأناشيدهم الدينية فأسموه « مجلب الفيضان » وجعلوه علما على أمهم « إيزيس » . ولا غرابة فيما فعلوا ؛ فهم إنما يستقبلون بمطلعه الحياة كلما استدار العام ؛ فيتذكرون أمهم تلك ، وهى مصدر الغذاء الأول . فأما اسم الكوكب عندهم فهو « ستة » وكان عند الإغريق فى صورة الكلب ولعل ذلك ما جعل الرومان من بعد الإغريق يصورونه فى هيئة « إيزيس » تعلو كلباً .

(انظر : MEYER, Ed. Aegyptische Chronologie, Abhlg. d, Preus. AK. d. W. Berlin 1904.)

ثم (ERMAN (Ad.), Die Relig. d. Aegypter S. 397)

والمؤرخون يقدرون أن المصريين قد رصدوا مسيرة ذلك الكوكب وجعلوا من مشرقه مطلع العام أيام حكومتهم المتحدة الأولى فى « هيليوبوليس » حوالى =

نقلوا ذلك عنهم(۱) . ويقولون إن المصريين كانوا أول من وقف

= عام ٤٢٤٠ ق.م . وعرفوا دائرة البروج ؛ نذكر منها مثلا ما وجد فى رسوم سقف ضريح الملك « سيتى الأول » بوادى الملوك ، ثم فى سقف إحدى غرفات معبد « دندره » . وقد آل ذلك الأخير إلى متحف اللوفر بفرنسا . وفى المعبد الجنازى الخاص بفرعون «رمسيس الثانى» والمعروف اليوم باسم (الرمسيوم). ثم فى مقبرة « سنموت » من عهد الملكة حتشبسوت بجبانة طيبة .

(۱) لسنا نجد لمقالة « هردوت» التى يزعم أنه سمعها من الكهان المصريين من تعليل غير الخلط وسوء الفهم . إذ أن ذكر الأرباب الإثنى عشر من الأمور المعروفة عند الإغريق، يقصدون بها طائفة الأرباب العليا (أرباب أولمب) وهى على التعاقب:

زيوس . هيرا . پوسيدون . ديميتر . أپوللون . أرتميس . هفايستوس . أثينا پللاس . آريس . أفروديت . هرمس ، ثم هستيا .

تلك هى المجموعة الكبرى التى ذكرها « هومير » ، ثم زيد عليها بعد ذلك واحد وهو « ديونيسيس » . وقد عرف الرومان تلك المجموعة بالأسماء الآتية :

جوپيتر . يونو . نپتون . كيريس. أپوللون . ديانا . ڤولكان . مينرڤا . مارس . ڤينوس . مركور ، ثم ڤستا .

أما المصريون فقد عرفوا التثليث فى كثير من عواصم ديارهم الكبرى مثل « هليوپوليس » و « ممفيس » و « طيبة » . ثم عرفوا « التاسوع » فى « هليوپوليس » من الأرباب الآتية :

آتوم . شو . تفنوة . جب . نوة . أزوريس . إيزيس . ست . ثم نفتيس . وزيد عليها بعد ذلك « حوريس» .

كذلك عرف المصريون فى هذا المجال ما نسميه « الثامون » ؛ يرمزون بأعضائه إلى عناصر الكون الكبرى من ذكر وأنثى . فكان عندهم « نون » و« نونة » للماء الأزلى . و « حاح » و « حاحة » للفضاء اللانهائى ، و « كاك » و « كاكة » للظلام المطبق ، و« آمون » و«آمونة» للهواء . وتلك فى عقيدتهم عناصر الكون كما رآها كهان « الأشمونين » .

ولسنا نجد لرواية هردوت من سند بعد ذلك غير ماذكرنا فى أول الحديث ، إلا ان يكون لنظام الاقاليم فى زمان حكم الآشوريين — الذين قسموا مصر حين غزوها اثنى عشر إقليما — أثر فى تلك الرواية .

للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد، وإنهم أول من حفر الصور على الأحجار[1].
وقد برهنوا لى على أن أغلب ما قالوه قد حدث فعلاً. وقالوا أيضاً إن « مِنَا »
كان أول ملك لمصر من البشر[2]، وإن مصر فى عهده، كانت كلها مستنقعا

---

(١) الغالب أنه يقصد بذلك الكتابة الهيروغليفية، ثم ما انتشر حولها من صور؛ بعضها محفور حفراً غائراً فى الصخر وبعضها بارز.

(٢) هكذا يتحدث « هردوت » عن « منا ». ويقول إنه سمع ذلك من الكهان. والظاهر أن أمر تلك القصة؛ قصة « منا » وتوحيد أقاليم البلاد، بل توحيد القطرين على يديه، وتحت رايته، ثم بناء « القلعة البيضاء » أو « الدار البيضاء » عند رأس الدلتا (انظر: BADAWI (Ahmad) Memphis S.1 ff.) لتكون عاصمة للمملكة المتحدة؛ نقول إن أمر ذلك كله قد كان له فى تاريخ البلاد وفى وعى الأجيال المتتابعة أثرٌ قوىٌ جداً. وإن دوىَّ تلك الأحداث قد ظل يملأُ أسماع الدنيا دهوراً، كما غدا بطل تلك الأحداث علماً من أعلام التاريخ، حتى عدَّه أكثر رواة التاريخ وكُتَّاب السِّير أول ملوك مصر.

فالأثبات التى تحصى أسماء الملوك وأسرهم تشير إلى ذلك، والمؤرخ المصرى السمنودى « منتون » الذى كتب سير الملوك وأخبارهم فى زمان « بطلميوس الثانى » (حوالى ٢٨٠ ق. م) قد جعل الأسر الحاكمة ثلاثين أسرة، وجعل رأس أولاها « منا ».

وعلى الرغم من كل ما ذكرنا؛ فليس حتما علينا أن نأخذ بهذه الأخبار فنجعل « منا » أول حكام مصر من البشر، كلا! إنه لم يكن أول حكام مصر، ولم تكن أسرته أول أسرة حكمت مصر، وإنما هناك أسر أخرى اضطلعت بحكم مصر قبل زمان « منا » وأسرته. وإلى ذلك يشير « ثبت بالرمو »، وهو أقدم جريدة تاريخية تشير إلى من حكموا مصر قبل ظهور « منا » وقبيله. غير أن الظروف التى ظهر فيها « منا » على مسرح التاريخ، واستطاع أن ينتقل بمصر والحياة المصرية من طور إلى طور، قد جعلت من أيامه فاتحة أمة جديدة؛ قامت وحدتها تحت رايته وبين يديه، فأخذ هو وخلفاؤه ينهضون بالبلاد. ==

ما عدا ولاية طيبة بينما لم يظهر فوق الماء جزء واحد من الأرض التي توجد الآن شمال بحيرة « مويريس »[1] ، وهذه تقع من البحر على سفر سبعة أيام تصعيدا في النهر[2] .

= ومن أجل ذلك لم تستطع الأيام أن تنسى له ذلك الحادث العظيم ، ومن أجل ذلك أيضاً جعله الناس على رأس الحاكمين من ملوك البشر في هذا الوادي . وفي ذلك تجوز مبعثه بريق البطولة وتقديسها وبخاصة في أشخاص من امْتُحِنوا في سبيل الوحدة طويلا ، واكتووا بنار الكفاح دهوراً ؛ فصبروا وصابروا حتى شاء الله أن يَصْرِفَ عنهم الكرب ويرزقهم نعمة الفيء في ظل الوحدة .

(انظر : (١) Sethe, Untersuchungen Bd. III, S. 16 ff.

(٢) BADAWI (Ahmad) Memphis, S. 1 — 2

(٣) أحمد بدوي ، « في موكب الشمس » جـ ١ ص ٩٣ — ١٠٠) .

(١) انظر الحديث عن تلك البحيرة (فصل رقم ١٤٩ من هذا الكتاب) .

(٢) تلك رواية نستطيع أن ننسب ما فيها من مبالغة ظاهرة إلى كهان ممفيس ، اللهم إلا أن يكون « هردوت » قد أخطأ الفهم ؛ فكهان ممفيس الذين عشقوا مدينتهم وأحبوا أن ينسبوا الفضل في تعمير الدلتا إلى بطلهم « منا » ، قد جاوزا المبالغة إلى الشطط حين زعموا أن الدلتا قبل أيام بطلهم « منا » كانت خراباً . إذ الواقع أن الدلتا يوم فتحها « منا » كانت عامرة آهلة بالسكان ، مزهوةً بألوان من الحضارات الإنسانية التي لم يتوافر مثلها في صعيد الوادي ولا في أقاليمه الوسطى ، كل ذلك على الرغم مما كان يغشاها من المستنقعات والأحراج التي كانت تزخر بكثير من حيوان الصيد وطيره . وإنه لمن الثابت — حتى في أواخر أيام الدولة القديمة على الأقل — أن سادة البلاد والمترفين من أعيانها قد كانوا يترددون عليها للاستمتاع بين أحراجها بلهو الصيد ولَذَّاتِه .

أما المسافة بين البحر وبحيرة « مويريس » فلا ندري على أي أساس قدر « هردوت » مداها من الوقت ، وبخاصة بعد أن قدر لرحلته من « هليوبوليس » إلى « طيبة » - وهي ضعف ما بين شاطىء البحر و « بحيرة مويريس » — تسعة أيام ، إلا أن تكون سبيله إلى البحيرة قد اختلفت ، أو أن يكون هو قد أخطأ التقدير .

٥ — ويظهر لى أن كلامهم عن وطنهم صحيح ؛ إذ يتضح لمن لم يستمع إليهم من قبل ، ولمن عساه أن يكون قد رأى البلاد وحسب، وكان عليما بصيرا ؛ يتضح له أن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة ، وأنها هبة من النيل[١] . والإقليم الواقع على مسافة رحلة مداها ثلاثة أيام جنوبى البحيرة ، يشبه هذه الأرض فى تكوينه[٢] . وإن كان هؤلاء (الكهنة)[٣] لم يقولوا عنه

---

(١) بمثل هذا تحدث آخرون من الكُتَّاب الأقدمين عن ذلك الجزء من أرض مصر الذى يقع بين ذرعان النيل ، ثم ينتشر من حولها ، والذى اصطلحوا على تسميته بالدلتا . ويعتبر « هيكاتيه الملطى » أول من أشار إلى هذه الحقيقة . ثم أيّده « هردوت » حين قال إن هذه البقاع من أرض مصر « هدية النيل » . ومن الواضح أن ذلك رأى سليم ؛ فأبحاث الجيولوجيين قد أثبتت أن الدلتا كانت مغمورة تحت مياه البحر ، وأن النيل بناها وشكلها من رواسب طميه .

على أن الناظر فى طبيعة الوادى كله من وراء « أسوان » حتى ساحل البحر الأبيض ، لا يكاد يشك فى أن « هدية النيل » لا تتمثل فى ذلك الجزء من شمال الوادى الذى يتحدث عنه هردوت وغيره ممن سبقوه وحسب ، بل أنها تشمل الوادى كله ؛ ذلك لأن مصر قبل النيل لم تكن شيئاً مذكوراً ، ولولاه لبقى ذلك الوادى الأخضر السعيد غمراً فى مياه البحر ، أو جزءً من تلك الصحراء العريضة التى شطرها مجراه شطرين ؛ صحراء العرب وصحراء ليبيا .

(٢) لا نستطيع أن نعرف أى الأقاليم يعنى « هردوت » بالضبط ؛ فهو يجعله على مسيرة ثلاثة أيام من جنوبى « بحيرة موريس » ؛ أى ثلث المسافة بين « هليوپوليس » و « طيبة » . فإذا صح تقديره وجب أن يكون ذلك الإقليم فى الشمال من موقع « سيوط » . ولسنا نستبعد أن يكون عند ذلك المكان الذى يفصل فيه فرع النهر المسمى « بحر يوسف » من أصله عند « ديروط » .

(٣) يقصد الكهنة الذين مر ذكرهم فى الفصلين الثالث والرابع ، أى كهنة العواصم الثلاث « هليوپوليس » و « ممفيس » و « طيبة » .

حتى ذلك الحين شيئاً من هذا القبيل . وهذه طبيعة أرض مصر ؛ عندما تبحر إليها لأول مرة — وما زلت على مسيرة يوم من اليابسه — فإنك ستخرج طمياً إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا[1] . وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقه الطمييه تمتد إلى هذا الحد .

٦ — ثم تمتد مصر على ساحل البحر ستين « إسخينوس »[2] وفقا

(١) حوالى ٦٦ قدما .

(٢) إسْخُيِنُسُوس: σχοῖνος : مقياس من مقايس الأبعاد عند الإغريق ، يقدرونه عادة بنحو ستين «استاد» ؛ أى ما يساوى فرسخين . ويقابله الإغريق بمقياس كان لدى المصريين يقال له «إرى» . وإن كانوا لم يدققوا فى ضبطه ؛ حيث ثبت من تحقيق المقايس التى وردت فى كتب المؤرخين وأصحاب الوصف من الإغريق والرومان ، أنهم يحسبونه بمقدار ٣٠ «استاد» تارة ، و ٤٠ تارة ثانية ، و ٦٠ تارة ثالثة ، ثم ١٢٠ تارة رابعة .

ولما فكر الباحثون فى ضبط هذه المقايس ، استطاعوا — بعد التحقيق والتدقيق — أن يثبتوا أن « الأسخينوس » يساوى فى الأغلب الأعم ٣٠ استاد ، وقد يتراوح أحيانا بحساب « الأستاد الأتيكى » بين ٣٢ و ٣٣ ½ ، أى ما يساوى ٥,٩٤ ك م بحساب المقاييس الحديثة . ثم تغير فى العصور المتأخرة فأصبح يساوى ٤٠ « استاد » أى ٧,٩٢ من الكيلو مترات .

(انظر : Schwarz, Berliner Studien fuer Klass. Phil. XV Heft 3. (1894))

ونستطيع — فى ضوء ما قدمنا — أن نتبين أن « هردوت » قد كان مخطئاً حين قدَّر « الأسخينوس » بستين « استاد » أى ما يساوى ١١,٨٨ من الكيلو مترات .

فإذا كان طول الساحل المصرى فى حسابه قد بلغ ٦٠ « إسخينوس » وكان الأسخينوس يساوى ٦٠ استاد ، فإنه بذلك قد أبلغ طول الشاطىء ٣٦٠٠ =

لتحديدنا إياها من خليج « بلينثوس »[1] حتى بحيرة « سربونيس »[2] التى يمتد بجانبها تل « كاسيوس »[3] . والستون « إسخينوس » تحسب — على ذلك — ابتداء من هذه البحيرة .

إن الذين يملكون الشيء القليل من الأراضى ، يمسحونها بالباع[4] ، ومن يملكون أكثر « بالاستاد » ، وأصحاب الأراضى الواسعة بالفرسخ ، وأصحاب الضِّياع المترامية الأطراف بالأسيخينوس . ولما كان الفرسخ يساوى

= « استاد » ؛ أى ما يعادل ٧١٢,٨ من الكيلو مترات . على حين لايجاوز طول الساحل فى الواقع ٣٧٠ كم .

ويقتضينا الإنصاف ، أن نقرر أن «هردوت» لم يقع وحده فى خطأ التقدير ، وإنما وقع فيه آخرون . ومهما يكن من شيء فإن « الأسخينوس » لم يكن مقداره مضبوطا فى أكثر الأحايين ؛ فهو يطول أحيانا ، ويقصر أحيانا أخرى ؛ يقصر حتى يساوى ٤ « استاد » ، ثم يطول فيبلغ الأربعين ، ولكنه لا يجاوز ذلك بحال من الأحوال .

(١) خليج بلينثيني (نسبه إلى « بلينثين « Plinthine) . وهى بلدة كان موقعها على شاطىء « بحيرة مريوط » . إنه الخليج المعروف اليوم باسم « خليج مريوط » . وموقعه يقابل أقصى الغرب من البحيرة المذكورة .

(٢) « بحيرة سربونيس » : موقعها عند حافة التل المعروف باسم « كثيب القلس » ، وفى أطراف المكان المعروف اليوم باسم « سبخة البردويل » .

(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٣) « تل كاسيوس » : يعرف اليوم باسم « كثيب القلس » .

(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٤) الباع يساوى ٦٦ قدماً .

ثلاثين « استاد » ، والأسخينوس — وهو مقياس مصرى[1] — يعادل ستين « استاد » ، فلذلك يبلغ طول الجزء الممتد من مصر على ساحل البحر ٣٦٠٠ « استاد » .

٧ — ومن الشاطىء إلى مدينة « هيليوپوليس » (نرى) مصر واسعة فى الداخل ؛ كلها منبسطة . ماؤها وفير ، وطميها غزير ، والسبيل التى يقطعها الذاهب من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ فى طولها (قدر) المدى بين هيكل الآلهة الإثنى عشر فى أثينا[2] ومعبد « زيوس » الأولمپي فى « پيزا » . ولو حسبنا طول الطريقين ، لوجدنا أن الفرق بينهما طفيف ، بل إنهما يكادان يتساويان ؛ لأن الفرق لا يزيد عن خمسة عشر « استاد » . فالطريق من « أثينا » إلى « پيزا » تقل بمقدار خمسة عشر « استاد » عن الخمسمئه وألف « استاد » بينما المسافة من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ ذلك القدر بأكمله[3] .

٨ — وتضيق مصر ابتداء من مدينة « هيليوپوليس » جنوبا ، فعلى أحد

---

(١) يقصد أنه كان مستعملاً فى مصر .

(٢) يرى Thucydides أن ذلك الهيكل كان بميدان السوق فى « أثينا » وأن الذى أقامه كان « Pisistratus » ابن « Hippias » وحفيد « Pisistratus الأكبر » . والغالب أن الناس كانوا يتخذون منه مكاناً تقاس من عنده أبعاد الأرض. (انظر : Herodot VI, chap. 108) ثم (Thucydides VI, 45).

(٣) وهنا أخطأ «هردوت» فى قياس البعد بين « الفرمة » و «هليوپوليس» فجعله ١٥٠٠ « استاد » ؛ أى ٢٥ « إسخينوس » (بواقع ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») أى ما يساوى نحو ٣٩٧ كم . ولو أصاب لجعله ٧٥٠ « استاد » (أى بواقع ٣٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») ؛ ذلك لأن البعد المضبوط بحساب اليوم لا يجاوز ١٦٥ كيلو مترا .

بجانبيها تمتد سلسلة الجبال العربية من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربى[1]، ويستمر امتدادها فى اضطراد حتى البحر المسمى ببحر « إروترى »[2] . وهنا توجد مقالع الأحجار[3] التى استخدمت فى بناء أهرام « ممفيس »[4] . وفى هذا المكان يقف امتداد الجبال وتنحنى هذه نحو الجهات التى ذكرت[5] .

وأقصى اتساع لهذه الجبال من الشرق إلى الغرب يبلغ — كما علمت — لمسيرة شهرين . وحدودها الشرقية تنتج البخور[6] . هذه إذن هى الجبال

---

(١) يعنى ابتداء من « الجبل الأحمر » ، فجبل « المقطم » . وامتداده إلى الجنوب مع انحراف إلى الجنوب الغربى .

(٢) بحر إروترى (Ἐρυθρη) هو « البحر الأحمر » . والمقصود هنا بالضبط الخليج العربى . (انظر : Herodot I, 1) .

(٣) يقصد المحاجر الجرانيتية عند « أسوان » . وكان المصريون يَقُدّون منها أصلب أنواع الصخر وأجوده لبناء معابدهم وبعض قبورهم ، وينحتون منها أصنام الأرباب وتماثيل الملوك ، ثم المسلات . وما زالت آثار أعمالهم فيها بادية حتى يومنا هذا .

(انظر : Baike, J. Egypt. Antiq. in the Nile Valley, P. 713, 717)

(٤) يقصد بتلك الأهرام كافة أهرام الدولة القديمة المنتشرة فى الصحراء الغربية بين « دهشور » و « أبى رواش » ، وعلى طول امتداد « ممفيس » التى امتدت عمائرها من جنوبى « البدرشين » إلى شمالى « المناوات » . ثم أخذت تجرى فى امتدادها حتى بلغت فى أواخر أيام الرومان وأوائل أيام العرب ما يواجه « الفسطاط » على الشاطىء الشرقى للنيل .

(٥) يقصد بذلك « البحر الأحمر » .

(٦) تلك حقيقة لا شك فيها ؛ فقد كان المصريون يستوردون البَخُورَ الذى يستخدمونه فى شعائرهم الدينية من بعض مناطق الشرق العربى .

العربية . وعلى جانب مصر من جهة ليبيا تمتـد سلسلة أخرى من الجبـال الصخرية ، مغطاة بالرمال ، توجد بها الأهرام . وهذه السلسلة تأخذ نفس اتجاه ذلك الجزء من سلسلة الجبال العربيَّة الذى يمتد نحو الجنوب . وإذن ، فالبلاد من بعد « هيليوبوليس » — باعتبارها جزءاً من مصر — لم تَعُـدْ عظيمة الاتساع ، بل إن مصر تضيق لمرحلة أربعة أيام تصعيداً فى النهر . والأرض الواقعة بين سلستى الجبال التى سبق الـكلام عنهما عبـارة عن سهل لا يزيد اتساعه فى أضيق أجزائه — كما يبدو لى — على مائتى « استاد » [1] ، فيما بين الجبال العربية والجبال التى تسمى بالجبال اللِّيبيه ، وبعدئذ تعود مصر إلى الاتساع مرة ثانية .

٩ — هذه إذن هى طبيعة البلاد . من « هيليوبوليس » إلى « طيبة » ؛ يستغرق الأبحار تسعة أيام تصعيدا فى النهر ؛ وهى مسافة ٤٨٦٠ « استاد » [2] ؛ لأنها تبلغ ثمانين « إسخينوس » . وها هى أبعاد مصر مجمعة بالاستاد . لقـد أوضحتُ فيما سبق أن طول الجزء المحاذى للبحر ٣٦٠٠ « استاد » [3] . والآن سأبين المسافة — وسط الأرض — من البحر حتى مدينة « طيبة » ، فهى

---

(١) أى حوالى خمسة أميال .

(٢) وهنا أخطأ « هردوت » حين جعل البعد بين « هيليوبوليس » و « طيبة » ٤٨٦٠ استاد (بواقع ٦٠ « استاد » لـكل « إسخينوس ») ؛ فأبلغه ما يساوى بالحساب الحديث ٩٦٢ كم . على حين أنه لا يعدو فى الواقع ٧٢٢ كم .

(انظر : Sethe, Untersuchungen II, 3, S. 8)

(٣) انظر ما تقدم عن ذلك من حديث فى الفصل السادس (هامش رقم ١) من هذا الـكتاب .

٦١٢٠ « استاد »[١]. والمسافة من « طيبة » حتى المدينة المسماة « إليفانتينا » ١٨٠٠ ستاد[٢] .

١٠ — والجزء الأكبر من الأراضى التى تكلمت عنها هو — حسب أقوال الكهنة ، ووفقا لاعتقادى الشخصى — جزء اكتسبه المصريون . فقد بدا لى أن السهل ما بين سلسلتى الجبال التى تحدثت عنهما مِمَّا يلى مدينة « ممفيس » ، كان فيما مضى خليجا فى البحر[٣] ، مثله فى ذلك مثل الأراضى التى حول « أليـون » و « تيوثرانيا » و « إفسوس » وسهل « مياندروس »[٤] . هذا إذا جازت المقارنه بين صغير الأشياء وكبيرها .

---

(١) وهنا جرى « هردوت » على ما تعود من خطأ فى التقدير ؛ فجعل البعد بين شاطىء البحر و « طيبة » ١٢٠ « استاد » ؛ أى ما يعادل ١٢١١,٧٦ كم . ولو أصاب لجعل لكل « اسخينوس » ٤٠ « استاد » ، ولبلغ البعد بذلك ما يعادل ٨٠٧,٨٤ كم ؛ وهو مدى يقرب من الواقع المضبوط على كل حال . فالبعد الصحيح بين شاطىء البحر ومدينة « طيبة » يبلغ نحو ٨٩٠ كم . (انظر : المرجع السابق) .

(٢) ظاهر أنه أخطأ فى تقدير البعد البالغ مداه ٣٠ « إسخينوس » حين جرى على حساب ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس » ، فأبلغه بذلك ١٨٠٠ « استاد » ؛ أى ما يعادل بحساب مقاييس اليوم ٣٥٦,٤ كم . ولو أنه وفق فقدر لكل « إسخينوس » ٤٠ « أستاد » ، إذاً لبلغ البعد بذلك ٢٣٧,٦ كم . وذلك تقدير يقرب من الصحيح ؛ إذ أن البعد بين مدينة « طيبة » و « جزيرة الفيله » لا يجاوز ٢٢٠ كم .

(٣) يكاد كلام « هردوت » هنا يطابق ما يراه علماء الجولوجية والجغرافية من أن الدلتا وما يمتد وراءها من الوادى جنوباً قد كانت حتى أواخر العصر الحجرى القديم غمراً تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .

(٤) لم يكن هذا السهل يبعد كثيراً عن موقع « ملطية » وإن كان مكانه اليوم قد تغير بعض الشىء . (انظر : Herodot I. 18) .

إذ ليس من الأنهار التي كوَّنتْ هذه البلاد بطميها واحد يستحق أن يقارن — من حيث الحجم — بأحد فروع النيل . وفروع النيل خمسة (١) . وهناك أيضاً أنهار أخرى لا تقاس بالنيل فى عظمته ، ولكنها أوجدت آثاراً عظيمة . وفى مقدورى أن أسمى الكثير من هذه الأنهار ، ولكن أهمها هو نهر « أخيلوؤس » الذى يجرى فى « أكارنانيا » ويصب فى البحر . وقد أحال بالفعل نصف جزائر « أخيناديس » يابسا (٢) .

١١ — ويوجد فى بلاد العرب — غير بعيد من مصر — خليجٌ يُوغل فى الدَّاخل من البحر الذى يسمى ببحر « أروترى » (٣) ، وهو خليج طويل وضيق جداً كما سأُوَضِّح ؛ إذا بدأ المسافر من جوف الخليج (٤) ، وضرب فى عرض البحر ، فإنه يستغرق فى عبوره طولاً أربعين يوماً مع استخدام المجاذيف . فى حين أن اجتيازه عرضاً — فى أوسع أجزائه — يستغرق إبحار نصف يوم . وبه يحدث مدٌ وجزْر كل . يوم ويخيل إلىَّ أن مصر كانت فيما

---

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تلك الفروع الطبيعية التى رآها فى زمانه ؛ ذلك لأن المأثور أنه قد كان للنيل ذرعان عشر ، ثم صارت من بعد ذلك سبعاً ، ثم انتهت إلى خمس . (انظر : الفصل رقم ١٥) .

(٢) أخيليوؤس: Ἀχελῷος : يجرى هذا النهر فى الشمال الغربى من بلاد الإغريق ؛ بين « أكارنانيا» و « أتوليا » ، ويعد أطول أنهار بلاد الإغريق ؛ إذ يبلغ طوله ١٣٠ ميلا . وهو أقدم رمز لفرات الماء وصفوه عند الإغريق ويسمونه الآن النهر الأبيض Ασπροπόταμος . وقد كَوَّنَ من رواسب طميه خمس جزر وفيرة الخصب .

(٣) أى « البحر الأحمر » . (انظر : الفصل الثامن هامش رقم ٢) .

(٤) أى من « خليج السويس » حتى « بوغاز باب المندب » .

مضى خليجاً آخر مثل هذا ؛ أحدهما كان يمتد من البحر الشمالى (١) نحو « إثيوبية »(٢) . والآخر من البحر الجنوبى(٣) صوب « سورية » . وإن رأسيهما ليكادان يلتقيان الواحد بالآخر ، لا تفصلهما إلا مساحة صغيرة من الأرض . ولذلك ، إذا ما قُدِّر للنهر أن يُغيِّر مجراه نحو الخليج العربى فماذا يمنعه — وهو يصب فى الخليج — من أن يُيْبِسَهُ فى عشرين ألف عام ؟ إنى شخصيا أظن أنه يستطيع ردم الخليج فى عشرة آلاف عام . فكيف إذن ، فى العصور التى مضت قبل ميلادى لم يقدَّر لنهر هائل ومخصب مثل هذا أن يُيْبِسُ خليجاً حتى ولو كان أكبر من هذا الخليج ؟ .

١٢ — وعلى ذلك فإنى لا آخذ برواية من حدثونى عن مصر وحَسْب ، بل أنا نفسى أؤمن كل الأيمان بأن ذلك قد وقع فعلاً . فقد شاهدت أن مصر تمتد

---

(١) أى « البحر المتوسط » .

(٢) نعتقد أن المقصود بأثيوبية هنا الأقاليم العليا من بلاد النوبة (النوبة العليا) التى أسماها الفراعنة « كوش » ، على حين أسموا النوبة السفلى « واوات » . ولتلك البقاع فى تاريخ آل فرعون منذ قيام حكومتهم المتحدة الثانية (٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م) . مكان واضح ، وحديث متصل ، ثم إن لهم فيها لآثارا تتحدث عما كان لهم هناك من جهود متصلة ، ونشاط عمرانى واقتصادى . وكان يحكمها منذ قيام الإمبراطورية المصرية نائب لفرعون يسمونه « ابن الملك فى كوش » .

(انظر : فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ٧) .

ومن تلك البقاع جاءت تلك الأسرة التى حكمت مصر من عام ٧١٥ إلى عام ٦٦٥ ق . م . وعرفت فى ترتيب الأسر الحاكمة بالأسرة الخامسة والعشرين .

(٣) يقصد « البحر الأحمر » .

فى البحر دون غيرها من الأراضى المتاخمة ، وأن أصداف[1] البحر تُرى فوق الجبال ، وأن هناك طبقة ملحيّة تتآكل بفعلها الأهرام[2] ، وأن الرمال لا توجد فى مصر إلا على سلسلة الجبال التى تقع فوق « ممفيس » . وقد لاحظت ، علاوة على ذلك ، أن مصر ، فى تربتها ، لا تشبه بلاد العرب التى تقع على حدودها ، ولا ليبيا ، ولا سورية . (فمناطق الساحل العربية مأهولة بالسوريين) . بل إن تربتها سوداء[3] وبها شقوق ، لأنها مكونة من رواسب الطمى التى جلبها النهر من « إثيوبية » . ولكننا نعرف أن تربة ليبيا رملية

---

(١) ثبت بالفعل وجود مثل تلك الأصداف ؛ مما يدل على أن جزءاً غير يسير من الأرض التى نسميها مصر كان مغموراً تحت مياه البحر .

(انظر : Ritter, Erdkunde I, S. 858 ff)

(٢) تلك حقيقة أثبتها البحث العلمى ؛ فإن فى التربة المصرية أملاحاً تساعد الأرض على الاحتفاظ بودائعها إذا ما توافر فيها الجفاف ، وتفعل العكس إذا توافرت فيها الرطوبة .

انظر : (١) Seth, Zur Geschichte der Einbalsamierung bei den Aegyptern (Sonderausgabe aus den Sitzungsberichten der Preussichen Akad. der Wissenschaften phil. Klasse (1934) XIII.

ثم : (٢) Lucas, J. EA. XVII, 125.

(٣) تلك حقيقة من الحقائق الواضحة فى تاريخ مصر التى كسا النيل أرضها بتلك الطبقة السمراء التى يحملها فيضانه كل عام ؛ فميزها عما حولها من بقاع الصحراء ، وأسماها أهلها « كيمه » أى السمراء أو السوداء . ويعتقد بعض أهل العلم أن ذلك اللفظ هو الأصل فى اسم « الكيمياء » (العلم أو الفن الأسود) . وقد ساد ذلك الاعتقاد فى القرون الوسطى حتى غدا أمره جدلا بين العلماء .

(انظر : Lippmann, Entstehung & Ausbereitung der Alchemie (Berlin 1919) S. 223 — 314) .

ضاربة إلى الحمرة[1] ، وأن تربة بلاد العرب وسورية صخرية وصلبة بعض الشيء .

١٣ — ولقد حدثنى الكهنة أيضاً عن طبيعة هذه البلاد ، وقدموا لى هذا البرهان الكافى : قالوا إن النهر فى عهد الملك « موريس »[2] كان يروى من مصر الجزء الذى يلى « ممفيس » إذا ما ارتفع الماء فيه ثمانية أذرع

---

(١) ذلك صحيح ؛ فهكذا رأى المصريون لون الصحراء فأسموها « الحمراء ».

(٢) الملك « موريس » : إذا أخذنا بتقدير «هردوت» وهو أن ذلك الملك قد عاش قبل أيامه بتسعة قرون، فسيكون معنى ذلك أننا سنبلغ منتصف القرن الرابع عشر . ق . م ، أى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة . ولا نعرف بين ملوك هذه الأسرة من يصح أن يكون اسمه قد صحف فى لسان الإغريق على هذا النحو ، كما أننا لا نجد بينهم من قام بتلك المشروعات التى يتحدث عنها « هردوت » . وأكبر الظن أن يكون المقصود باسم « موريس » هو الملك «أمنمحات الثالث» من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وصاحب مشروع البحيرة التى تحمل ذلك الإسم فى إقليم الفيوم .

والواقع أننا لا نكاد نذكر من يحمل مثل هذا الاسم « موريس» بين فراعين مصر . وإن كنا نعرف أنه من أسماء البحيرة المعروفة فى الفيوم ، وأنه تصحيف أغريقى لاسمها المصرى « مر — ور » (البحيرة العظمى) . ولا نستبعد بعد ذلك أن صلة فرعون « أمنمحات الثالث » بمشروع البحيرة المذكورة ثم الخلط الذى وقع فى تصحيف اسمه أو تحريفه عند الإغريق قد أنتهيا به أيام «هردوت» إلى ذلك المصير. فاسم «أمنمحات الثالث» المصرى «نى ـ ماعة ـ رع » قد ورد فى قراطيس البردى الإغريقية « مارس » تارة ، و « لامارس » تارة ثانية ، ثم « لابارس » تارة ثالثة .

(انظر : فى موكب الشمس ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها) .

فحسب . ولم تكن قد مرت على موت « موريس » تسعمائة سنة عندما سمعت هذا من أفواههم . أما فى الوقت الحاضر — إذا لم يرتفع النهر ستة عشر أو خمسة عشر ذراعا على الأقل(۱) — فإنه لا يفيض على الأرض بمائه . ويخيل إلىّ أنه إذا استمرت الأرض فى الارتفاع بهذه النسبة وأخذت فى الاتساع كذلك ، فسوف يعانى المصريون الذين يسكنون المناطق الواقعة فيما يلى بحيرة موريس وخصوصاً الإقليم المسمى بالدلتا ، سوف يعانون على مدى الأجيال نفس المصير الذى سيتعرض له اليونانيون يوماً ما وفقا لما كانوا هم أنفسهم يقولون(۲) ، ذلك أنهم عندما علموا أن المطر يروى بلاد اليونان كلها ، وأن هذه بخلاف مصر ، ليس بها أنهار تغذيها ، قالوا سيأتى يوم يخيب فيه أمل اليونانيين الكبير ، ويقاسون ألم الجوع المرير . ويقصدون بقولهم هذا أنه إذا

---

(۱) كان فيضان النهر منذ أبعد عصور التاريخ موضع اهتمام البلاد حكومة وشعباً ، فعلى اعتدال منسوبه تتوقف أرزاق البلاد ، وعليه تقدر الضرائب المطلوبة لخزانة الدولة . ونحن نعرف أن المصريين فى زمان البطالمة والرومان كانوا يعتبرون فيضان النهر مباركا ميمونا إذا بلغ ارتفاعه ١٦ ذراعا . والغالب أن الأمر قد ظل كذلك حتى تغير نظام الإرواء والصرف بعد إقامة المحابس والسدود فى العصر الحديث . ويقدر « هردوت » — فى ضوء ما سمعه من الرواة من أن النيل فى زمان « موريس » كان يروى أرض الشمال (أى أرض الدلتا) إذا بلغ ارتفاع فيضانه ثمانى أذرع — أن هذا الجزء الشمالى من أرض مصر سوف يصاب بمحنة القحط والجفاف نظراً لما ينتظر من ارتفاع فى مستوى أرضه بسبب ما تصيب من رواسب طمى الفيضان على مر السنين ، ما دام الاعتماد فى إروائها على ماء النهر ، إذ أن ماء السماء لا يصيبها إلا غرارا .

(۲) يقصد رواته من الكهان المصريين الذين مر ذكرهم قبل ذلك فى الفصل الثالث ، ويزعم أنهم كانوا أهل علم ومعرفة .

لم يشأ الإله(١) أن يُنزِّل عليهم الغيث ، وأراد أن يهرأهم بالجفاف المتَّصِل ، فسوف يموتون جوعا ما دام ليس لهم مورد غير « زيوس » وحسب .

١٤ — إن ما قاله المصريون عن اليونانيين صحيح . ولكن دعني أتحدَّثُ الآن عن المصريين أنفسهم . وهذا ما أريد تفصيله : إذا قُدِّر — كما قلت آنفا — للأرض التي تحت « ممفيس » (وهي الأرض الآخذة في التزايد) — أن تستمر في الارتفاع بنفس النسبة التي تزايد بها في الماضي ، فماذا عساه

---

(١) ظاهر من ذلك أن « هردوت » كان متأثراً بالفكر الإغريقي والحياة الإغريقية ؛ فبلاده إنما تعتمد في حياتها الزراعية على ماء السماء ، وماء السماء في عقيدته وعقيدة قومه لا يصيب أرضهم إلا حيث يشاء الأله . ويعني بالإله هنا « زيوس » الذي ينزل الغيث (Jupiter pluvius) Ζεύς ὑέτιος .

فأما المصريون فقد كانوا ينتظرون الحياة بين يدي النيل الذي يفيض عليهم في حينه كلما استدار العام . والواقع أنه من الأمور الواضحة في حياة هذا الوطن المصري أن النيل كان وما يزال أساس الحياة ومصدرها ، وأن آل فرعون قد أدركوا تلك الحقيقة وآمنوا بها . ولن يكون غريبا بعد ذلك أنهم قدسوا النهر أو عبدوه . « لم لا يُؤَلِّه من يقوت ويرزق» ! ! .

والذي ينظر في تراثهم الأدبي من ناحية ، وفيما أبقت عليه الأيام من رسوم تصور ألوان حياتهم من ناحية أخرى ، يستطيع أن يرى أثر ذلك واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ولا إبهام ؛ فهذا «أخناتون» صاحب مذهب التوحيد يناجي ربّه ويتحدث بنعمته الكبرى التي أتمها على شعبه بين يدي النيل فيقول مخاطبا ربه : « فَجَّرْتَ النيل لمصر من باطن الأرض ؛ تجريه بالزيادة والنقصان كيف تشاء . وأغثت العالم من حول مصر بماء السماء » . ثم يشير من بعد ذلك إلى مشيئة ربه في تفضيل أهل مصر على غيرهم من سائر خلقه . وذلك حين يناجيه في شأن النيل فيقول : « لتحفظ الحياة على أهل مصر ؛ لأنك اصطفيتهم لنفسك وأنت ربهم جميعاً » .

(انظر : « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٨٢١) .

أن يحدث للمصريين الذين يقطنون هذه البقاع إلا أن يقاسوا مرارة الجوع ما دام المطر لا ينزل ببلادهم والنهر لا يستطيع أن يروى حقولهم ؟ ولكنهم فى الوقت الحاضر ، من بين سائر الشعوب الأخرى وباقى المصريين ، يجنون ثمار أرضهم بغير مشقة تذكر(١) ، فهم لا يكدّون فى تخطيط الأرض بالمحراث ولا فى تفتيت

(١) ذلك ضرب من الوهم ، لأن « هردوت » قد نظر إلى الأمر بإحدى عينيه ، أو استمع إليه بإحدى أذنيه ؛ فأهل مصر فى ماضيهم وفى سائر ما تلا ماضيهم من دهور ، وحتى يومنا هذا ، لم يجنوا غـلاّت أرضهم وثمارها فى سهولة ويسر ؛ لأن النيل الذى يسعدهم قد كان يشقيهم أيضاً ؛ أشقاهم دهوراً أول عهدهم بالحياة على ضفافه حين أخذوا فى تهذيبه وتبرئة واديه مما كان ينتشر فيه من الأخوار والمستنقعات التى كانت غاصة بالاحراج ؛ تغشاها كواسر الوحش وجوارح الطير ؛ فبعض العلماء يقرّرون أن النيل فى أول عهده بهذا الوادى ــ وبخاصة فى دلتاه ــ كان يشبه الجزء المعروف اليوم باسم « بحر الغزال » .

وأن المصريين قد ظلوا عاكفين على مكافحة هذه الطبيعة حتى طهرّوا الوادى من آثارها وأحالوه إلى تلك الجنات الخضر التى رآها « هردوت » ومن جاء بعده ممن وقعوا فى هذا الخطأ ، وجروا وراء أوهامهم ومنهم « ديودور » الصقلى (Diodor sic. I, 364) . ثم ما أكثر ما أشقى النهر أصحابه كلما عزّ ماؤه ، بل كلما زاد فيضانه ، فعج عجاجه ، وتلاطمت أمواجه ، فكسرت السدود والحواجز ؛ هنالك كانوا يقومون له الليل ، ولا تفتر همتهم فى النهار ؛ يكافحون شدته ويتقون خطره ، ويظلون كذلك حتى تهدأ ثورته . والفلاحون فى مصرهم أنشط زرّاع الدنيا ، وأصبرهم على العمل ، وصور حياتهم المنتشرة على جدران قبورهم ترينا كفاحهم الدائب فى سبيل العيش . ودور التحف فى الشرق والغرب غاصة بما خلفوا من تراث حياتهم الزراعية وأدواتها من محاريث وفؤوس ومناجل وغير ذلك . وهم ــ كما تشهد آثارهم الأدبية والدينية ــ لم يشقوا بالزراعة فى حياتهم الدنيا وحسب ، بل آمنوا باستئناف الشقاء فى حياتهم الأخرى أيضاً ؛ فزودوا أنفسهم لذلك بما خالوا أن يزاولوا به أعمال الزراعة .

(انظر : ERMAN, (Adolf), Die Relig. d. Aeg. S. 276 f.)

التربة وتنسيقها ، ولا يقومون بأى عمل من الأعمال التى يشقى بها الآخرون من أجل الثَّمر . ولكن عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه ، ويروى الحقول ، ثم ينحسر ثانية بعد ريِّها ، هنالك يلقى كل منهم بالبذور فى حقله ، ويطلق فيها الخنازير[1] ، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها ، ينتظر بعدئذ موسم الحصاد . وهنالك يُدْرَسُ القمح بواسطة الخنازير[2] ثم يحمل بعد ذلك إلى الدار .

١٥ — وإذا نحن أخذنا بآراء « الأيونيين »[3] فى مصر — وهم يظنون أن الدلتا وحدها هى مصر ، ويقولون إن ساحلها يمتد أربعين «إسيخينوس»[4]

(١) كان المصريون القدماء — إذا ما حل موسم الزرع واستعدت الأرض لأستقبال الحب — يطلقون عليها بعض أنعامهم من الضأن والخنزير ليكسبوها اللين والنعومة ، وليسووا تربتها من بعد الحرث ، أو ليكفروا فيها الحب إذا كانت رطبة لم تجف بعد . وقد ظل استخدام الخنازير فى ذلك أيام الدولة الحديثة معروفاً ، بل ظل قائماً حتى أدركه « هردوت » عندما زار مصر . وأكبر الظن أنه ذكر الخنازير وحدها لذيوعها فى الدلتا ؛ وذلك نظراً لتوافر المراعى الصالحة لحياة هذا الحيوان ، ولأن أكثر إقامة « هردوت » قد كان يومئذ فى الشمال .

(انظر : Kees, H. Kultur Geschichte des Alten Orients (Erste Abschnitt Aegypten S. 35)

(٢) لم يستخدم المصريون فى درس محاصيلهم الخنازير وحدها ، ولكن استخدموا غيرها من الأنعام كالبقر والحمير أيضاً .

(انظر : Kees, ibd. S. 36)

(٣) ظاهر أن « هردوت » يعنى بذلك ما رواه سلفه « هيكاتيه الملطى » .

(٤) يبلغ ذلك البعد فى حساب « هردوت » نحو ٢٤٠٠ « أستاد » أى ما يعادل ٢,٤٧٥ كم ، على حين أن المسافة لا تعدو فى الواقع أكثر من نحو ٢٧٠ كم .

من المرقب(١) المسمى باسم «پرسيوس»(٢) حتى ملاحات «الفرع البيلوزى»(٣) وأنها تمتد حد قولهم ، من البحر فى الداخل حتى مدينة «كاركاسوروس»(٤) التى يتفرع النيل عندها إلى الفرعين «البيلوزى» و «السكانوبى»(٥). أما بقية مصر - فى رأيهم - فهى جزء من ليبيا وجزء من بلاد العرب. فإذا سلمنا بهذا القول ، كان معناه أنه لم يكن للمصريين وطن فيما مضى. فى الواقع أن الدلتا - كما يؤكد المصريون أنفسهم ، وحسب اعتقادى الشخصى - أرض طَمْيِيَّة ، وأنها فى نهاية القول حديثة التكوين. وعلى ذلك ، إذا لم يكن لهم وطن من قبل ، فلماذا يعتقدون أنهم أقدم الشعوب ؟ ولماذا يحاولون المستحيل

---

(١) الغالب أن يكون ذلك المرقب على بعد قريب من المكان المعروف باسم «أبو قير». (انظر : Strabon, 17. 1, 18, p. 801).

(٢) پرسيوس : مرقب فى أقصى الغرب من دلتا النيل ، بالقرب من أبو قير. انظر : (Widemann, S. 87).

(٣) موقع تلك الملاحات لم يكن يبعد عن تلك المدينة التى عرفت باسم «بيلوزيوم» (تل الفرما) ومكانها اليوم بين «تل أبى صيفه» و «تل الفراعين». وقديما اشتهرت تلك البقاع بصيد السمك وتجفيفه وتمليحه وتصديره إلى الخارج وبخاصة إلى سورية. انظر : (Kees, H. ibid. S. 61, 109).

وشبيه بذلك ما يفعله سكان البقاع الواقعة حول «بحيرة المنزلة» فى العصر الحديث.

(٤) Cercasorus : مدينة لم يكن موقعها فى الغالب يبعد كثيراً عن رأس الدلتا. وأكبر الظن أنها كانت عند المكان المعروف اليوم باسم «الورّاق» على الشاطىء الغربى للنيل تجاه «جزيرة الورّاق» ، وعلى بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال من مدينة القاهرة.

(٥) نسبة إلى «كانوپ» المعروفة اليوم «بكوم تمتعدى» فى الشمال الشرقىّ من مدينة الإسكندرية. انظر : (J. Ball, p. 17).

لإثبات ذلك ؟ إنهم لم يكونوا فى حاجة إلى القيام بالتجربة على الطفلين ومعرفة أول لغة يتكلمان بها[1] . ومهما يكن من أمر فأنا لا أصدق أبدا أن المصريين وُجِدُوا فى نفس الوقت الذى تكونت فيه الدلتا التى يسميها « الأيونيُّون » مصر ، بل هم قد عاشوا دائما منذ بدء الخليقة البشرية . ولما أخذت بلادهم فى الامتداد بقى الكثير منهم فى الوراء ، بينما انحدر الكثيرون تدريجياً إلى الأرض الجديدة. وأياً كان الأمر ، فقد كانت «طيبة» التى بلغ محيطها ٦١٢٠ ستاد[2] تسمى منذ القدم « مصر »[3] .

١٦ — والآن : إذا صحت آراؤنا فى ذلك ، فإن الأيونيين يخطئون فى كلامهم عن مصر . أما إذا كان رأى الأيونيين صحيحاً ، فأحب أن أبين أن اليونانيين والأيونيين بالذات لا يفقهون حساباً حين يزعمون أن العالم جميعه مكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا ، وآسية ، وليبيا . إذ يجب عليهم أن يضيفوا

---

(١) انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكتاب) .

(٢) انظر تفصيل الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٣) أكبر الظن أن يكون ذلك أثراً من آثار الدوىّ الهائل الذى ملأ به الزمن أسماع الدنيا من شهرة « طيبة » وذكراها الخالدة منذ نهضتها المعروفة إبّان الثورة على « الهكسوس » ، وما كان لها فى تاريخ الدنيا عامة ومصر بخاصة من خطر ؛ فهى قد غدت بذلك أمّ القُرى ، وزهرة المدائن ، وعاصمة أول إمبراطورية عرفها تاريخ العالم القديم . انظر : (فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ٣١٧ — ٣٧٣) . وقد ظلت ذكراها مدويّة حتى أيام « هردوت » ، واستمرت كذلك أيام البطالمة والرومان . فاما اسم مصر (أيجپتوس) الذى عرفه اليونان والرومان . وعرفته شعوبُ الغرب الحديث من وراء ذلك ، فلا صلة له بطيبة ، بل الغالب أنه تصحيف لأحد أسماء « ممفيس » ونعنى اسمها الدينى : « حة — كا — پتاح » . انظر : (فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٢) .

إلى ذلك رابعاً ، (وهو) دلتا مصر ، ذلك لأنها إذا لم تكن جزءاً من آسيه ولا جزءاً من ليبيا. لأن النيل فى الواقع على هذا الحساب ، ليس هو الذى يفصل آسيه عن ليبيا . ولكن عند رأس هذه الدلتا يتفرع النيل فرعين(١) بحيث تصبح مشاعاً بين آسيه و ليبيا .

١٧ — والآن لنترك رأى « الأيونيين » جانبا ، ونقول كلمتنا بهذا الخصوص: إن مصر هى كل البلاد التى يسكنها المصريون، كما أن « كيليكيا »(٢) هى البلاد التى يقطنها الكيليكيون ، و « آشور » هى البلاد التى يعيش بها الآشوريون. أما آسية وليبيا فلا نعرف لهما فاصلا ولا يوجد بينهما ــ فى الواقع ــ إلا الحدود المصرية . ولكننا إذا آمنا بالفكرة السائدة عند اليونانيين ، فسوف نعتقد أن مصر كلها ابتداء من الشلال ، ومدينة اليفانتينا ، تنقسم قسمين ، وتسمى بالاسمين معاً ، لأن أحد جوانبها جزء من ليبيا ، والجانب الثانى جزء من آسية ، ذلك لأن النيل فى حقيقة الأمر، مبتدئا من الشلال ، متجها نحو البحر ، يقسم مصر فى النصف(٣) ، وينساب النيل فى مجرى واحد حتى

---

(١) انظر : الفصل الخامس عشر (هامش رقم ٦) من هذا الكتاب .

(٢) كيلكيا (Cilicia) : موقعها فى جنوب غربى آسية الصغرى ، وسكانها « الكيليكيون » فى رأى « هردوت » من أصل فينيقى . (انظر : « هردوت » الفصل التاسع من كتابه السابع) .

(٣) يرى « هردوت » أن النهر فى هذه الحال إنما يشطر مصر شطرين : أحدهما فى الشرق ، وهذا أسيوىٌّ . والثانى فى الغرب وذلك ليبىٌّ . ونظن أن أثر ذلك ما زال يبدو واضحا فى تعريف الصحراوين المصريين ؛ فالشرقية منهما تسمى « صحراء العرب » وهى أسيوية ، والغربية تسمى « صحراء ليبية » .

وحين يبلغ النهر شمال القاهرة يتغيَّر مجراه ، وتتغيرُ تبعا لذلك طبيعةُ الأرض التى تعرف باسم « الدلتا » ؛ وهى فى رأى « هردوت » لا شرقية ولا غربيةٌ ولا أسيويةٌ ولا ليبيةٌ ؛ وإنما هى مشاعٌ بين ذلك .

مدينة « كركاسوروس »(١). ومن عند هذه المدينة يتفرع إلى فروع ثلاثة (٢)،

(١) كركاسوروس : انظر الحديث عنها فى الفصل الخامس عشر (هامش رقم (٦) من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أن « هردوت » إنما يتحدث عن فروع النيل السبعة أو الخمسة فى حقيقة الأمر. إلا أن الزمن قد غيَّر ما رآه « هردوت » ؛ فلم نَعُدْ نرى من تلك الفروع غير اثنين رئيسيَّيْن « فرع رشيد » و « فرع دمياط » . فأما الأفرع السبعة التى يعنيها « هردوت » فقد كانت كالآتى :

(١) الفرع البوبسطى (نسبة إلى بوبسطة) ويعرف الآن بترعة « أبى النجا » . وكان قديما يصبُّ عند « الفرمة » .

(٢) الفرع المنـديسى (نسبة إلى « منديس » ما بين « تل الرُّبعة » و « البلقيِّة »). ويعرف الآن باسم « بحر أشمون الرُّمان » ويصب فى « بحيرة المنزلة » .

(٣) الفرع التانيتى ويعرف الآن باسم « بحر مويس » .

(٤) الفرع الفـاطميتى ويعرف الآن باسم « فرع دمياط » .

(٥) الفرع السِّبـنيتِّى (نسبة إلى سمنُّـود) ويعرف الآن باسم « ترعة مليـج » .

(٦) الفرع البلبتينى وكان جزءا من « الـكانوبى » ، يخرج منه عند الرحمانية ثم يجرى فيصبُّ فى البحر الأبيض .

(٧) الفرع الـكانوبى وهو المعروف الآن « بفرع رشيد » ؛ مطلعه عند رأس الدلتا ومجراه إلى الشمال . فإذا ما بلغ « الرحمانية » تفرع إلى فرعين : أحدها « البلبتينى » الذى مر ذكره ، والثانى يتجه إلى الشمال الغربى حتى يدنو من هضاب « ليبيـا » فيصب فى البحر الأبيض ، وكان مجراه مكان « الترعة المحمودية » .

ومن كل أولئك يتبين أن الحال قد تغـيرتْ كثيراً عما كانت عليه أيام « هردوت »، وحتى بعد أيامه . وأن أكثر المصبات التى ذكرها قد عطلتها =

أحدهما يتجه نحو الشرق ويسمى الفرع البيلوزى ، والثانى يسير نحو الغرب وهذا يسمى الفرع الكانوبى . أما الفرع المستقيم من النيل فيجرى هكذا : عندما ينحدر النهر ويصل إلى رأس الدلتا ، (عند هذا الرأس) يشطر الدلتا فى الوسط ، ويصب فى البحر . وليس هذا الفرع هو أشح الفروع ماءً ولا هو أقلها شهرة واسمه الفرع السبنيتى . وهناك أيضاً فرعان آخران ينفصلان عن هذا الأخير ويجريان إلى البحر ، أحدهما يسمى الفرع «السايسى» والثانى الفرع «المنديسى» . أما الفرعان البولبيتى والبوكولى فليسا طبيعيين ولكنهما صناعيان.

١٨ — وإن إجابة «وحى آمون»[1] لتؤكد رأيى بأن مصر عظيمة الامتداد كما أوضحت. هذه الإجابة التى لم أعلم بها إلا بعد أن كنت قد كونت

= الرمال فانسدت ، ثم انتشرت فيما بين ذلك قنوات صغيرة لتصريف المياه من الفرعين الرئيسيين ولأمداد الأرض بالماء . (انظر : «على شافعى» أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد «محمد على الكبير» من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية طبع دار المعارف سنة ١٩٥٠ ثم الأطلس الملحق) .

(١) كان للجالية الإغريقية معبد فى «واحة سيوه» ؛ يقدسون فيه «آمون» (زيوس آمون) ويستوحونه على لسان كهانه . وقد فعل ذلك «إسكندر المقدونى» عندما جاء إلى مصر عام ٣٣٢ ق . م .

انظر : (Wilken, Alexander der Grosse) .

ثم ترجمة ذلك الكتاب بين يدى G. Richardes التى نشرت عام ١٩٣٢ (ص ١٢١ — ١٢٩) . ثم انظر ذكر هذا الوحى فى الفصل الثانى والثلاثين والثانى والأربعين من الكتاب الثانى لهردوت .

ثم Panitz: Mythus und Orakel bei Herodot
(Greifswalder, Beitraege zur Literatur & Stilforschung 7. (1935)

ثم Blackman, A.M. Oracles in Ancient Egypt (JEA. 11 (1925) p. 249—255

وأبى الخاص عن مصر . حدث أن أهل (مدينتى) « ماريا » و «آپيس»[1] الذين يسكنون من مصر أجزاءها التى تتاخم ليبيا، كانوا يعتبرون أنفسهم ليبيين لامصريين . (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لاطاقة لهم به ، ورغبوا فى أن يأكلوا لحم البقر[2] ، وأرسلوا إلى « آمون » مدعين أن ليس هناك شئ يجمع بينهم وبين المصريين ؛ لأنهم يسكنون خارج الدلتا ، وأن ليست بينهم (وبين المصريين) صلة فى اللغة ، وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام : ولكن الإله لم يسمح لهم بذلك قائلا : « إن مصر هى البلاد التى يجرى فيها النيل ويرويها ، وإن المصريين هم الذين يقطنون البلاد مما يلى مدينة إليفانتينا ويشربون من ماء هذا النهر » . هذا ما أجابهم به الوحى .

---

(١) « ماريه » و « آپيس » : واضح من سياق الحديث أن مكانيهما فى الصحراء الليبية من ظاهر الدلتا ، وإلى الغرب من « بحيرة مريوط » .

Kees, Marea (Mariotis) in RE. XIV, 2. Sp. 1676,1678.

فأما الأولى « ماريه » فكانت معروفة بكرومها الغنيَّة ، وظلت كذلك حتى زمان الرومان ، وما زال مكانها وما حوله يحمل اسم « مريوط » حتى يومنا هذا . وأما الثانية « آپيس » فما نعرف من آثارها ما يدل على مكانها ، وما نعرف من خبرها غير ما رواه « استرابون » من أنها كانت على مسيرة خمسة أيام من معبد « آمون » بواحة سيوه .

(٢) كانت عبادة « إيزيس » فى زمان « هردوت » شعبيَّةً عامة فى أقاليم مصر جميعاً . وكانت مزدهرةً فى الدلتا ، وكانت لها يومئذ صفةٌ رسمية نظرا لأن عاصمة الدولة كانت فى الدلتا . ولما كانت « إيزيس » تُصوَّرُ فى هيئة أنثى يزدان رأسُها بقرنىْ بقرة ، لم يكن من المستغرب أن يقدِّس المصريون من أجل ذلك إناثَ البقر ويُحرِّمون على أنفسهم لحومها .

انظر : (Erman, Relig. d. Aegypter S. 337)

١٩ ـــ والنيل وقت الفيضان لا يغمر الدلتا وحَسْب ، بل يفيض كذلك على بعض أجزاء من الأرض المسماة بالأرض الليبية ، وبعض من الأرض المسماة بالأرض العربية إلى مدى مسيرة يومين من كلا الجانبين ، وأحيانا يزيد على ذلك وأحيانا يقل . ولم أتمكن من الحصول على أيَّة معلومات عن طبيعة النهر لا من الكهنة ولا من أى شخص آخر . ولو أننى كنت شديد الرغبة فى معرفة السبب الذى من أجله ينساب النهر فى فيضان جارف مدة مائة يوم ، ابتداء من الانقلاب الصيفى ، ثم بعد مضى هذه المدة من الأيام ، ينحسر ويغيض ماؤه ، ويبقى على هذا الحال طوال الشتاء إلى أن يحين الانقلاب مرة ثانية(١). لم أستطع مطلقاً أن أستقصى من المصريين أيَّة معلومات بخصوص واحدة من هذه المسائل لما سألتهم عن قوة النيل التى تختلف بها طبيعته عن سائر الأنهار . ولقد أردتُ أن أستعلم عن الموضوعات التى ذكرتها ، وسألت أيضاً عن السبب فى أن النيل وحده ـ دون سائر الأنهار ـ لا يهب على صفحاته نسيم .

---

(١) لم يكن يسيراً على « هردوت » وأهل زمانه ، بل ولا على الذين جاءوا بعد ذلك بأجيال وقرون ، أن يعرفوا من طبيعة النهر وأسرار فيضانه ما يعرفُ الناس فى أيامنا وقبل أيامنا بقليل ، ومن ذلك أن ماء النيل مُستَمدٌ من ذلك الفيض الزَّاخر الذى تَتَشرَّبُ به بحيرات إفريقية نتيجةً لما يَجرى إليها من ماء السماء الذى يهطِلُ على جبال الحبشة ، فتتجه سيوله فى الأودية مغربةً لتلتقى بعد ذلك فى الفرعين الكبيرين (النيل الأزرق ونهر العطبرة) اللذَيْن يُمدَّان النيل بالماء بعد ذلك عند « الخرطوم » ؛ هنالك حيث يبدأ ماؤه فى الارتفاع تدريجيا منذ أوائل الصيف ، ثم يزداد الارتفاع خلال شهر يوليو ليبلغ أعلى درجاته فى أواخر شهر سبتمبر . وهنالك تبدو مصر فى تلك الصورة التى أبدع وصفها القائد العربى « عمرو بن العاص » فى رسالته المعروفة إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

٢٠ — ولكن بعض اليونانيين — وقد أرادوا أن يشتهروا بالحكمة — ذهبوا فى تفسير ظاهرة مائه ثلاثة مذاهب مختلفة ؛ أظن أن اثنين منها لا يستحقان الذكر لو لم أكن راغباً فى مجرد الإشارة إليهما .

أحدها يقول إن الرياح(١) الموسمية هى التى تسبب فيضان النيل ؛ لأنها تعوق النهر عن أن يصب فى البحر . ولكن كثيراً ما يحدث ألا تهب الرياح الموسمية ، ومع ذلك يعمل النيل نفس العمل . هذا إلى أنه إذا كانت الرياح الموسمية هى السبب فى ذلك لوجب أن الأنهار الأخرى التى تجرى فى اتجاه مضاد للرياح الموسمية تتعرض تماما لنفس الشئ الذى يتعرض له النيل، بل يكون تأثرها بهذه الظاهرة أكثر وضوحاً لأنها أصغر من النيل ، فيكون تيارها أضعف. ولكن هناك أنهاراً عديدة فى سورية وأنهاراً عديدة فى ليبيا لا تتعرض لما يتعرض له النيل .

٢١ — والمذهب الثانى أشد غموضا من الذى تحدثنا عنه ، وأشد منه إثارة للعجب ، إن صح هذا التعبير . إذ يزعم أن هذه الظواهر تنتج من أن

---

(١) ذلك فى الواقع رأى فسد . ولم يقل به غير Thales « تاليس الملطى » انظر : (Diod. sic. I, 39. 4) . ذلك على الرغم من أنه كان من أبرز علماء زمانه ، وقد تعددت معارفه نظرا لما اكتسب من أسفاره العديدة ، ثم هو قد زار مصر ورأى كثيراً من مشاهدها ، كما كان أول من قدر ارتفاع الهرم من امتداد ظله ، ثم تنبأ بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ، وكان يعد من علماء الدنيا السبعة ، وأكبر الظن أن كثرة ركوبه البحر قد أوحت إليه ما رأى من تعليل فيضان النيل ، وهو رأى أنكره كثيرون من العلماء .

(انظر : Bahr, Die Musen des Herodotus von Halekarnasus, (Stuttgart 1866)

النهر يفيض من المحيط ، أما المحيط فيفيض حول الأرض كلها[1] .

٢٢ — أما المذهب الثالث[2] — ولو أنه فى مظهره أقربها جميعا إلى التصديق — إلاَّ أنه بعيد عن الصحة كل البعد ، إذ لا طائل تحت ما يُدَّعى من أن النيل يستمد ماءه من الثلوج الذائبة ، وأنه ينساب من ليبيا ماراً وسط إثيوبية ويصب فى مصر . فكيف إذن يأخذ ماءه من الثلوج بينما يجرى من أشد الأقاليم حرارةً إلى أخرى أكثر منها برودة[3] ؟ ولكن الأدلّة كثيرة —

---

(١) ذلك أثرٌ من خيال الشعراء القدامى ؛ اتّبعه علماء الكلام وغيرهم من الكتَّابِ وأصحابِ التأويل وأولهم « هكاتيه الملطى » ؛ وهو الذى عناه « هردوت » ورماه بالجهل دون أن يذكر اسمه . على أن النيل قد كان فى عقيدة آل فرعون يستمد ماءه من منهر السَّماء عند منعطفه الجنوبىّ ؛ إذ كان الجنوب قِبْلتهم التى اتجهوا إليها ، كما كان الغرب يمينهم ، والشرقُ يسارَهم ، وكانوا قبل أن يُوغلوا فيما وراء مضيق السّلْسِلة يعتقدون أن النيل يفصل من السماء بين جزيرة « الفيلة » و منطقة « فيلة » .

انظر : (Maspero, Etudes de Mythologie et d' Archéologie : vol. II, pp. 17, 18.)

(٢) يُعزَى هذا الرأىُ إلى Anaxagòràs ، وقد تَبِعهُ فى ذلك وأيدَّه Euripidés ، إلا أن « ديودور الصقلى » أنكره . انظر : (Diodor I, 38)

(٣) ليس يبدو غريبا أن يستنكر « هردوت » مثل هذا الرأى ، فالجبال العالية ، وأمطارُ المناطق الاستوائية فى قلب إفريقية قد كانت لديه ولدى أهل زمانه من الأمور المجهولة ، كما أن أمطار الحبشة الأستوائية التى تَهْمى بها الدِّيَمُ الثِّقال بين شهرى مايو وسبتمبر من كل عام ، لم يُعرَفْ أمرُها إلاَّ بعد أيام « هردوت » ، ولم يردْ ذكرها إلا فى أخبار من عاشوا بعد زمانه بكثير ؛ فعرفوا أسباب فيضان النيل . ومن هؤلاء : Arriánus الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد .

انظر : (Hans Lamer, Wb. d. Antike 2te Aufg., s. 50)

لمن يستطيع أن يعمل الفكر فىهذه الأمور —على أنه ليس من المعقول أن يستمد النهر ماءه من الثلوج . وأول الأدِلّة وأقواها (على ذلك)، هو أن الرياح التى تهب من هذه الأقاليم تأتى حارة ، ثانيا : إن البلاد غير ممطرة ، لا يسقط فيها البرد أبداً . مع أنه بعد — سقوط الثلج — لابد من سقوط المطر فى ظرف خمسة أيام . وعلى ذلك ، إذا كان الثلج ينزل فى هذه المناطق ، فأن المطر يسقط بها . ثالثا : إن الناس سود البشرة بتأثير حرارة الشمس . هذا إلى أن الحدآن والسنونة تعيش طول العام فى هذه الأصقاع ولاتهجرها. على حين أن الكراكى تهرب من شتاء « سكيثيا » وترحل إلى هذه الجهات لتمضية فصل الشتاء . وبناء عليه ، لو كانت الثلوج تسقط — ولو بقدر ضئيل جداً فى هذه المنطقة التى يجرى فيها النيل ويبدأ منها — لما نتج عن هذا شىء ذلك لأن الضرورة المنطقية تؤيِّد هذا .

٢٣ — أما من يعزو الفيضان إلى « نظرية المحيط » فإن كلامه غامض ، يعوزه البرهان[١] . وأنا شخصيا لا أعرف أن نهر « الأُقيانوس » موجود فعلا[٢] . وأعتقد أن « هوميروس » أو أحد الشعراء الذين سبقوه ، ابتكر هذا الإسم وأدخله فى الشعر[٣] .

---

(١) ظاهر أن « هردوت » إنما يَعْنِى هنا « هكاتيه الملطى » وينحى عليه باللائمة كما فعل فى الفصل الواحد والعشرين .

(٢) لقد عرض « هردوت » لقصة الأُقيانوس ومسها مساً مشابهاً فى الفصل الثامن من كتابه الرابع .

(٣) نلاحظ أن « هردوت » — عند ذكر الشعراء — لم يسمّ منهم غير «هوميروس» وعن هذا. انظر: (Ilias XIX, 245, XVIII, 607 ff.) . ثم انظر بعد ذلك (Ukert, Geogr. d. Griechen & Roemer 1,2 S. 8 ff.) .

٢٤ — فإذا كان من الواجب — لدحض الآراء السابقة — أن أُدلى برأيى بخصوص هذه الأمور الغامضة ، فإنى سأشرح — كما يتراءى لى — لماذا يفيض النيل صيفاً : فى فصل الشتاء ، عندما تدفع الزوابع الشمس خارج مدارها المعتاد ، تذهب هذه إلى أجواز ليبيا العليا(١) . ذلك هو تعليلى فى منتهى الإيجاز ، وقد قلت فيه كل شىء . ومن الطبيعى أن يكون ماء المنطقة — التى يقترب منها جداً هذا الإله(٢) ويحلّق فوقها — شحيحاً للغاية ، وأن تجفّ مجارى الأنهار فى هذ الإقليم .

٢٥ — وهذا تعليلى مبيّناً بالتفصيل : إن تأثير الشمس أثناء عبورها سماء ليبيا العليا ، يكون على النحو الآتى : لما كان الجو فى هذه الجهات صافياً على مدار السنة ، وكان الإقليم حارّاً ليست به رياح باردة ، فإن الشمس أثناء عبورها تقوم بنفس العمل الذى اعتادت القيام به خلال الصيف عندما تجرى وسط السماء ؛ أى أنها تجذب(٣) المياه إليها ، وتدفع بها بعد أن تجذبها

(١) يقصد بالعليا « الجنوبية » .

(٢) يعنى بهذا الإله « إله الشمس » أى الشمس نفسها .

(٣) يبدوا أن مرجع ذلك إلى أثر من نظرية اليونانيين القدامى من أصحاب المذهب الطبيعى قبل زمان « أرسطو » ، وآية ذلك أن الشمس وما حولها من الأجرام السماوية إنما تتناول شحناتها الغذائية من الأبخرة الصاعدة ، انظر : (Cicero, De natura deorum II, 15) .

حيث جاء نقلاً عن الفيلسوف اليونانى Kleanthes ما يأتى :

Cum sol igneus sit oceanique alatur humoribus, ... necesse est aut ei similis sit igni, quem adhibemus ad usum atque victum, aut ei, qui corporibus animantium continetur.

« حيث الشمس ناريّة ، وحيث تتغذّى من الأبخرة الصاعدة من المحيط . . . فأمّا أنها تشبه النار العاديّة التى تستعمل فى الحياة اليوميّة ، أو تشبه حرارة =

إلى المناطق العليا[1] . وهناك تستحوذ عليها الرّياح وتشتتها وتذيبها . ومن الطبيعى أن الرياح التى تهب من هذه البلاد ـ الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية ـ تجلب معها أمطاراً أغزر بكثير ممـا تجلبه كافة الرياح . ومع ذلك يبدولى أن الشمس لاتبعث كل سنة بكل ما جذبته من ماء النيل فى هذه السنة ؛ بل تُبقى بعضه بجانبها . وعندما يعتدل الشتاء ، تعود الشمس ثانية إلى وسط السماء . ومنذ ذلك الحين تجذب المياه من كل الأنهار على السواء . هنالك تفيض هذه الأنهار بمياه وفيرة لكثرة الأمطار التى تختلط بها ؛ وذلك لنزول المطر بالبلاد وامتلاء الأرض بالجداول . أما فى الصيف فتنضب مجاريها لعدم نزول المطر ، ولامتصاص الشمس لمياهها . ولما كان النيل لا يتغذّى من مياه الأمطار وفى نفس الوقت تمتص الشمس ماءه ، فأنه لذلك — بطبيعة الحال — النهر الوحيد الذى يجرى فى هذا الفصل وقد انخفض مستواه كثيراً عمّا كان عليه فى الصيف . وفى الصيف تجذب الشمس ماءه كما تجذب فى الوقت عينه المياه كلها . ولكنه يخضع وحده لتأثيرها فى الشتاء . فإنى لذلك أعتقد أن الشمس سبب فيضان النهر .

٣٦ — والشمس فى رأيى أيضا هى السبب فى أن الهواء هناك[2] جاف ؛ لأنها تلفحه أثناء سيرها : لهذا فإن المناطق العليا من ليبيا بها صيف دائم .

= الجسد اللازمة للحياة » .

ثم انظر : (Milton, Paradise Lost V. 423 — 5)

حيث جاء « إن الشمس التى يعمّ برّها الجميع ، إنما تنال جزاءها الحيوى من الجميع » .

(١) يقصد « بالعليا » الجنوبية .

(٢) يقصد فى مصر حيث يجرى النيل ويفيض على جانبيه فيغمر الأرض .

ولـكن ، إذا تغيَّرت مواقع الفصول ، وأخذت الرياح الجنوبية —والصيف — موقعها فى أجواز السماء ، حيث تقع الآن الرياح الشمالية والشتاء ، ووقعت الرياح الشمالية حيث تقع الآن الرياح الجنوبية ، لو حدث ذلك إذن لسارت الشمس — وقد دفعها الشتاء والرياح الشمالية فى وسط السماء — نحو المناطق العليا من أوروبا(١) كما تسير الآن فى المناطق العليا من ليبيا(٢) . ويخيل إلىَّ أنها — أثناء عبورها أوربا كلها — كانت تؤثر على « الأستروس »(٣) نفس الأثر الذى تحدثه فى النيل .

٣٧ — أما بخصوص الرياح وعدم هبوبها على سطح النهر ، فرأيى أنه ليس من الطبيعى مطلقاً أن تهبّ ريح ما من جهات شديدة الحرارة ، لأن الرياح تهبُّ عادةً من جهة باردة .

٣٨ — لتبق هذه المسائل إذن كما هى ، وكما كانت منذ البداية . وفيما يتعلق بمنابع النيل(٤)، لم يفخر أحدٌ من المصريين أو الليبيين أو اليونانيين الذين تحدثوا إلىّ بأنه يعرف عنها شيئاً حاشا مسجِّل الخزائن المقدَّسة لأثينا(٥)

---

(١) يقصد « بالعليا » الشمالية .

(٢) يقصد « بالعليا » هنا الجنوبية .

(٣) الإستروس : نهر « الإيستر » ثم « الطُّونة » (Donau) أو « الدانوب » فيما بعد .

(٤) انظر ما جاء فى الحديث عن ذلك فى الفصول من رقم ١٩ إلى رقم ٢١ .

(٥) أثينا : اسم المعبودة الإغريقية المعروفة أسمى به الإغريق فى زمان « هردوت » — بل ربما قبل زمانه — معبودة المصريين « نيت » . ولم يعدموا الوسيلة إلى خلق الأسباب التى دعتهم إلى ذلك .

فمعبودتهم « أثينا » وهى ابنة معبودهم « زيوس » من زوجته « ميتيس » =

بمدينة « سايس » فى مصر(١) . وقد بدا لى أنه يمزحَ حينما ادَّعى أنه يعرف الحقيقة تمام المعرفة(٢) . وهــذا ما قاله : يوجد بين مدينتى

= (MĒTIS) ، قد كان لها عندهم اسمان وطبيعتان : كانت لديهم باسمها « أثينا » «ربة الحكمة » ، وباسمها بللاَّس (PALLAS) «ربة الحرب». وهى فى خيالهم قد خرجت من رأس أبيها « زيوس » بعد أن ابتلع أمها MĒTIS . ثم من ديمة دكناء انشقَّت عنها من خلال سماء مُرعدة ؛ فلما صَفَتْ ، تجلتْ المعبودة فى ذلك الهدوء الذى يَعْقُبُ العاصفة . فإذا هى لديهم بعد ذلك ذات طبيعةٍ مزدوجة ؛ فيها شدة السماء حين تثور فيغشاها الظَّلام ، وفيها صفوها حين تهدأ وترقّ .

صوَّرها أصحابها فى لباس الحرب تحمل درعها ورمحها ، وخالوها تقودهم إلى ميادين القتال ، ثم تمنحُهمْ من بعده نصراً وأمناً وسلاماً .

انظر : (Petiscus, Der Olymp. (Leipzig 1863, S. 702 ff

ولم تكن المعبودة المصرية « نية » فى عقيدة أصحابها تختلف عن ذلك كثيراً ؛ جعلها أصحابها ربَّةً للفيض الأعظم الذى انبعثت منه الحياة الأولى ، ثم هى البقرةُ الحنون الأولى التى رمزوا بها إلى السماء ؛ فهى من هذه الناحية سماويَّةٌ عُلْيا ، شأنها فى ذلك شأن « إيزيس » ؛ فيها نورُ السماء وحكمتُها . ثم هى فى الأرض ربَّةُ الحرب ؛ تبدو كما صوَّرها أصحابها فى هيئة الأنثى من بنى آدم مسلَّحةً بسهميْن متقاطعيْن تارةً ، أو بسهمٍ ودرعٍ تارةً أخرى ، وخالوها تشقّ الطريقَ أمام فرعون إلى الحرب ، ثم فى موكب النصر الذى يعقب الحرب .

انظر : (Erman, Relig. S. 33)

(١) « سايس » كان اسمها المصرى « ساى » ، وكانت حاضرة الإقليم الخامس من أقاليم الشمال ، وتُعرفُ اليومَ باسم « صا الحجر » .

(٢) كلا ! لم يكن الراوى مازحاً كما ظنَّ « هردوت » ؛ فالرواية صحيحة فى عقيدة آل فرعون الذين كانتْ شلاَّلاتُ أسوان لديهم منابع النهر التقليدية حتى بعد ما أدركوا المدى بينهم وبين منابعه . ونحن نلتمس العذر لهردوت الذى كان يفكرّ بعقله ؛ على حين كان المصريُّون يراعون عقيدتهم وتقاليدهم القديمة . =

« سوينى »(٥) فى ولاية « طيبة » و « اليفانتينا » تلان ينتهيان بقلتين مدَّببتين ، إحدهما يسمى « كروفى » والآخر « موفى »(٦). ومن بين هذين

= انظر : (Kees, Aegypten (Muenchen) 1933. S. 211)

ولم يكن عجباً ألا يجد هردوت بين المصريين من يدلَّه على منابع النيل ؛ فالنيل فى خيال المصريين أو عقيدتهم الدينية قد كان يفيض من معينين : أحدهما دموع إيزيس على زوجها الشهيد . والثانى عرق ذلك الشهيد . والقصة بعد هذا كله تصوير لآمالهم فى عودة النيل ؛ يصوِّرونه فى بعث ذلك الشهيد .

انظر : Palanque, Le Nil à l'époque Pharaonique (Paris) 1903 p. 13 ff.

ثم Hans Bonnet, Reallexikon der aegyptischen Regligionsgeschichte (Berlin 1952) 528.

(١) يقصد « أسوان » .

(٢) « كروفى » و « موفى » : ورد اللفظ الأول فى لوح المجاعة المعروف فى « جزيرة سهيل » (سطر رقم ١٤) منسوباً إلى « جزيرة الفيلة » ؛ وهناك يشير النصُّ إلى وجود مكانٍ بالنيل يحوى الماء الذى يُجدِّد فيضه السنوى .

انظر : (Paul Barguet, La Stèle de la Famine à Sehel p. 22 ff)

ويشيرُ الكاتب المذكور إلى اختلاف المؤرخين فى تفسير معنى اللفظين وإن اتفقوا على وجودهما فى خيال المصريين كما ذكر « ماسپرو » من قبل

انظر : (Maspero, Etudes d. Myth. et d' Arch. eg. III. p. 385—387):

ولفظ «كروفى» الذى أوردَهُ «هردوت» ينبغى أن يكون بناءً على ذلك تصحيفاً للَّفظ القبطىِّ (« ! » خروف ϫⲣⲟϥ) وأصله المصرى grf ومعناه « ردئ » على حين أن لفظ « موفى » لم يختلف عن أصله القبطى « ⲛⲟⲩϥⲓ » وإن كان يختلف قليلا عن الأصل المصرىِّ القديم « nfr » بمعنى « طيب » . ذلك هو رأى بعض العلماء نثبتهُ كما ورد على كل حال .

انظر : (Spiegelberg, Koptisches Handwoerterbuch, S. 44)

ثم (Crum, Coptic Dictionary p. 127) ، حيث التَّعليق على معنى اللَّفظيْن كما وردا فى كتاب « هردوت » .

التّلين تتفجّر منابع النيل وهى ذات عمق سحيق . وينساب نصف الماء نحو مصر فى اتجاه الرياح الشمالية ، والنصف الآخر نحو الحبشة فى اتجاه الرياح الجنوبية(١). وأضاف هذا المسجِّل أن « ابسماتيك » ملك مصر أثبت بالتجربة أن المنابع لا غور لها ، إذ جاء بحبل مجدول يبلغ طوله عدة آلاف من الأبواع ، وأدلى به فى هذا المكان فلم يصل إلى القرار . وإذا كان ما قاله المسجل قد حدث فعلا ، فقد بيّن كما فهمت أنه توجد بهذا المكان — وذلك بسبب انهمار الماء الشديد على الجبلين — دوّامات قوية وتيارات مضادة ، مما أدّى إلى أن المسبار — عند الأدلاء به — لم يستطع بلوغ القاع(٢) .

---

(١) لسنا نستبعد — بناءً على ماتقدم — أن يكون المصريّون قد خالوا أحدى القلّتين « كروفى » رديئة لأنها تبعثُ بمائها إلى الجنوب ، وخالوا ثانيتهما « موفى » طيّبةً خيّرة لأنها تبعثُ بمائها إلى مصر . والله أعلم بالحقيقة على كل حال.

(٢) ليس غريباً أن يهتمّ المصريّون حكاماً وشعباً بنيلهم ويرْوا فيه ربّاً يُعبَد ؛ فهو قد كان لديهم — وما يزال لدينا — مصدر الحياة ورسولها الأول ؛ صوّره أسلافنا على آثارهم الخالدة كهيئة بشرٍ ؛ لا هو بالذّكر الخالص ، ولا هو بالأنثى الخالصة . له من مظاهر الذّكرِ لحيتهُ ، وفيه من خصائص الأنثى ثديان ضخمان ، وبطنٌ يشبهُ بطنَ الحامل من النساء . وفى ذلك رمزٌ إلى امتلائه بالخير . ولم يكن عجباً أن يقدّسه المصريون فى كلّ إقليم من أقاليم الوادى ، علماً بأن دار مقدسه الأولى وكعبته الأصيلة قد كانت فى كهفٍ من صخور جزيرة « بيجه » خلف سد أسوان . ومرجعُ ذلك — أغلب الظن — إلى الوقت الذى خال فيه القوم أن الشلال الأول قد كان أقصى حدود واديهم الجنوبية ، وأن مهبط المُزنِ الهطّال الذى يملأ النهر عند جرفيّن صخريّين من صخور الجزيرة ؛ خالوا عندهما دوّامتين ينبع منهما النهر .

انظر : (Maspero, Mémoire sur quelques papyrus du Louvre = pp. 99,100)

٢٩ — لم أستطع أن أعرف شيئاً من أحد سواه ، ولكننى وصلت إلى هذه المعلومات بعد استقصاء بعيد المدى ، ذهبت حتى مدينة اليفانتينا ، واعتمدت على مشاهداتى الشخصية : فأما فيما بعد هذه المدينة فروايتى تعتمد على السّماع : ابتداء من مدينة اليفانتيا ، يجد المسافر صعداً فى البلاد أنها آخذة فى الارتفاع ، لذلك يتحتم — للتقدم هناك — ربط القارب من طرفيه كالثور ، فأما إذا ما انفلت زمامه حمله التيّار الجارف وذهب به . والنيل فى هذه المنطقة

---

reproduced by Brugsch in the (Dictionnaire géogr. = pp. 860,861) .

وبين الرسوم الفرعونية وما حولها من متون ، ما يمثّل صخوراً كُومّت بعضها فوق بعض ؛ تعلو إحداها « رَخَمَةُ الصّعيد » ويعلو الأخرى « باز الشمال » ، ومن أسفلهما حيّةٌ تحيط بكهف النيل فى هيئته التى وصفنا أولَّ الحديث ، وبكلٍّ من يَدَيْه إبريق ينصبّ منه الماء .

فإذا ما كان الصيف وانساب الماء من ذلك المكان جارياً إلى الشمال فبلغ صخور السلسلة ، هب كهّانُ الإقليم أو هبّ فرعون نفسه أو أحدُ ولده إلى ذلك المكان ليضحىّ بثورٍ وبعض أوز ، وليلقى بتلك الضحيّةِ فى النهر مصحوبة بوثيقةٍ مختومة بآمالهم فى أن يكون فى فيضُ النهر ما يحقّق الخير لمصر .

انظر : (Brugsch, Matériaux pour servir à la reconstruction du Calendrier des Anciens Egyptiens, p. 37) .

ولسنا نستبعد أخيراً — وبعد الذى ذكرنا — أن يكون لكلّ هذه التقاليد القديمة أثرٌ فيما حُكِىَ عن قصة « عروس النيل » التى جاء ذكرُها عند العرب فى رواية لمؤرخّهم « ابن عبد الحكم » الذى عاش فى القرن الأول الهجرى ، والذى لم يعرف عنه أنه زار مصر ، ثم فيما رُوِىَ عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » من أنه بعث برسالةٍ إلى النيل ، وأمر واليه على مصر « عمرو بن العاص » أن يلقى بها فى مجراه حين تأخر فيضانه عن موعده وإبّانه.

—التى يتطلب عبورها أربعة أيام بالقارب — متعرّج مثل نهر «الماندروس»(١)
وطول المسافة التى يجب قطعها بهذه الطريقة ، اثنا عشر «إسخينوس»(٢)
ثم تصل بعد ذلك إلى سهل منبسط ، ينساب النيل فيه حول جزيرة تسمى
« تاخومبسو »(٣). ويسكن الأثيوبيُّون المنطقة التى تلى مدينة اليفانتينا مباشرة ،
كما يقطنون نصف الجزيرة . ويقطن المصريون نصفها الآخر . وتجاور هذه
الجزيرة بحيرة عظيمة يسكن حولها اثيوبيُّون رُحَّل . فإذا عبرتها فإنك تصل
إلى مجرى النيل الذى يصب فى هذه البحيرة ، وبعد ذلك تنزل إلى البر ، وتسير
بحذاء النهر أربعين يوماً(٤) ، إذ توجد فى النيل صخور حادة وجنادل عديدة

---

(١) نهر « المياندروس » أحد أنهار Phrygie يبدأ مجراه قبل Célaene ويصبّ فى جنوبى Ephèse .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦ هامش رقم ١) .

(٣) تاخمبسو : مكان موقعه جنوبى أسوان . ولقد اختلف الكتّاب والمؤرخون فى تحديد الموقع وضبطه ؛ فبعضهم يجعله على الشاطئ الشرقى ، وبعضهم يجعله على الشاطئ الغربى ، وفريقٌ يجعله جزيرةً من جزر النيل ، وفريق يجعله قريةً . على أن الجميع يتفقون على أن الموقع كان عند حدود مصر الجنوبية .

أما أن «تاخمبسو» كان يسكنها مصريون وأثيوبيون ، فذلك قول يطابق ما قاله «استرابون» عن «فيلة» κοινὴ κατοικία Αἰθιόπων τε καὶ Αἰγυπτίων
والظاهر من كلام « هردوت » أنه إنما يتحدَّثُ عن مدينة : πόλις وليس عن جزيرة : νῆσος . وليس ببعيد أن يكون الرجل قد خلط بين « فيلة » و « تاخمبسو » .

انظر: (Sethe, Untersuchungen, II, Dodekaschoinos, s. 4 ff.

(٤) كانت البعثات المصرية التى اعتادت ارتياد أقاليم النوبة تكرهُ ركوبَ اليمِّ لأمرين : أولهما صعوبة الملاحة على متن النهر من وراء الشلال ، والثانى =

تتعذر بسببها الملاحة . وبعد اجتياز هذه المنطقة فى الأيام الأربعين ، تأخذ من جديد سفينة أخرى وتبحر اثنى عشر يوماً ، تصل من بعدها إلى مدينة عظيمة تسمى « مروى »(١) . ويقال إن هذه المدينة هى عاصمة الأحباش الآخرين ، وسكانها لا يعبدون من الآلهة إلا « زيوس » و « ديونيسوس »(٢) فقط .

= ما كانوا يَخْشَوْنَهُ من سطو العصابات التى كانت تضرب على شواطئ النهر . ومن أجل ذلك كانت قوافلهم فى العصور المتأخرة ، ثم قوافل العرب من بعدهم ، تركب الدربَ الصحراوىَّ عن طريق الواحات الممتد إلى « الفاشر » فى غرب السودان فتقطعه فى أربعين يوما .

انظر: Show, Darb el - Arbaein — The forty days road): Sudan Notes & Records 12, (1929) p. 23 ff.)

(١) « مروى » : مدينة قديمة معروفة . تقع على مقربةٍ من الشلال الرابع . وكانت فى الماضى قاعدة لعرش الأسرة النوبيّةُ التى حكمت النوبة وصعيد مصر ، وجعلت والياً لها من المصريين اسمه « منتومحات » حاكما على إقليم « طيبة » .

وقد نسى أهلُ « مَرْوى » اللّسان المصرى ، واتخذوا لساناً إفريقيا جديداً . كما نسوا — فضلا عن ذلك — أكثر العادات والتقاليد المصرية . وسُمّيَتْ لغتُهم الجديدة فى كتب العلماء باسم « اللغة المرويّة » . ومنذ ذلك الوقت انفصل تاريخ النوبة عن تاريخ مصر .

(٢) « زيوس » : عند هردوت وقبيلة من الإغريق علم على « آمون » المصرى وقد ظل دهرا صاحب المقام الأول بين المعبودات المصرية . ولما هاجرت طوائفُ من كهانه المؤمنين أيام آل « شيشُنق » ؛ هاجرت كلها إلى الجنوب ، وأقامت هناك حكومة مقدّسة تدين دين « آمون » وتقيمُ شعائره فى كعبة له جعلوها عاصمة لحكمهم ، وعرفت فى التاريخ باسم « نباته » وموقعها على سفح جبل برقل .

انظر : (١) Griffith, JEA. III, p. § 255

(٢) Sethe, Amun, 249 =

وهم يمجدونهما تمجيداً عظيما ، ويوجد عندهم وحى لزيوس ، وهم يشنّون الحروب كلما أمرهم هذا الإله — عن طريق الوحى — ويتوجهون إلى حيث يأمرهم .

٣٠ — فإذا أبحرت من هذه المدينة فإنك ستصل إلى بلاد « الفارّين »(١)

= وشيدّوا فيها أكبر معابد « آمون » فى بلاد النوبة ، ونشروا على جدرانه كافة المناظر التقليديّة التى نراها فى معابد مدينة « طيبة » ومن حولها نصوص مصرية أصيلة . فأما « ديونوسيس » فالمقصود به « أزوريس » وكان أحب المعبودات عند المصريين ، بل كان معبودهم الشعبى الذى لم يُنْسَ ولم يُهْمَلْ طوال عصور تاريخهم .

(١) الفـارّون : ليس يبدو غريبا أن يكون رجال هذه الحامية من اللّيبيين ألدّ أعداء « ابسماتيك » ؛ وبخاصةٍ بعد الذى كان من أمر اختيار حرّاسه ، وخاصة أوليائه من الإغريق . نعم ! ليس غريبا أن يكونوا كذلك ؛ فهم كانوا يكرهونه أشدّ الكُره ، ويخشون خطرهُ وشدّته ، ويشعرون أنهم لن يستطيعوا مقاومته إذا ما استعان عليهم بالإغريق .

وكان اللّيبيّون — كما نعلم — يعملون فى الحرس الملكى منذ أيام الأسرة الواحدة والعشرين ، وهم قد استطاعوا — بعد لأى — أن يبلغوا العرش ، فأصبحت لهم أسرة بين الأسر التى حكمت مصر وعرفت عند « مَنِيتُون » بالأسرة الواحدةوالعشرين .

وإذ أحس « الليبيّون » أيام « ابسماتيك » أنهم فقدوا كل ما كان لهم فى مصر من سلطان ، آثروا الهجرة وسمّوا من أجل ذلك عند « هردوت » بالفارّين . ذلك تخمين وتخريج يستند إلى منطق الظروف ، اللهم إلاّ أن يكون لعقيدة المصريّين . الذين كانوا أشدّ النـاس إيماناً بوطنهم ، وبعراقة أصلهم أثرٌ فى ذلك ؛ فهم وحدهم الناس وغيرهم برابرة أو من أشباه الناس ، انظر (Lepsius. D. III, 132) . وإلى قصّة الهرب تشير إحدى أساطيرهم حيث جاء أن ربّهم « رع » قد ظفرَ بأعدائه عند « إدفو » فتمكن بعضهم من الهرب ، وأصبحوا من « الفارّين » ؛ فالذين اتّجهوا إلى الجنوب استقرّوا فى بلاد « كوش » ، والذين اتّجهوا إلى الشمال استقرّوا فى « آسية » ، والذين اتّجهوا إلى الغرب استقرّوا فى « ليبيا » . انظر : (Naville, Mythe. d'Horus 21,2)

فى الوقت الذى إستغرقه ذهابك من إليفانتينا حتى عاصمة الأثيوپيّين . واسم هؤلاء الفارين « أسماخ »(١) وهذه الكلمة تعنى فى اليونانية « الذين يقفون ناحية اليد اليسرى للملك » ، ويبلغ عددهم مئتين وأربعين ألف مصرى من المحاربين(٢) . وقد لجأوا إلى الأثيوپيين لهذا السبب : فى عهد الملك «ابسماتيك» وضعت إحدى الحاميات فى مدينة إليفانتينا تجاه الأثيوپيين، وأخرى فى دافناى(٣) البيلوزيونية تجاه العرب والسوريين ، وأخرى فى مارية تجاه ليبيا(٤) . وتحتل الحاميات الفارسيّة حتى أيامنا هذه نفس الأماكن التى كانت تقيم فيها فى عهد الملك ابسماتيك . ويتولى الفرس حماية إليفانتينا ودفناى .

ظل إذن هؤلاء المصريون يقومون بالحراسة فى إليفانتينا ثلاثة أعوام ، ولم يأت أحد ليعفيهم من هذا العمل . فتشاوروا وقرّروا بالإجماع الثورة على ابسماتيك ، والذهاب إلى إثيوپية . فلما علم الملك بذلك اقتفى أثرهم . وعندما

(١) أسماخ : يرى بعضهم أن هذه الكلمة مصرية ومعناها « الذين ينسون أو الذين يفرّون » كتبها هردوت كما سمعها ، وهو يرى أن معناها « اليسار » .
انظر : (Waddell, Notes, p. 151) ، يبدو أن « ديودور » يرى هذا الرأى أيضاً (Diod. I, 67, 3) .
وفى الحق أن كلمة « أسماخ » موجودٌ أصلُها فى اللّغة المصرية « Smhj » (سِمْحِى) ومعنا « اليد اليسرى » . انظر : (Wb. Bd. IV S. 140) .

(٢) انظر : (الفصل رقم ١٦٤) من هذا الكتاب حيث جاء ذكر الطبقات ومنهم طبقة المحاربين .

(٣) دفنه (دفناى) : انظر :(الفصل رقم١٠٧) ، كان موقعها عند « پيلوزيوم » وعلى بعد قريب من فرع النيل الشرقى . وقد ورد ذكرها فى التوراة .
انظر : (J. Ball, 8, 15, 17) .

(٤) انظر : الفصل الرابع عشر (هامش رقم ٢) .

لحق بهم حاول كثيراً اقناعهم بألاّ يهجروا آلهة آبائهم وأولادهم ونسائهم . ولكن يقال إن أحدهم أشار إلى عورته قائلا : أينما وُجِدَتْ هذه ، فسيكون لهم أطفال ونساء[1] . ولما وصلوا إلى إثيوبية ، قدّموا أنفسهم إلى ملك الأثيوبيّين الذى كافأهم كما يلى : اختلف معه بعض الأثيوبيّين فطلب إلى المصريين أن يطردوهم ويسكنوا أرضهم — ولما أقام المصريُّون بين الأثيوبيّين، أصبح هؤلاء أكثر تمديناً ، لأنهم تطبعوا بالطباع المصرية .

٣١ — مجرى النيل معروف إذن إلى مدى رحلة أربعة أشهر براً وبحراً فضلا عن الجزء الذى يقع من مجراه فى مصر، فإذا قدّرنا المدّة ، وجدنا أن المسافر يقضى هذه الأشهر فى الذهاب من إليفانتينا إلى هؤلاء الفارّين . والنيل يجرى من الغرب ومن مكان غروب الشمس . فأما ما وراء هذه المنطقة ، فلا يستطيع أحدٌ أن يتكلم عنه فى يقين ، لأن هذه البلاد مقفرةٌ لشدة الحرارة .

٣٢ — ولكن هذا ما سمعت من « الكورنيائيّين »[2] الذين قالوا إنهم ذهبوا إلى مهبط وحى آمون[3] ، وتحدثوا إلى « إتيارخوس »[4] ملك

(١) شبيه بذلك ما حكاه Tacitus . انظر : (Tac. Hist. II, 13) . وما حكاه Plutarch . انظر : (Plut. De Virtut. mul. II, S 246) . وأخيراً (Lamer (H) Wb.d. Ant. s: 778.)

(٢) الكرنائيون : هم سكان Cyrene (برقه) ، إحدى المدن التى بناها الإغريق وجعلوها مركزاً وسوقاً لتجارتهم ؛ بنوها أيام الغزو الآشورى فى مطلع الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد (انظر : ص ٤٩) .

(٣) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من هذا الكتاب .

(٤) Etearchus : يسميه هردوت « ملك الآمونيّين » ، ولسنا نستبعد أن يكون أهل الواحات — وقد كانت خاضعة لسلطان فرعون — قد انتهزوا فرصة ضعف المصريين بسبب ما أصابهم من محن كان آخرها يومئذ وقوعهم تحت نير الفرس ، فاستقلوا بواحاتهم وجعلوا عليهم سلطانا منهم إن جاز أن يكون قول هردوت صحيحاً .

الآمونيين[1] ، وبعد الـكلام فى مسائل شتى ، شمل الحديث النيل وكيف أن أحداً لا يعرف منابعه . فروى « ايتيارخوس » إنه ، ذات مرة ، وفد إليه بعض رجال « النسامونيين » (وهم شعب ليبى يقطن حول خليـج « سدرة » فى الأرض التى تقع شرقيَّهُ على مسافة غير بعيدة)[2] . ولمـا جاء إليـه « النسامونيُّون » وسألهم عما إذا كان فى مقدورهم أن يحدِّثوه بجديد عن صحارى ليبيا ، قالوا إنه كان عندهم شباب أرعن من أبناء السّادة ، فـكروا — حين بلغوا سن الرجولة فيما فـكَّروا من مغامرات — أن يختارُوا من بينهم بالاقتراع خمسةً لمعاينة صحارى ليبيا . ولـكى يروا إن كان فى استطاعتهم أن يعرفوا ما لم يعرف الذين بلغوا من قبل أبعد الآماد . (لأن سواحل ليبيا التى تطل على البحر الشمالى[3] إبتـداء من مصر حتى رأس

(١) الأمونيـّون : هم سكان الواحة المعروفة اليوم باسم « واحة سيوة » ؛ حيث أقامت الجالية الإغريقية معبد آمون الشهير الذى زاره « إسكندر » عقب مجيئه إلى مصر . انظر : (Erman, Relig. S. 350) . ثم هم الذين جاء ذكرهم فى الحديث عن « قمبيز » عندما غزا مصر فوجـّه على تلك الواحة جيشاً يضم خمسين ألفاً من عساكره ليحرقوا معبدها ، وليسحقوا سكانها .

وكان هذا الجيش قد خرج من « طيبـة » فلم يكد يبلغ الواحة الخارجة وينفصل منها حتى هلك عن آخره بين « الخارجة » و « سيوة » . وليس من شك فى أن قصـة هلاك الجيش — إن صحت — قد رفعت صيت « آمون » وأذاعت شهرته فى العالم أجمع وفى دنيا الإغريق بخاصة .

انظر : (Ahmad Fakhry, The Oasis of Siwa (Cairo 1950) S. 27 f)

(٢) النساميـّون : موطنهم فى الغالب بالقرب من خليـج « سدره » .

انظر : (Herodot, IV. Kap. 172, 173, 174, 175, 182)

(٣) البحر الشمالى : هو البحر الأبيض .

سولوس(١) — وهذه هى نهاية حدود ليبيا — تسكنها فى جميع أجزائها شعوب كثيرة من الليبيِّين ما عدا الأماكن التى يملكها اليونانيُّون والفينيقيون(٢) ، وفيما عدا الأجزاء التى تقع على البحر ، والجهات الساحلية التى يسكنها البشر ، فإن ليبيا مرتع للوحوش ، ولكن فيما يلى المنطقة التى تأوى إليها الحيوانات الضَّارية ، لا توجد هناك غير صحراء رملية ، جرداء ، شديدة الجفاف) .
وتوجَّه إذن هؤلاء الشباب الذين أرسلهم رفاقهم — بعد أن زوَّدوهم بالماء والمؤن الكافية ، توجَّهوا أولاً إلى الجهات المأهولة — ولما اخترقوها ، وصلوا إلى المنطقة التى تسكنها الحيوانات المفترسة — وعندما بلغوا الصحراء(٣) — متخذين طريقهم نحو الغرب ، وبعدما قطعوا مسافة طويلة من الأراضى الرملية خلال عدة أيام — رأوا فى النهاية أشجاراً نامية فى سهل ، فاقتربوا منها وأخذوا يقطفون ، ما عليها من ثمر(٤) . فما لمسوها إلاَّ وداهمهم

---

(١) رأس سولوس : أكبر الظن أن يكون المقصود بذلك المنطقة الصخرية من صخور ساحل إفريقية الغربى وهى التى عرفت فيما بعد باسم « Spartel » وإن كان بعضهم يظنُّ أن المقصود بها الصخور المعروفة باسم « Cantin » .

(٢) أكبر الظن أن المقصود بذلك هم «القرطاجنيُّون» وحسب، إذ المحتمل أن منازل اليونانيين كانت فى « برقه » ثم فيما يليها غربا من المناطق الساحلية .

(٣) ذلك وصف فيما يبدو سليم ، لأنه يحدد الأقسام الطبيعية الثلاثة فى شمالى إفريقية : المناطق الساحلية المأهولة بالسكان، والمناطق البرية المأهولة بالوحوش ، ثم مناطق الرمال الصفراء (أى الصحراء) .

(٤) أكبر الظن أن تكون القافلة قد بلغت فعلاً قلب إفريقية ، حيث يكثر ذلك النوع من الشجر المعروف باسم « شجر الزُّبد » وهو شجر ذو ثمر طرىّ .

رجال قصار لا يبلغون فى الطول قامة الوَسَطِ من الرجال[1]، وقبضوا عليهم وساقوهم أسرى . ولم يفهم النَّسامونيُّون شيئاً من لغتهم ، ولا فهم الآسرون لغة النسامونيين . وإنمـا قادوهم عبر مستنقعات واسعة جدا . فلما اخترقوها وصلو إلى مدينة كُلٌّ من بها سود البشرة وفى حجم آسريهم[2] . وبجوار هذه المدينة ، ينساب نهر عظيم[3] ؛ تُرى فيه التماسيح ، ويجرى من الغرب متجهاً نحو الشمس المشْرقة[4] .

---

(١) ذلك قول تـُؤيـِّده المشاهد التى رآها من زاروا تلك البقاع فى العصور الحديثة . وإذا صحت الرواية ، فالغالب أن تـكون القـافلة قد بلغت بلاد « الـكنغو » ؛ حيث كان يعيش أولئك القصار ، وهى تلك البقاع التى بلغها « ستانلى » عام ١٨٨٧ وشاهد فى إحدى غاباتها أولئك الأقزام . وليس ببعيد كذلك أن يكون الأقزام الذين جاء بهم الرَّحالة المصريون أيام الدولة القديمة من نواحى «سنـّار» على النيل الأزرق ، قد كانوا يُستـَوْردون من غابات الـكنغو .

(٢) قد يكون المقصود بتلك المدينة « تومبكتو » التى عُرِفتْ فى العصر الحديث والتى تعد من أكبر مراكز التجارة فى تلك الصحراء .

(٣) لا نستبعد أن يكون المقصود بذلك النهر العظيم هو نهر « النيجر » الذى يستمد ماءه من جبال الـ Senegambiens ، ثم ينحرف جنوبا فغربا ، ثم يجرى إلى أن يصب فى خليج غينيا (Guinea) . على أن صلة نهر النيجر بنهر النيل قد كانت معروفة لدى سكان تلك البقاع ، كما كانت واسعة الانتشار إلى أن ظهر بطلانها بعد أن عرف الناس حقائق الأمور فى القارة الإفريقية .

(٤) لا غرابة فى هذا التخبـّط الذى نراه فى قول « هردوت » ؛ فقلب إفريقية قد كان مجهولا فى أيامه ، ومجرى النيل من قلبها لم يعرف إلا فى العصر الحديث . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى شمالى وغربى أوروبا فى علم هردوت . وأننا لنلتمس له العذر حين يقرن بين مجرى النيل فى إفريقية ، ومجرى «الطونة» فى غرب أوروبا . وإن كان حديثه قد طال عن هذا الأخير ، إلا أن معلوماته التى استقاها ممن سكنوا حول مصبه من الإغريق تعد ناقصة وضئيلة .

٣٣ — ولا كتفى الآن بهذا القدر من رواية « إيتيارخوس الآمونى » . إلا أنه روى أن « النسامونيين » — وفقا لما قاله « الكورنيائيون » — قد عادوا إلى بلادهم . وأن القوم الذين كانوا قد وصلوا إليهم ، كانوا جميعاً من السحرة . أما النهر الذى يجرى بالقرب من المدينة فقد حسبه « إيتيارخوس » (نهر)النيل.والمنطق يؤيد ذلك ؛ إذ أن النيل ينبع من ليبيا ،ويقطعها فى منتصفها. وهو — فيما يُخَيَّل إلىَّ بالاستدلال من المعلوم على المجهول — يبدأ على بُعدٍ يساوى بعد « الإستروس »(١). لأن « الإستروس » يبدأ عند « الكلتيين » ومدينة « بورينى »(٢) ، وينساب شاطراً أوروبا فى الوسط الكلتيون وراء

= انظر : (Herodot, IV 48 ff) .

والنهر الذى يجرى من الغرب إلى الشرق ، والذى قَدَّرَ « هردوت » أنه النيل ، هو نهر « النيجر » الذى وصلت إليه قافلة المغامرين التى مر ذكرها ، والتى قال إن حاكم الواحات قد حدثه عنها .

(١) انظر الفصل الثانى والثلاثين (هامش رقم ٤) من هذا الكتاب .

(٢) جعل « هردوت» أصل الإستروس« الطونة »ومنبعه فى أرض «الكلت» (Celtes) ومن الجائز أنه كان على بعد قريب من ذلك وعند مدينة البرانس (Pyréné) . أى فى سلسلة الجبال المعروفة بهذا الاسم . ومعارف الرجل عن تلك البقاع غامضة ؛ وقد لا تقل فى غموضها عمَّا كان يعرف من تلك البقاع التى استوطنها « الكلت » من الغابة السوداء ، وفى أعلاها من الشرق ينبع الجدولان اللذان يستمد منهما نهر الإستروس (الطونة=الدانوب) ماءه ،ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون«هردوت» قد خلط فى معارفه وروايته بين نهرى «الطونة (الدانوب)» و « الرون » ، ذلك لأن الثانى يصب فى البحر الأبيض فى مكان قريب من جبال البرانس .

« أعمدة هرقل »[١] ، ويسكنون على حدود « الـكينيسيِّين » . وهؤلاء ينزلون أقصى الغرب من كل سكان أوروبا) . وينتهى (الإستروس) بعد — اختراقه أوروبا كلها — بأن يصب فى البحر الأسود حيث تقع (إيستريا)[٢] التى يعيش بها مستعمرون مَلَطِيُّون .

٣٤ — ولما كان (الإستروس) ينساب فى مناطق مأهولة ، فقد عرفه كثير من الناس[٣]، على حين لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن منابع النيل ، لأن ليبيا التى ينساب فيها صحراء غير مسكونة . ولقد تـكلمت عن مجراه بقدر ما استطاعت أن تصل إليه أبحاثى ، وهو يصب فى مصر . وهذه تقع على وجه التقريب فى مواجهة (كليـكيا الجبلية)[٤] . والمسافة من هنا إلى (سينوپ)

---

(١) يقصد بأعمدة هرقل مضيق جبل طارق . ونحن حين نفكر فى الـكلتيِّين الذين سكنوا من وراء تلك العمد ، فأننا نقدِّر لمنازلهم تلك البقاع الواقعة فى أقصى الغرب من « البرتغال » . كما نُقدِّر أن تكون منازل مَنْ أسماهم « هردوت » « الـكينيسيِّين » (Cynesié, Cynité) . انظر : (Herodot, IV, 49) . فى أقصى الغرب من أقاليم إسبانيا ونعنى « غاليسيا » .

(٢) ISTERIA : عرفت تلك المدينة باسم « إستروپوليس » أيضاً ، وكان موقعها غير بعيد من مصب نهر الطونه (الدانوب) وعند المدينة التى عرفت حديثا باسم « كنستنزا » والتى تعرف فى رومانيا إلى الآن باسمها الأصلى ISTERE .

(٣) يُقصد بالنـَّاس هنا الإغريق الذين كانوا يقيمون على شواطئ البحر الأسود وحول مصب نهر الطونه (الدانوب) ، ثم من سعى إليهم للبدل والتجارة من قومهم اليونانيين .

(٤) ذلك أمر يحتاج إلى تحقيق ، ولن يكون موقفنا منه بأقل من موقفنا مما قاله « هردوت » عن موقع « سينوپ » الذى جعله تجاه مصب الطونه (الدانوب) . انظر : (Herodot, I, 76.) ، ولن يكون ما خاله هردوت فى شأن ذلك التحديد الجغرافى بأصدق من تصوُّره عندما حاول جهده أن يخلق الشَّبه بين مجريَى النهرين العظيمين فى أفريقية وأوروبا : النيل والدانوب .

على البحر الأسود مسيرة خمسة أيام للرجل المُجِدّ[1] . وتقع « سينوپ » تجاه نهر « إستروس » حيث يصب فى البحر ، لذلك يلوح لى أن النيل يعبر ليبيا كلها ويشابه « الإستروس » . وإن فى هذا الحديث عن النيل لكفاية .

٣٥ — والآن سأبدأ الكلام عن مصر فى إسهاب ، لأنها — دون غيرها من بلاد العالم أجمع — تحوى عجائب أكثر ، وآثاراً تجل عن الوصف . ومن أجل ذلك ، سأطيل الحديث عنها ؛ نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير ، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقى الأنهار ، ولذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم[2] ؛ فالنساء عندهم يرتدن الأسواق[3] ، ويمارسن التجارة . أما الرجال فيبقون فى البيوت

---

(١) الغالب أن « هردوت » قد أخطأ فى تقدير المدى بين « كليكيا » وشاطئ البحر الأسود ؛ فهو أطول من ذلك حتى لو استقامت السبيل للراحل .

(٢) نلاحظ أن « هردوت» فى هذا الفصل وفى الفصول رقم ٣٦و٧٧و ٩٤ من هذا الكتاب يتمادى فى التعميم ، وإن كانت المدة التى قضاها فى مصر لم تكن تسمح له أن يبلغ من الدقة فى أحكامه ما يُمَكِّنهُ من تحقيق أحاديثه التى تضمنتها تلك الفصول . فأمّا أمر اختلاف عادات المصريين عن عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها فقد كان معروفاً عند الكتاب الإغريق .

وحسبنا من ذلك مايقال إن الإغريق قد رفضوا أن يتحدوا مع المصريين بسبب اختلاف العادات والتقاليد .

(٣) الواقع أن صور الجوارى اللآتى يحملن على رؤوسهنّ ويرتدن الأسواق قد كثرت على بعض آثار المصريين ؛ وإن كنا لا نوافق « هردوت » على ما رأى من أن النساء وحدهنّ كن يفعلن ذلك . والغالب أن حب المبالغة فى الوصف هو الذى دفع « هردوت » إلى أن يرى هذا الرأى فى غير تحفظ .

وينسجون(١) . وبينما ينسج الناس جميعاً(٢) دافعين اللُّحْمَةَ من أسفل إلى أعلى ، فإن المصريين يدفعونها من أعلى إلى أسفل . ويحمل الرجال الأثقال على رءوسهم ، أما النساء فيحملنها على أكتافهن(٣) . وهؤلاء يَبُلْنَ

(١) حقيقة إن الرسوم التي تركها الفراعنة مُصَوِّرةً نواحي حياتهم المختلفة تشير إلى أن صناعة النسيج قد كان يمارسها النساء أول الأمر ، وفي الأغلب الأعمّ .

انظر : (Kees, K.g. S. 73) . ولكن الرجال مارسوها بعد ذلك أيضاً . ولسنا نجد في حكم العقل ما يمنع من أن يمارسها الرجال والنساء في وقت معاً . وإنما العجيب أن يراها « هردوت » قاصرةً على النساء دون الرجال . في الحق . لقد تكون المرأة أصبرَ من الرجل على ممارسة تلك الصنعة ؛ لأنها صنعة تتطلّب الصبر على الحَبْس ، والرجل يكره الحبس ويحب الانطلاق . بدليل ما جاء في تراث المصريِّين الأدبي ممَّا يشير إلى بؤس من يمارس هذه الصنعة من الرجال ذلك لأن الرجل لم يُخْلَقْ لهذه الحرفة ، وكيف أن حال الرجل في منسجه أتعس من حال امرأة ، وكيف أن فخذيه — وهو عاكف على ممارسة تلك الحرفة — يلتصقان ببطنه ؛ بحيث لا يستطيع التنفس في سهولة ، وكيف أنه كان يرشو الحارس على باب المنسج بالخبز ليُيَسِّر له سبيل الخروج لرؤية الضوء أحياناً .

انظر : (Erman, Lit. J. Aeg. S. 103) .

(٢) والإغريق أولهم بطبيعة الحال .

(٣) لا ندري من أين جاء « هردوت » بهذه الصورة ؛ ذلك لأن أيسر النظر فيما ترك آل فرعون بين أيدينا من صور حياتهم اليومية ، تشهد بغير ذلك . ولا نذكر فيما رأينا من تلك الصور — وهي كثيرة تجل عن الحصر — ما يؤيد قوله ، وإن كنا نذكر — إنصافاً للحق — أننا وقفنا على صور دينية يحمل فيها الرجال على رءوسهم ؛ ونعني أنهم كانوا يحملون الصور المقدّسة في الأعياد الدينية على رءوسهم .

انظر : Capart, Chronique d'Egypte N° 37. Jan. 1944

ثم = Ch. Noblecourt' ibd.

واقفات(١) ، أما الرجال (فيفعلون) وقد قعدوا القرفصاء . وهم يتغوّطون في بيوتهم ، ويأكلون في الطرقات(٢) ؛ معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء . أما غيرها فتؤتى جهرة . والمرأة لا تصبح كاهنة لإله

= ثم (Ch. Noblecourt T.A.A p. 248)
ثم (Murray, The Osireion at Abydos, London 1904 Pl. V. et P.4.)

وإذا جاز أن يكون هناك غير ما ذكرنا ، فقد يكون من الندرة بحيث لا يقاس عليه . إلا أن تكون حياة الناس قد تغيّرت ؛ بحيث انقلبت فيها كثير من الأوضاع أيام « هردوت » . وإن كنا نرى ذلك بعيد الاحتمال على كل حال .

(١) تلك مسألة نرى من الخير ألاّ نُعلّق عليها ؛ ذلك لأن التعليق عليها قد يوهم القرّاء أننا نضعها موضع الجد ، ولو فعلنا لكنا إذاً من الهازلين . فطبيعة المرأة لم تهيئها لذلك الوضع المُضحك الذى يصوّره « هردوت » . ولا يمكن أن نراها في مثل هذا الوضع إلاّ أن تكون قد سكرت ، فعربدت ، ثم فقدت كلّ ما تملك من حياء المرأة . ثم إن امرأة كهذه لا يمكن أن توجد إلاّ في مكان لا يزوره من كان وقوراً تقياً ورعاً مثل « هردوت » .

(٢) يعجب « هردوت » من أن المصريين كانوا يزيلون ضروراتهم مستورين داخل الدُور ، على حين كانوا يأكلون طعامهم في الطرقات ؛ اعتقادا منهم أن الضرورات عورات يجب أن تُستر . أما غيرها فلا جناح عليهم في إتيانها جهاراً . وليس غريبا ولا عجيبا ما يراه « هردوت » ؛ وإنما العجب كل العجب في أن يرى « هردوت » ذلك من الغرائب في حياة المصريين . فإذا صح ما رآه فنحن جدّ فخورين به ؛ لأن فيه من صور الحياة السليمة ومن الكرامة الإنسانية ما يدل على ذوق هذا الشعب . نعم ! إنه الذَّوْق كل الذَّوْق ؛ بل إنها صور تدلّ المروءة الكاملة . فهردوت حين يعجب من ذلك لأنه لم يره عند غير المصريّين ، إنما يرمى شعبه الإغريقى — على الأقل — بفساد الذوق وانعدام المروءة .

أو لآلهة(١) ، أما الرجال فمنهم الكهنة لجميع الآلهة والآلهات . وليس لزاماً على البنين أن يعولوا آباءهم(٢) إذا لم يشأوا . ولكن يفرض هذا على البنات فرضا حتى ولو لم يردن .

---

(١) لم تكن الكهانة محرّمة على النساء كما يقول « هردوت » ؛ بل كان النساء منذ أيام الدولة الحديثة ،وربما قبل ذلك أيضاً ، فى خدمة المعبودات؛وبخاصة « حتحور » و « نوة » . ولم يكن من العجب أن تعمل المرأة المصرية فى خدمة المعبودة « حتحور » رمز الأمومة والعطف والحب والحنان ، ففى أيام الدولة الحديثة ما يدل على أن النساء قد عملن فى خدمة الأرباب . إلاّ أن عملهنّ فى الكهانة لم يكن أصيلا ؛ فهن كنّ يشاركن فى الشعائر بالغناء والأنشاد وهزّ الصلاصل ، كما كنّ على الجملة من جوارى المعبودات ؛ فكما كان لفرعون من يخدمنه فى قصره من الجوارى ، كان للأرباب كذلك من يخدمن فى معابدها ، وكنّ فى ذلك طبقات : فأولاهن تدعى « أعظم الحظيّات » ؛ وكانت فى الأغلب الأعم «زوجة عظيم الأحبار» .ومن فوق الجميع سيدةُ بيتِ فرعون ويسمّونها «صاحبة الإله»، أو القانتة«المُتَعَبِّدةُ »أو« الإلهية » . وكانت هذه فى معبد « آمون » تقوم مقام زوجه الألهيّة«موة » (= الأم) ؛ أم ولده « خنسو » .

وأول من عُرِفتْ بتلك الصفة من بيت فرعون أيام الأسرة الثامنة عشرة هى « أحموسى نفرتارى » أم فرعون « أمينوفيس الأول » ؛ تلك التى قُدّستْ بعد زمانها فى جبانة طيبة ، وأصبحت من حُماتها ورعاتها . وكذلك كانت الملكة المعروفة « حتشبسوة » من صواحب « آمون » . فلما بلغت العرش قامت ابنتها مكانها . فكلام « هردوت » إذاً لم يكن حقاً كله ، وإنما هو صحيح من حيث أن المرأة لم يكن لها نفس الدور الذى كان يضطلع به الرجل فى الكهانة .

(٢) إن « هردوت » حين يذكر ذلك ، إنما يذكر القانون الذى أصدره « صولون » مشرّع الإغريق المعروف ، والذى نص على أن يعول الابن أبويه فى حالة الشيخوخة والعجز .

=

٣٦ — وفى غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم ، أما فى مصر فيحلقونها[١]. ويقضى العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقاربُ المصاب رءوسهم أثناء الحداد[٢]. ولكن المصريين ، إذا نزلت بساحتهم محنة الموت ،

= وإذا كان « هردوت » — حين ذكر ذلك — قد ذكره على سبيل الفخر بأمته فقد فاته أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذا القانون ليعولوا آباءهم وأمهاتهم وذويهم ؛ بل وغير أولئك وهؤلاء من العجزة والمساكين والمعوزين. وليس على من يريد أن يعرف حقيقة ذلك إلا أن يقرأ سِيَرَ الحكام من أمراء الأقاليم ، ليرى برّهم بمن كانوا يرعون من الناس .

انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ١٠ وما بعدها) .

(١) تلك حقيقة تؤيدّها صور الكهّان التى نراها على آثار الفراعنة وبخاصة فى أيام الدولة الحديثة وأواخر أيام المصريّين من آل فرعون . ولم يكن الباعث على حِلاقةِ الشعر شيئاً غير الحرص على النظافة التى تقتضيها العقيدة ، وتستلزمها الشعائر الدينية ؛ فقد كانت النظافة أهم ما يشترط أن يتوافر فى الكاهن . وليس أدل على ذلك من أن أول مراتب الكهانة تشير إلى تلك الحقيقة ؛ فالكاهن يسمى «الطاهر» أو « المُطَهَّر ». والأصل فى ذلك من فعل « طَهـُرَ » . وفى الآداب الدينية ما يحدثنا بوجوب تطهير الكاهن الجديد عند تنصيبه فى «بحيرة الكرنك المقدسة». انظر : (Erman, Relig. S. 789) . هذا ! وقد كان الكهان من قوم « هردوت » ، كما كان أحبار اليهود يرسلون شعورهم .

انظر : (Leviticus XIX, 87. XX, 5) .

(٢) لكل شعب عاداته وتقاليده الخاصة ؛ فمن الشعوبُ من يرى استكمال الزينة فى تطويل شعر الرأس وتصفيفه ، وإرسال شعر اللحية وتمشيطه ، فلا غرابة فى أن يتجرّد هؤلاء من تلك الزينة حين يصيبهم الحزن على موتاهم ، فأما آل فرعون فقد كانت زينتهم فى النظافة ، وكانت الحلاقة لديهم كما مر بنا فى (الفصل ٢٦ هامش ١) من مكمّلات الزينة ؛ فهم حين يحزنون يصرفهم الحزن عن الزينة ، فيرسلون شعورهم ويطلقون لحاهم . وما زال ذلك دأب =

يطلقون شعر الرأس واللحية . وقد كانت لديهم ، حتى يومئذ محلوقة .
ويسكن سائر الناس فى عزلة عن الحيوانات ، أما المصريون فيسكنون مع
حيواناتهم(١) ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير ، ولكنه عارٌ
عظيمٌ على من يعيش عليهما من المصريين . إذ هم يصنعون خُبزهم من الذرة
(ألورا)(٢) ، وهم يعجنون العجين بأقدامهم ، فأما الطِّين فبالأيدى وبها أيضاً

= خلفائهم من سكان هذا الوادى حتى اليوم وبخاصة أهل القرى فى شمال مصر
وفى صعيدها وأقاليمها الوسطى ؛ فالرجال من أهل الميِّت يهملون زينتهم
فلا يذهبون إلى (المُزيِّن) ليحلقوا لحاهم وإنما يتركون شعور لحاهم ورءوسهم
حتى تنتهى أيام الحداد . وقد كانت إلى عهد قريب تبلغ « أربعين يوما » ، بعد
أن كانت قبل ذلك تطول فتبلغ السبعين . وإنا لنعرف كذلك أن المرأة المصريَّة
قد كانت تتجرَّد من زينتها الطبيعية إذا مات زوجها ؛ فتحلق شعر رأسها
ولا ترسله إلا بعد مرور عام على وفاته .

(انظر : Moeller, Berichte aus d. kgl. Kunstsammlung
Berlin, 33, 199.)

ولا نستبعد آخر الأمر أن تلك العادة وما إليها من مظاهر الحزن فى مصر
الحديثة بقيَّةٌ من تراث الماضى ؛ يتوارثها الناس جيلا بعد جيل . وقد يكون
الأصل فى ذلك كله هو الحزن على إمام شهداء السَّلف « أزوريس » .

(١) يقصد الأليف من الحيوان . ولسنا نستغرب من المصريين أن يعنوا
بالحيوان أكثر مما يُعنَى به غيرهم من شعوب الأرض؛ فمصر قد كانت ـ ومازالت ـ
تعتمد فى بناء حياتها على الزراعة ، ولن يعيب المصريين أن يعنوا بحيوان الزراعة
ويرعوه على النحو الذى رآه « هردوت » واستغربه منهم .

(٢) نظن أن « هردوت » قد أخطأه التوفيق فيما فهم ؛ ذلك لأن المصريين
قد عرفوا من الحبوب الشعير والقمح والذرة . فأما الشعير فقد كانوا يصنعون
منه الجعة . =

يرفعون الروث[1] . وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس ، على طبيعتها ، أما المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان[2]. ولكل رجل ثوبان وللمرأة

= وليس من شك مطلقا فى أنهم كانوا يأكلون من خبز القمح والذرة على السواء . وإذا صدَّقنا رواية «هردوت» ؛ فماذا كان يفعل المصريون إذاً بالقمح؟ ، وقد كان لديهم أغلى ماتنتج الأرض من غلات ؛ وحسبنا أنهم أسموه « الذهب » ، انظر : (Wb. II, s. 24). فأمَّا الحبُّ الذى ذكره «هردوت» وزعم أن المصريين كانوا يعيشون على خبزه ، والذى أسماه $\ddot{o}\lambda\upsilon\rho\alpha$ ، والذى يسمِّيه بعض علماء النبات Triticum Spelta ، كما يسميه البعض الآخر Sorgho (الذرة)، قد كان غذاءَ الطبقات الفقيرة من الفلاحين ، وما زال كذلك حتى يومنا هذا . على أن ذلك لا يمنع الفلاحين اليوم من أن يأكلوا من خبز القمح إذا هم وجدوه .

(١) لا نريد أن نُكَذِّب « هردوت » فيما ذكر من أن المصريين كانوا يعجنون العجين بأقدامهم ، وإن كنا لا نكاد نتصور ذلك إلا فى المخابز العامة . أما فيما عداها فلدينا من آثار المصريين وتراث حضارتهم ما يصوِّر عكس ما رأى « هردوت » .

فأما العمل فى الطِّين ، فنظن أنه كان يجرى طبقا للظروف ؛ فبالأقدام إن كان كثيراً ، وبالأيدى إن كان قليلا . وما زلنا نرى ذلك فى القرى حتى يومنا هذا .

فأما العمل فى روث البهائم بالأيدى فما زال يجرى فى القرى حتى اليوم . ولن يفوتنا بعد ذلك أن نذكر أن الرَّوْثَ — كان وما زال — من مواد الوقود التى تستعمل فى القرى حتى الآن .

(٢) عرف المصريون الختان منذ أقدم عصورهم التاريخية ، وإن آثارهم — منذ أيام الدولة القديمة — لتثبت ذلك إثباتا يكاد يبرأ من كل شك .

انظر : (Capart, Rue de Tombeaux p. 66.) .

ثم (Klebs, Reliefs. AR. s. 27) .

وأخيراً (Borchardt, Statuen I, No 23) .

هذا . ولدينا من الشواهد والأدلة ما يثبت أن تلك العملية ظلت تمارس =

ثوب واحد[1]. ويعقد سائر الناس حلقات الشراع وحبالها فى الخارج. وكتابة الحروف والاتجاه فى العدو يجرى بها اليونان من اليسار إلى اليمين أما المصريون فمن اليمين إلى اليسار وهم إذ يفعلون ذلك يقولون إنهم (يمينيون)[2] وإن اليونانيين (يساريُّون) . وهم يستخدمون نوعين من الكتابة ، إحداهما

= حتى أواخر أيام الفراعنة (انظر : (Otto, Priester und Tempel, s. 213 ff.).
وأما الحكمة من الختان عند المصريين فقد كانت حرصاً على النظافة والطهارة ورعاية صحة البدن ، وإلى ذلك يشير « هردوت » فى الفصل السابع والثلاثين من كتابه الثانى ، كما يشير إلى سَبْقِهِمْ فى ممارسة الختان فى الفصل الرابع بعد المائة من هذا الكتاب أيضاً . والغالب أنها قد كانت كذلك عند اليهود ، ثم هى كذلك عند المسلمين أيضاً .

(١) أما أن الرجل من آل فرعون كان يملك ثوبين على حين كانت المرأة لا تملك غير ثوب واحد ، فتلك مسألة فيها نظر . ولا ندرى كيف نستطيع أن نؤيد « هردوت » فيما روى . وكم كنا نود أن نلتمس له بين تراث المصريين ما يؤيد هذا روايته ؛ إذ أن مركز المرأة فى مصر الفرعونية بخاصة قد كان مرموقا ؛ بحيث نالت حقها كاملا غير منقوص .

انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها) .

كما كانت المرأة من نساء الفلاّحين أو الجارية من الخدم فى بيوت الموسرين تستطيع أن تحمل من الثياب ما يشبه فى تطريزه ووشيه ما يحمل السيدات من نساء الأغنياء . انظر : (Kees, K.g. ss. 32, 68) .

(٢) كانت القاعدة أن تجرى أيدى المصريين بالكتابة والنقش من اليمين إلى اليسار ، شأنهم فى ذلك شأن الشعوب السامية . فاليمين عندهم أفضل من اليسار . وإذا حدث أن جرت أيديهم على عكس ذلك وبخاصة فى الهيروغليفية (النقش المقدس) فقد كان ذلك لضرورة فنّية يقتضيها اتجاه الصور والرسوم التى يكتبون من حولها . وقد يكتبون من أعلى إلى أسفل أيضاً .

تُسمَّى (المقدسة) والأخرى (العامية)[1] .

٣٧ — وهم يزيدون كثيراً عن سائر الناس فى التقوى . وهذه هى القوانين التى يتَّبعونها ؛ يشربون فى أقداح برنزيَّة[2] يُنظِّفونها كل يوم وكلهم دون استثناء يفعلون ذلك . ويلبسون ثياباً من الكتان ، يهتمون جداً أن تكون دائماً حديثة الغسيل . وهم يمارسون الختان حبًا فى النظافة ، لأنهم يفضِّلون النظافة على حسن المنظر[3] . وكل يومين يحلق الكهنة أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة

---

(١) تلك حقيقة معروفة ؛ فلقد كان للمصريين لغتان : إحداها الفصحى ؛ ويعرفها الخاصة من صفوة الصفوة ، وهى التى أسماها الإغريق الهيروغليفية (النقش المقدس) يكتبونها على الحجر نقشاً ورسماً . ثم يكتبونها فى القراطيس وغيرها بالقلم السريع ؛ ويسميها العلماء فى هذه الحالة (الهيراطيقية) . ولغة أخرى يعرفها العامة ويكتب بها من يعرف الكتابة منهم . وهى التى أسماها الإغريق الديموطيقيه (أى الشعبية) . وتدل شواهد الأمور على أن الوثائق المكتوبة بهذه الأخيرة قد بدأت تظهر بوضوح حوالى ٦٥٠ ق . م . ثم بدأ استعمال التحرير بها يزول من آثار المصريين خلال القرن الرابع للميلاد ؛ أى بعد استقرار الدين المسيحى فى أرض مصر . وبعد أن كتبت لغة المصريين بحروف يونانية .

(٢) إن المصريين حتى اليوم يشربون من أقداح البرنز أو الصفيح ويسمونها (الأكواز) ، ويعنون بتنظيفها ، ولا عجب أن كان أسلافهم يشربون من أقداح البرنز . وإن كنا نستبعد أنهم لم يستعملوا أقداحاً أخرى .

(٣) انظر تفصيل الحديث عن الختان والحكمة فى ممارسته فى الفصل السابق (٣٦) هامش رقم (٦) .

الآلهة ، ويلبث الكهنة ثياباً من الكتّان فقط ، وأحذيةً من البردى[1] . وغير ذلك من الملابس أو الأحذية محظور عليهم لبسها إلا قليلا وهم يغتسلون مرتين كل نهار بالماء البارد ، ومرّتين كل ليل . وهم يرعون من الطقوس الدينية الآلاف المؤلفة إذا صح لنا هذا التعبير . وهم يتمتعون أيضا بامتيازات ليست بالقليلة ... فهم لا يستهلكون ولا ينفقون شيئاً من ثروتهم الخاصة[2]، بل يُصنَعُ لهم خبزٌ مقدس ، ويصيب كل واحد منهم يوميا كمية كبيرة من لحم البقر والأوز[3] ، وتُقدَّمُ لهم خمر مصنوعة من العنب[4] . وأكل السمك

---

(١) لقد كان أجود اللباس لدى المصريين إنما يصنع من الكتان ؛ فلا عجب أن تكون ثياب الكهان من ذلك النسيج الأبيض الناصع البياض . فهو لشدة بياضه سريع التأثر ؛ لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله إلى تنظيفه . ولا غرابة كذلك فى أن ينتعل الكهان تلك النعال الخفاف المجدولة من فتائل البردى حتى يسهل عليهم تنظيفها . انظر : (Plutarch, Isis & Osiris 4) .

(٢) ذلك صحيح ، فلقد كان لكل معبد من معابد الدولة وبخاصة الكبرى منها أوقافه من الأرض ، وما تنتج من غلة وثمر ، وما يرعى فيها من حيوان ويعيش عليها من طير . وكان الكهان وكافة من يخدمون فى المعابد من حولهم إنما ينالون أرزاقهم من أوقاف تلك المعابد وحبوسها .

(٣) كان المصريون يعنون بتربية الطير ، وبخاصة الأوز . وتشير آثارهم بما عليها من رسوم إلى كثرة عنايتهم به وإقبالهم على لحمه ، ينالون منه ما استطاعوا .

(٤) عرف المصريون زراعة العنب منذ أبعد عصورهم . انظر : (الفصل رقم ٧٧ من هذا الكتاب) . وآثارهم تطالعنا بصور من الكروم ؛ يغشاها الزراع إذا أينع ثمرها وطاب جناها ؛ فيجمعون ويعصرون ألوانا من الأنبذة . ولا عجب إذاً فى أن ينال الكهان حاجتهم من تلك الأنبذة . ولقد تحدث « بلوتارخ » عن مقدار ما كان يتناول الكهان والملوك من الأنبذة .

انظر : (Plutarch, Isis & Osiris, Cap. 6) .

غير مباح لهم[1] . ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم مطلقا ، ولا يذوقون

---

(١) كثرت الآراء فتعددت واختلفت حول موضوع السمك وتقديسه فى مصر الفرعونية . والشيء الذى لا شك فيه هو أن السمك النيلي قد كان وما يزال من عناصر الغذاء طريًا ومجففًا ومملوحاً . وإلى تلك الحقيقة يشير « هردوت » نفسه عند حديثه عن العصر الفارسي فى الفصلين (السابع والسبعين ، والتاسع والأربعين بعد المائة) وبخاصة فى أقاليم الدلتا وإقليم الفيوم . هذا ، وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنصبة العمال من الغذاء إلى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك. انظر : (Kees, K. G. s. 6o. 6). والعجيب مع ذلك أن ينظر المصريون إلى صيد السمك على أنه من الحرف الوضيعة التى تشير إلى عدم النظافة ، إلا أن يكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار .

انظر : (Schaefer, Von Aeg. Kunst, s. 181, Abb. 154) .

وفى أيام الدولة القديمة من الشواهد ما يدل على النفور من السمك أو بعضه على الأقل واعتباره نجساً . انظر : (Sethe, Urk. I, 173, 202) .

وأعجب من هذا كله — على الرغم من تلك الحقيقة — أن المصريين لم يمتنعوا من تقديم السمك على موائد القربان لأربابهم وموتاهم ، وإن لم يكن ذلك فى سائر الأقاليم . انظر : (Kees, K. G. s. 64) . ثم قُدِّسَ السمك — وبخاصة أيام الرعامسة — فى كثير من أقاليم مصر ، مثل « إسنا » و « أبيدوس » فى صعيدها ثم « البهنسا » فى أقاليمها الوسطى .

انظر : (Bruyère, Bullet. inst. fr. 28, p. 4) .

وكذلك عُدَّ السمك من رموز الحياة ، وأصبح شعاراً لأزوريس .

انظر : (Bonnet, Bilderatlas Abb. 137) .

فإذا صدق قول « هردوت » فيما روى عن تحريم السمك على الكهان ، فأكبر الظن أن يكون مبعث ذلك وموضوع الخلاف حول تقديس السمك ونجاسته ، هو تلك الأسطورة الشهيرة (أسطورة إيزيس وأزوريس) التى أشارت إلى أن سمكةً بعينها من أنواع السمك النهرى قد ابتلعت عضو التذكير من أشلاء أزوريس بعد مصرعه . انظر : (Plut. Isis & Osiris' 18) .

ما قد ينبت منه فَجًا أو مطبوخا . أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل نجس[1] وليس لكل إله من الآلهة كاهن واحد بل أكثر واحدهم هو كبير الكهنة وعندما يموت منهم كاهن يخلفه ابنه[2] .

٣٨ — ويعتقدون أن الثيران مقدسة لأبافوس[3] لذا فهم يفحصونها

---

(١) أكبر الظن أن يكون فى قول « هردوت » شىء من المبالغة . وقد يكون الصواب فيما رواه «ديودور الصقلى». انظر: (Diod. I. 89, 4.). من أن أكل الفول (Faba Vulgaris) قد كان محرّما على بعض المصريين . فالفول قد وجدتْ حبوبه فى بعض قبور المصريين .

انظر : (Legrand, Hérodot T. II P. 92 Note 2) .
ثم (Schweinfurth, Pflanzen s. 362 f.) .

ومعنى ذلك أن زراعته لم تكن محرّمةً كما يزعم « هردوت » . ونحن على استعداد لتصديق روايته إن هو اقتصر تحريم أكله على الكهان مثلاً. إذ قد يكون السبب فى ذلك أن الفول من الأغذية عسرة الهضم ، وأنه يُفسِد المعدة بما يُثير فيها من غازات قد يتسبَّبُ عنها خروج رياح نتنة .

(٢) ذلك أمر معقول ؛ فقد كانت الكهانة تُتَوارث وبخاصة فى المعابد الإقليمية الكبرى كتلك التى ذكرها « هردوت » فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٣) Epaphus : الاسم الذى أطلقه « الملينيّون » على الفحل المقدس « آپيس » . (انظر: هردوت الكتاب الثانى فصل١٥٣ ثم فصل٢٧ من الكتاب الثالث) . وظاهر أنه تصحيف للاسم المصرى الأصيل . وتقديس البقر فى مصر الفرعونية معروف منذ أقدم العصور ، والشواهد على ذلك معروفة منذ فجر التاريخ .

انظر : Brunton, The Badarian Civilisation p. 38. pl. 70,6 (١)

(٢) Petrie, The Labyrinth, Gizeh, Mazgounah, pl. 6,7.

= (٣) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 11.

بهذه الكيفية ، إذا رأى الكاهن شعرة واحدة سوداء فى جسد الثور عدّه

= والشيء الذى نحب أن نُنبّه إليه هو أن التقديس ليس معناه العبادة ، وأن تقديس البقر فى مصر الفرعونية ليس بالشيء الغريب ، إذا ما نحن فكّرنا فى مصر وحياة شعبها منذ نشأته فى هذا الوادى ؛ فمصر قد كانت حياتها — وما زالت — تعتمد على الزراعة ، ولم يدخل التصنيع فى حياة المصريين ليكون عنصراً من عناصر مقوماتها إلا بين يدىْ ثورتنا الشعبية الأخيرة (ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) . والحضارة التى نشأتْ وتطوّرت بين يدىْ هذا الشعب البنّاء وعلى ضفاف النهر الكريم قد حوّلتْ مصر من صحراء مجدبة جرداء إلى أنضر جنات الأرض وأكرمها وأنداها ، كانت حضارة زراعية قبل كل شيء ولن يكون عجبا بعد ذلك أن نرى أسلافنا من أشد شعوب الأرض حباً للأرض ، وتعلقاً بما يرون فيها من خَلْق . وكانوا يعرفون قيمة النهر ؛ يقدسونه ، ويفون له ، بل ويقدسون من أجله كل مُخْصِب من الحيوان والطير ؛ فيربطون بينه وبين النهر الذى كان لديهم فَحْل هذه الأرض ؛ سعى إليها هائماً من قلب إفريقية ليغْرِس بها ، فلما تغشاها حملتْ حملاً ثقيلا ، ثم أخذت تخرج من الرزق ما لم يتوافر يومئذ لشعب من شعوب الأرض . وليس أدل على أن الباعث على التقديس قد كان الخصب ، من الربط بين النيل وبين كل مخصبٍ من الحيوان والطير ، وفى مقدمة كل أولئك فحل البقر . فالمصريون قد كانوا يمثلون فيض النهر الأكبر فى هيئة آدمى له رأس الفحل (انظر : Chassinat, Le Mammisi d' Edfou. p.X2 pl. XV II,) كما أسموا فيضان النهر فى العصور المتأخرة « عطاء الفحل » (Wl. I, S. 150) . ثم هم يسمون الفحل — نظرا لما عاينوا فيه من الخصب الجنسى — « خالق نفسه » .

انظر : (Gauthier, Le fêtes du Dieu Min, p. 9) .

ومن مظاهر عقيدة القوم فى طبيعة هذا الحيوان والتماس الخير بين يديه أنهم كانوا يطوفون به حول عاصمة البلاد « ممفيس » قبيل موسم الفيضان ، (Kees, Apotheosis by Drowning, Studies presented to Griffith p. 405) وأن يطوفوا به مزينا فى عيد الحصاد ؛ يعبّرون بذلك عن شكرهم =

نجساً ويقوم بفحص الثور كاهن(١) معيَّن لهذا العمل ؛ يفحص الحيوان واقفاً وراقداً ، ثم يسحب لسانه ليرى إذا ما كان نقياً من علامات خاصة سأتحدث عنها فى فصل آخر(٢). وينظر كذلك فى شعر الذيل (ليرى) أن نَبْتَه طبيعيٌّ . فإذا كان الثور طاهراً ، من كل الوجوه ، يضع عليه علامة (وذلك) بأن يلف حول قرنيه قطعة من البردى وبعد أن يلصقها بصلصال لزج يضع عليها خاتمه(٣) ، وبعد ذلك يسوقون الحيوان . أما من يُضَحِّى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت . وبتلك الطريقة إذن يفحص الحيوان .

= وفرحتهم بما أفاء عليهم النهر من رزق يُجريه الخِصب بين يديه ، (Gauthier, Les fêtes du Dieu Min, p. 176) .

ولا يفوتنا بعد كل ذلك أن نذكر أن فرعون قد كان يُوصف بأنه « الفحل القوى » من البقر الذى « يحمى الوادى » .

انظر : Gauthier, Livre des Rois II p. 200

ثم Sethe, Amun & die acht Urgoetter v. Hermopolis S. 9.

على أن وصف الملوك والأبطال بالفحولة وتشبيههم بالفحول من طوائف الحيوان لم يكن قاصرا على آل فرعون وحسب ، بل كان أمر ذلك معروفا لدى شعوب أخرى ؛ فالعرب كانوا يقولون « فلان كبشُ قومه » أى عزيزهم وسيدهم ، وهم قد أسموا « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية « مروان الحمار » لصبره على مرارة الحرب واحتمال شدة القتال . والفرنسيون قد أسموا نابليون الأول « النسر » كما سُمِّىَ الغازى أتاتورك « الذئب الأشهب » .

(١) كانت طبقة هذا الكاهن كما سماها اليونان تدعى μοσχοσφραγισταί انظر : (Kees, G.G. s. 136) .

(٢) لا نظن أنه يقصد فصلا من فصول هذا الكتاب كالفصل ٦٤ وما بعده إلى الفصل ٦٧ ثم الفصل ١٥٣ وحسب ، وإنما يقصد الفصل الثامن والعشرين من كتابه الثالث ، حيث تحدث بإسهاب عن الفحل « أبيس » .

(٣) انظر ما ذكره بلوتارخ عن ذلك (Plut. Ibd, 31, p. 363) أيضاً .

٣٩ — وهذه طريقتهم فى تقديم الضحية ، يذهبون بالحيوان الموسوم إلى المذبح حيث يضحون ، ثم يوقدون نارا وبعد ذلك يسكبون خمرا على المذبح[١] فوق الضحية ، ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله . وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ثم يمطرون على الرأس[٢] وافر اللعنات . وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون، فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونها. أما الذين لا يوجد بينهم يونانيون فإنهم يلقون بها فى النهر . أما عن اللعنات التى يتلونها على رءوس الضحايا فهذا مدلولها ، « إن كان هناك خطب سيحل بالمضحين أنفسهم أو بمصر كلها ، فلينزل على هذا الرأس» . وجميع المصريين يراعون هذه الشعائر فيما يتعلق برءوس الحيوانات المُضَحَّى بها ورشها بالنبيذ ويتبعونها عند تقديم كافة الضحايا . ووفقا لهذه السنة لا يذوق أحد من المصريين مطلقاً رأس أى كائن حى[٣] .

---

(١) يختلف النقاد فى ترجمة حرف الجر (Epi) فى هذه العبارة ؛ فبعضهم يرى أن معناه « فوق » المذبح ، وبعضهم يفضل ترجمته « بالقرب من » المذبح . ولكن « فوق » و « على » المذبح أقرب إلى الصواب ؛ لأن « هردوت » يفكر فيما يجرى فى بلاد اليونان الذين كانوا يضحون على المذابح ويستخدمونها بطريقة لم تكن مألوفة عند المصريين .

(٢) معنى ذلك أن الضحيَّة كانت كفَّارة. انظر:(Erman, Relig. S. 33).

(٣) لا نستبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، وإن كنَّا نرجح ألاَّ تكون هذه العادة مصرية أصيلة أو على الأقل متبعة بالنسبة لرءوس كافة الذبائح ، ذلك لأن موائد القربان لم تخل من رؤوس الذبائح من البقر والطير . فإذا لم تكن الرءوس رموزاً للحيوان فمعنى ذلك أنها كانت تؤكل .

انظر : (Erman, Relig. S. 336 f.) .

٤٠ — أما عن إخراج أحشاء الذبيحة وحرقها فيختلف عندهم باختلاف المعابد . وسأبدأ إذن بالكلام عما يحدث لدى الآلهة التى يعدُّونها العظمى(١) ويقيمون من أجلها أعظم الأعياد : عندما يسلخون الثور وينتهون من صلاتهم ، يخرجون المعدة بينما يتركون الحوايا والدهن داخل الجسم ، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العجز والأكتاف والرقبة . وبعد ذلك يملأون بقية جسم الثور خبزا طيّباً « نقيا » وعسلا وزبيبا وتينا وبخورا ومُرًّا وغيرها من الطيب . فإذا ما ملأوا الجوف بذلك ، فإنهم يسكبون عليه زيتا وفيرا ثم يحرقونه . وهم يصومون قبل تقديم الضحية . وأثناء احتراق الضحايا يلطمون كلهم . وعندما ينتهون من اللطم(٢) ، يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبائح .

٤١ — ويضحى المصريون كلهم بالثيران والعجول الطاهرة ولا يباح لهم أن ينحروا الأبقار فهى مقدسة لإيزيس(٣)، وتمثال إيزيس فى الواقع على شكل

---

(١) انظر : (Erman, Relig. SS. 176, 337)

(٢) انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 70 f

(٢) Diod. I. 11

(٣) Herodot, II, 41

(٣) تلك حقيقة لا ريب فيها ؛ إذ لم يكن المصريون يأكلون لحم الإناث من البقر لأنها كانت لديهم من الحيوانات المقدسة وذلك تكريما لمعبودتهم (إيزيس حتحور) :

ثم (Kees G. G. S. 77) . ثم (Hopfner, Tierkult S. 76 f) .

وما نذكر فى مناظر النحر التى صورها المصريون على آثارهم ما يشير إلى ذبح الإناث من البقر غير منظر واحد من أيام الدولة القديمة .

انظر : (Wreszinski, Atlas II. Taf. 86 A.) .

امرأة وله قرنان كما يصور اليونانيون « إيو »(١) . والمصريون جميعا — بغير استثناء — يخصُّون الأبقار من بين الماشية كلها بأكبر تعظيم ، ولهذا السبب لا يقَبِّل مصرى أو مصرية يونانياً على الشفاه ، ولا يستعمل سكين يونانىّ أو سفافيده أو قِدْرَه ، ولا يذوق لحم ثورٍ طاهر إذا قطع بسكين يونانية(٢) .

ويدفنون الثيران والأبقار عند موتها بهذه الكيفية ؛ يلقون بالإناث(٣)

---

(١) إيو (Jo) : ابنة « إناخوس » (INAKHOS) أول ملوك « أرجوس » وقد قيل إن « زيوس » هام بها حتى أصبحت أقرب النساء إلى قلبه فحقدت عليها زوجته « هيرا » . وقد خلد الشعراء ورجال الفنون أسطورة هذه العذراء الفاتنة . وقالوا إن « زيوس » عندما خشى عليها من بطش علّتها « هيرا » . جعلها فى صورة بقرة . ولقد ذاعت قصص هيامها فى ربوع الأرض وتأثر الإغريق بذلك فخالوا فى صورة العذراء « المتجولة » ذلك المصباح المنير الجوّال من نجوم السماء وهو « القمر » .

وكان الإغريق يصوّرونها فى هيئة الأنثى من بنى آدم ، ويزينون هامتها بقرنىْ بقرة ، وتلك صورة « إيزيس » (حتحور) عند آل فرعون .

(٢) شبيه بذلك ما يُحكى عن « يوسف » بن « يعقوب » (إسرائيل) عندما أولم لأخوته فى مصر ففرق بينهم و بين المصريين ؛ بحيث جعل لكلّ من الفريقين طعاما . ذلك لأن المصريين كانوا يعتبرون العبرانيين نجساً .

انظر : (سفر التكوين إصحاح ٤٣ و ٤٤) .

(٣) ذلك قولٌ فيه شكٌّ كبير . وأكبر الظن أن يكون مصدره الخيال وسوء الفهم . ومرجع ذلك إلى ما كان معروفاً من عقائد المصريين وشعائرهم التى كانت تقتضيهم إغراق « عجل أبيس » عندما تدركه الشيخوخة .

انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 85 f.

(٢) A. Moret, La mise à mort rit. d. dieu en Eg. (Paris 1927)

(٣) Chassinat, Rec. Trav. 4. XXXVIII, p 33 seq. =

فى النهر ، أما الذكور فيدفنها سكان كل مدينة فى ضواحى مدينتهم . بينما يبقى أحد قرنيها أو كلاهما بارزين ؛ علامة على مكان الدفن . وعندما تتحلَّلُ الجثة ، ويحلُّ الميعاد المحدَّد ، يأتى إلى كل مدينة قارب من الجزيرة المسماة « بروسوبيتيس »(١) ، وتقع هذه فى الدلتا ، ومحيطها تسعة « إسخينوس » وبهذه الجزيرة مدن أخرى كثيرة ؛ أما المدينة التى تأتى منها القوارب لحمل عظام البقر فتسمى « أتاربيخيس »(٢) . وفيها معبد مقدس لأفروديت . ويخرج الناس فى هذه المدينة جماعات ، وتتوجه كل جماعة منهم إلى إحدى المدن ، يدفنون سائر الأنعام عند موتها بنفس الطريقة التى يتبعونها فى دفن الأبقار . وهكذا سُنَّت عندهم القوانين بشأن الحيوانات الأخرى ، فلا يذبحونها أيضا .

= (٤) Otto, Stierkulte. s. 13 f.

على أننا لا نريد أن نكذب « هردوت » فى النهاية ، إذ ربما تكون هذه العادة قد كانت معروفة فى المكان الذى يقول إن ذلك قد كان يقع فيه .

انظر : (ما جاء عن تقديس الغرقى . فصل ٩٠ هامش رقم ٣) .

(١) كان موقع تلك الجزيرة فى الغالب بين فرعى النيل : (الكانوبى والسمنودى) من غرب الدلتا ، وهى ضمن مجموعة من المدن كان ينزلها المحاربون .

انظر : (الفصل الخامس والستين بعد المائة من هذا الكتاب) .

والغالب أن النزلاء من الإغريق الذين وفدوا إلى مصر عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قد استوطنوا هذه الجزيرة .

انظر : (Thucyd. 1. 109. 4) .

(٢) ATARBECHIS : حاول بعضهم أن يجعلها مدينة « أفروديت » أى مدينة « حتحور » . انظر : (Strabon, 17. 1) .

وإن كنا لا نستبعد ما يراه البعض الآخر من أن يكون معناها « معبد حورس الصقر » (حت — حر — بيك) .

٤٢ — ويمتنع الذين يملكون معبداً لزيوس الطيبي[1] ، وكل الذين فى ولاية طيبة ، كلهم يمتنعون عن تضحية الأغنام ويضحون بالمعز[2]. (لأن المصريين لا يعبدون على حد سواء نفس الآلهة ما عدا « إيزيس » و « أزوريس » وهذا الأخير — على حد قولهم — هو « ديونيسيس »[3] . إذ كلهم بغير استثناء يعبدون هذين الإلهين) . فأما الذين لديهم معبدٌ لمنديس ، ثم أهل مقاطعة منديس فلا يضحُّون بالمعز بل بالضأن[4]. ويقول أهل طيبة وأمثالهم ممن يضحون بالأغنام أن هذه السنة فُرضتْ عليهم لهذا السبب : أراد «هيرا كليس» أن يرى

---

(١) « زيوس الطيبي » : هو معبود المصريين الكبير « آمون » فى طيبة .

(٢) الواقع أن المعز لم يكن له بين حيوان مصر المقدس قيمة ، وإنما كان المصريون يجعلونه عند الضرورة الملحة بديلا من الضأن . وكانت التضحية به كرهاً له وزهداً فيه ؛ إذ كان فى عقيدتهم من قبيل « ست » ورهطه .

انظر : (Kees, K. G. s. 247 250) .

(٣) ذكرنا غير مرة كيف كان الإغريق يساوون بين معبوداتهم ومعبودات المصريين ، ثم كيف كانوا يسمون هذه الأخيرة بأسماء نظائرها عندهم . ومن ذلك أنهم أسموا المعبود المصرى « أزوريس » « ديونيسيس » ؛ كما أسموا صاحبته « إيزيس » « ديمتر » . انظر : (Erman, Relig. d. Aeg. S. 333) . وصحيح ما يرويه « هردوت » من أن سائر المصريين كانوا يجمعون على تقديس هذين المعبودين .

(٤) لم يكن المعز — كما قدمنا — من مقدسات المصريين . فهم كانوا يقدسون الكباش دون التيوس ؛ يقدسونها منذ أقدم عصور التاريخ لأنها جاءتهم وافدة مع النيل من قلب إفريقية ، فربطوا بينها وبين النيل — وهو لديهم مصدر الخصب والحياة — . انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل الثامن والثلاثين هامش رقم ١ من هذا الكتاب) .

=

«زيوس» بأى حال من الأحوال ، ولكن هذا لم يرغب فى أن يراه هيرا كليس . وفى نهاية الأمر ، لما استمر الأخير فى إلحاحه ، فكر « زيوس » فيما يلى ... سلخ كبشاً ، وبعد أن قطع رأسه وضعها على وجهه ، ثم لبس الفرو وأظهر نفسه لهيرا كليس بهذه الكيفية . لذلك يصنع المصريون تمثال « زيوس » وله وجه كبش (١) .

= خال المصريون الكبش حارساً على منابع النيل التقليدية عند شلاله الأول جنوبى أسوان ، وزادوا على ذلك فخالوه بارئاً للبشر يصورهم من صلصال كالفخار .

وذلك تصوير يذكرنا بما جاء فى كتب السماء كالتوراة والقرآن .

انظر : (Badawi, (Ahmad). Der Gott Chnum, S. 52 f.) .

وكان الكبش كذلك لدى المصريين من حيوان « آمون » المقدس ، فهم صوروا هذا المعبود فى هيئة بشر له رأس كبش .

انظر : (Sethe, Amun & die acht Urgoetter, S. 31 ff.) .

هذا ، وأكبر الظن أن الحيوان المقدس فى « منديس » (ومكانها اليوم « أشمون طناح ») كان أول الأمر كبشاً ، وأن كان الإغريق قد جعلوه تيساً τράγος .

انظر : (١) Kees, Artikel Mendes in Pauly — Wiss. R. E.

(٢) Hopfner, Tierkult S. 89.

فإذا صح ما رواه « هردوت » ، فإن أهل « منديس » لم يستبدلوا بالضأن المعز إلا فى عصورهم المتأخرة . على أن ذلك لم يقع عند المنديسيين وحدهم ، بل وقع كذلك فى جبانة « طيبة » ؛ حيث جاء ذكر المعز بوصفه الروح المقدس لآمون . انظر : (Hans Bonnet, Bilderatlas 49) .

(١) مثل هذه الروايات لم تكن معروفة عن شعائر المصريين قبل أيام « هردوت » . ومن قبل قدمنا الحديث عما طرأ على حياة المصريين من تغير ربما كان مبعثه تتابع المحن الجبـــارة التى نزلت بديارهم . انظر : الحديث عن ذلك فى الكتاب الذى أخرجه Erman عن ديانة المصريين (Erman. Relig. S. 331 f.) .

وقد نقل الآمو نييون(١) . ذلكعن المصريين . والآمو نييون هاجروا من مصر والحبشة . ويتكلمون لغة وسطا بين لغتي الشعبين . ويبدو لي أن نفس الإسم الذى اتخذه الآمو نييون علماً عليهم مشتق من ذلك ، لأن «زيوس» عند المصريين اسمه « آمون »(٢) . ولذلك لا يضحى أهل طيبة بالكباش ولكنهم يقدسونها . ومع ذلك ففي يوم من أيام السنة ؛ يوم الاحتفال بعيد « زيوس » ، يذبحون كبشاً واحداً و يسلخونه ويغطُّونَ بجلده تمثال زيوس، ثم يحضرون بعدئذ بالقرب منه تمثالا آخر لهيرا كليس. وبعد أن يفعلوا ذلك، يلطم كل من يحيطون بالمعبد حزناً

---

(١) « الآمونيـون» : هم سكان « واحة سيوة » المعروفة وفيها معبد آمون الشهير الذى زاره « إسكندر المقدونى » زورته التاريخية ليستوحى « آمون » الذى رضى عنه وأرضاه حين جعله ابناً له وألبسه تاجه . انظر : (الفصل رقم ٣٢ هامش رقم ٢) وهنالك مايشير إلى وجود مستعمرة كوشِيَّة أقامها الآمو نيُّون ، وقد يشير من ناحية أخرى إلى أن « وحى سيوة » ربما يرجع إلى أصل كوشى ؛ وربَّما يؤيد ذلك أن « طهارقة » قد احتل هذه الواحة .

انظر : (Steindorff, Durch die Lybisehe Wueste zur Amon- oasis S. 69 - 70) .

(٢) آمون : رب إقليم طيبة منذ أيام الدولة الوسطى ، ورب الديار المصرية طرا بعد ذلك ؛ بل رب الأمبراطورية المصرية أيام الدولة الحديثة . واسمه مشتق ــ أكبر الظن ــ من فعل « أمن» بمعنى « بطَنَ »و« خَفِيَ» «واستَتَرَ» ؛ فهو « الباطن » لأنه يمثل الهواء (الأثير) الذى لا يُرى ، ونظيره عند العبرانيين « يهوڤا » (يهوى) أى الهواء . وليس ببعيد أن يكون لنشأة « موسى » الذى وُلدَ فى مصر وتربَّى فى قصورها وليداً ، وتثقَّف فى معابدها صبياً ويافعاً أثر فى ذلك . انظر : (« فى موكب الشمس » جـ ٢ ص ١٠٧ وما بعدها) . ثم (Sethe, Amun § 256 ff.) .

على الـكبش ثم يدفنونه فى قبر مقدس[1] .

٤٣ — ولقد سمعت هذه الرواية عن « هيرا كليس » ، وفحواها أنه أحد الآلهة الإثنى عشر[2] . أما عن « هيرا كليس » الثـانى الذى يعرفه

(١) ليس ببعيد أن يكون المصريون قد عدّوا هذه الضحيـة كفّارة يقدّمونها بين يدى « آمون » على أنه رب الشمس (رمز الشمس) ، وقد كان فى عقيدتهم فعلا يمثل الشمس . انظر : (Sethe, Amun §. 243 ff.) .
وكانوا يفعلون ذلك فى فصل الربيـع عندما تـكون الشمس فى برج الحمل . والله أعلم بالحقيقة على كل حال .

(٢) انظر : (Diodor, I 24.1, Ἡρακλέα τὸ γένος Αἰγύπτιον ὄντα

« إذ أن هرقل مصرى الأصل . . . . » . ومثل ذلك ورد عند Cicero .
انظر : (Cicero, De Natura deorum III, 16) . وعند Arianus .
انظر : (Arianus II, 16) . وأخيراً Hopfner
انظـر : (Hopfner, Fontes Historiae religionis Aegyptiacae p. 87, 103 - 104, 296, 308) .

وتلك مسألة تقتضينا الوقوف طويلا عند النظر فيما يقول « هردوت » بشأن تلك الطوائف من المعبودات المصرية . فالطائفة الأولى عنده من ثمانية ، وعنها — كما سنرى فى آخر هذا الفصل وفى الفصل ٤٦ — نشأت طائفة ثانية . ومن هذه الثانية نشات الثالثة كما سنرى فى الفصل ١٤٥ . وهردوت يعد من معبودات الطائفة الأولى : (Leto (Latona .

انظر : (الفصل السادس والخمسين بعد المائة من هذا الـكتاب) ونظيرتها عند المصريين تُدعى « حتحور » ، ثم يجعل من هذه الطائفة Pan أيضاً .

انظر : (الفصلين الخامس والأربعين والسادس والأربعين بعد المئة) ونظيره عند المصريين يدعى « مِين » .

اليونانيون فلم أستطع أن أسمع عنه شيئاً من أى مكان فى مصر . والأدلة كثيرة التى يمكن أن أسوقها على أن المصريين لم ينقلوا اسم[1] « هيراكليس » عن اليونانيين ، ولكن بالأحرى أخذ هؤلاء عنهم . ومن اليونانيين من يقولون بأن « هيراكليس » هو ابن « أمفيتريون » . ومن بين هذه الأدلة أقدم ما يأتى : لقد كان والدا هيراكليس — « أمفتريون » و « ألكمينا »[2] — كلاهما ، من سلالة مصرية الأصل . وعلاوة على ذلك فالمصريون يؤكدون أنهم

= ويُعدُّ من الطائفة الثانية « هرقل » . انظر : (فصل ١٤٦) . ويقابله عند المصريين « حرى شاف » معبود « إهناسية » .

ويعدُّ من الثالثة « ديونيسيس » . انظر : (فصلى ٤٢ ، ١٤٥ من هذا الكتاب) . ونظيره عند المصريين « أزوريس » .

فأما ما بقى من طوائف تلك الأرباب الثلاث فلم يذكرها « هردوت » ؛ كما أنه لم يذكر ما يناظرها من أسماء الأرباب المصرية التى أوردنا ذكرها فيما تقدَّم .

ولو حاولنا أن نبحث أمر ذلك فى ضوء ما حقَّق المؤرخون المحدثون من واقع ما ترك المصريون من تراث ، إذاً لتفرقَتْ بنا السُّبل ، ولضاعت الحقائق فى سَيْلٍ من الفوضى ، ولكان حالنا أشبه شىءٍ بحال من يحاول عدَّ نجوم السماء وإيجاد الصلات بين بعضها وبعض، ولكان علينا أن نفكر فى أرباب «أولُمْبِ» الإثنى عشر ؛ ثم فى حيوانات الدوائر الفلكية التى رمز بها المصريون إلى أقسام الكون . انظر : (الفصل الرابع من هذا الكتاب) .

(١) هذه ترجمة حرفية لكلمة (OUNOMA) ، ولكنها تعنى فى الحقيقة اسم الإله وخصائصه ، ولو أردنا ترجمتها بدقة لاضطررنا إذا إلى استخدام جملة بأكملها لنقول : إن المصريين لم ينقلوا اسم « هرقل » وأوصافه وخصائصه .

(٢) انظر الحديث المفَصَّل عن أبوىْ « هرقل » وما جاء فى الأسطورة الخاصة بذلك من اختلاف فى الرواية (Theocrite, chap. J. La Naissance d'Héraklès) .

لا يعرفون اسمى « بوسيدون » و « الديوسكورى »(١) . وأنهم لا يَعُدُّونهما آلهة بين الآلهة الأخرى . فإذا قُدِّر أن المصريين كانوا قد أخذوا عن اليونانيين اسم أى إله ، فقد كان من باب أولى أن يذكروا هؤلاء أولاً وقبل كل شيء إذ كان المصريون بالفعل — حتى في ذلك العصر — يمارسون الملاحة . كما كان بعض اليونانيين ملاَّحين فيما أعتقد أيضاً ، وكما يحملنى الفكر على ذلك . إذن — والحالة هذه — كان الأولى بالمصريين أن يعرفوا أسمى هذين الآلهين لا اسم «هيرا كليس». كلاَّ .. إن هيرا كليس إله قديم جداً عند المصريين . ووفقا لما يقولون هم أنفسهم ، إذ أنهم يعدُّون «هيرا كليس» واحداً من الآلهة الإثنى عشر التى انحدرت من الآلهة الثمانية(٢) منذ سبعة عشر ألف عام قبل أن يتولى

(١) انظر ما جاء عن ذلك فى الفصل (رقم ٥٠) .

(٢) فى الغالب أن « هردوت » قد سمع بقصة الأرباب الثمانية ، ولكنه لم يفهم مما سمع كثيراً ؛ بل ربما فهم شيئاً وغابت عنه أشياء . فالقصة مرجعها إلى فلسفة كُهَّان الأشمونيين (هرموپوليس) وتصورهم نظرية نشأة الكون ؛ تصوروه قائماً من عناصر أربعة : « نون » (الماء الأزلى) « حاح » (القضاء اللاَّنهائى) « كاك » (الظلام المُطبق) . وأخيراً « آمون » (الهواء) وكان لديهم بمثابة الروح ، حل فى هذه العناصر الثلاثة فأوجد فيها الحياة . ولما كان المصريون لا يتصورون قيام الكائنات ولا وجود الحياة بغير اتصال زوجين من ذكر وأنثى ، فقد جعلوا لكل من تلك العناصر الأربعة صاحبة ؛ فللنون زوجة تدعى « نونه » وللحاح « حاحة » ، وللكاك « كاكة » ، ولآمون « آمونة » .

ثم كان من نتائج حلول الروح فى تلك العناصر أن طفتْ الأرض على وجه الماء ، وأضاءت الشمس ، وانبعث صوتُ الحياة الأولى ؛ فكانت الكلمة . ولسنا ندرى — لماذا كلما مرت بالخاطر تلك القصة تذكرنا بقول الله تعالى فى سورة (الحاقّة) « وَيَحْمِلُ عرشَ ربِّك فوْقهم يومئذٍ ثمانية » .

يضاف إلى كل ما تقدم من أن خيالَ المصريين فى الكون ونشأته يذكرنا بما جاء فى مطلع سفر التكوين .

« أمازيس » الحكم(١) .

٤٤ — ولما كنت أرغب فى معرفة معلومات أوضح(٢) بشأن هذه الموضوعات على قدر المستطاع ، أبحرت لذلك إلى « صور » فى « فينقيا » ؛ ذلك لأنى سمعت بوجود معبد مقدس لهيراكليس(٣) هناك . ولاحظت أن هذا المعبد قد زيّنته نصبٌ كثيرة ؛ ومن بينها عمودان ، أحدهما من الذهب المصقول ، والآخر من حجر الزمرد(٤) الذى يلمع فى الليل بشكل غير مألوف . وأثناء حديثى مع كهنة الإله(٥) ؛ سألتهم منذ متى أقيم المعبد عندهم . فوجدت أنهم

---

(١) المعروف أن « أمازيس » بلغ العرش فى عام ٥٧٠ ق . م . ثم ودّع الدنيا بعد أربعة وأربعين عاما . أى فى عام ٥٢٥ ق . م . (انظر هردوت: الفصل الأول من الكتاب الثالث) فالحسبة إذاً عند هردوت تقريبية .

(٢) واضح أن « هردوت » يحبُّ دائماً أن يؤكّد حرصه على صحة معلوماته ، وأنه من أجل ذلك لا يدّخر وسعاً فى التنقل مهما كلفه ذلك من جهد .

(٣) لن يكون « هرقل » هذا فى فينيقية غير واحد من اثنين : إما إله الشمس عند الفينيقيين وهو « بَعل » أو « ملكارت » (= ملك المدينة) .

(٤) ورد ذكر هذا العمود من الزمرد عند Theophrastes وعند Plinius غير أنه ليس من السهل أن تتصوّر زُمرّدةً فى تلك الضخامة . ومن الجائز أن يكون الأمر قد أشكل على « هردوت » أو غلبت عليه المبالغة ، وجائز أيضا أن يكون العمود من اللازورد . أو أن يكون مطلياً بطلاء يشبه لون الزمرد .

(٥) ذلك رأى يؤيّده فريق من المؤرخين ويخالف عنه آخرون ؛ يرون أن نشأة المدينة لا يمكن أن يجاوز تاريخها أواخر القرن السادس عشر ق . م .

انظر : (MOVERS, Die Phoenicier II, 1. S. 134 ff - 167 ff.).

لا يتفقون أيضاً مع اليونانيين ؛ إذ قالوا إن هذا المعبد قد بنى فى نفس الوقت الذى أُسِّسَتْ فيه « صور » ، وأنه قد مر على سكْناهم بالمدينة ألفان وثلثمائة عام . ولقد رأيت فى « صور » معبدا لهيرا كليس يسمى « الثاسوسى » ، وذهبت بالفعل إلى « ثاسوس »(١) حيث وجدت معبداً لهيرا كليس ، بناه الفينيقيون الذين أسَّسُوا « ثاسوس » أثناء تجوالهم للبحث عن أوروبا ، كان ذلك قبل خمسة أجيال من ميلاد « هيرا كليس » بن « أمفيتريون » فى بلاد اليونان(٢).

هذه البحوث تُبيِّنُ إذن فى وضوح أن « هيرا كليس » إله قديم . وأظن أن تصرّف اليونانيين كان فى غاية الصواب أولئك الذين شيَّدوا عندهم معبدين لهيرا كليس(٣) ؛ يضحُّون لأحدهما ويسمونه « هيرا كليس الأولمبى » بصفته أبديًّا ويضحون للثانى باعتباره بطلاً .

---

(١) Thasos : جزيرة فى الشمال من بحر « إيجه » . انظر : (« هردوت » الفصل السابع والأربعين من كتابه السادس) . كان فيها للفينيقيين محلة منذ عام ١٤٠٠ ق . م . وكان فيها معبد لهرقل ، كُشِفَ عن بعض أنقاضه فى العصر الحديث ، كما كُشِفَ فيها عن قطعٍ من العملة تحمل صورة هذا المعبود .

(٢) إذا كان المتواتر أن مولد « هرقل » الإغريقى لأمفيتريون من أمه آلكمين يرجع إلى عام ١٢٨٤ . ق . م . فأكبر الظن أن بناء معبده بجزيرة « ثاسوس » يقع تاريخه فى حساب « هردوت » حوالى ٥٥٠ . ق . م .

(٣) يرى بعض الكتاب المتأخرين عن عصر هردوت ومنهم « ديودور » . أنه كان هناك ثلاثة معابد ، كما يرون أنه كان هناك أكثر من « هرقل » . ومهما يكن من أمر فإن بلاد الإغريق لم يكن فيها لهرقل غير مَعْبَدين .

انظر : (Rawlinson, Herodotus Vol II. P. 71) .

٤٥ — ويحكى اليونانيون روايات عديدة — دون تدقيق — ؛ منها تلك الرواية السخيفة [١] التى يروونها عن «هيرا كليس» . إذ يُحْكى أنه لما جاء هيرا كليس إلى مصر ، وضع المصريون الأكاليل على رأسه وأخذوه فى موكب ليضحوا به لزيوس ؛ فلزم الصمت برهة . وما أن بدأوا بأقامة الشعائر للتَّضحية أمام المذبح حتى لجأ « هيرا كليس » إلى العنف وقتلهم عن بكرة أبيهم . ويلوح لى من هذه الرواية أن اليونانيين يظهرون جهلاً مطبقاً بطباع المصريين وعاداتهم . إذ كيف ينبغى أن يضحى ببنى آدم [٢] قوم لا يضحُّون من الحيوان بغير الخنازير والثيران والعجول إن كانت طاهرة ، ثم بالأوز !! . ثم كيف يستطيع هيرا كليس قتل هذه الآلاف المؤلفة بمفرده وهو ما يزال بعد — حد قولهم — بشراً من الناس !! . ألا ليْتَ الآلهة بعد الكثير مِمَّا روينا عن هذه الأمور تتقبل ذلك بقبول حسن [٣] .

---

(١) الإشارة هنا إلى قِصَّةٍ تُنْسب إلى ملك أسطورى من ملوك مصر يسمى « بوزيريس » ، يقال إنه كان يذبح كل الأجانب ، وظل يفعل ذلك حتى جاء « هرا كليس » (هرقل) إلى مصر فقتله .

انظر : (Wiedemann, Herodotos Zweites Buch S. 213) .

(٢) ورد فى بعض الروايات أنه كان يُضحَّى بالأسرى فى أيام الأسرتين ١٨و١٩ (١٥٨٠ — ١٢٠٠ ق . م) .

انظر : (Frazer, Golden Bough, II, pp. 254) . ولا نظن أن ذلك كان صحيحاً على أى حال .

(٣) ذلك عهدٌ أخذه « هردوت » على نفسه كما مر بنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، حين قال إنه لن يتحدثَ عن المقدسات والشعائر إلا بمقدار ، ولسوف نَلْتقى فى الفصول التالية مثل هذا ؛ إذ يقول إنه حين يتحدث عن ذلك لن يعدو ما سمعه من الكهان وأهل المعرفة .

٤٦ — وهذه هى الأسباب التى من أجلها لا يضحى المصريون[١] — الذين سبق ذكرهم — بالعناز والتيوس : إن أهل « منديس » يعدُّون « پان » بين الآلهة الثمانية[٢]، ويزعمون أن هذه الآلهة قد وُجِدتْ قبل الآلهة الإثنى عشر . والرسَّامُون والمثَّالون يصوِّرون ، ويحفرون صورة « پان » كما يفعل اليونانيون ؛ بوجه عنز ورجلى تيس. دون أن يعتقدوا أنه على هذه الصورة ولكن لأنهم يرون تصويره على شاكلة الآلهة الأخرى ، ولست أرى ما يمنع من ذكر السبب الذى من أجله يصورون « پان » على هذا النحو[٣]. إن أهل « منديس » يقدسون كل المعز ، ويفضلون الذكور منها على الأناث ؛ ويختص الرعاة واحداً منها بالتعظيم وهو الذى إذا ما نفق عمَّ الحزن كافَّة ولاية «منديس». وفى مصر يسمى التّيس والإله كلاهما « پان » و «منديس» .

---

(١) يقصد بالمصريين هنا أهل « منديس » بطبيعة الحال .
انظر : (الفصل الثانى والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : (ما جاء فى الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .
وفى اعتقادنا أن ما أسماه هردوت (PAN) فى ذلك الفصل — وأورده ضمن الطائفة الأولى (طائفة الأرباب الثمانية) . انظر : (فصل ٤٣ هامش رقم ١) — لا يمكن أن يكون عند المصريين غير معبودهم « مِينْ »؛ رمز الخصب فى الطبيعة .
انظر : (Erman, Relig. S. 333) . إلا أن الإغريق قد اختلط عليهم الأمر ؛ فجعلوه « تيس منديس » تارة و « كبش إهناسية » تارة ثانية ، ثم « خنوم » تارة ثالثة .

(٣) لم يكن مألوفا لدى المصريِّين أن يُصوِّروا مقدَّساتِهم من الحيوان على هذا النحو الذى تخيَّله « هردوت » ؛ فهم قد صوَّروها أول الأمر حيواناتٍ كاملة ، ثم خلقوها من الحجر وغيره كهيئة البشر برؤوس الحيوان ، ثم أخرجوها آخر الأمر فى صورة بشريةٍ خالصة . وما نعرف أن « مِينْ » قد عُرِفَ مطلقا عند المصريين فى تلك الصورة التى تخيلها « هردوت » .

وفى وقتى حدث بولاية « منديس » هذا العجب العجاب ؛ اجتمع تيسٌ بامرأة فى العلانية (١) . وعلم الناس بذلك جميعاً.

٤٧ — والمصريون يعتبرون الخنزير نجسا (٢) ؛ لذلك إذا مسّ مصرىٌّ

---

(١) اجتماع التيس بالأنثى من بنى آدم يبدو شيئاً بشعاً ومضحكا فى آن معا . وإن كان وطء الذكر من بنى آدم مختلف الإناث من طوائف الحيوان أمراً معروفاً وبخاصة فى القرى . ولست أعتقد أن أمر ذلك قاصر على المصريّين وحسب ؛ بل هو عام فيما يبدوا . على أن العكس ليس يبدو مستحيلا فى مجال الرغبة الجنسية وتصويرها لدى المرأة . فقد عُثِر بين تراث المصريين على رسوم تصوّر ذلك . انظر : Michaélidis, Un moule en platre illustrant un passage d' Hérodote. Bulletin de l'Inst. fr. d' Arch. Or. L, LXIII.

(٢) نجاسة الخنزير : ذلك شىء لم يَقُلْه « هردوت » وحده . وإنما أكده سائر الذين كتبوا عن مصر والشرق . والواقع أن سائر شعوب الشرق الأدنى قد حرّمت لحم الخنزير . وليس من شك فى أن التحريم قد كان لأسباب تتصل بصحةِ هذا الحيوان والحرص على صحة من يأكلون لحمه . وإذا كان التحريم قد بُنى فى شرائع الشرقيين كاليهود ، والمسلمين مثلا على أساس النجاسة ؛ فقد كان ذلك لأن الشرائع لا تحرّم إلا بِسببِ النجاسة . وليس من شأنها أن تذكر فى إجمال أو تفصيل ما يمكن أن يلحق بصحة البشر من أذى . والواقع أن الشرق الأدنى وأكثر أقاليم مصر لم يكن فيها من المراعى الغنّية ما يمكن أن تصح معه أبدان الخنازير بحيث تخلو من العلل التى تنتقل إلى من يأكل لحومها . ولو توافرت المراعى إذاً لتغير الحال ولم يعتبر الحيوان نجسا ؛ فلحم الخنزير قد أكِلَ فى مصر ، كما أن الخنزير قد عُرِفَ فى مصر منذ فجر تاريخها ؛ وبخاصة فى الدلتا حيث توافرت المراعى الغنية السخية . وكان الناس ينالون من لحمها كثيراً كما كشفت عن ذلك أعمال التنقيب فى منطقة « مرمدة بنى سلامه » .

انظر : (١) Menghin, bei Junker, Vorberichte, Merimde Beni Salame 1933. (Wien. Anz.) (1933) s. 88.

(٢) Junker, Merimde Beni Salame, Wien. Anz. 1929 s. 218

=

خنزيرا أثناء مروره به ، ذهب فى الحال وألقى بنفسه فى النهر دون أن يخلع ملابسه . كما أن رعاة الخنازير — ولو أنهم مصريون بمولدهم — لا يدخلون — دون سائر المصريين — أى معبد من جميع معابد مصر . ولا يرضى مخلوق أن يُزَوّج أحد هؤلاء الرعاة من ابنتــه ، ولا أن يتزوَّج منهم . ولـكنهم

= ولم تتوافر للخنزير مثل هذه المراعى فى صعيد الوادى ولا فى أقاليمه الوسطى فبرئت منه دهراً ؛ لا نكاد نجد له من ذكر فى آداب المصريين ، ولا نـكاد نعثر له على أثر فى مناظر الزرع والفلاحة إلا قليلا ؛ بل لا نـكاد — حتى عصر الدولة الحديثة — نجد له من ذِكْرٍ أو رسمٍ فى قبور المصريّين وآثارهم إلا قليلا . والمصريون قد تجنَّبوا ذكره فى تراجمهم التى سجّلوها على صفحات قبورهم أو على آثارهم الأخرى ؛ لا نكاد نذكر من ذلك غير مثل واحد ورد فى سيرة أحد الرُّعاة من أيام الدولة الوسطى (Sethe, Lesestuecke, MR. s. 79) . هذا وإن كان ذكر الخنازير ورعاتها قد كَثُر وروده منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة (Klebs, Reliefs MR. s. 86) . وليس ببعيد أن يكون المصريون قد فطنوا — على مر السنين فى تاريخهم الطويل — إلى ما فى لحم هذا الحيوان من أذًى على صحة آكليه ؛ فهم قد كانوا يختبرون دماء الذبائح عقب نحرها فيقرِّرون سلامتها ، أو عدم سلامتها .

(١) انظر : Erman, Reden, Rufen, & Lieder, Berl. Akad. 1918

(٢) Montet, Bull. Inst. fr. or. 7 p. 41 f.

تُرى هل امتنع المصريون جميعاً عن أكل لحم الخنزير ؟ نكاد نشك ؛ ذلك لأن التحريم لم يكن فى أى مكان ولا فى أى زمان من الرّوادع مهما تكن أسبابه وأيّا كانت النتائج المترتّبة على مخالفيه .

ولسنا نستبعد أخيراً أن يكون بعض الفقراء من العمال قد كانوا يأكلون لحم الخنزير إن هم وجدوه .

انظر : (Keimer, Bull. inst. eg. 19 (1936—37)) .

يتزاوجون فيما بينهم[١] . والمصريون لا يضحون بالخنازير لسائر الآلهة حاشا « سيليني » و « ديونيسيس » وحدهما ؛ ينحرونها ضحيَّة لهما فى الوقت الذى يكون فيه القمر بدراً [٢]. وبعد نحرها يأكلون من لحمها . أما لماذا ينفرُون مُشمئزِّين من الخنازير فى بقية الأعياد ويذبحونها فى هذا العيد ؛ فلذلك قصة يردِّدها

---

(١) لقد مر بنا (فى الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب) كيف كان حرص المصريين شديداً على نظافة الكهَّان الذين يخدمون فى المعابد ؛ فلن يبدو غريبا بعد ذلك أن يُحَرِّم غيرهم من دخولها إذا لم تتوافر لهم نظافة المظهر على الأقل ؛ بل لن يبدو غريبا أن ينفر الناس من تلك الطبقة من الرعاة ، وهم رعاة الخنزير النجس فلا يتصلون بهم بصهر أو نسب .

(٢) جاء فى تقويم الأعياد من أيام الدولة القديمة أن المصريين كانوا ينحرون من الضحايا عنزا أو خنزيرا ؛ وذلك فى الاحتفال بعيد « سُكَريس » الذى كان يقام فى الرابع والعشرين من شهر « كيهك » . وهو اليوم الذى يزعمون أن « سُكَريس أزوريس » قد دُفن فيه .

انظر : (H. K. Nelson, Medinet Habu III, Pl. 188) .

ولم يُخطِئْ « هردوت » حين ذكر أن الضحية كانت تُقَدَّمُ والقمر بدراً ؛ فلقد جاء فى تقويم الأعياد بمعبد « إدفو » أن الضحية كانت تحرقُ فى اليوم الخامس عشر من شهر بشنس .

انظر : (Brugsch, Drei Festkalender No. I. Z. 17) .

ولم يخطىء « هردوت » كذلك حين ذكر أن بعض أجزاء الضحية كانت تحرق وإن كان الغالب أن الضحية كانت تحرق كلها ؛ ذلك لأن الخنزير كان معدودا من قبيل معبودهم البغيض « ست » (= تيفون) ورهطه الذين صرعوا معه أخاه « أزوريس » (= ديونيسيس) .

وليس بمستغربٍ بعد ذلك أن نعلم أن الخنازير كانت ترعى فى الأراضى الموقوفة على معبد « أزوريس » فى « أبيدوس » أيام الدولة الحديثة ، ليضحى بها فى أعياده . انظر : (Kees, K. G. S. 20 f.) .

المصريون ولكنى أرى — رغم علمى بها [١] — أن سردها غير مناسب .
وهكذا تكون تضحية الخنازير لسيلينى : عند نحر الضحية توضع نهاية الذيل والطحال والغشاء المهبلى مع بعضها ، ثم تلف معاً بكل ما يوجد حول بطن الحيوان من دهن ، ثم تحرق قرباناً . ويؤكل باقى اللحم فى ليلة البدر الذى تُقدَّم فيه الضحية ، ولا يذاق مطلقاً فى سائر الأيام . والفقراء منهم — لضآلة مواردهم — يشكِّلون من العجين خنازير ويخبزونها ثم يقدمونها قربانا [٢] .

٤٨ — وفى ليلة العيد [٣] ينحر كل فرد أمام بابه ، خِنَّوصاً لديونيسيس ، ثم يتركه إلى نفس الراعى الذى باعه إيَّاه . ويكاد يكون احتفال المصريين بعيد « ديو نيسيس » أن يشبه من جميع الوجوه إحتفال اليونانيين به فيما عدا الرقص [٤] .
وقد ابتكروا بدلاً من المذاكير تماثيل ، طول التمثال منها ذراع ، يمكن تحريكها بواساطة خيط ، تطوف بها النساء فى القرى ، وعضو التذكير بها متحرك

---

(١) انظر : (الفصل الخامس والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) بين آثار الفراعنة التى عُثِرَ بها فى قبور موتاهم ما يؤيِّد ذلك ؛ حيث وجدتْ بعضُ التماثيل الصغيرة لهذا الحيوان مصنوعةً من الدَّقيق ، والغالب أنها من القرابين التى زَوَّد الناسُ بها موتاهم .

(٣) لا بد أن هردوت قد ذكر هنا عيد الأباتوريا (Apaturia) الذى كان يُحْتَفلُ به « الأثينيون » مدة ثلاثة أيام ؛ يُسَمَّى أولها « دورپيا » (Dorpia) ، وكان يقام هذا العيد احتفالا بالمعبودة « أفروديت » حيث يُعْتَرفْ أثناءه بشباب القبيلة كأفراد رسميين فيها .

(٤) كان يُضحى بالخنازير غالباً فى عيد « ديونيسيس » عند اليونان ، ويكاد عيده يماثل عيد نظيره « أزوريس » فى مصر فيما عدا الرقص والغناء ؛ فقد كانا من مظاهر عيد اليونانيين . وقد كان الخنزير كذلك من أضحيات الرومان؛ يقدمونه على المذابح مع الضأن والبقر ، تشير إلى ذلك لفظة Suovetaurilia .

لا يقل كثيراً فى طوله عن باقى الجسم ، ويتقدم الموكب الزمّار ، تتبعه النساء اللائى تتغنى بديونيسيس . أما عن السبب الذى من أجله كان عضو التذكير كبير الحجم ، وكان يتحرك دون سائر أجزاء الجسم ، فلذلك قصة مقدسة يروونها (١).

(١) ينبغى — لنفهم ذلك — أن نذكر فى هذه المناسبة الأسطورة الخالدة (أسطورة إيزيس وأزوريس) ، تلك التى جاءت فصولها عبر عصور التاريخ الفرعونى متفرقة ، ونذكرها كما وضعت كاملة على يد « بلوتارخ » ؛ حيث جاء فى الفصل الثامن عشر من فصولها تقطيع جسد الشهيد « أزوريس » ، وبعثرة أشلائه بين أقاليم الوادى ؛ حاشا عضو التذكير الذى أُلقِىَ به فى اليم فابتلعته إحدى أسماكه . وظاهر من ذلك أن القاتل قد كان يخشى ما توقّعه من أن أرملة الشهيد سوف تجوس من أجله خلال الديار لتجمع أشلاءه ؛ فعمد إلى فعلته تلك خشية أن يُبعثَ الشهيد إلى الحياة فيلد من يرثُ عرشه ويطالب به .

إذا ذكرنا ذلك كله ، وذكرنا أن « أزوريس » (ديونيسيس) قد كان فى عقيدة أصحابه رمزَ الخصب والخير ؛ يأتيان بين يدى النهر عند فيضانه فى كل عام ، وذكرنا أن المصريين قد ربطوا بين بعثِ « أزوريس » ووفاء النهر . نقول إذا ذكرنا ذلك كله ، استطعنا أن نفسر ما رواه « هردوت » عن قصة الاحتفال بهذا العيد على الصورة التى رآها . وقد تكون المبالغة فى تطويل عضو التذكير وانتشاره مقصودة ؛ ذلك لأن طول العضو فى عقيدة المصريين أو فى وهمهم قد كان دليلاً على كثرة الإنجاب ؛ يشير إلى ذلك ما جاء فى كتاب الأحلام وتأويلها عندهم . ولا نريد آخر الأمر أن نخص المصريين وحدهم بمثل هذا الوهم ؛ ذلك لأن الأمر قد يعدوهم إلى شعوب أخرى . وإنا لنذكر على سبيل المثال قول الشاعر العربى (السرادق السّدوسى) الذى يعيّر أعداءه بقلة عددهم فيقول :

ولو شاء ربِّى كان « أيْرُ » أبيكُمُ ... طويلاً كأيرِ الحارثِ بن سدوس

فأما ما جاء فى آخر الوصف من تحريك العضو المذكور من التمثال دون سائر الأعضاء ، فقد يكون المقصود منه الرمز إلى بعث « أزوريس » والعثور على العضو ، ثم إلى عودةِ الحياةِ بين يدَى النهر حين يفيض . والله أعلم بالمراد على كل حال .

٤٩ — ويخيل إلىّ أن «ميلامپوس»[1] بن «أموثيون» لم يكن يجهل هذا الاحتفال بل كان به عليما . لأن « ميلامپوس » فى الواقع كان أول من أدخل فى بلاد اليونان اسم « ديونيسيس » والاحتفال بعيده وموكب الذَّكَر . إلا أنه لم يفهم بدقة كلَّ ما يتعلق بالفكرة التى جاءهم بها . ولكن الحكماء[2] الذين تلوه هم الذين شرحوها بالتفصيل . أما عن موكب الذَّكَر الذى يقام لديونيسيس ، فميلامبوس هو أول من أدخله ، ومنه تعلم اليونانيون ما يعملون . وأنا أقرِّرُ الآن أن « ميلامپوس » ذلك الرجل الحكيم ، الذى أوجد فن العرافة ، قد تعلَّم من المصريين أشياء عديدة مختلفة ، نقل منها إلى بلاد اليونان — بعد تعديل طفيف — ما يختص بديونيسيس . وأنا لا أومن مطلقا بأن الاتفاق بين شعائر « ديونيسيس » فى مصر وفى بلاد اليونان وليد الصدفة . وإلاّ لانسجمت هذه الشعائر مع طباع اليونانيين وما كان دخولها عندهم حديث العهد[3] . ولن أقول أبداً إن المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ؛ لا هى

(١) MELAMPUS بمعنى « أسود القدمين » . ورد ذكره فى أساطير اليونان بصفته من كبار الكهان المتنبئين ، وقد خلده الشاعر Hesiod فى مقطوعة طويلة أسماها MELAMPODIE . وكما قيل إنه أدخل عبادة « أزوريس » (ديونيسيس) ، وأدخل معها تقديس عضو التذكير فى بلاد اليونان . وقيل كذلك إنه أدخل عبادة « ديونيسيس زاجريوس » رب العالم السفلى ، — وكان نظيره فى مصر — « أزوريس » سلطان العالم الآخر .

(٢) أولئك هم المعروفون باسم « الأرفيين » . انظر : (فصلى ٨١ و ١٢٣ من هذا الكتاب) وهم من أسماهم σοφισταί ، أى الذين خلفوا MELAMPUS .

(٣) انظر ما كُتِبَ حديثاً عن (ديونيسيس) وشعائر عبادته فيما كتبه Farnell . انظر : (Farnell, Cults of the greek states V, 78 - 92) .

ولا غيرها من العادات. ولكن من المحتمل جداً — كما يخيل إلى — أن « ميلامپوس » تعلم هذه الشعائر من « كادموس» الصورى، ومن أولئك الذين هاجروا معه إلى البلاد التى تسمى حاليا « بيؤسيا » .

٥٠ — لقد جاءت أسماء الآلهة كلها تقريبا من مصر إلى بلاد اليونان . أما أنها قد جاءتنا كلها من الأجانب فهذا أمر وصلتُ إلى معرفته أثناء بحثى . وأظن أنها جاءت من مصر على الأخص[١] ؛ لأن أسماء الآلهة فيما عدا اسمى « پوسيدون »[٢] و « الديوسكورى »[٣] ، كما سبق أن

(١) أما أن أسماء الآلهة جاءت إلى بلاد اليونان من الخارج كما ذكر « هردوت » زاعما أن ذلك قد وصل إلى علمه ، فشىءُ لا نحبُّ أن نناقشه أو نعارض فيه « هردوت » . وأما أنها جاءت جميعها من مصر ، فأمر لا نستطيع تصديقه إلا أن يكون الإغريق الذين سبقوه إلى مصر قد كانوا يسمُّون على معبوداتها بأسماء نظائرها فى بلادهم كما سَمَّوا « أزوريس » مثلا « ديونيسيس » و « إيزيس » « ديميتر » و « حورس » « أبوللون » و « ست » « تيفون » و « نية » « أثينا » و « مين » « پان » و « آمون » « زيوس » و « بستة » « أرتميس » و « توت » « هرمس » و « بتاح » « هيفايستوس » وهلم جرآ . . . فلما جاء « هردوت » إلى مصر ، وسمع بتلك الأسماء ؛ توهم أنها مصرية ، وأنها انتقلت من مصر إلى بلاده على أننا نستبعد ذلك على كل حال .

(٢) پوسيدون (Poseidon) : ويسميه الرومان « نپتون » (Neptun) . ابن (Kronos) أعان أخاه « زيوس » على العمالقة ، فكان من نصيبه البحر وصار سلطانا عليه .

(٣) الديوسكورى (Dioskuren) : هما « كاستُر » (Kastor) و « پوليديكس » (Polydeukes) من أبناء « زيوس » وزوجته « ليدا » (Leda) . وكان لهما أختان : هما « هيلينا » (Helena) « وكليمنسترا » (Klytaemnestra) زوجة « أجمنون » (Agamemnon) .

قلت[١] ، وأسماء « هيرا »[٢] و « هيستيا »[٣] و « ثميس »[٤] و « خاريتيس »[٥] و « نيريديس »[٦] ، وجدت دائماً منذ القدم فى مصر . وأنا أردِّد هنا مايقوله المصريون أنفسهم[٧]، ويبدو لى أن « البيلاسچيين »[٨] هم الذين أعطوا الأسماء لهذه الآلهة التى يعلن المصريون عدم معرفتهم بها

---

(١) انظر : (الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) هيرا (Hera) إحدى بنات (Kronos) من زوجته (Rhea) ، وإحدى أخوات « زيوس » وزوجه فى آن معاً ؛ كانا يمثِّلان معاً قوة الذكورة والأنوثة .

(٣) هستيا (Hestia) : أخت « ديميتر » (Demeter) وكلاهما من بنات (Kronos) وزوجته (Rhea) .

(٤) ثميس (Themis) : ابنة (Uranos) من زوجته (Gaea) وكانت رمز العدل المقدَّس .

(٥) خاريتس (Chariten) (Gratia) ربَّات الجمال والجاذبية عند الإغريق .

(٦) نريديس (Nereiden) : من ربات البحر وعرائسه وكنَّ خمساً .

(٧) ليس من حقنا أن نكذب « هردوت » فيما زعم ، فالمصريون الذين أسموه تلك الأسماء قد كانوا يعرفون أنه إغريقى ، وأن تلك الأسماء إغريقية . وقد كان فريق منهم يومئذ يعرفون اللسان الإغريقى .

(٨) البلاسجيُّون (Πελασγοί) فى رأى الكتاب الإغريق هم أقدم من سكن أرض « هيلاس » قبل أن يغزوها « الهلينيُّون » (أبناء هيلاس) .

ويقول «هوميروس» إنهم كانوا يسكنون كافة المناطق من شمالى «بحر إيجه» قبل عصر البرنز .

انظر : (Crusius, Beitraege zur gr. Mythologie (Leipzig 1886))

إلا « بوسيدون »[١]، فقد عرفه اليونانيون من الليبيين لأن اسم « بوسيدون » لم يكن موجوداً منذ البداية عند أى شعب غير الليبيين الذين يعظمون هذا الإله دائماً أبدا . ولا يعتقد المصريون مطلقاً فى عبادة الأبطال[٢] .

٥١ — لقد أخذ اليونانيون إذن عن المصريين هذه العادات وغيرها مما سأتحدث عنه ، ولكنهم لم يتعلموا من المصريين عمل تماثيل « هرمس »[٣]

---

(١) ليس يبدو غريبا أن يكون المصريون قد عرفوا اسم Poseidon عن طريق الليبيين ، فقد كانت للإغريق على سواحل ليبية ثغور وأسواق للتجارة . هذا وقد أشار « هردوت » فى الفصلين رقم ١٨٠ ، ١٨٨ . من كتابه الرابع إلى صلة Poseidon بليبيا .

(٢) هكذا زعم « هردوت » وهكذا أيده بعض المحدثين من الكتاب . انظر : (Wadell, Herodotus, p. 175) .
فى الحق ان تمجيد الأبطال والشهداء ، والإيمان بقدرتهم لم يُعْرَفْ عند آل فرعون كما عُرِفَ عند الإغريق . ولكن هل لنا أن ننسى تقدير العظماء ، وتقديس بعضهم من أمثال « منا » و « سنوسرة الثالث » و « أمينوفيس الأول » الذى يسمى باسمه شهر « برمهات » ومن قبله أمه « أحموسى نفرتارى » ؟ .
ثم لِمَ نحرِّم على أنفسنا آخر الأمر الفرض أن « أزوريس » و « إيزيس » ومن إليهما ، قد كانوا من أبطال البشر .

(٣) يتحدث « هردوت » هنا فيما يبدو عن تماثيل رآها فى ميادين « أثينا » . وهى تماثيل نصفية لهرمس تتميَّز بأعضاء التذكير المنتشرة ، وهى مأخوذة عن خرافة ساموثراقية ، يُسَمَّى بطلها « كدميلوس » ، ولم يكن غير صورة معبرة عن عقيدة أصحابها فى تمثيل القوة الخلاَّقة فى الطبيعة ؛ ونعنى مايظهر فيها من النمو والانتشار فى عالم الحيوان وفى عالم النبات . ذلك هو « هرمس » أو MERCURIUS ithyphallicus . وتلك صورة لا تختلف فى كثير عن تلك الصورة التى تخيلها المصريون فى معبودهم « مِنْ » . فأما قوله إن اليونانيين لم يتعلموا مثل ذلك من المصريين ، فقول مردود عليه . ويكفى أن نُذَكِّرَ بما رواه فى الفصل الثامن والأربعين من هذا الكتاب .

ذات الذكر المنتصب ؛ بل تعلمها أهل « أثينا » من « البيلاسچيين » قبل سائر اليونانيين ، ثم أخذها هؤلاء عن الآثينيين ؛ إذ كان أهل « أثينا » يُعدُّون بالفعل من اليونانيين(١) وقتما شاركهم « البيلاسچيون » فى سكنى أرضهم . ومنذ ذلك بدأ اعتبار « البيلاسچيين » أنفسهم من اليونانيين . وأى فرد ممن دخلوا فى طقوس « الكبيرو » السرية التى يحييها « الساموثراقيُّون »(٢) ، والتى أخذوها عن « البيلاسچيين » ، يعرف معنى ما أقول . لأن هؤلاء « البيلاسچيين » الذين أصبحوا يسكنون مع الآثينيين ؛ كانوا يقطنون من قبل « ساموثراقيا » وعنهم أخذ « الساموثراقيُّون » طقوسهم السرية . وعلى ذلك كان الآثينيون أسبق اليونانيين إلى صنع تماثيل « هرمس » ذات الذكر المنتصب ، وقد تعلموا هذا من « البيلاسچيين » . ويروى «البيلاسچيون» فى هذا الشأن قصةً مقدسة ؛ ويظهر معناها بوضوح من طقوس

---

(١) انظر مارواه « هردوت » فى الفصل السادس والخمسين من كتابه الأول .

(٢) SAMOTHRACE : « الساموثراقيون » هم سكان جزيرة صغيرة تقع على ساحل تركية ، وكان لهم فيها معبد معروف ما زالت بعض أطلاله بادية . وظلت شعائرهم تقام فيه حتى أيام الرومان . ومن مقدّسات هذه الجزيرة تلك القوى الكبرى التى كانوا يطلقون عليها ــ عامة ــ اسم « الكبيرو » فى اللغات السامية بمعنى « الأشداء » . فأما عددها فقد كان أكبر الظن ثمانية . وليس ببعيد أنها بعددها هذا قد كانت فى رأس « هردوت » عندما تحدث عن الأرباب الثمانية التى جعلها الطائفة الأولى فى معبودات المصريين .

انظر : (الفصلين الثالث والأربعين والسادس والأربعين من هذا الكتاب) . وقد ظهر من بين « الكبيرو » فى المعبد المشار إليه HERMES CASMILUS أو HERMES CADMILUS . فى المحل الأول .

انظر : (Dict. des Ant. s. v. Cabieres) .

« ساموثراقيا » السرية (١) .

٥٢ — لقد عرفت مما سمعت فى « دودونا » أن « البيلاسچيين » كانوا فيما مضى يقدمون تضحياتهم مصحوبة بدعاء الآلهة دون أن يسموا واحدا منها بأى اسم أو صفة ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا قد سمعوا بأسمائها . ولقد سمّوها آلهة (٢) باعتبار أنها هى التى قد رتبتْ كلَّ ما فى الكون ، وأن بيدها مصير كل شىء . وبعد مرور زمن طويل عرفوا أسماء الآلهة كلها لما جاءتهم من مصر حاشا اسم « ديونيسيس » فقد عرفوه بعد ذلك بكثير . وبعد زمن لجأوا

---

(١) إذا لم يكن سكوت « هردوت » عن ذلك مصدره الجهل فهو نوع من مظاهر الحرج والتَّقوى يبديه « هردوت » غير مرة فى هذا الكتاب .
انظر : (الفصول ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨) .
والعجيب أن « هردوت » على الرغم من ذلك التُّقى لا يتحرج ولا يتورع حين يقول مثلا فى الفصل الخامس والثلاثين : « إن نساء مصر يبلن واقفات » ، ولا حين يزعم فى الفصل السادس والأربعين : « إن تيساً قَدْ اجتمع بامرأة فى العلانية » . ولسنا نشك فى أن توضيح ما يسميه « هردوت » هنا « الطقوس السرّية » لا يسببُ حرجا . فالأمر أمر خرافة خال فيها أصحابها مظاهر البعث أو الإحياء الذى تطالعهم به الطبيعة فى ربيع العام نتيجة لاجتماع « هرمس » بـ « پرسيفون » .

(٢) إن البلاسچيين الذين يُظَنّ أنهم نقلوا عبارة « الكبيرو » إلى SAMOTHRACE من الشرق ، لم يكونوا فيما يبدو على حظ يُرضى من التحضر . وكانوا فى الأغلب الأعم أقدم سكان الوطن الإغريقى ؛ وليس أدل على تأخرهم من أنهم لم يستطيعوا تسمية ما عبدوا من مظاهر الطبيعة فى الأرض والسماء . وإنما اكتفوا بتسمية تلك الطائفة « بالمنظّمين » .
انظر : (مادة Θεός) . فى (Legrand, Introduction sur Herodote, p. 155 — 157) .

إلى وحى « دودونا » يستفتونه فى الأسماء لأن هذا الوحى يعد أقدم وحى فى بلاد اليونان ، وكان وقتئذ الوحى الوحيد(١) . فلما استفتى « الپيلاسچيون » وحى « دودونا » فيما إذا كان يجوز لهم أخذ الأسماء التى جاءتهم من الأجانب ، أجابهم الوحى بقبولها . ومنذ ذلك الحين بدءوا يستعملون الأسماء أثناء التضحية وبعدئذ أخذها اليونانيون عن « الپيلاسچيين » .

٥٣ — ولم يعرف اليونانيون أصل واحد من الآلهة ، ولا تاريخ وجودها القديم جميعاً ، ولا ماهى أشكالها ؛ لم يعرفوا ذلك إلا بالأمس أو بالأمس القريب كما يقولون(٢) . وأنا أعتقد أن « هيسيودوس » و « هوميروس » عاشا قبل عصرى بأربعمائة سنة لا أكثر(٣) . وهما اللذان دَوَّنا لليونانيِّين أنساب الآلهة

(١) أشار « هوميروس » و « هسيودوس » إلى قدم « دودونا » ، وجعلها الأخير وطناً للبلاسچيِّين . انظر : (Ilias, XVI, 233 ff) . والغالب أن يكون مكانها « كاستريزا » بألبانية على مقربة من « يانينا » التى كانت مقر الحاكم التركى المعروف « على باشا » فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

(٢) يقرر « هردوت » فى هذه الفقرة أن « هوميروس » و « هسيودوس » عاشا معاً فى وقت واحد ولعله كان يؤمن بهذا الرأى . ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن « هوميروس » عاش فى أواخر القرن التاسع (٨٣٠ ؟) بينما ذاع صيته « هيسيودوس » فى منتصف القرن الثامن أى حوالى ٧٥٠ ق . م .

(٣) إن Thucydides الذى تجنب تحديد الوقت الذى عاش فيه « هوميروس » قد جعله بعد حرب طرواده (عام ١١٨٣) بوقت طويل . فإذا زعم « هردوت » أن « هوميروس » و « هيسيودوس » قد عاشا قبل عصره بأربعة قرون ، فمعنى ذلك أنهما عاشا فى نهاية القرن التاسع ق . م . وهو تحديد لا يبعد عما يراه أهل الدقة من الباحثين الذين جعلوا أيام « هوميروس » حول مطلع القرن العاشر قبل مولد المسيح .

وسمياها بألقابها ، وتكلما عن مرتبةِ الشرف التى لكل منها ، واختصاصاتها وفصَّلا أشكالها . أما الشعراء الذين يقال إنهم وُجِدُوا قبل « هوميروس » و « هيسيودوس » فقد وجدوا بعدهما (١) فيما أعتقد . والشطر الأول مما سبق يُنْسب إلى ما تقوله كاهنات وحى « دودونا » . أما ما يأتى بعد ذلك بخصوص هوميروس وهيسيودوس فهذا من قولى أنا(٢) .

٥٤ — وهذا ما يقوله المصريون بشأن الهاتِفَيْن اللذين يوجد أحدهما عند اليونانيين والآخر فى ليبيا (٣) . قال كهنة « زيوس الطيبى » إن الفينيقيين قد خطفوا امرأتين مقدستين من طيبة ، وإنهم عرفوا أن إحداهما قد بيعت فى ليبيا والأخرى فى اليونان . وإن هاتين المرأتين هما اللتان قد أنشأتا الوحيين أول الأمر عند الشعبين المذكورين . ولما سألتهم من أين لهم هذه المعلومات الدقيقة التى يسردونها ، أجابوا على ذلك بأنهم قاموا ببحث واسع النطاق للعثور على هاتين المرأتين ، إلا أنهم — رغم هذا — لم يستطيعوا أن يجدوهما ، ولكنهم أخيراً عرفوا بخصوصهما ما قالوه لى .

٥٥ — هذا إذن ما سمعته من الكهنة فى طيبة ، وفيما يلى ما رواه عرَّافات(٤)

---

(١) أكبر الظن أن الشعراء الذين عناهم « هردوت » هنا هم الذين كانت شهرتهم واسعة أثيرة فى دنيا الإغريق فى أيامه من أمثال: Musaeus, Orpheus ثم Linus,

(٢) نلاحظ هنا حرص « هردوت » على أن يفرِّق دائماً بين ما سمعه من رواته وما يراه هو . كما نلاحظ حدَّته وعنفه فى نقدِ من يرى أنهم أخطأوا .

(٣) يقصد بطبيعة الحال وحى « دودونا » ووحى « آمون » .
انظر : (Cook, Zeus I, p. 264) .

(٤) يقول « سترابون » إن الكاهنات والعرافات لم يلحقن بمعبد « دودونا » إلى ما بعد ذلك التاريخ .

« دودونا » . طـارت حمامتان سوداوان من « طيبـة » التي فى مصر[١] ؛ ذهبت إحداهما إلى ليبيا وجاءت الثانية إليهم . وعندما حطت هذه فوق شجرة سنديان[٢] ، أعلنت فى صوت آدمى[٣] أنه يجب إنشاء هاتف لزيوس هناك . وأدرك القوم أن هذا نبأ جاءهم من إله . وتصديقا له أقاموا الهاتف . أما الحمامة التي توجهت إلى ليبيا فتقول العرافات إنهـا أمرت الليبيين بإقامـة وحى « آمون » ؛ وهو أيضاً خاص بزيوس . هذا ما قصه على كاهنات « دودونا » . وكبراهن تسمى « پرومينيـا »[٤] والثانيـة « تيماريتى »[٥] وأصغرهن « نيكاندرى »[٦] ووافق على روايتهن سائر الدودونيين الملحقين بالمعبد[٧] .

---

(١) ترى أيكون قد اختلط عليه الأمر . حين كان يستمع إلى رواية المصريين عن النواحتين (يزيس و نفتيس) وقد كان المصريـون يصورانهما فى صورة حدأتين؟ انظر : (الفصل رقم ٨٥ وتعليقنا على ذلك) .

(٢) φηγός (Quercus esculus) شجرة من البلوط المثمر يزعم كـتَّابُ الإغريق أنها أقدم الشجر طرًّا ، وأن الناس عرفوها وعاشوا على ثمرها قبل أن يعرفوا الزرع والفلاحة . وقد جُعلتْ هذه الشجرة من مقدسات معبودهم « زيوس » . وبين اهتزاز غصونها وأصوات الطير من فوقها يُوحَى إلى الكهان بإرادة الأله فى مستقبل أيامهم . انظر : (Paus. T. 17. 5) .

(٣) Πελειάδες : كانت الحمامة من مقدسات « دودونا » ، وكانت دائماً إلى جوار « زيوس » . وقد كان كاهناتها يُعرفـنَ من أجل ذلك بالحمائم . وكنّ من العذارى ؛ ينقلن الوحى (إرادة لآلهة إلى الناس) كما كانت تفعل Pythia فى « دلفى » .

(٤) Promonia : « المبصرة » « الواعية » « المدبّرة » .

(٥) Timarete : « ذات الفضيلة » .

(٦) Nikandra : « قاهرة الرجال » .

(٧) انظر : (Homer, Ilias XIV, 235) .

٥٦ — وهذا ما أدلى به أنا فى هذا الصـدد ، إذا حدث حقيقة أن الفينيقيين قد اختطفوا هاتين المرأتين المقدستين ، وباعوا إحداهما فى ليبيا والثانية فى بلاد اليونان ؛ فيلوح لى أن هذه (الأخيرة) قد بيعت إلى « الثيسبروتيين » الذين يقطنون حاليا بلاد اليونان . وكانت هى بعينها تسمى من قبل بلاد « بيلاسچيا » . وفيما كانت تعيش فى هذا البلد عيشة العبيد ، أنشأت تحت شجرة سنديان تنمو هناك معبدا لزيوس ، فقـد كان من الطبيعى — بعد أن خدمت فى معبد لزيوس بطيبة [١] — أنها تذكره أينما حلَّت . وبعد أن تعلَّمت اللغة اليونانية أقامت هاتفاً ، وهى التى قالت إن الفينيقيين الذين باعوها هم أنفسهم الذين قد باعوا أختها أيضاً فى ليبيا [٢] .

٥٧ — ويخيل إلىَّ أن « الدودونيين » قد سموا المرأتين « حمامتين » ؛ لأنهما كانتا أجنبيَّتين [٣] ، ولأن لغتهما كما بدا للدودونيين كانت تشبه أصوات الطيور . وإذا ما قالوا إن الحمامة بعد وقت نطقت بصوت آدمى فذلك بعد ما كلمتهم المرأة بما يفهمون ، ولكنها طالما كانت تنطق بلغة أعجمية ؛ فقد بدت لهم وكأنها تزقزق مثل العصفور [٤] . إذ كيف يتسنَّى لحمامة أن تتكلم

---

(١) أكبر الظن أن « هردوت » هنا يُذَكِّر بالنساء اللاتى كن يخدمن فى المعابد المصرية وقد مر ذكرهن فى الفصل الخامس والثلاثين من هذا الكتاب .

(٢) يبدو أن نسبة الاختطاف والبيع إلى الفينيقيين بالذات ، مرجعها إلى أن الفينيقيين قد كانوا أئمة تجار الدنيا عامة ، وأشهرهم فى حوض البحر الأبيض بخاصة .

(٣) انظر ما قدمنا عن ذلك من حديث فى الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) .

(٤) كان من عادة الإغريق حين يسمعون لساناً غريباً لا يفهمونه أن ينعتوه بلسان الطير من صغار العصافير . انظر : (Eschyle, Agamemnon 1050) .

بصوت آدمى ؟ وعندما يَدَّعُونَ أن الحمامة كانت سوداء ، فهم يشيرون بذلك إلى أن المرأة كانت مصرية[1] . إن علم العرافة فى « طيبة » المصرية يشبه ذلك الذى فى « دودونا » . كما أن العرافة عن طريق فحص الضحايا جاءت من مصر أيضاً .

٥٨ — ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة[2] ، وعنهم تعلمها اليونانيون . ودليلى على ذلك أنها تقام عند المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون إلاّ منذ وقت قريب .

٥٩ — والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة فى السنة بعيد شعبى عام ؛ ولكن أعيادهم العامة كثيرة . أهمها ذلك الذى يتحمَّسون جداً لإقامته فى مدينة « بوباسطيس »[3] لأرتميس . ويليه عيد الإلهة « إيزيس » الذى يُحْتَفَلُ به فى مدينة « بوزيريس »[4] ، حيث يوجد بها أكبر معبد لهذه

---

(١) اللون الأسود ليس مرجعه — إذا صح تخميننا فى الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) — إلى أن الحمامة أو المرأة كانت مصرية وحسب ؛ بل لأنها كانت تُصوَّر لدى المصريين فى صورة حدأة .

(٢) قد يكون ذلك صحيحاً ؛ يدل عليه كثرة ما خلَّفَ المصريون على جدران معابدهم من مناظر تلك الأعياد . وحسبنا مناظر عيد « آمون » التى ما زالت باقية على جدران معبد الأقصر ؛ حيث كان ذلك المعبود ينتقل إليه فى موكبه الرسمى أيام عيد زواجه الذى جعله أصحابه فى شهر « بابه » فسمى الشهر من أجل ذلك باسم المعبد . انظر : (Sethe, Amun. S. 11) .

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٠) من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل (رقم ٦١) من هذا الكتاب .

الإلهة . وتقع هذه المدينة وسط الدلتا(١) . و « إيزيس » هى « ديميتير »(٢) فى اللغة اليونانية . وثالث هذه الأعياد يقام فى مدينة سايس لأثينا(٣) ، والرابع فى مدينة « هيليوبوليس »(٤) لهليوس ، والخامس فى مدينة « بوطون »(٥) لليتو ، والسادس فى مدينة « پاپريميس »(٦) لآريس .

٦٠ — وفى طريقهم إلى « بوباسطيس »(٧) ، يسلكون هذا المسلك : يبحر الرجال والنساء معاً ويحمل كل قارب عدداً كبيراً من الجنسين . ويُطبِّل

---

(١) « بوزيرس » مدينة قديمة فى وسط الدلتا موقعها جنوبى « سمنود » . وتسمى الآن « أبو صير بنا » .

انظر : (J. Ball, Egypt in the Class. Geogr. p. 17) .

(٢) انظر الفصل السادس والخمسين بعد المئة من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل الثانى والستين من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٥) بوطون : مدينة قديمة بالقرب من « إبطو » وتعرف الآن باسم « كوم الفراعين » أو « تل الفراعين » . انظر : (J. Ball, ibd. p. 17) .

(٦) پاپريميس Paprêmis : كانت أكبر الظن جزءاً من « تل الفرما » .

انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) . ويرى Kees (Kees, G. G. s. 12) أنها على مقربة من (سايس) .

(٧) بوبسطيس : مدينة من المدائن الشهيرة فى مصر الفرعونية ، وكان موقعها إلى الشرق من الفرع البيلوزى ، ويعرف مكانها اليوم باسم « تل بسطه » عند الزقازيق . جاء ذكرها فى معجم البلدان لياقوت فقيل إن « بسطه » كورة بأسفل الأرض بمصر ويقال « بُسْطة » بضم الباء : كذلك ورد ذكرها فى قوانين الدواوين لابن مماتى على أنها من أعمال الشرقية . فأما اسمها المصرى فمركب من لفظين ؛ پر (بيت) + بسته وهى الهرة المقدسة عند المصريين .

بعض النسوة على الطبول التى بأيديهن ، وبعض الرجال يزمرون طول الطريق . أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون[١]. فإذا ما بلغوا — أثناء إبحارهم — مدينة من المدن جنحوا بزورقهم إلى الشاطىء وقاموا بما يأتى : بينما يستمر بعض النسوة فى القيام بما وصفت، تعلو أصوات بعضهن هاتفات، ساخرات بنساء هذه المدينة. وبعضهن يرقصن، كما يقف بعضهن رافعات ثيابهن. و«الناس» يفعلون مثل ذلك عند كل مدينة على شاطىء النهر. وعند وصولهم إلى «بوباسطيس»، يحتفلون بالعيد ويقدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من النبيذ فى هذا العيد أكثر مما يستهلكون فى بقية العام كله[٢] . ويبلغ عدد المجتمعين فى هذه المناسبة

---

(١) كان التصفيق والطبل والزمر من الأمور المألوفة فى أعياد الفراعنة ، وقد مر بنا الكلام عن أعيادهم فى الفصل الثامن والخمسين .

(٢) لسنا نعتقد أن « هردوت » مبالغ فى روايته ؛ فحياةُ هذا الشعب على زمان الفراعنة لم يكن فيها كثير من الضيق والشح ، وإنما كانت حياة موفورة الرزق مليئة بالخير؛ فوجبة الفرد البسيطة كانت من الخبز، وشرابه فيها الجعة ، تكاد تشبه الوجبة الألمانية الشعبية. وأمَّا الوجبة الكاملة الغنية فكان الطعام فيها من لحم البقر والطير ، كما كان الشراب فيها نبيذاً . وكان نصيب العامل الفقير الكادح من الرزق فى اليوم ثلاثة أرغفة وإبريقين من الجعة ، وقد يزاد عدد الأرغفة فتكون أربعة أحيانا. انظر : (Erman, Lit. S. 105) .

وفى صور الحياة اليومية — كما سجلها القوم بالرسم والحكاية — ما يدل على أنهم عاشوا عيشةً راضية ؛ فهم قد أكلوا كثيراً وشربوا كثيراً ، وكان زادهم من الطعام والشراب حلواً طيِّبا . وأيسر النظر فى صور موائد القربان أو ما يصاحبها من قوائم الطعام والشراب ، وما فيها من ألوان الخبز والفطائر ولحم البقر والطير ومن أنواع الشراب من الجعة والأنبذة ، ليدل فى وضوح على أن أسلافنا فى هذا الوطن المصرى قد أحبوا الحياة واستمتعوا فيها بالطيبات من الرزق ، ولم يطمعوا من وراء دنياهم فى أخرى تختلف عن أختها فى شىء ؛ إذ كانت =

وفقا لقول أهل البلاد ، سبعمئة ألف من الرجال والنساء عدا الصبية .

= الأخرى فى تَصَوُّرهم استئنافا دائماً لدنياهم .

وبعد ، فإن فى آدابهم — فوق ما ذكرنا من صور الحياة — ما يدل على أنهم قد كانوا يستحثون أنفسهم على الاستمتاع بدنياهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؛ فهذا حكيم من حكماء الدولة القديمة يُغْرى الرجل بالزواج من المرأة البَضَّةِ الممتلئة المرحة ، ويوصيه بأن يكرمها بكل طيِّبٍ من الطعام .

انظر : (Pap. Prisse 15, 6 — 7) .

وذلك آخر ، يَبْذل النصح لغيره فيقول : « أنفق كل ما تملك فَرِحاً ، وإياك أن تُمسك ، فإن من الخير للمرء أن يستمتع برزقه » .

انظر : (Erman, Lit. S. 144) ثم (Gardiner, Admon. 8, 6 – 7)

وثالث من زمان الأسرة الحادية عشرة يوصى بأن يُكْتَبَ على شاهد قبره : « لقد كنت أمرءًا يستمتع بكلِّ يومه ، ولم أضيِّع من يومى ساعة استمتاع » .

انظر : (Polotsky, Zu den Inschr. der 11. Dyn. S. 32) .

وفى كل أولئك ما يظهرنا على نظرة القوم إلى الحياة ؛ يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم . فما أكثر ما تعدَّدت أعيادهم ، وما أكثر ما استمتعوا فيها بالطعام والشراب ؛ بل لقد كانت لهم أعياد خاصة يستمتعون فيها بالشراب وحسب . وفيما ادَّخر الزمن من تراثهم الأدبى — من أغانى الحب والغزل من زمان الدولة الحديثة — ما يشير إلى كثرة الولائم فى الأعياد وبخاصة ولائم الشراب منها .

انظر : (Erman, Lit. S. 313) .

والمصريون لم يتحرجوا من التحدُّث عن ذكرى أيام استمتاعهم بالحياة ، وأعيادهم اللاهية الطاعمة الشاربة ، وما أصابهم فى كل أولئك من نشوة وسكر .

انظر : (١) Wreszinski, Atlas I, Taf. 293

(٢) Erman, Aegypten, S. 288, Abb. 728

وجاء فى الخبر عن أحاديث النَّصر الذى أحرزه المصريُّون على يد بطلهم المظفر « تحتمس الثالث » أن جلالته كان يقضى أيامه بعد النصر نشوان متطيِّباً =

٦١ — ذلك ما يفعلون فى هذا العيد . ولقد وصفت فيما سبق(١) كيف يحتفلون بعيد « إيزيس » فى مدينة « بوزيريس » . بعد تقديم الضحية يلطم الجميع ، نسوة ورجالاً ، وهم آلاف مؤلفة من البشر . وليس من الورع أن أقول على من يلطمون(٢) . وكل « الكاريِّين » الذين يسكنون

= كما لو كان يُعيَّد فى مصر . وليس غريباً بعد هذا كله أن يراهم « هردوت » يشربون فى أعيادهم على نحو ما وصف .

على أن كل ذلك لم يُنسِ المصريين واجباتِهم نحو وطنهم ، ونحو أنفسهم . ولم يُنْسِهِمْ كرامتهم الإنسانية ، ولم ينسِهِمْ احترام القيم الخلقية والروحية . وفى آدابهم ونصائح الحكماء منهم حَضٌّ على الاعتدال فى استمراء لذَّات الحياة ولهوها ، ونَهْىٌ عن الإسراف على أنفسهم فى الحياة الدنيا . وفيها تحذيرٌ من فقدان الوعى خشية عقدة اللسان ، أو فقدان توازن البدن الذى يؤدِّى حتماً إلى وقوع الضرر والأذى بأبدانهم فضلا عن إهدار الكرامة .

انظر : (Erman, Lit. S. 296) .

تلك كانت نصائح الحكماء والشيوخ . ولكن لطبيعة البشر أثرها فى السلوك على كل حال ، فمنهم العاقل الرشيد ، ومنهم الطائش المنحرف . وليس على الحكماء والناصحين من ضير حين تذهب نصائحهم سدى إزاء فورة الشباب ، فما أكثر ما ينسى الشباب — والكهول أحيانا — ما مر بهم من عظات الأيام ، وما أكثر ما تضعف النفس البشرية أمام الإغراء ، وما أكثر ما يعجز الشباب عن أن يكبحوا جماحهم حين يلتمسون شيئاً من لذَّات الحياة ، « فما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(١) انظر الفصل الأربعين من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٢) إنه يقصد « أزوريس » من غير شك ، يلطم المحتفلون الخدودَ فى ذكرى مصرعه على يد أخيه الغادر « ست » ، ويرمزون بذلك إلى دخول الشتاء . كما فرحوا يبعثه فى استقبال ربيع الحياة بين يدى فيضان النهر على نحو ما رأينا فى الحديث عن « عيد بوبسطة » .

مصر[1] يبالغون أيضاً فى عمل ذلك لدرجة أنهم يقطّعُون جباههم بالمشارط ، ومن ذلك يتضح أنهم أجانب غير مصريين .

٦٢ — وعندما يجتمع المصريون فى « سايس »[2] ، يشعلون جميعاً ليلة التضحية ، مصابيح عديدة فى الهواء على شكل دائرة حول منازلهم . وهذه المصابيح عبارة عن أوان مسطحة مملوءة بالملح والزيت . ويطفو على سطحها فتيل يشتعل طول الليل . ولذا يسمى العيد « عيد المصابيح »[3] . والذين لا يذهبون إلى هذا الاحتفال من المصريين يترقبون ليلة التضحية ، ويشعلون بدورهم جميعاً المصابيح . وهكذا فالمصابيح لا تشعل فى « سايس » وحدها بل فى مصر كلها . أما عن السبب الذى من أجله تُعظَّم هذه الليلة ، وتُضَاء ، فلذلك قصة مقدسة يروونها .

٦٣ — وإلى « هيليوپوليس »[4] و « بوطو »[5] يذهبون لتقديم الضحايا

---

(١) كان « الـكاريُّون » يسكنون مصر منذ أيام « إبسماتيك » .

(٢) سايس : تعرف اليوم باسم « صا الحجر » . وكانت من أشهر مدائن الدلتا ، وكان موقعها فى شرقى « فرع كانوپ » وعلى بعد قريب منه .

انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) .

وقد تردّدَ ذكرها فى هذا الـكتاب . انظر : (الفصول : ٢٨ ، ٥٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦) .

(٣) ليس يبعد أن يكون السبب فى إشعال المصابيح هو شدة الظلام فى ليالى الشتاء الطويلة .

(٤) انظر الحديث عن « هليوپوليس » فى الفصل الثالث (هامش رقم ٢) من هذا الـكتاب .

(٥) بوطو : مدينة من أشهر مدائن مصر الفرعونية ، مكانها اليوم « تل الفراعين » ، وكان يحتفل فيها بعيد « حتحور » (= ليتو) . انظر : (الفصل الخامس والخمسين ، ثم الفصل التاسع والخمسين من هذا الـكتاب) .

وحَسْب . فأمَّا فى « پاپريميس »[1] فيقرِّبون الأضحيات ويؤدُّن الشعائر كما فى سائر الجهات . وعند ميل الشمس إلى الغروب تنصرف قلَّة من الكهنة إلى الاهتمام بتمثال الإله وتقف أكثريتهم مزوَّدين بعصىٌّ من خشب . بينما يحتشد عند مدخل المعبد وفى مواجهتهم جمع آخر من الرجال يربو عددهم على الألف ، يوفون بالنذور وبأيديهم عصى أيضاً . أما تمثال الإله — وقد وضع فى مقصورة صغيرة من الخشب المذهب[2] — فينقل ليلة العيد إلى بناء آخر مقدس . وتجر الفئة القليلة التى كانت تُرِكَتْ حول التمثال مِحَفَّةً ذات أربع عجلات ، تحمل المقصورة والتمثال الذى بداخلها . وبينما يمنعهم من الدخول الكهنة الذين يقفون عند المدخل ، يتقدم الذين يوفون بالنذور لنجدة الإله ويضربونهم. فيدافع هؤلاء عن أنفسهم. وعندئذ تنشب بينهم معركة حامية بالعصى ؛ فتشج رءوس بل ويموت كثيرون — كما يخيّل إلى — بسبب جراحهم . ولو أن المصريين أكَّدوا لى أنه لا يموت منهم أحدٌ . ويقول أهل البلاد إن نشأة هذا العيد ترجع إلى تلك الحادثة : كانت أم « آريس » تسكن هذا المعبد ، وكان « آريس » قد رُبِّى بعيداً عنها ، فلما بلغ سن الرجولة ، جاء ليتحدث إليها . ولكن أتباعها لم يسمحوا له بالدخول وردوه ؛ لأنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل . فرجع « آريس » وجاء من مدينة أخرى بحشد كبير من الرجال فأخذ الأتباع بالعنف ودخل على أمه . ومن هنا جرت العادة بأن تنشب

---

(١) پاپريمس : مر ذكرها فى الفصل التاسع والخمسين (هامش رقم ٨) وما نذكر أنها وردت عند واحد من الكُتَّاب القدماء غير هردوت . ويرى Kees أنها كانت بالقرب من « سايس » انظر : (Kees G. G. S. 2)

(٢) عرف المصريون تلك النواويس الصغيرة ؛ وكانوا يحملون فيها تماثيل المعبودات لِيُطَوِّفوا بها فى المعابد أيام الأعياد .

هذه المعركة فى عيد « آريس »(١) .

٦٤ — والمصريون أيضاً هم أول من راعى السنة التى تحرِّم مجامعة النساء فى المعابد ، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال(٢) . وسائر الشعوب تقريبا — فيما عدا المصريِّين واليونانيين — يجامعون النساء فى المعابد ، ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، إذ يعتقدون أن شأن الإنسان فى ذلك شأن سائر الحيوان . وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر فى معابد الآلهة وحرمها . فإذا كان ذلك العمل لا يرضى الإله فلماذا إذن تفعله الحيوانات . هذا ما يروونه ليبرِّروا به أعمالاً هى فى نظرى غير مَرْضِية .

---

(١) يخيل إلينا أن تلك الصور المختلفة من العادات والتقاليد . مرجعها جميعا إلى أسطورة الشهيد « أزوريس » وما صوّرت من حوادث مصرعه على يد أخيه «ست» ، ومولد «حورس» الذى تركته أمه رضيعا بين أحراج الدلتا . ومطالبة هذا اليتيم بعرش أبيه القتيل . وكيد عمه له ولأمه «إيزيس» . والنضال الذى جرى بين الخصمين حين اختصما إلى القضاء الإلهى فى هليوبوليس وغيرها . ثم حين جرت بين الخصمين الحروب والوقائع التى ردّدتها الأساطير .

(٢) لن يبدو غريبا أن يُحرِّم المصريون على أنفسهم دخول دور العبادة بعد الجماع دون اغتسال . ولسنا نستبعد مطلقاً أن يكونوا قد سبقوا غيرهم من الشعوب فى الأخذ بهذه السنة إن لم يكونوا أول من أخذ بها .

انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ، ص ٢١٥) .

ونحب بهذه المناسبة أن نذكر أن الإسلام قد حَرَّمَ على أصحابه مباشرة النساء فى المساجد . انظر : (سورة البقرة : آية ١٨٦) وفى ذلك ما يشير إلى أنهم ربما كانوا يفعلون ذلك قبل التحريم .

٦٥ — ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدسة وعلى الأخص ما يتعلّق بالموضوع التالى : مع أن مصر تقع على حدود ليبيا (١)، إلا أنها ليست مرتعاً للحيوانات المفترسة (٢) . لكن المصريين يقدسون كل

---

(١) حقيقة إن مصر التى رآها « هردوت » ؛ بل مصر كما عرفتها الدنيا قبل أن يعرفها « هردوت » بزمن طويل ، كانت قد برئت من كواسر الوحش وجوارح الطير بحيث لم يبق فيها من ذلك غير قليل . انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ص ٥٠) . وإنا لا نستطيع أن نرد الشك عن أنفسنا حين ننظر فيما يزعم « هردوت » حين يتحدث عن امتلاء صحراء ليبيا بالوحوش .

انظر : (الفصل الواحد والتسعين بعد المائة من كتابه الرابع) ؛ فيذكر فيها الأسود مثلا ، وإن كان قد غلب وجودها فى الصحراء العربية .

انظر : (Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung Newberry (Der Alte Orient 27) Uebers. v. Roeder) .

أو الفيلة التى لم يرها المصريون ـ غالباً ـ إلا فى عصورهم البعيدة، ولم يمارسوا صيدها إلا أيام حروبهم فى آسية وعند أطراف الفرات . انظر : (Sethe, Urk. IV, S. 893). أو الدّبية التى لم يرها المصريون إلا فى أحراج سورية ولبنان . انظر: (Borchardt, D. Grabdenkmal d. K. Sahuré Bd. II. Taf III Bd. I, SS. 16, 78 179)

أو «الحمار ذا القرن» ، وما نعرف ولا نقدّر أن المصريين أو غيرهم قد عرفوا هذا اللون من الحيوان ، إلا أن يكون « هردوت » قد قصد به « وحيد القرن» وذلك حيوان لم تعرفه صحراء مصر لا فى الشرق ولا فى الغرب ، وإنما عرفه المصريون وتصيّدوه فى غابات إفريقية ، ولسنا نذكر أننا رأينا من رسومه غيرما وُجِدَ فى أيام فرعون «تحتمس الثالث» على جدار فى معبد له فى «إرمنت» .

انظر : (Helk, Urk. d. 18. Dyn. Heft 17. 1248) .

(٢) ذلك قول صحيح تؤيده آثار الفراعنة ، ولم ينفرد «هردوت» بذكره ؛ بل ذكره غيره من الكتاب . انظر : (Newberry, Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung uebers. v. Roeder D. Alte Orient 27) .

الحيوانات التى توجد فى بلادهم — مستأنسة كانت أم غير مستأنسة (١) — وإذا أردتُ أن أتكلم عن الأسباب التى قُدِّستْ من أجلها الحيوانات، لاستطردت فى حديثى إلى الشئون الدينية التى أتحاشى بوجه خاص الخوض فيها بالتفصيل. أما ما ذكرته بصورة سطحية عن هذه الأمور، فقد اضطررت إلى ذكره فى سياق الحديث(٢). وهذه هى السنة المتبعة فيما يتعلق بالحيوانات.

يُعَيَّنُ من المصريين — رجالا ونساء — من يسهرون على تربية كل نوع منها على حدة، ويتوارثون هذه الوظيفة، الابن عن أبيه(٣). ويوفى سكان المدن، كل على حدة، بنذورهم إلى الحيوانات بهذه الطريقة: عندما يقدِّمون النذور إلى الإله الذى يُقدَّس له الحيوان، يحلقون رؤوس أبنائهم — الرأس كله أو نصفه أو ثلثه — ويقدِّرون الشعر بزنته فضة (٤)، ويُعطى هذا القدر من الفضة — مهما يكن وزنه — للحارسة التى ترعى الحيوان. وفى مقابل

---

(١) شبيه بذلك ما ذكره فى الفصل الثالث من هذا الكتاب حين قال: إن الناس يعرفون عن الآلهة قدراً واحداً.

(٢) شبيه بذلك ما رواه فى الفصل الثالث انظر: (هامش رقم ٥) من هذا الكتاب.

(٣) مثل ذلك ما حكاه عن الكهان فى الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب.

(٤) لا يبدو ذلك غريبا بين ما نعرف من صور عقائد المصريين وتقاليدهم، وإن كنا نعتقد أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الأرض، فلقد فعل غيرهم مثل مافعلوا. ومن ذلك ما روى عن رسول الله «محمد بن عبد الله» صلوات الله وسلامه عليه، أنه تصدَّق بوزن شعر ابنه «إبراهيم» ذهباً. وشبيه بذلك مايفعله المصريون من أهل القرى حين يحلقون شعور أطفالهم عند ضريح ولى الله السيد (أحمد البدوى) فى طنطا.

هذا تقطع الحارسة قطعة من السمك وتقدمها طعاماً للحيوانات[١] . تلك هى الطريقة التى خصصت لتربية هذه الحيوانات ، وإذا قتل امرؤٌ إحدها عمداً ، كان جزاؤه الموت[٢] . أما إذا قتله بغير قصد ، فيدفع الغرامة التى يقررها الكهنة . فأما عقوبة الموت فلا مفرّ منها لمن يقتل « أبا منجل » أو باشقاً سواء ارتكبَ القتل عمداً أو دون عمد .

٦٦ — والحيوانات الأليفة عندهم كثيرة . وكان يمكن أن تكون أزيد من ذلك بكثير لو لم تلم هذه المصائب بالقطط[٣] : فعندما تلد الإناث من

---

(١) لا نعتقد أن سائر الحيوانات كانت تأكل السمك . إلا أن يكون تمساحاً ، أو سبعاً ، أو طيراً من طيور الماء .

(٢) يروى «ديودور الصقلى» (١ ، ٣ ، ٨ ، ٩) أن هذه العقوبة قد وقِّعَت على أحد الرومان على الرغم من تدخل الملك المقدونى « بطلميوس الزَّمار » أملا فى تخفيفها . انظر : (شيشرون : الرسائل ٥ ، ٧) .

(٣) كانت القطط — ومازالت — من أحب الحيوانات الأليفة إلى الناس ، تختصها ربّةُ الدار بكثير من الحب والرعاية والتدليل ؛ ذلك لأنها تخشى على نفسها وأهلها عامة ، ثم على صغارها بخاصة أذى الزواحف والحشرات . وتعرف أن القطط من ألدّ أعداء الزواحف والحشرات . وربة الدار تخشى أيضاً على ما فى دارها من زادٍ وأثاثٍ من عبث الفيران وعدوانها . وتعرف أن القطط من ألدّ أعداء الفيران . فلا غرابة إذن فى أن يقدّس المصريّون القطط ، ويحنّطوها بعد الموت ، ويصنعوا لها التماثيل . وقد عُثِرَ على قبور القطط فى بعض الجبّانات المصرية بصقاره وبنى حسن . انظر : (Kees, G.G S. 82) . ولم تنل القطط من الشهرة والحظوة ما نالت — بين ما قدس المصريون من طوائف الحيوان — إلا فى أيّام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوبسطة » عاصمةً لملكهم . ثم خلط الناس فى عقائدهم بعدئذ بين القطط وبين نظائرها وأشباهها من الحيوانات ؛ ومن أمثلة ذلك أن تصبح المرَّةُ لديهم الصورة الضاحكة لشبيهتها العَبّاسية الفتاكة « زخمه » التى كانت من اللباة . انظر : (Hopfner, Tierkult, S. 35 f.) . =

القطط ، لا ترغب بعدئذ فى معاشرة الذكور ، فإذا ما حاولت هذه الاجتماع بها فإنها لا تستطيع . ولهذا السبب : فكّرت الذكور فى الحيلة الآتية : تخطف الصِّغار من أمهاتها ، أو تسرقها ثم تقتلها ، ولكنها لا تأكلها . وبعد أن تحرم الإناث من صغارها ترغب فى غيرها . وعلى ذلك تسعى نحو الذكور لأن هذا الحيوان كثير الحب لصغاره(١) . وعندما يشب حريق ، يستولى على القطط

= ولن ننسى من ذلك كيف تخيَّل المصريُّون معبودَهم الأكبر « رع » فى هيئة قط يصرع الحية « أپوفيس » التى خالوا أنها تتصدى لموكبه أصيل كل يوم وهو يعبر محيط السماء من شرق الدنيا إلى غربها . انظر : (Naville, Totenbuch I, Taf. 30) .

ولم يقف القوم فى تصوُّرهم وخيالهم عند حد ما ذكرنا ؛ بل تخيلوا أن السماء محوطة برعاية القط ليطمئنوا أنفسهم على سلامة الشمس فى سيرها .

انظر : (Lacau, Textes. Relig. 30.) .

ولن ننكر عليهم بعد ذلك أنهم صوَّروا إله الشمس برأس قط .

انظر : (Lanzoni, Dizionario di Mitol, Taf. 16) .

ثم لا ننكر عليهم بعد كل ذلك أن يُكثِروا من صور ما تخيلوا من الأرواح فى العالم الآخر، وأن يجعلوا لها رؤوس القطط ، ثم ينشروا تلك الصور على صفحات قبور الملوك أيام الدولة الحديثة ؛ معتقدين أن تلك الأرواح تقيهم شر ما يعترض سبيلهم فى هذا العالم من حيات . انظر : (Blackman, JEA. 5. p. 34) .

(١) قد لا يكون مستحيلا أن يقتل القط صغاره ليغرى وليفتة بالسعى إليه طلباً للوثب وإرضاءً لشهوته ، وإن كان المتواتر فى قصص الشعب وشعر الشعراء أن الأنثى هى التى تأكل صغارها إشفاقا عليها من الأذى وخوفا عليها من العدوان .

ويحضرنى فى هذه المناسبة قول « شوقى » حين شبَّه الشمسَ بالهرَّة فى نونيَّته المشهورة حيث قال:

فيالك هرَّة أكلت بنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا

ويُظَنّ كذلك أن الهرة إنما تأكل بعض صغارها خطأً عند الوضع، كما تأكل ما كان يموت منها .

أمر عجيب ؛ بينما يقف المصريون على مسافات متقاربة ، يراقبون القطط غير مهتمين بإطفاء النار المشتعلة ، تتسلل القطط من بينهم أو تقفز فوق رءوسهم ثم تثب إلى النار . وتنزل هذه الحوادث بالمصريين حزناً شديداً . وعندما تموت قطة موتا طبيعيا فى مُنْزِلٍ من المنازل ، يحلق كل سكان المنزل حواجبهم فقط . أما إذا مات لهم كلب فيحلقون شعر البدن كله والرأس أيضاً(١) .

٦٧ — وبعد موتها تنقل القطط إلى مدافن مقدسة فى مدينة « بوباسطيس »(٢) ، حيث تدفن بعد تحنيطها(٣) . أما الكلاب ، فيدفنها أهل كل مدينة فى مقابر مقدسة . ويُدفن النمسُ(٤) بنفس الطريقة التى تدفن

---

(١) ذلك لون من ألوان التعبير عن الحزن ، وإن كان يختلف عما جاء فى الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب . وليس غريبا أن يحزن الناس عندما تنفق الحيوانات ؛ بل هم يفعلون ذلك فى كل زمان ومكان ، وإن كانوا لا يُعَبِّرون عن حزنهم بمثل ما يَصِف « هردوت » ، وإنما يفعلون غير ذلك ؛ فبعض المُعْتَزِّينَ بدوابّهم فى العصر الحديث كانوا يدفنون أغلاها لديهم وأعزها عندهم وبخاصة الخيل عند مدخل الدار (= تحت عتبته) .

(٢) انظر الفصل (رقم ٦٠) .

(٣) انظر الفصل السادس والستين من هذا الكتاب .

(٤) النمس : فَهِمَ المصريون القدماء — كما يفهم خلفاؤهم اليوم — طبيعة هذا الحيوان ، فعرفوا شدة عدائه للثعبان ، وجعلوه من أجل ذلك من حيواناتهم المقدسة ، ورمزوا به إلى الشمس (= آتون) تتقمص روحه وبدنه حين تعرض لها الحية « أبوفيس » فتتصدى لموكبها أصيل كل نهار .

انظر : (١) Sethe, Z.Ae. S. S. 63, 50

(٢) Daressy, An. d. S. XVIII, p. 116

والريفيون — وأنا منهم — يعرفون من طبيعة هذا الحيوان بعض ما عرف أسلافهم ، وأزيد على ذلك أنى رأيت بعينى نمسين يقاتلان حية ضخمة فيصرعانها .

بها الكلاب ، أما الجرذان الطويلة والبواشق ، فتنقل إلى مدينة « بوطو »[1]، وينقل « أبو منجل » إلى « هرموپوليس »[2]. أما الدببة . وهى نادرة الوجود[3] والذئاب (وهى) لا تزيد كثيراً فى حجمها على الثعالب[4] ، فتدفن حيث تموت .

---

(١) انظر الفصلين رقم ٦٣ ، ١٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) « هرموپوليس » (= مدينة هرمس) : اسم أطلقه الإغريق على الإقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، ثم على عاصمته فى وقتٍ معاً . وتُعْرَف المدينة اليوم — كما عُرِفَتْ قديماً — باسمها المصرى القديم « أشمونين » . موقعها على مسيرة ١٨٠ ميلا إلى الجنوب من القاهرة .

وقد وُجِدَ فى جبانتها المعروفة اليوم باسم « تونة الجبل » كثيرٌ من مدافن هذا الطير ومواميه وتماثيله . وكان الطير ، كما سنرى فى الفصل السادس والسبعين رمزاً لمعبود المصريين المعروف « توت » . انظر : Gabra (Sami)

(1) Rapport sur les fouilles d' Hermopolis ouest (Touna el — Gebel) 144

(2) Exploring the Galleries of Hermopolis the sacred city of Thoth, Illust. London News 13. (1939)

(٣) تلك مسألة فيها نظر ، فالدبّ ليس حيواناً مصريًّا ، وإنما عرفه المصريون فى غير واديهم . انظر : (الفصل رقم ٦٥ هامش رقم ١) . هذا ، ولم يرد ذكره فى تراث الكُتَّابِ الأقدمين حاشا عند أحدهم وهو « Prosper Alpinus ».

ولا نذكر أن المصريين قد قدّسوا هذا الحيوان ، ولا نعرف أنهم حنّطوه بعد موته ، أو جعلوا له قبوراً كغيره من حيواناتهم المقدسة .

(٤) ليس المقصود هنا الذئاب كما نعرفها ، وإنما الغالب أن تكون « بنات آوى » التى خلط الإغريق بينها وبين الذئاب . ومن آثار هذا الخلط أنهم سمّوا مدينة « سيوط » « ليكوپوليس » أى « مدينة الذئب » . ولم يكن حيوانها ذئباً ، وإنما كان من بنات آوى ، وقد عُثِرَ فى الجبانات المصرية بكثير من مدافن هذا الحيوان ومواميه وتماثيله .

٦٨ — وهذه هى طبيعة التماسيح(١) : لا تأكل التماسيح شيئاً ما أثناء أشهر الشتاء الأربعة . والتمساح من ذوات الأربع ؛ يعيش على الأرض وفى الماء على حد سواء ؛ يضع بيضه ويفقسه على الشاطىء . ويمضى أكثر النهار على الأرض الجافة ، ولكنه يقضى الليل كله فى النهر ؛ لأن ماءه يكون حينئذ أسخن من الهواء والندى . وهو دون سائر الكائنات التى نعرفها ينمو من أصغر حجم إلى أكبره . فالبيض الذى يضعه لا يزيد فعلا فى حجمه على بيض الأوز . وحجم الصغير عند خروجه من البيضة يتناسب مع حجم هذه(٢) . ولكنه يأخذ فى النمو حتى يبلغ سبعة عشر ذراعاً أو أكثر(٣) . وله عينا خنزير وأسنان كبيرة ، وأنياب تتناسب مع حجم جسمه . وهو الحيوان الوحيد الذى ليس له لسان . ولا يحرك أيضاً فكه الأسفل . وهو كذلك — وحده دون سائر الحيوانات — يطبق فكه الأعلى على الأسفل(٤) . وله مخالب قوية ، وجلد مغطى بالفلوس ؛ غليظ على الظهر ، لا ينفذ خلاله شىء . ومع أن التمساح

(١) إن الوصف الذى أورده « هردوت » فى هذا الفصل وفى الفصول التى تليه ، لا ينصبُّ على التمساح من حيث تقديس المصريين له وحسب ، ولكن من حيث طبيعته وصفاته كحيوان لا تعرفه بلاد الإغريق . والواقع أن « هردوت » قد وصفه وصفا لا يخلو من الدقة والبراعة .

(٢) يقصد أن التماسيح تضع بيضاً يراه صغيراً بالنسبة إلى أحجامها . ومن أجل ذلك يخرج الحيوان صغيراً من البيضة الصغيرة ، ثم يأخذ فى النموّ إلى أن يبلغ المدى الذى قدَّرَتْ له الطبيعة من حجم .

(٣) أى نحو خمسة وعشرين قدماً . وذلك فى الواقع هو متوسط ما يبلغ التمساح — فى الأغلب الأعم — من طول .

(٤) الواقع أن للتمساح لساناً ، موضعه فى الفك الأسفل الذى لا يتحرك . ومن أجل ذلك لم يستطع « هردوت » رؤيته .

أعشى فى الماء ، إلا أن بصره حاد جداً فى الهواء [١] . وبسبب بقائه فى الماء يمتلىء فمه كله من الداخل بالعَلَق [٢] ، وتفر منه الحيوانات والطيور الأخرى إلا « الزقزاق » ؛ فهو على وئام معه لأنه نافع له [٣] . إذ عندما يخرج التمساح من الماء إلى الأرض ، يفغر فاه (ومن عادته أن يفعل ذلك غالباً فى مهب الرياح الغربية) هنالك يدخل « الزقزاق » فى فمه ويلتقط العَلَقَ ؛ فيبتهج التمساح من حسن صنيع الزقزاق ولا يؤذيه .

٦٩ — ويقــدِّس بعض المصريين التماسيــح ، أما البعض الآخر فلا يقدسونها ؛ بل يرونها أعداء [٤] . والمصريون الذين يقطنون حول طيبــة

---

(١) أما أن التمساح يَعْشى فى الماء ؛ فقد يكون ذلك أثراً من آمال المصريين فى اتِّقاء شرِّه . ولم يكد « هردوت » يسمع منهم ذلك حتى اعتقد أنه حقيقة ؛ إذ الواقع أن المصريين — وبخاصةٍ روَّاد المــاء كالرعاة ورجال الملاحة — كانوا يخشون على أنفسهم وعلى أنعامهم شر هذا الحيوان ؛ فيلجأون إلى التخلُّص من ذلك بالتعاويذ والرُّقَى .

(انظر : Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the Brit. Mus. pl. 20 & P. 23. 34 (London 1910)

(٢) يقصد بالعلق نوعاً من حشرات المــاء الصغيرة تتدافع إلى فم الحيوان كلَّما تثاءب .

(٣) تلك حقيقة واقعة ؛ إذ أن الوحيد فى عالم الحيوان والطير ، بل وفى سائر الــكائنات ، الذى كان يستطيع الاقتراب من التمساح ، قد كان طيراً يُعْرف عندنا اليوم باسم « الزَّقزاق » ؛ لا يكاد يجد التمساح على الشاطىء حتى يندفع إليه ، ولا يكاد التمساح يستقبله حتى يرفع فــكه الأعلى ، وهنالك يُدْخِــلُ « الزَّقزاق » رأســه فى فم التمساح ويلتقط ما فى فــكه من ذلك العلق ، ويرتاح التمساح لذلك فتسيل دموعه . ومن أجل ذلك يُســمِّى الناس الدموع التى لا يجريها الحزن والألم « دموع التماسيــح » .

(٤) التمساح : أسماه المصريون حيوانا « إمساح » . وليس ببعيد أن تــكون =

وبحيرة « مويريس » يعدونها مقدسة جدًّا . ويربِّى سكان كل أقليم من هذين الإقليمين تمساحاً واحداً من بين التماسيح كلها ، يُدرَّب ويُستأنس ثم توضع فى أذنيه أقراط من الحجر المذاب والذهب ، وحول قائمتيه

= قد سبقت الإسم أداة التعريف المصرية للمفردة المؤنثة « ت » فصار الاسم « تمساحاً » . فأما اسمه كحيوان مقدَّس فكان « sbk سبك » ، وصحَّفه الإغريق فصار « سوخوس » . وليس عجيبا أن تبدو فكرة تقديس هذا الحيوان لدى الفراعنة غامضة عند المؤرخين لكثرة ما ورد له فى آدابهم من صفات منها : الجَشِع ، الشَّرِه ، الوَقِح ، الثائر ، الفتَّاك . كل ذلك برغم ما يذكرون من صفاته الطيبة ؛ حين يجعلونه « رباً للنيل » ويضيفون إلى ذلك أنه هو « الذى يجوب البحيرات » ، ثم هو عندهم « ذو النظر الحديد ؛ الذى يجوب الشواطىء . كما أن رياض الأرض من مصائده ، وهو الذى يعيش على أكبر سُكَّانِ الماء ؛ فيخشاه أكبر سكان الماء » . بل هم آخر الأمر قد خالوا فرعون المتوفَّى فى صورة تمساح ! ولم يكن عجيبا أن يرهبه سكان الوادى وبخاصة رُوَّاد الماء من البحارة والرعاة ؛ ويبلغ بهم الرعب أن يتحاشوا ذكر اسمه ويدعون عليه بالعمى ، ثم يدعون على اللصوص من نَبَّاشى القبور بأن يَتَعَقَّبهم التمساح فى اليمِّ ، وتَتَعَقَّبهم الحيات فى البرِّ .

وليس من شك فى أن طبيعة النهر ومجراه ، ثم تجارب روَّاد النهر وركَّابه هى التى أوحت إلى المصريين تقديس هذا الحيوان ؛ وحسبنا من كل ذلك الجزر المنتشرة فى مجراه ، وسرعة التيار فى بعض مناطقه ، والشواطىء الصخرية التى تعوق الملاحة بحيث تبدو خطرة على الملاَّحين ؛ ومنها منطقة « جبل السلسلة » و « شواطىء كوم أمبو » والجزر المنتشرة عند « منطقة الجبلاين » وثنيِّة النهر عند « دندره » ، وجبل « الطارف» ، وجبل « أبى فوده » عند أسيوط ؛ وومظاهر تقديس التمساح بادية عند « المعابدة » ، و « طهطا » ، و « السرارية » ، و « الشيخ حسن » ، و « الحيبه » ، ثم « الفيوم » . وكذلك فى منطقة غرب « الدلتا » .

الأماميّتين أساور[1]. ويقدمون له طعاما خاصا وأضحيات. ويعاملونه طول حياته أحسن معاملة . وعند موته يُحنِّطونه ويدفنونه فى مقابر مقدسة[2] . أما الذين يعيشون حول مدينة «إليفانتينا»[3]، فلا يعتبرونها مقدّسة ؛ بل يأكلونها[4]. والمصريون لا يسمُّونها تماسيحا ؛ بل « خامبسى »[5] والأيونيون هم الذين سموها تماسيحا [عِظَاءِ] بمقارنة أشكالها بأشكال العظاء التى توجد عندهم فى الحوائط ذات الأحجار الجافة[6] .

٧٠ — ولصيدها طرق متباينة ؛ أكتب منها هذه لأنها تبدو لى أجدرها بالذكر. يضع الصياد حول الشص عجيزة خنزير ، ثم يلقى بالشص فى وسط النهر ، بينما يبقى واقفا هو نفسه على الشاطىء ومعه خنزير صغير حى يضربه ، وعندما

(١) تزيين التماسيح : إن فى الصور التى وُجِدَتْ على آثار المصريين ما يؤيد ذلك. انظر : (Knauers Lexikon der Aegypt. Kultur, S. 137) .

(٢) يدل على ذلك ويؤيد صحته كثرة ما وجد فى الجبانات من بقايا موامى التماسيح .

(٣) انظر ما جاء عن تلك المدينة فى الفصل (١٧) من هذا الكتاب .

(٤) لا نظن أن المصريين كانوا يأكلون التماسيح ، ولا نعرف كيف يأكل الناس التماسيح ، ولم يرد فى أخبارهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى أكل التماسيح ، وأكبر الظن أن يكون ذلك من باب الخلط وسوء الفهم . اللهم إلا أن يكون هردوت قد رأى بعضهم يأكلون العظاء ، كما كان العرب مثلا يأكلون الضب ؛ هذا ، وقد سمعت من سكان النوبة أنهم يأكلون الورن ، وأن بعضهم يأكلون لحم التماسيح ، وأزيد على ذلك أن أحد الأحياء من زملائنا علماء الدراسات المصرية القديمة من البريطانيين قد أكل لحم التمساح فى بلاد النوبة.

(٥) خمپسى ليس من السهل مطلقاً تحديد أصل هذه الكلمة . وليس من السهل كذلك إرجاعها إلى أصل مصرى كما حاول البعض . (انظر : J. Černy, An. d. S. 42, p. 346 — 8)

(٦) كان ذلك منذ بدأ الإغريق يفدون على مصر للبدل والتجارة ، ومنذ أن اتخذ « ابسماتيك » من بينهم جنودا مرتزقين . انظر : (ص ٦) .

يسمع التمساح صياح (الخنزير) يندفع نحوه ، فيجد عجيزة الخنزير ويبلعها . وعندئذ يُجَرُّ إلى الشاطىء . وبمجرد أن يتمّ إخراجه من الماء ، يبدأ الصياد أولاً وقبل كل شيء بتلطيخ عينيه بالطين . فإذا نجح فى عمل ذلك ، تمكن من تذليل ما تبقّى (من عقبات) فى يسر تام. فإن لم ينجح ، فإنه لاينال (بُغيته) دون مشقة.

٧١ — وأفراس النهر مقدسة فى ولاية « پاپريميس »(١) . ولكنها ليست مقدسة لدى سائر المصريّين . وهذه طبيعة شكلها : إنها من ذوات الأربع ، لها مخالب مشقوقة كأظلاف البقر ، مفرطحة الأنف ، ولها معرفة حصان . ولها أنياب بارزة ، ولها ذيل الحصان وصهيله . وهى فى حجم أكبر ثور ، جلدها غليظ جداً حتى إن قنا الرماح تصنع منه بعد تجفيفه(٢) .

٧٢ — وتوجد فى النهر كذلك كلاب الماء وهى مقدسة . ومن بين الأسماك ما يعد مقدسا كذلك . ما يسمى منها الشبوط والثعبان . ويقال إنهما مقدّسان للنيل ، ومن الطير الأوز الثعلبى(٣) .

---

(١) انظر الحديث عن تلك المدينة فى الفصل (رقم ٦٣) . هذا وقد فات هردوت أنها كانت مقدسة فى إقليم طيبة أيضاً .

انظر : (Roeder, Art. Thuëris in Roschers Lex. d. Mythol.)

(٢) فرس النهر : حيوان نهرىّ من أكلة النبات ، لا خوف منه على حياة الإنسان،وإنما خطره محقق على الزرع ؛ يطؤه بأقدامه فيفسده . أكثر المصريون تصيّده وكانوا يستعيضون بعظامه عن سنّ الفيل ، وراجت سوق التجارة فى تلك العظام خلال العصور المتأخرة .

انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 184) .

(٣) انظر : لفظ χηναλώπηξ (كينالوپكس) الذى يترجمه الألمان إلى Fuchsgans أى «الإوزّة الثعلبيّة» ، نظراً لما رأوا من تشابه بين لونها و لون الثعلب. وهو ضربٌ من الإوز المائى كان موجوداً فى وادى النيل ؛ أسماه المصريون Smn وفى القبطية CMOYN واسمه العلمى Chenalopex Aegyptiaca .

انظر : (Kuentz, L'oie du Nil (Archives du Museum d'histoire naturelle de Lyon XIV 1926) .

٧٣ — وهناك طائر آخر مقـدس يسمى « الفونـكس »(١) . لم أره إلا مصوراً . إذ أنه يزور البلاد فيما ندر ، يزورها كل خمسمائة عام على حد قول أهل « هيليوپوليس » . وذلك عندما يموت أبوه . وإذا كان يشبه رسمه فهـكذا يكون حجمه وشكله : بعض ريش جناحيه ذهبى وبعضه أحمر . وهو

(١) Phoenix : جرت العادة أن نسميه بالعربية « العنقاء » فأما اسمه المصرى الأصيل فقد كان « بنو » (Bnu) . وأكبر الظن أن يكون اشتقاقه من الفعل المصرى «وبن» (wbn) بمعنى «أشرق» «برق» ، «لـمَـع» . ويكون معنى الاسم بناء على ذلك «البرّاق» أو «اللمّـاع» . انظر : (Sethe, Z. Ae. S. 45 S. 48) .
من هنا جاءت قصة الصلة بين اسم الطائر و بين الحجر الهرمى «بن بن» (bn bn) الذى رمز به المصريون إلى التل العتيق الذى برز من «النون» (=الماء الأزلى) . أى إلى الأرض التى طفت على وجه الماء ، فإذا هذا الطائر يتلألأ من فوقها فيملأ نوره الـكون ، ويخرج صوته فيـكون بذلك أول صوت دوّى فى الوجود ثم تـكون « الـكلمة » . انظر : (Wiedemann, Z. Ae. S. 16, S. 89 f) .
ثم (Kees, G. G. S. 52 f. & 217 f) .
ويستمر المصريون فى الربط بين هذا الطائر وبين الحجر المدبّب الذى ذكرنا ، ثم بينه و بين العمود الذين يسمونه «إيونو» ويجعلون من كل أولئك رمزا لظهور إله الـكون العتيق «آتوم» انظر : (Sethe, Pyr. Text. 1952) . ثم (Erman, Relig. SS. 28, 333) . ثم (Kees, G. G. S. 217 ff.) وأخيراً يعرف المصريون المسلاّت ، ويتخذون منها رمزاً للشمس ؛ فيدبّـبون قممها على النحو الذى عرفنا فى الحجر الهرمى الذى أسموه « بن بن » . ثم يكسونها بصفائح من مخلوط الذهب والفضة ؛ حتى إذا ما أشرقت الشمس وأصابت أشعتها قمة المسلة انعكس منها الضوء فأنار ما حولها من وجود . ونستطيع أن نتصوّر كيف كان كُهّـانُ هيليوپوليس ينتظرون عودة ذلك الطائر فى شوق ولهفة ، كما كان كهان ممفيس ينتظرون ظهور الفحل « آپيس » .
انظر : (Ranke, Z. Ae. S. 78.) .

قريب الشبه جدًّا من النسر فى هيئته وحجمه[1] . ويروون أنه يُدبِّر فى مهارة هذا الأمر.ولكننى لا أصدق مايقولون. يرونَ أن هذا الطائر يغادر بلاد العرب حاملا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه بهذا المعبد ، وذلك بعد أن يغطِّيه بطبقة من المر. ولكى ينقله يقوم بما يلى: يصنع أولاً من المُرِّ بيضةً بالقدْر (الحجم) الذى يستطيع حمله ، ثم يحاول حملها ، فإذا انتهى من محاولته يُفْرِغُ البيضة ويضع أباه فيها . وبعدئذ يلطِّخ بالمر ثانية المكان الذى جَوَّفه من البيضة وأدخل أباه منه ، على أن يبقى ثقل البيضة واحداً (قبل تفريغها وبعد وضع أبيه فيها) . وبعد أن يغطى أباه هكذا ، ينقله إلى معبد الشمس بمصر ؛ ذلك ما يفعله ذلك الطير حسب قولهم .

٧٤ — وتوجد حول طيبة حيات مقدسة لا تؤذى الإنسان مطلقاً . صغيرة الحجم . لها قرنان ينبتان بأعلى الرأس ، تُدْفن عند موتها فى معبد « زيوس » لأنها — على حد قولهم — مقدسة لهذا الإله[2] .

---

(١) إن هذا الوصف الذى أورده « هردوت » مأخوذ غالبا عن سلفه « هيكاتيه » . انظر : (Waddell, Herodotus, p. 100) .

(٢) لا يملك تاريخ العقائد فى مصر الفرعونية ما يشير إلى تقديس تلك الحية فى العصور المتأخرة وإن بات من المرجح أنها قُدِّستْ فى العصور البعيدة . ولا أدل على ذلك من أنها اتُّخِذَتْ علماً وشارة ورمزا للإقليم الثانى عشر من أقاليم الصعيد ؛ وهو الإقليم المعروف بإقليم « جبل الحية » . فإذا صح ما قاله « هردوت » ، فلن نستبعد مطلقا أن يكون تقديسها قد بُعِثَ بعد ذلك ، وكان قائما فى زمانه . وإنما الشيء الذى غاب عن « هردوت » هو أن ذلك النوع يُعَدُّ من أخطر الحيات السامة انظر: (Kees, G. G. S. 58) ، وأنه لا يزل معروفاً فى مصر الوسطى ، وفى الصعيد ، ثم فى الصحراء أيضاً . ويسمِّى الشعب اليوم تلك الحية بأسماء منها « الطرِّيشة » و « العميَّة » و « الدفَّانة » ؛ يوهمون أنفسهم بأنها لا تسمع ، وبأنها لا ترى ، ثم يُحَذِّرُونَ أنفسهم من خطرها لأنها تدفن جسمها فى التراب مُتَلَوِّنَةً بلونه فتصعب رؤيتها .

٧٥ — ويوجد فى بلاد العرب مكان يقع تقريبا تجاه مدينة « بوطو »(١). وقد ذهبت إلى هذا المكان فى أثناء بحثى عن الحيّات ذات الأجنحة. ولما وصلت رأيت كميات تفوق الوصف من عظام حيات من وأعمدتها الفقرية. إذ كانت هناك أكوام كثيرة من الأعمدة الفقرية بعضها كبير وبعضها صغير وأخرى أصغر من هذه وتلك . . . وهذا وصف المكان الذى تملؤه الأعمدة الفقرية: هو عبارة عن ممر ضيق يبدأ من الجبال وينتهى بسهل فسيح ؛ ذلك السهل يتاخم سهل مصر . ويقال إن الحيات ذات الأجنحة تطير عند بدء الربيع من بلاد العرب إلى مصر ، وإن « أبا منجل » يتصدى للقائها عند مدخل هذا الممر ولا يسمح لها (بدخول مصر) ؛ بل يهلكها(٢) . ويقول الأعراب إن المصريِّين يُعظِّمون « أبا منجل » كل التعظيم من أجل صنيعه هذا . والمصريون يتفقون مع الأعراب على أنهم يُجلِّون ذلك الطير لهذا السبب .

---

(١) بوطو : ربما يقصد بها الجزء الممتد فى الصحراء من وراء الفرع الشرقى للنيل . والغالب أن « بوطو » هنا مدينة أخرى غير التى مر ذكرها فى الفصول ٥٩ و٦٢ و١٥٥ وهو يعنى فى الغالب مدينة أخرى ربما كان مكانها بالقرب من البحيرات المرة . انظر : (Waddell, Herodotus, p. 192, Not. 7) . وربما كان غير بعيد من بحيرة التمساح .

انظر : (Sourdille, La durée et l' étendue du Voyage, p. 87).

(٢) لا نظن أن مصر قد عرفت ما يسميه « هردوت » بالحيات المجنحة ، وبخاصة بعد الذى قال فى وصفها (فى الفصل رقم ٧٦) من حيث أنها تشبه حيات الماء ، وأن أجنحتها بغير ريش ، وأنها تشبه إلى حد ما أجنحة الخفافيش ، أما من حيث تصدى « أبى منجل » لتلك الحيات وإهلاكها ؛ فإن ذلك يبعدها كل البعد عن أن تكون حياتٍ بالمعنى أو المبنى الذى يتصوره هردوت ، بل إن الظن ليتجه بنا إلى تصوُّرِ شيءٍ كالجراد الذى يجىء عادة من الشرق عبر الصحراء العربية إذا ما كان فصل الربيع .

٧٦ — وهذا شكل « أبى منجل » : كله أسود حالك السواد ، له فخذا كركى ، منقاره مُقَوَّسٌ جداً ، وهو فى حجم الكركى . ذلك شكل «أبى منجل» الأسود الذى يقاتل الحيات . وفيما يلى وصف « أبى منجل » الذى يروح ويغدو بين الناس فى أغلب الأحيان (لأن هناك نوعين من هذا الطير) : الرأس وكافَّة العنق لا يكسوهما الريش ، وريشه أبيض فيما عدا الرأس والرقبة وأطراف الجناحين ، ونهاية الذيل . (كل هذه الأجزاء التى ذكرتها حالكة السواد) وهو يشبه النوع الآخر من حيث الفخذ والمنقار(١). أما الحيات ذات الأجنحة فتشبه فى شكلها حيات الماء ؛ أجنحتها بغير ريش ؛ تشبه على وجه التقريب أجنحة الخفافيش .

وإن لفى ذلك الحديث الكفاية عن الحيوانات المقدسة .

---

(١) أبو منجل : يَتَوَهَّمُ كثيرون أن المقصود بهذا الطائر المقدس ، هو ما نسميه اليوم « أبا قردان » ؛ ذلك الطائر الأبيض المعروف الذى ينتشر فى الزروع ويُحَوِّم حول الأماكن التى يَكْثُرُ فيها الماء ، ثم يعلو ظهور الدواب — وبخاصة البقر — يلتقط من جراحها الدُّود . واسم هذا الطائر عند العلماء (Ardeola ibis) والواقع أن أسلافنا قد عرفوه كما نعرفه اليوم ، وكانوا يَعُدُّونَهُ من حماة البقر .

فأما الطائر الذى قدَّسوه فعلا ؛ فقد صوروه على آثارهم فى صور ثلاث :

أولها الأسود وكانوا يسمونه (gm.t)ويسميه العلماء Plegadis falcinellus وذلك هو الذى عناه « هردوت » وقال إنه كان يقى مصر شر ما أسماه « الحيات المُجَنَّحَة » . وفتك الطيور بالحيات عامة أمرٌ معروف ، إذ يقال إن ببعض البقاع الإفريقية طائراً يقال له الـ Serpentaire يتصدى للحيات ويقتلها .

وثانيهما ذو الناصية وكانوا يسمونه (akh) أى « اللماع ». ويسميه العلماء Comatibis eremita. وقد انقرض اليوم من مصر تماماً كما اختفى من ربوع أوروبا الوسطى والجنوبية .

=

٧٧ — أما عن المصريين أنفسهم ؛ فأولئك الذين يعيشون فى الأراضى المنزرعة(١) ، يهتمون دون سائر الناس اهتماما كبيراً بتمرين الذاكرة . وهم ، فى العلم ، يتفوقون كثيراً على كل الشعوب التى خبرتها . وهذه هى طريقة الحياة التى يَتَّبِعُونها :

مراعاة لصحتهم ، يتناولون فى ثلاثة أيام متتالية من كل شهر مقيِّئات(٢) وحُقَنٍ شرجيَّة ؛ إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التى نتغذَّى بها . وهم — حتى بغير ذلك — أصح الناس عامة بعد الليبيين(٣).

= وثالث هذه الأنواع وأهمها وهو الذى قدسه المصريون وأسموه (hibi) وجعلوه رمزاً لمعبودهم « توت » فيسميه العلماء Threskiornis aethiopica كان أبيض اللون ، وفيه من السواد لون رأسه وعنقه وأطراف ريشه . ولقد انقرض هذا الأخير من مصر ولم يعد يُرَى بوادى النيل إلا فى السودان الأعلى.

انظر : (Kees, K. G. S. 32 34) .

ثم : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur) .

وأخيراً : (Keimer, An. d. S. XXX, S. 20 ff.) .

(١) يقصد بذلك من يعيشون فى الوادى ؛ حيث الأراضى التى تزرع على ماء النيل وما يتفرع منه من ترع وجداول تمييزاً لهم من البدو الرُّحَّل الذين يعيشون فى الصحراء .

(٢) لا نظن أن المصريين وحدهم قد كانوا يفعلون ذلك ، وإنما شركتهم فى ذلك شعوب أخرى؛ يقصدون به إلى تطهير أحشائهم حفاظاً على سلامة أبدانهم .

(٣) ذلك قول صحيح إلى حدٍّ كبير ، والمصريون القدماء كانوا أشد عناية بسلامة أبدانهم من خلفائهم فى العصور الوسطى والحديثة ؛ فهم لم يعرفوا أمراض « الكوليرا » ، وما سمعنا كذلك بأنهم أصيبوا بالطاعون ، ولا غيره من تلك الأمراض التى نشأت بعد مشروعات الريّ الدائم . وليس معنى ذلك أنهم سلموا من سائر العلل والأمراض ؛ كلا ! بل إن كثرة ما كان عندهم من أطباء — تنوعت تخصصاتهم — يدل على ما كان يصيبهم من مختلف الأدواء .

انظر : (الفصل رقم ٨٤ من هذا الكتاب) .

وهذا يعزى — فيما أعتقد — إلى المناخ ؛ فهو غير متغيِّر الفصول[١] ، إذ أن الأمراض تنتاب الناس — أغلب الأحيان — نتيجة للتغيُّرات بجميع أنواعها ، وبوجه خاص، نتيجة لتغيُّرات الفصول[٢]. ويأكلون خبزا يصنعونه من القمح ذى الحبة الواحدة ويسمونه « كيلليستيس »[٣] . ويشربون نبيذاً مصنوعا من الشعير ؛ إذ لا توجد فى بلادهم كروم[٤] . ويأكلون بعض السمك

(١) انظر ما يرويه «ديودور» عن مناخ مصر : (Diod. I, 10, 1) .

(٢) مثل ذلك ما رواه « أبقراط » عن تغيير المناخ فى فصول مصر السنوية .
انظر : (Hippocrates, Aphorismi, III, 1). ثم ما رواه «جالينوس» وغيره من الأطباء عن فروق التغيير خلال تلك الفصول وإن كانت غير كبيرة كما هى الحال فى بلاد أروبا .

(٣) انظر الحديث عن ذلك النوع من الحبوب فى (الفصل رقم ٣٦) من هذا الكتاب .

(٤) ليس المقصود هنا نبيذاً بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ؛ فالنبيذ لا يصنع من الشعير ، بل يعصر من العنب . وإنما الذى يصنع من الشعير هو الجعة . والمصريون قد عرفوا الجعة ، واستمتعوا بهذا الشراب الشعبيّ ؛ شأنهم فى ذلك شأن الألمان الذين اشتهروا بجعتهم الممتازة . وإذا كان الإغريق قد أسموا هذا اللون من الشراب نبيذا (OINOS) فلم يكن ذلك — أكبر الظن — إلا من باب التعميم كما يسمى العامة فى مصر اليوم كافة أنواع الأشربة الروحية « خمرا » . ولم يكن «هردوت» وحده هو الذى ذكر هذا الشراب ، وإنما ذكره «ديودور» (Diod, I. 3) و « استرابون » . انظر : (Strab. Geography XVII, 2,5) .
وكذلك ذكر « أثينيوس » Athenaeus أن المصريين قد صنعوا من الشعير شراباً مسكرا . انظر : (Athenaeus, The Deipnosophists, I, 34) .
واشتهر المصريون بصناعة الجعة ، وأغرموا بشربها ، وزوّدوا بها موتاهم فى الآخرة . وكانت صناعتها من محتكرات القصر الملكى أيام البطالمة .
انظر : (Bevan, A Hist. of. Eg. under Ptol. Dyn. (1927)) . =

نيئاً ، مجففاً فى الشمس ، ويأكلون البعض الآخر بعد حفظه فى الملح ، ويأكلون من الطيور السمان والبط والعصافير ، يأكلونها نيئة بعد تمليحها(١). وخلاف ذلك من الطير والأسماك التى توجد عندهم — إلا مايعدونه مقدساً — وكل ما تبقى يأكلونه مشوياً أو مسلوقاً .

٧٨ — وفى اجتماعاتهم عند الأثرياء منهم — بعد أن ينتهوا من الأكل — يطوف بهم رجل يحمل فى نعش جثة من الخشب تشبه تماما ، بما عليها من نقش وتصوير(٢) ، جثة حقيقية تبلغ إجمالا فى حجمها ذراعا أو ذراعين .

= ذلك قول لا يستقيم مع الحق والواقع ، بل ولا مع ما ذكره « هردوت » نفسه عن مقادير النبيذ التى كان يشربها الكهان (فصل رقم ٣٧) . ولا ما ذكره من مقادير الأنبذة التى كان يستهلكها المصريون عامة فى الأعياد (فصل رقم ٦٠) ، ولا مع ما ذكره عن استمتاعهم بالأنبذة (فصل رقم ٧٨ ، ١٢١ ، ١٣٧) . ولا ندرى كيف فات « هردوت » كل ذلك ، فوقع فى هذا الخطأ البيّن ؛ ذلك لأن مجرد النظرة البسيطة فيما ترك المصريون من صور حياتهم فى مختلف العصور تدلنا على أنهم عرفوا الكروم عامة ، وكروم العنب بخاصة ، وعصروا منها الأنبذة (Erman, Aeg. S. 227) ثم (Breasted, Anc. Rec. V. P. 170) كما عُرفت المعاصر منذ أبعد العصور (Breasted, ibid. 1, 173) ومناظر الكروم والمعاصر وتعبئة النبيذ معروفة فى الصور المنتشرة على صفحات القبور منذ أيام الدولة القديمة (Davies, The Mastaba of Ptahhetep & Akhethetep, I. pl. XXIII) .

(١) ذلك صحيح ، فقد كان السمك المجفف المملوح ، وسائر ألوان الطيور من عناصر الغذاء لدى المصريين ؛ ينال منها الغنى والفقير على السواء . وإن على آثارهم من الرسوم ما يرينا صور العمل فى تجهيز مختلف أنواع السمك والطير ثم تجفيفها وتمليحها .

(٢) انظر : (Plut., Isis & Osiris, I, 7) .

ويريها الرجل كل فردٍ من الحاضرين وهو يقول : « انظر إلى هذه . . . ثم اشرب وتمتع (بالحياة) ، ذلك لأنك سوف تصير مثلها بعد الموت »(١) . ذلك ما يفعلونه فى الولائم .

٧٩ — ويتمسك المصريون بتقاليد أسلافهم (٢) ، ولا يزيدون عليها مطلقا أى جديد . ومن بين عاداتهم المختلفة التى تستحق الذكر هذه بالذات . أعنى وجود أنشودة وحيدة ؛ أنشودة « لينوس » التى تنشد فى « فينيقيا » و « قبرص » وغيرها . ومع أن اسمها يختلف باختلاف الشعوب(٣) ، إلا أنها

(١) من الطريف أننا ما زلنا نردِّدُ مثل هذه العبارات فى حياتنا الحديثة (« ساعة لقلبك وساعة لربك » و « اتمتع بالدنيا وسيبك ») .

(٢) حقيقة إن المصريِّين من أشد شعوب الأرض محافظة على تقاليدهم القديمة انظر : (الفصل رقم ٩١) ؛ يحرصون عليها أشد الحرص ، بل يحرصون عليها حرصهم على عقائدهم وأعراضهم . لا يكاد يدانيهم فى ذلك شعب من شعوب الأرض غيرُ الصينيِّين . بل إن بعض هذه التقاليد ما زالت تغشى حياة أهل القرى ؛ وإن كانوا لا يعرفون عنها أكثر من أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك .

(٣) Linos : الكلمة فى أغلب الظن اسم لغناءٍ حزين يُنْدَبُ به العزيزُ ممَّن يودِّعون الدنيا ؛ كمن يموتون فى سنٍّ مبكرةٍ من الأبناء والأحباب . وأكبر الظن أيضاً أن مرجعَ ذلك كله إلى موت الشهيد «أزوريس» . وقد كانوا يرمزون بموته إلى ما يصيب الطبيعة من موات أيام الشتاء . ولم يكن مثل هذا التفكير قاصراً على المصريِّين من آل فرعون وحسب ؛ بل تعداهم إلى غيرهم من شعوب الشرق ثم إلى شعب يونان . و « آدون » عند شعوب الشرق يمثل البعث فى الطبيعة ؛ أى يمثل ربيع الحياة الزاهر كلما استدار العام من وراء موات الطبيعة فى أيام الشتاء . ولسنا نستبعد أن يكون هو بعينه الذى عبَّر عنه العرب بلفظ « عدن » ، ونسبوا إليه « جنَّات عدن » . ثم هو بعينه من يسمِّيه الإغريق فى أساطيرهم « أدونيس » ، ويصوِّرونه فتىً جميل الطَّلعة من أبناء =

بالإجماع نفس الأنشودة التى ينشدها اليونانيون باسم « لينوس » . ومن بين الأمور العديدة التى تثير أشد العجب فى مصر ، المصدر الذى أخذوا عنه اسم « لينوس » . ويظهر أنهم يتغنَّون به دائماً من قديم الزمان . و « لينوس » اسمه فى اللغة المصرية « مانيروس »(١) . ولقد قال لى المصريون إنه كان الابن الوحيد لأول ملك حكم مصر ، ولما مات قبل أوانه كرَّمه المصريُّون بهذه المرثية فكانت هذه أنشودتهم الأولى والوحيدة (٢) .

٨٠ — ويتفق المصريون مع « اللاَّكيديمونيين » وحدهم من بين اليونانيين فى أمر آخر ؛ عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ،

=الملوك . تراه «أفروديت» فيشغفها حبًّا ، ويحسده على ذلك آريس (Ares) ، ويمتلىء قلبه كرهاً له وحقداً عليه ، ويظل يتربص به حتى يلقاه ذات يوم فى الصيد فيغرى به من الوحوش ما يفترسه . ومن ذلك كله نرى أن « آدون » الذى يرمز به أهل الشرق إلى ربيع الحياة الزاهرة ، ويتخيَّله الإغريق فى ميسم الشباب الفاتن لا يخرجان فى طبيعتهما عن طبيعة « أزوريس » الذى صورته الأسطورة المصرية الخالدة صريعا فى نضرة الشباب ، وجعلته رمزا للخير والوفاء ؛ فهو يمثل وفاء النيل وفيضه ، ويمثل البعث فى حياة الطبيعة .

(١) MANEROS « مانروس » : اسم لم تعرفه الوثائق المصرية برغم ما بينه وبين الكلمة القبطية « مانرو » (= راعى) من تشابه . ويحتمل أنه مشتق من المقاطع المصرِّية « ما — ن — را » بمعنى « تعال » ارجع «عُدْ» . التى ورد ذكرها فى كتاب الموتى . انظر : (Waddell, p. 196) . وليس ببعيد كذلك أن يكون أصل الكلمة المصرى Ma - n - ir - bs (ما إن — إر — حس) بمعنى « مكان الإنشاد » .

(٢) انظر : (Plut. Isis & Osiris, 15—17) .
ثم (Paus. I, 29. 3; Athénée, 14. 71 p. 620) .

ويتنحّون جانبا . وعندما يقبل عليهم الشيوخ (١) ، يقومون من مقاعدهم . ولكنهم لا يتفقون مع أحد من اليونانيين فى عادة أخرى ، فبدلاً من أن يتبادلوا فيما بينهم عبارات التحية فى الطرقات ، ينحنون احتراما ويخفضون اليد حتى الركبة (٢) .

٨١ — ويحملون ثياباً من الكتان محلاة بهُدّاب حول الساقين يسمونها « كالاسيربس »(٣) . ويلبسون فوقها معاطف من الصوف الأبيض تنسدل على الكتف(٤) . ولكنهم لا يلبسون الملابس الصوفيّة عند ذهابهم إلى المعابد(٥) . ولا يُدْفَنُون بها ؛ لأن الدين يحرِّم ذلك . وهم يتفقون فى هذا

---

(١) إن احترام الصَّغير للكبير أمرٌ من أخصّ خصائص التربية فى الشرق عامة وفى مصر بخاصة . ولسنا نشك فى رواية « هردوت » ؛ بل ليس علينا إلاّ أن ننظر فى بعض ما ترك السلف من كتب التربية لنرى تلك الحقيقة واضحة .
انظر : (Pap. Prisse, S.4 ff. die Sprueche des Wesirs Ptahhotep)

(٢) انظر : (Mueller (Helmuth) Darstellungen von Gebaerden auf Denkmaelern d. AR. (Mitt. d. deutsch. Inst. in Kairo Bd.7 S. 91 ff.) .

(٣) καλασιρις : لباسٌ من الكتان .
انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 39) .

(٤) نوع من المعاطف أشبه شىء بما يسمونه « البُرْنس » فى بلاد المغرب .

(٥) سبق أن قدّمنا ما كان يجب على الكهّان من العناية بنظافة أبدانهم ، وكيف أن حرصهم على ذلك قد اقتضى ألا يلبس الكهان غير ثياب من الكتّان الأبيض الناصع البياض . انظر الحديث عن ذلك (فى الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) . فلا عجب إذن فى أن يُحَرَّمَ على المصريّين دخول المعابد بملابس غير كتّانية .

مع الطقوس التى تسمى « أورفيِّه »(١) و « باخوسيه »(٢) . وهى فى الواقع طقوس مصرية(٣) ، وفيثاغورسيه(٤) ؛ إذ لا يباح لأحدٍ ممن يشتركون فى هذه النِّحَلِ أن يُدْفنَ وعليه ملابس صوفية . ولذلك قصة دينية يروونها(٥).

٨٢ — ويُعزى اكتشافُ هذه الأشياء الأخرى إلى المصريين أيضاً ، باسم أى إله يسمى كل شهر وكل يوم . ما حظ من يولد فى يوم كذا وكذا ؟ كيف سيقضى أيّامه . وما سيكون شأنه(٦) . ولقد استخدم

---

(١) أصلها فى الإغريقية Orphika وفى اللاتينية Orphica ومعناها « الطقوس السرية لعبادة Orphéus » معبود « تراقيا » .
انظر : (Lamer, (Hans) Woerterbuch d. Antik. S. 537) .

(٢) Bakchai : « عابدات باكوس » . وكن يرتدين أردية طويلة وعليها جلد غزال ، وشعورهن منحلة مسدلة . انظر : (Lamer, ibd. S. 76) .

(٣) انظر ما جاء عن ذلك فى (الفصل رقم ٤٩) من هذا الكتاب .

(٤) ظاهر أن « هردوت » كان يرى أن الطقوس « الأورفيَّة » التى أسماها « الباكوسية » أو « الباخوسية » إنما جاءت من مصر ، وأن الإغريق كانوا يسمونها فى عصره «الفيثاغورسِيَّه» ؛ لأنها بلغت بلادهم بين يدى «فيثاغورس» .

(٥) يعنى بذلك قصة الشهيد « أزوريس » . وهو يتجنَّب دائما التحدث عنه كما ذكر فى الفصول (رقم ٤٨ و ٦٢ و ٦٥) من هذا الكتاب .

(٦) استخدم المصريُّون التنجيم فى كشف طوالع الناس وتحديد حظوظهم من الأيام التى ولدوا فيها . وقلَّدهم فى ذلك الإغريق والرومان . وفعل المسيحيُّون مثل ذلك فى عصورهم الوسطى ، ثم ظلُّوا على ذلك حتى أيام القرن السابع عشر للميلاد . ولقد كانت للمصريين فى أيامهم عقائد ؛ فمنها ما يكون فيه طالع السعد ، ومنها ما يكون فيه طالع النحس .
انظر : (Bakir, (Mohsen) Cairo Calender of lucky & unlucky Days, No. 86637) .

الشعراء[١] من اليونانيين هذه المعلومات . ولقد اكتشف المصريون من علامات الغيب أكثر من الشعوب قاطبة ؛ وذلك لأنه كلما حدثت معجزة خارقة ، راقبوا نتيجتها وسجلوها . فإذا ما حدث شيء مشابه بعدئذ ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بالأولى .

٨٣ — وهذا شأن العرافة عندهم : لا يُنْسَبُ هذا الفن إلى واحد من البشر ، ولكن إلى بعض الآلهة[٢]. فعندهم وحى « لهيراكليس » و « أبوللون » وآثينا و « أرتميس » و « آريس »[٣] وزيوس . ووحى « ليتو » فى مدينة « بوطو »[٤] ، الذى يجلّونه أكثر مما (يجلّون) الجميع . ولكن طرق العرافة عندهم ليست واحدة ، بل مختلفة .

= حيث اهتم الدكتور عبد المحسن بكير الأستاذ بجامعة القاهرة بهذا الأثر وأعده للنشر ، وهو قرطاس يحوى كافة أيام السنة (٣٦٥) مع وصف طوالعها السعيدة وغير السعيدة .

انظر أيضاً[١] Chabas, Le Calendrier des jours fastes et néfastes de l'année egyptienne Paris 1870.

وأخيراً Pierre Montet, Everyday life in Egypt, trans. p. 36 f.

(١) انظر : (Hesiode, Orphée) .

(٢) نلاحظ أن « هردوت» هنا يسمّى المعبودات المصرية بما خلع عليها هو أو قبيله من الإغريق — الذين يجهلون أسماء المعبودات المصرية - من أسماء إغريقية

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٣) وما بعده من فصول .

(٤) انظر الفصل (رقم ١٥٥) .

(٥) يقصد بذلك الطريقة التى تتبع فى الاستيحاء والتى يُمثّلن بها الوحى .

انظر : (Erman, Relig. 23. 312. 337) .

ثم (Ed. Meyer, Die Papyrusfunde von Eleph. (Leipzig. 1912) S. 78 ff) .

٨٤ — وينقسم التطبيب عندهم[١] إلى الفروع التالية : لـكل مرض

(١) سجل التاريخ قديمه وحديثه لشعب مصر العظيم معرفةً فى الطب لم يسجلها لغيره من شعوب الدنيا ، ثم وضع بين أيدينا من شواهد تلك المعرفة ذخيرةً غنيةً مترفةً قوامها كتبٌ « ثمانية » . زعم كتّابها أنها صورٌ من أصول قديمة . وعلى الرغم من هذه الـكتب المتعدِّدة ؛ نرى أننا نَظلِمُ المصريِّين أشد الظلْم إن نحن اكتفينا بها فى تصوير ما ينبغى لهم من معرفة فى علم الطب ؛ ذلك لأن هذا العلم قد كان لديهم من الأسرار . ولسنا نشك مطلقا فى أنهم قد أخفوا من أسراره أضعاف ما أبدوا . وتلك حقيقة يشير إليها ويؤكدها « استرابون » حين يقول : إن علوم الطب كانت سرًّا من أسرار الـكهنة المصريِّين . ثم يدلِّل على ذلك بأن بعض من طلبوا شيئاً من أسرار المصريِّين فى معارف الطب قد ظلوا يلزمون أبواب الـكهان ثلاثة عشر عاما .

وإذا كان تراث المعارف الطبية عند آل فرعون قد جاء مشوباً بتعاويذ السحر والرقى ؛ فهو قد كان وما يزال كذلك عند كثير من شعوب الدنيا .

وإنه ليسعدنا حقاً أن نقرر أن مهنة الطب عند أجدادنا من شعب هذا الوادى قد كانت تقتضى من أصحابها أن يعرفوا الفنَّ الجميل ، وأن يعرفوا صناعة التحنيط ، وأن يكونوا من الـكتّاب المجيدين ، والسحرة الماهرين ؛ كما كانوا يؤمنون بقداسة هذا العلم ؛ فهذا قرطاسى « إبرس » (Pap. Ebers) ، وهو واحد من تلك الـكتب التى ذكرنا ، يزعم كاتبه ويؤكد ، أن علمه قد أوحىَ إليه من أرباب « صا الحجر » (سايس) وأرباب « أون » (عين شمس = هليوبوليس) ليخفِّفَ عن الناس آلامهم ، وليحفظهم من شرور العلل والأسقام .

انظر : (Schaefer, Z. Ae. S. XXXVII, P. 27) .

هذا ، وكان الملوك من آل فرعون يقرِّبون الأطباء ، ويجذلون لهم العطاء .

انظر : (Quibell, Saqqara, 1905/6 - II. 4. 7. 22) . كما كان بعضهم يعرفون الطب ؛ وإلى بعضهم تُنسب أصول معرفته ومنهم الملك « أوديمو » أحد ملوك الأسرة الأولى (٣٤٠٠—٣٢٠٠ ق.م.) ومنهم الملك « نفر إركارع » من ملوك الأسرة الخامسة .

طبيب متخصِّص فيه لا لأكثر . وبلادهم كلها غاصة بالأطباء ؛ بعضهم متخصص فى العيون[1] ، وبعضهم فى الرأس ، وبعضهم فى الأسنان ، وبعضهم

= انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ص ١٨١ وما بعدها) .

كذلك كانت أكثر العقاقير التى استخدمها أطباء الفراعنة تُوصف بأنها من عمل الأرباب ، وقد يذكرنا ذلك بما يفعل المحدثون من أتقياء الأطباء حين يبدأون عملهم « بسم الله » . وكذلك كان الأطباء المصريون من كهان المعبودة « زُخمة » (ربة الفتك ، ومذيعة العلل والأوبئة) . كما كان الأطباء الإغريق ينتسبون إلى معبود لهم يدعونه « أسكلپيوس » ، ويرمزون إليه بالثعبان الذى يحمل السم .

وبعد ، فقد كان من أشهر ما سمَّيناه «الكُتب الطبية» عند آل فرعون ذلك القرطاس الشهير الذى يعرف لدى العلماء باسم « Pap. Edwin Smith » (قرطاس « أدوين سميث ») فى الجراحة . وإنه لكتاب يعالج أجزاء الجسم الإنسانى ، ويشخِّص ما يصيب أعضاءه من علل ، ثم يتحدث عن الجراح وعلاجها ، وما لا يمكن علاجه منها . ونحب أن نشير آخر الأمر إلى أن أقوم ما يمكن أن يُقرأ عن ذلك القرطاس وقيمته فى عالم الطب والجراحة ، ما كتبه طبيبنا المصرى العالم المفكر والباحث المدقق الدكتور « محمد كامل حسين » فى كتابه « متنوعات » (القاهرة ١٩٥١) . ثم بحثه الذى صدر بعد ذلك بعنوان The EDWIN SMITH PAPYRUS, The OLDEST SURGICAL TREATISE IN THE WORLD.

(١) إذا كان « هردوت » قد رأى ذلك فى مصر ؛ فإن البحوث العلمية فى الأعوام الأخيرة قد طلعت علينا بما يؤيِّد قوله لا فى الأيام التى زار فيها مصر وحسب ؛ بل فى أيام الدولة القديمة أيضاً ؛ فهى قد بيَّنت لنا تقدُّم علوم الطب إلى حدٍّ يبعث على الدهشة ، ذلك لأن مصر قد عرفت فى ذلك الوقت البعيد من تاريخ الإنسانية أطبَّاء للأمراض الباطنية ، وآخرين للعيون ، وغيرهم للأسنان . كما عرفت طوائف منظمة من رجال الطب ، مثل « عميد الأطباء » . و « الطبيب الأول » و « عميد أطباء القصر » و « طبيب القصر الأول » ، و « طبيب الأسنان الأول للقصر » . انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ص ١٨٩) . =

فى الأمعاء ، وبعضهم فى الأمراض الخفيَّة (١) .

٨٥ — وهذه أساليب الحداد والدَّفن عنـد المصريين ؛ إذا مات — فى بيت من البيوت — رجلٌ ذو قدر ، لطَّخت كلُّ نساء هذا البيت الرأسَ أو الوجه بالطِّين ، ثم يَترُكن الجثة فى الدار ، ويَجُلنَ فى المدينة لاطمات وقد شمَّرن ، وكشفن عن صدورهن(٢) ، ومعهن كل قريباتهن . والرجال كذلك

= وأخيراً وليس آخرا ، لا نجد أدلَّ على تقدُّم المصريين فى علوم الطب عامة وفى طب العيون بخاصة من أن يلجأ «قورش» ملك فارس — حينما أصيب بمرض فى عينيه — إلى فرعون مصر « أمازيس » ؛ يلتمس منه إرسـال أحد أطبائه المتخصِّصين ليقوم بعلاجه .

انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل الأول من الكتاب الثالث لهردوت) .

(١) يقصد الأمراض الباطنة . انظر : (Kees. K. G. S. 306) .

(٢) إن لطم الخدود ، وشقَّ الجيوب ، وتلطيخ الوجوه والثياب بالوحل أو صبغها بالألوان القـاتمة كان وما يزال معروفا كله أو بعضه فى الشرق عامة ، وفى مصر بخاصة ، وظاهر أن تقاليد الندب ومظاهر الحزن فى مصر قديما وحديثا إنما ترجع إلى أصل قديم ؛ نطالع آثاره فى تلك الأسطورة الخالدة المعروفة التى تصور لنا مأساة إمام الشهداء عند آل فرعون « أزوريس » . وإذ كانت أختاه « إيزيس » و « نفتيس » فى مقدمة المحزونين لمصرعه ؛ فقد رمز المصريون إليهما بحدأتين نـَّواحتين ؛ تركع الأولى عند رأسه وتضع يديها عليه ، وتركع الأخرى عند قدميه وتضع يديها على صدرها . وتلك صورة مألوفة فى مناظر الجنازة التى رسمها القوم فى قبور موتاهم ومن حولها صورٌ لطوائف من النساء باكياتٍ معولاتٍ صائحاتٍ ، وقد حللن شعورهنَّ ، وشقَقن جيوبهنَّ ، وأرسلن دموعهن . انظر : (Kees, K. G. S. 98) .

تلك صورٌ ما زالت أمثالها حية فى ريف بلادنا عامة وفى ريف الصعيد بخاصة . وإذا كان الإسلام قد قبَّح ذلك ونهى عنه ، فإن الناس فى مصر لم ينتهوا عن ذلك وما أظن أنهم منتهون عنه فى سهولة ، بل ولا فى وقت قصير . =

يلطمون ويشمّرون ، وعندما ينتهى ذلك يحملون الجثة لتحنيطها (١) .

= حقيقة إن الإسلام قد نهى عن ذلك ، وحقيقة إن النبيّ صلوات الله عليه يقول « ليس منا من لطَمَ الخدودَ وشقّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية » . ولكننا نسمع أن النبي عندما اشتد حزنه على شهيد أحد الأول عمه « حمزة » رضوان الله عليه ، وسمع نساء الأنصار يبكين من اسْتُشْهِدَ من أهلهنّ ، سُمِعَ يقول محزونا : « ولكن حمزة لا بواكى له » . فخرج نساء الأنصار جميعاً يبكين «حمزة» . وإنا لنسمع أن ذلك قد أصبح من التقاليد المعروفة عند الأنصار وبعض القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ؛ حيث يبدأ النساء ندبهنّ بذكر « حمزة » ، ثم يخلصن من ذلك إلى بكاء الميّت من أهلهن .

(١) التحنيط : عادة قديمة ، ابتدعها واشتهر بها قدماء المصريين ؛ مبعثها الاعتقاد أن الموت لم يكن عندهم نهاية كل حى ، وإنما كان نقلةً تفارق فيها الروح الجسد فترة ، ومن الممكن أن تعود إليه إذا ما استطاعوا حفظه سليماً بيّن المعالم . وفكرة المحافظة على الجسد من التلف ترجع عند المصريين إلى عصر بعيد جداً ؛ فهم قد كانوا يعمدون إلى الجسد فينزعون عنه ما يكسو العظام من لحم ، وما يتخلّل ذلك من مواد رخوة تعمل على إذابة العظم. ولم يكن غريبا إذا أن يسموا القبر «مكان العظم» (Sethe, Die Totenliteratur d. alt. Aeg. Preuss. Akad Wissensch. Phil. Hist. Klasse 1931, XVIII) .

فأما التحنيط الكيميائى فرجعه إلى عصور قديمة أيضاً ، وإننا لنجد آثار ذلك من زمان الأسرة الأولى . انظر : (JEA. 7. 31—7) .

ثم لا نلبث أن نتبيّنها بوضوح فى زمان الأسرة الثانية .

انظر : (Lucas, Anc. Eg. Mat. & Ind. p. 230,) .

ثم (Petrie, R. T. II, 1.) . ولقد كان من الممكن أن يتوافر لدينا الكثير من آثار التحنيط رتيبة يتلو بعضها بعضاً ، لولا ما وقع على قبور الملوك والموسرين من عدوان ، وما أصابها من تخريب خلال الثورة الاجتماعية التى قامت أواخر أيام الدولة القديمة .

انظر : (فى موكب الشمس ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها) . =

٨٦ — ويقيم هناك أناس مهنتهم التحنيط وبه يشتغلون(١). عندما يؤتى إليهم بجثة ؛ يعرضون على من جاء بها نماذج لجثث مصنوعة من الخشب ، تشبه الحقيقة بنقشها ، ويقولون إن أجود أنواع التحنيط إتقانا هو ما يرجع إلى من لا أستبيح ذكر اسمه فى هذا المجال(٢) . ثم يعرضون نماذج الطريقة الثانية وهى أقل من الأولى جودة وثمنا . والثالثة وهى أقلها نفقة . وبعد شرحهم هذا ، يستفهمون منهم عن الطريقة التى يريدون أن تعد لهم بها الجثة . وبعد أن يتفق أصحاب الجثة معهم على التكاليف(٣) ، يذهبون عنهم ويتركونهم فى محلاتهم . فيقوم المحنطون بتحنيط الجثة على الوجه التالى ؛ وهذه أحسن الطرق : أولا : بوساطة قطعة معقوفة من الحديد يخرجون المخ من المنخارين ؛ يخرجون بعضه هكذا

= هذا ولقد أصبح التحنيط فى مصر صناعة طبقت شهرتها الآفاق ، وصارت حديثا يروى حتى يومنا هذا . انظر : (Ell. Smith, Eg. Mummies 1924) .
ثم (B. Grdseloff, D. Aegyptische Reinigungszelt (Le Caire 1941) .

(١) من الطبيعى أن يكون فى مصر أناسٌ يحترفون التحنيط ، وقد كانت حرفة مُربِحَةً من غير شك ، وكان الأبناء يتوارثونها عن الآباء ؛ شأنهم فى ذلك شأن أبناء المحترفين من كل لون . انظر : (Diodor, I. 91, 2) .

(٢) يقصد « أزوريس » كما أوضحنا غير مرة فى الفصول السابقة .

(٣) تلك حقيقة لا نعدم العثور على ما يؤيدها فى تراث المصريين من العصر الرومانى .

انظر : (١) Pap.Bulaq III; Pap. Louvre 5158

(٢) Maspero, Mém. sur quelques pap. d. L. p. 14

(٣) Urk. d. Relig. d. Aeg. S. 297

والبعض الآخر بفضل عقاقير يَصبُّونها (فى الرأس) ، وبعد ذلك يشقون الكشح بحجر أثيوبى مسنون[1] . ويخرجون الأحشاء كلها التى ينظفونها ويغسلونها بنبيذ التمر[2] ، ثم يطهرونها بالتوابل المجروشة . وبعدئذ يملأون الجوف بمر نقى مسحوق ، ودارصينى[3] وسائر أنواع الطيب ما عدا البخور ، ثم يخيطونها ثانية . وبعد أن يفعلوا ذلك يملحون الجثة بتغطيتها بالنطرون[4]

---

(١) أكبر الظن أن ما يسميه « هردوت » هنا « بالحجر الأثيوبى » هو « الصوَّان » . وقد كان من أوائل المواد التى اتخذ منها المصريون أسلحتهم منذ أقدم العصور . وفى تراثهم كثير من تلك الأسلحة . وطبيعى أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى الأسلحة الحجريَّة أيام « هردوت » ؛ ذلك لأنهم عرفوا المعدن قبل أيام « هردوت » بوقت طويل . فإذا صح ما يقوله « هردوت » من أنهم استعملوا « الصوَّان » ؛ فأغلب الظن أن يكون سببه الحرص على التقاليد . وأن المحافظة على القديم قد دعتهم إلى استعمال « الصوَّان » مع وجود المعادن التى تصلح لأن تصاغ منها أسلحة الجراحة .

(٢) يقصد بذلك الخمر المقطر من البلح وقد عرفه المصريون القدماء كما يعرفه خلفاؤهم اليوم . وكما كان يعرفه غيرهم مثل سكان أرض النهرين . انظر : (ما قاله « هردوت » عن ذلك الخمر فى كتابه الأول فصل ١٩٣) .

عُـرِف ذلك النوع من الخمر عند المصريين منذ أيام الدولة الوسطى ، وكان يستعمل دواءً . انظر : (Kees. K. G. S. 52) .

(٣) الاسم العلمى Cinuamomum Zeylnicum Nees

(٤) عرف المصريون قيمة « النطرون » ، فاستعملوه للتطهير ، وفطنوا إلى قيمته الكيمائية من حيث قدرته على امتصاص ما فى الجسم من مواد رخوة (Lucas, JEA 1. P. 119) . وكان محظوراً على الكاهن أن يدخل على تمثال المعبود قبل أن يُطـهِّرَ فمه بالنطرون ، كما كان يفعل مثل ذلك كل من دخل على الملك ليتحدث إليه . انظر : (Kees, K. G. S. 87 ff.) .

سبعين يوما[1] ، ولا يجوز أن تستغرق عملية التمليح وقتا أطول من هذا ، وفى نهاية الأيام السبعين ، يغسلون الجثة ويلفون الجسم كله بشرائط من الكتان الشفاف[2] ، مغطاة بالصمغ الذى يستعمله المصريون غالبا بدلاً من الغراء . وعندئذ يتسلم الجثة أصحابها ، ويعملون لها هيكلا خشبيا على شكل إنسان ، ويضعونها فيه . وبعد إغلاقه عليها ، يحفظونها بعناية فى غرفة الدفن

---

(١) إن مدة الأيام السبعين هى مدة الحزن على الميت من يوم الوفاة حتى يوم الدفن . ونحن نعرف ذلك منذ زمان الأسرة الثامنة عشرة .

انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kult. S. 54 ff) .

فأما جعل فترة الحزن — وهى تشمل التحنيط — سبعين يوما ، فأمر ينبغى أن يُسأل عنه المصريون أنفسهم . كما ينبغى أن يُسأل آباؤنا الأقربون ، مثلا لم كانوا يحزنون على موتاهم أربعين يوما ؟ بل ينبغى أن يسأل المصريون القدماء أيضاً ، لم تمنَّوا أن يعيشوا عشرة ومئة عام . إن أقصى ما وصل إليه تخمين العلماء بشأن ذلك التحديد هو ربطه بفترة اختفاء «نجم الشعرى» من سماء مصر ؛ وهى فترة تبلغ سبعين يوما ، يعود النجم بعدها إلى الظهور . ومعنى ذلك أن المصريين كانوا يتمنون للميت أن يعود إلى الحياة بعد سبعين يوماً . انظر : (Knauers ibid. S. 54 ff.).

ونحن نذكر آخر الأمر ما يُروى فى « التوراة » من أن « يوسف » أمر الأطباء أن يُحنِّطوا أباه « إسرائيل » (يعقوب) ؛ « فحنَّط الأطباءُ « إسرائيل » وكَمُلَ له أربعون يوماً ، لأنه هكذا تكمل أيام المحنَّطين ، وبكى عليه المصريُّون سبعين يوماً » . (سفر التكوين ، اصحاح ٥٠ و ١٠ و ٢ و ٣ و ٤) . ومن ذلك نرى أن مدة الأيام السبعين هى مدة الحزن من يوم الوفاة إلى يوم الدفن .

(٢) الكتَّان الشفاف Byssus : ورد اللفظ فى اللسان الإغريقى *βύσσος* وفى اللسان العبرى בּוּץ وفى اللغة الآشورية bûsu . ويحتمل أن يكون أصله مصرى قديم وإن كان ذلك الاحتمال بعيداً وتحقيقه غير ميسور . وقد يكون هو « البزّ » فى اللغة العربية . وهو ماورد فى سفر الخروج باسم « بوص » . انظر : (سفر الخروج الأصحاح ٢٥ و ٤) .

ويقيمونها مسندة إلى حائط(١) .

٨٧ — هكذا يُعِدُّ المُحنِّطون الجثث بأبهظ الوسائل نفقات . ولكنهم يجهِّزونها على النحو التالى لمن يرغبون فى الطريقة الوسطى ويتجنبون النفقات الباهظة : يملأون الحقن بزيت الصنوبر ، ثم يملأون به جوف الجثة دون أن يشجوها ، ودون أن يستخرجوا الأحشاء . ولكنهم يضعون الزيت من الشرج ، ويسدونه لكيلا ينساب منه الزيت بعدئذ . ويملحون الجثة أيَّاما عدَّتها [سبعون يوماً] . وفى نهايتها يخرجون من الجوف الزيت الذى كانوا قد أدخلوه من قبل . وقوة هذا الزيت عظيمة ، حتى إنه يجرف معه الأحشاء والمصارين التى تكون قد تحللت . أمَّا اللحم فيذيبه النطرون وبذلك لا يبقى من الجثة إلا الجلد والعظام فقط . وبعد أن يفعلوا ذلك يردون الجثة إلى أهلها دون عناية أخرى بعدئذ .

٨٨ — وهذه هى طريقة التحنيط الثالثة التى تستخدم لإعداد جثث من هم أقل ثراء . يغسلون الجوف بماء الفجل(٢) . وتترك الجثة فى الملح سبعين يوما ، ثم ترد لأصحابها ليذهبوا بها .

---

(١) لا نظن أن توابيت الموتى كانت تقام فى حجرات الدفن مسندة إلى حائط إلا إذا تعدَّدت وضاق بها المكان .

(٢) الفجل (συρμαίη) . لا نعرف أن هذه المادة قد كانت تستعمل فى التحنيط ، ولا نعرف على وجه التحقيق أن المصريين القدماء قد عرفوا الفجل الذى نعرفه فى بلادنا اليوم ، وإن كنا لا نستطيع على الرغم من ذلك تكذيب « هردوت » ؛ ذلك لأن اسم الفجل قد ورد ضمن ما كان يقدم فى الوجبات الخاصة بعمال البناء الذين كانوا يعملون فى هرم « خوفو » (فصل ١٢٥ من هذا الكتاب) . ويعرف هذا النوع من الفجل فى اللاتينية — أغلب الظن — باسم Raphanus ، وفى الفرنسية raifort ، وفى الإنجليزية horse radish ، وفى الألمانية Meerrettich أى « الفجل البحرى » وهم يقصدون بذلك « الفجل البَرِّى » .

٨٩ — إن زوجات العظماء ، والنِّساء الفائقات الحسن ، والذائعات الصيت ، لا يسلَّمْن مباشرة بعد موتهن للتحنيط . ولكن بعد انقضاء ثلاثة أيام أو أربعة على موتهن . تعطى عندئذ جثثهن للمحنطين ، وذلك حتى لا يجامع المحنطون أولئك النسوة . إذ يُحكى إن أحدهم قد قُبِضَ عليه وهو يواقع جثة امرأة ماتت حديثاً ، حين وشى به أحد زملائه (١) .

---

(١) لا نعرف مطلقاً أن المصريين القدماء قد انحرفوا إلى هذا الحد الذى انحطوا عنده إلى نكاح الموتى . ومع ذلك فإن دنيا الناس لم تخل من مرضى النفوس الذين يمكن أن يفعلوا مثل ذلك فى كل زمان ومكان . والأمر ليس مستحيلاً ؛ ذلك لأن فى الإنسان نوازع إذا سيطرت عليه استحال إلى وحش منكر ؛ لا نكاد نجد فى طبيعته هزة من عاطفة ، أو فضلة من وقار ، أو طيفا من مروءة وحياء ؛ بل لا نكاد نجد فى نفسه معنى واحداً من معانى الإنسانية . حقيقة إن فكرة نكاح الموتى أو مجرد تصورها شىء بشع ، إلاَّ أنها غير مستحيلة ؛ فكثيراً ما سمعنا بقصص السفَّاحين الذين كانوا يقتلون الصغار من الجنسين ، ثم يفعلون بهم تلك الفعلة النَّكراء . وتاريخ البشر ملىء بالمآسى الخلقيَّة والأمراض النفسيَّة التى تعيد الحياة تمثيلها وسيرتها فى كل زمان ومكان . وإنا لنذكر قصة سمعناها فى الريف أواخر أيام الصبا ، وأوائل أيام الشباب ، يسمونها قصة الشيخ « أبى نبوت » . وكان الشيخ أول الأمر سفَّاحاً ؛ قيل إنه قتل بنبُّوته مائة رجل ، وكان كلما قتل واحدا آوى إلى الجبانة ليمتِّع النفس بمرأى فريسته وهى تُوارى التراب . وبينما هو ساهر فى الجبانة فى إحدى لياليه ، رأى رجلا ينبش قبر عذراء كانت قد دُفِنَتْ ظهر النهار ، ثم يخرجها فيحل أكفانها ليقضى منها وطره ؛ فثارت نفس الشيخ ، واستيقظ ضميره ؛ فأمسك بالجانى وسأله ما بال المرأة التى شق قبرها ، فعلم منه أنها عذراء ، وأنه هام بها وطلب يدها فاباها عليه أهلها ، فلما ماتت أراد أن يقضى منها وطره . فقال الشيخ إذا كنت لم تدركها بين يدى أبيها أفتريد أن تدركها وهى بين يدى الله ، والله لأقتلنك ، ثم هوى عليه بنبوته فقتله ، ثم دعا الله أن يغفر له ما جنت يداه ، أن يجازيه بفعلته تلك مغفرة ورضواناً ، وخطر له أن يغرس « نبوته » =

٩٠ — إذا اختطف تمساح أحد المصريِّين أو الأجانب، على حد سواء، أو جرفه النهر نفسه ثم طفت جثته، تحتم قطعا على سكان المدينة التى وصلت عندها الجثة، أن يُحنطوها، وأن يعنوا بها كل العناية، ويدفنوها فى مقبرة مقدسة (١). ولا يسمح لشخص ما أن يلمس الميت، لا من أقاربه ولا من أصدقائه. ولكن ذلك يباح لكهنة النِّيل أنفسهم (٢)؛ فهم الذين يدفنون الجثة بأيديهم إذ تعد هذه شيئاً أعظم من جثة فرد (عادى) (٣).

٩١ — والمصريون يتجنَّبون اتخاذ العادات اليونانية، وجملة القول إنهم يتجنبون عادات الناس جميعاً دون استثناء. وهكذا يراعى سائر المصريين

= فوق قبر القتيل؛ فإن أدركه الصبح واخضرَّ نبوته فأصبح شجرة، كانت هذه آية من الله بالمغفرة، فأصبح الصبح واخضرَّ النبوت وأضحى شجرة، وجلس الرجل من تحتها يتفيأ ظلَّها وظل يعبد الله ويستغفره حتى مات فدفن فى ظلها.

ولا يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن حياة المحنطين — كحياة من يغسلون الموتى فى أيامنا — كانت حياة منفِّرة تتقزَّز منها النفس؛ يضاف إلى ذلك أن انعزالهم فى معامل التحنيط على حدود الصحراء قد كان يبعدهم عن رؤية من يهوون من النساء. وليس ببعيد بعد ذلك أن يوجد منهم من يقدم على تلك الفعلة النكراء.

(١) انظر: (Erman, Relig. Kap. 19;5) ثم (Kees, K. G. S. 13).

(٢) الغالب أن المقصود بكاهن النيل هو كاهن «أزوريس» الذى عدُّوه إماما للشهداء وربطوا بينه وبين النيل كما تشير الأسطورة الخالدة (أسطورة إيزيس وأزوريس).

(٣) «من مات غريقاً مات شهيداً». كان الموت بالغرق أو الإغراق يُكسِبُ صاحبه قداسة، ويكتب له الشهادة فى العصور المتأخرة على الأقل. انظر: (Griffith, Z. Ae. S.46 (1909) 132) ثم (Kees, in: Studies presented to Griffith, Oxford 1932. p. 402 ff.

هذا العرف[1] . إلا أنه فى مقاطعة طيبة بالقرب من مدينة « نياپوليس »[2] ،

---

(١) ليس من شك فى أن المصريين من آل فرعون قد كانوا من أكثر شعوب العالم اعتزازاً بماضيهم ومحافظة على تقاليدهم ؛ يرون ذلك من قواعد الإيمان . وليس من شك كذلك فى أن الإغريق قد أخذوا عنهم كثيراً ، ولما يأخذ الإغريق عنهم حتى ذلك الوقت كثيراً ولا قليلاً . ولم يكن « هردوت » وحده هو الذى اعترف بفضل المصريين وسبقهم فى سائر الفنون والمعارف الإنسانية ؛ بل فعل غيره من بنى قومه ومنهم « پلاتون » Platon . وليس يفوتنا أن ما حصَّله « هردوت » من علوم المصريِّين ومعارفهم ؛ بل وعاداتهم أيضا ، قد كان ضئيلاً ضحلاً ؛ ذلك لأن رواته لم يعدوا طوائف الأدلاَّء من بنى قومه ، والبسطاء من كهَّان مصر . يضاف إلى ذلك أن المصريين فى زمان « هردوت » ، قد كانوا غارقين فى المحنة السياسية والاجتماعية إلى آذانهم ، وكان من حقهم أن يضيقوا بالأجانب عامَّة ، والإغريق منهم بخاصة ؛ إذ كان من هؤلاء المرتزقون فى جيش البلاد ، وأصحاب الأمر والنهى فى بلاط الحاكم ، كما كان منهم حرَّاس بدنه . لقد كانت حال المصريِّين يومئذ أشبه شىء بحال أبنائهم فى القرن الماضى وبخاصة أيام « إسماعيل » وابنه « محمد توفيق » ؛ فالحاكم فى بلادهم لم يكن مصريًّا ، وإنما كان ينحدر من سلالة ليبيَّة ، وبلاطه كما ذكرنا يموج بالغرباء ، والمقدَّمون من عسكره وأمراء جيشه كانوا من الغرباء . فلا عجب إذاً أن يضيق المصريون بالغرباء ، وأن يكون أشدهم ضيقاً تلك الطبقة المستنيرة من أهل العلم والمعرفة ؛ وهم يومئذ من رجال الدين . ولم يكن هؤلاء يملكون لأنفسهم ولا لشعبهم من الأمر غير التذكير بالماضى ؛ يفاخرون به كل غريب ، ويوقظون به وعى الشباب ، ويلتمسون لأنفسهم فيما كانوا يفعلون بعض العزاء .

انظر : (Kees, Art. Sesostris, RE, Sp. 1861) .

(٢) NEAPOLIS أى « المدينة الجديدة » . وليس ببعيد أن يكون مكانها الآن قرية « المنشيَّة » قرب « أخميم » . والمنشية قائمةٌ فى الغالب على أنقاض مدينة بناها « بطلميوس الأول » ، وأسماها باسمه وكانت من قبل أيامه منشأة حديثة .

انظر : (فى موكب الشمس حـ ٢ ص ٣٢٦) .

توجد مدينة عظيمة تسمى « خميس »[1] ؛ بها معبد مربع لپرسيوس ابن داناى ، ينمو حوله النخيل ، بوّابتُهُ من الحجر ، وهى ضخمة جداً يقوم فوقها تمثالان عظيمان من الحجر ، وفى نطاق هذه الساحة يوجد محراب يقوم به تمثال لپرسيوس . ويروى أهل « خميس » أن « پرسيوس » كثيراً ما يتجلّى لهم فى الأقاليم ، وكثيراً ما يظهر داخل المعبد . وغالبا ما يجدون النعل الذى ينتعله وطوله ذراعان[2] ، وعند ظهوره تزدهر مصر كلها[3] . وفيما يلى ما يفعلون

---

(١) CHEMMIS : تصحيف للاسم المصرى القديم « خم — مين » مقصورة المعبود « مين » ، ثم قلبت النون ميما فأصبح الاسم « خميم » . ثم وضع العرب فى أوله همزة فأصبح « أخميم » . علم على البلد المعروف بهذا الاسم فى صعيد الوادى . ويقع على الشاطىء الشرقى للنيل بين قرية « كوم اشقاو » وقرية « المنشيَّة » مركز طهطا .

(٢) شبيه بذلك ما قيل عن « هرقل » وأثر قدمه فى أرض السكيثّيين (Scythen) . انظر : (هردوت ج ٤ الفصل رقم ٨٢) ، أو ما يحكى عن أثر قدمى « بوذا » فى الهند ، أو ما كان يحكى فى مصر من القصص الشعبى عن « أثر النبى » فى مصر العتيقة (جنوبى القاهرة) . أو قدمى آدم أبى البشر فى صخور سيلان . . . الخ .

(٣) ذلك تخليط من « هردوت » وعذره فى ذلك واضح ؛ فثقافته إغريقية ، ورواته كما أسلفنا قد كانوا من التراجمة ، سواء منهم من كان إغريقياً لا يفهم من الحياة المصرية إلاّ أمانىّ ، أو من كان مصرياً لا يفهم من ثقافة الإغريق غير القليل التافه ، فالصورة التى رسمها هردوت لن تعدو ذلك النسيج المتخلط من ثقافة الإغريق وعقيدة المصريّين التى لم يقو يومئذ على هضمها . ومن هنا جاءت الصورة مرقّعة مشوَّهة . وأكبر الظن أن « پرسيوس » ذلك البطل الإغريقى الأسطورى لم يكن فى تخليط هردوت — الذى حاول أن يجعل منه إلها للشمس — غيرَ صورةٍ لمعبود المصريين « مين » رمز الخصب الذى صوَّره المصريون فى صورة عملاق من بنى آدم ، ممسكا بيمينه عضو التذكير منتشراً ، ليعبِّروا بذلك عن =

— على الطريقة اليونانية — تكريما له . يقيمون مباريات رياضية تشمل جميع ضروب المسابقات ، ويقدمون جوائز من الأغنام والأردية والجلود[1] .
ولما سألتهم لماذا تعود « برسيوس » أن يتجلى لهم وحدهم ، ولماذا يقيمون المباريات الرياضية ، مخالفين بذلك سائر المصريين ، ردّوا عليّ بأن « برسيوس » أصله من مدينتهم ، وأن « دناؤس »[2] و « لينكيوس »[3] اللذين أبحرا إلى بلاد اليونان كانا من أهل « خميس » . وذكروا الأنساب التي تبدأ بهما وتنتهي ببرسيوس[4] . ويقولون إن الأخير لما جاء مصر لعين السبب الذي

= قوة الخِصْب الكامنة فى صورته وقديماً عُرِفتْ كعبة عبادته «خميم» (أخميم) — انظر : (هامش ٣ من هذا الفصل) — بِخِصبِ تُربتها ، وكان أذكى نباتها « الخس » الذى أثبتت البحوث العلمية أن فى زيته ما يزيد فى القوة الجنسية . انظر : (Kees, K. G. S. 32.) . والعجيب أن بعض أهل الصَّعيد من حول « أخميم » ما يزالون يذكرون ذلك الخصب فى أغانيهم التى يردّدونها مستعينين بها على العمل ومن ذلك: « هات لى عنب وتين من جناين خميم » .

(١) الواقع أن آل فرعون عرفوا رياضة البدن . وكانت لهم ألعاب مختلفة يمارسونها على الدوام ، كما كان يفعل أبناء القرى فى العصر الحديث قبل أعوام . إلا أنها لم تكن قاصرة على عيد بعينه ، ولا على الأعياد وحسب . فأما أمر الجوائز فواضح أنه كان معروفاً فى المسابقات الرياضية التى تجرى بمناسبة الأعياد فى بلاد الإغريق .

(٢) DANAUS : انظر فصل ٩٨ ، ١٧١ من هذا الكتاب .

(٣) LYNCIUS : هو زوج HYPERMNESTRA الذى رعاه الـ DANAIDEN وبقى على قيد الحياة .

(٤) ظاهر من هذه الخرافة أن قيمة « برسيوس » هنا قيمة روح شمسية وظاهر أن « هردوت » قد سمع بقصة الحية « أبو فيس » التى كانت تعترض موكب الشمس فى خيال المصريين ، فينتهى الأمر بانتصار الشمس وقطع رأس الحية .

يقول به اليونانيون ؛ أى لإحضار رأس «جورجو»(١) من ليبيا — ذهب عندهم بالذات — وتعرَّف على كل أقاربه ، وإنه قبل وصوله إلى مصر كان يعرف اسم « خميس » الذى تعلمه عن أمه ، وإنه قد أمرهم بأقامة المباريات الرياضية من أجله .

٩٢ — ويراعى المصريون الذين يعيشون فيما وراء المستنقعات(٢) كل هذه العادات ، والقاطنون فى المستنقعات يتبعون هذه العادات بعينها التي يرعاها سائر المصريين من حيث أن يعيش كل منهم — مثل اليونانيين — مع زوجة واحدة(٣) . ولكنهم ؛ توفيراً للحبوب ، ابتكروا طرقا أخرى ؛ عندما يمتلىء النهر وتصبح السهول بحارا ينمو فى الماء السوسن بكميات وفيرة .

---

(١) « جورجو أو ميدوزا » تقول الأسطورة إنها كانت على درجة رائعة فى الجمال ، أساءت إلى المعبودة « آثينا » التى ثارت عليها ، فحوَّلت شعرها إلى حيَّات مفزعة ، ووضعت فى عينها قوةً خارقة تُحيل كلَّ من تنظر إليه إلى حجر ، ولقد نجح « پرسيوس » فى قطع رأسها ثم حملها معه فى كل أسفاره لكى يتغلب على أعدائه ، ويحولهم إلى أحجار .

(٢) أعلى المستنقعات : يقصد بذلك أرض الدلتا وبخاصة ما وقع منها بين « الفرع السمنودى » و « الفرع البولبيتى » .

انظر : (Diodor, I 80, 3) ثم (Kees, K. G. SS. 19, 52, 60,) .

(٣) من ذلك نرى أن المصريين كالإغريق كانوا يكتفون بالزواج بواحدة .

انظر : (Kees, K. G. S. 63).فأما التعدد أو ما يسمونه «الحريم» فقد عُرِف فى بلاط فرعون . وربما عُرِف كذلك عند بعض المقتدرين من أهل اليسار . وأما الحريم الذى تعود الكتَّاب الغربيُّون أن يرموا به الشعوب الشرقيَّة عامَّة والمسلمين بخاصة ، فقد كان معروفاً فى بلادهم أيضاً . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال «أغسطس» ملك بولندا وسكسونيا وحريمه الضخم . ويكفى أن نذكر أن تعدُّد الزوجات عند الشرقيين قد كان شرعياً ، على حين كان يمارسه الأوربيون فى السرِّ . انظر : (غوستاف لوبون ، حضارة العرب : ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثالثة ص ٣٩٨) .

ويسميه المصريون البشنين (لوتس)[1] . فيجمعون هذا النبات ويجففونه في الشمس ويأخذون ما في وسط البشنين من حب . وهو يشبه الخشخاش . ويطحنونه ويصنعون منه أرغفة يخبزونها على النار . وجذر البشنين يمكن أكله أيضاً ، وهو حلو لذيذ إلى حد ما ، مستدير الشكل ، في حجم التفاحة[2] . وهناك أنواع أخرى من السوسن تشبه الورد ، تنبت في النهر مثل البشنين وتتكون ثمرتها من كأس تتفرع عن الساق ، وهي في الشكل مثل خليّة الزنابير . وتحتوي هذه الكأس على حبوب كثيرة صالحة للأكل ، وهي في حجم نوى الزيتون . تؤكل طازجة وجافة . أما البردي[3] الذي ينبت

---

(١) لم يكن ذلك النبات قاصرا على الدلتا وحسب ، بل عرف في أمواه مصر العليا وكان رمزاً لها . كما كان يسميه المصريون « سشن » وهي كلمة ليست بعيدة في لفظها ومعناها عن «السّوسن» . انظر: (Wb, III. S. 485) . وقد كانوا يعصرون منه الزيت . انظر : (Kees, K. G. S 52) . عرف المصريون منه لونين : الأبيض وهو المسمى NYMPHAEA LOTUS والأزرق وهو ما يسمى : NYMPHAEA CAERULEA .

(٢) أكبر الظن أن هذا النوع لم يكن معروفا في مصر قبل العصور المتأخرة وهو النوع المعروف باسم NYMPHAEA NELUMBO .
انظر : (Posener, Dict. of Eg. Civil. P. 152) .

(٣) يسميه « هردوت » BYBLOS . وأكبر الظن أنه سُمّي بذلك الاسم وعُرِفَ به في الغرب عامةً وفي بلاد اليونان بخاصة لأنه صُدِّر إليها من ميناء « ببلوس » (جبيل) على الساحل الفينيقي . وكانت للمصريين بهذا الساحل صلات قديمة ، منها الديني ومنها المدني . ولن يبدو غريبا إذا كان « الكتاب » (BIBEL) « وخزانة الكتب » (BIBLIOTHEK) عند الغربيين قد اشتقا من هذا الاسم . كذلك عُرِف البردي عند القدماء من أهل أوربا باسم CYPRUS PAPYRUS ذلك لأنه كان يصل أول الأمر إلى =

سنويا ؛ فعندما يقتلعونه من المستنقعات ، يقطعون الجزء الأعلى منه ويفيدون منه فى أمور عدة (١) أو يبيعونه . والجزء الأسفل الذى يتبقى وطوله ذراع تقريبا يأكلونه أو يبيعونه . أما المولعون جداً به فيأكلونه بعد طبخه فى فرن محمى ويعيش بعض المصريين على الأسماك وحدها (٢) . فعندما يصيدونها ويخرجون أحشاءها ، يجففونها فى الشمس ثم يأكلونها بعد تجفيفها .

٩٣ — إن الأسماك التى تعيش فى أسراب لا تعيش بكثرة فى الأنهار ، ولكنها تكبر وتترعرع فى المستنقعات على النحو التالى : عندما تتملكها

= «قبرص» ، ثم يُرسل منها بالتالى إلى بلاد اليونان . وكان وصوله إلى « قبرص» بين أيدى الفينيقين الذين لم تعدُ أساطيلهم فى شرق البحر الأبيض « قبرص » و « رودس » و «كريت » . هذا وقد انتقلت زراعة البردى والتجارة فيه إلى قبرص وفلسطين فى العصور المتأخرة .

انظر : (Posener, Dict. of. Eg. Civil. P. 205) .

(١) كان للبردى فى حياة المصريين وحضارتهم أثر خطير ، فهم قد بنوا من سوقه أولَ مساكنهم ، ثم حاكوا مظاهرَ عمارتها فى مبانيهم عندما عرفوا البناء بالحجر ، كما اتخذوا منه أول فراشهم : انظر : (Kees, K. G S. 75) ، ثم طعاماً يستخلصونه من جذوره ويطبخونه . انظر : (Posener, Dict. of. Eg Civil. P. 206) ، كما اتخذوا منه أكفانهم الأولى . ثم بنوا من أعواده مراكبهم الخفيفة ، وبخاصة زوارق الصيد . انظر : (Kees, K. G. SS. 26, 110) يلتمسون فيها السلامة من عدوان التماسيح زاعمين أن « إيزيس » قد حملت أشلاء زوجها الشهيد على زورق من البردى . انظر : (Kees, K G. S. 110) . ثم كانوا يصنعون منه النعال ، ويجدلون منه الحبال ، كما كان فى مقدمة صادراتهم الوفيرة . انظر : (Kees, K. G. S. 118) . ولا يفوتنا أخيراً أن الدنيا أودعت هذا النبات خلاصة الفكر البشرى من علم وأدب ومعرفة . وذلك فيما صنعوا منه من قراطيس أيام العالم القديم .

شهوة التلقيح الجامحة — تسبح إلى البحر على هيئة أسراب . فتأخذ الذكور القيادة وتنثر اللقاح ، فتلتهمه الإناث التى تتبعها وتحبل منه . وعندما تحمل فى البحر ، تعود إلى النهر ؛ كل واحدة إلى مكمنها المعتاد ، ولكن القيادة لم تعد بعد للذكور ؛ بل إن الإناث هى التى تكون فى المقدمة . وهى إذ تأخذ القيادة تفعل ما كان يفعله الذكور تماماً . فتنشر بيضها — وهو فى حجم حبات الأذرة — قليلاً قليلاً فتبلعها الذكور التى تسبح خلفها . وهذه الحبات هى السمك . إذ من الحبات التى تبقى ولا تبتلع تولد الأسماك التى تكبر . وإن صيدت بعض هذه الأسماك عند ذهابها إلى البحر ، يلاحظ أن الجانب الأيسر من رأسها قد تهشم . ولكن عند رجوعها إلى النهر يشاهد أن الجانب الأيمن هو الذى قد تهشم . وهى تعانى هذا الأذى للسبب الآتى : عند ذهابها إلى البحر تلزم الجانب الأيسر من الشاطىء . وعند عودتها ثانية تتبع نفس الجانب ، وتقترب منه وتحتك بقدر الإمكان حتى لا تضل طريقها بسبب التيار ، وعندما يبدأ النيل فى الفيضان ؛ تأخذ الحفر التى فى الأرض والبرك التى بجانب النهر فى الامتلاء — قبل غيرها — بالماء الذى يتسرب إليها من النهر . وبمجرد امتلائها بالماء تغص بالأسماك الصغيرة سريعاً . وأحسبنى أفهم ، لم كان من الطبيعى أن تتوالد هذه الأسماك . فعندما انخفض النيل فى العام السابق ، رجعت الأسماك مع آخر ما انحسر من الماء بعد أن وضعت بيضها فى الطين . فإذا ما انقضى الوقت ورجع الماء من جديد خرجت هذه الأسماك على الفور من هذا البيض . ذلك شأن الأسماك .

٩٤ — والمصريون الذين يعيشون حول المستنقعات[١] ، يستخدمون

---

(١) انظر : (الفصل رقم ٩٢ هامش رقم ١) .

زيتا يستخرجونه من ثمار الخروع ، ويسمونه « كيكى »[1] . وهم يصنعونه بهذه الطريقة : يبذرون هذا الخروع على شواطىء الأنهار وحافات البحيرات (فى بلاد اليونان ينمو من الخروع نوع برى من تلقاء نفسه) . والنوع الذى يبذر فى مصر يحمل ثماراً كثيرة ، ولكنها كريهة الرائحة . وعند جمعها يكسرها البعض ويعصرونها والبعض الآخر يحمّصونها ويغلونهـا ويجمعون ما يتقطر منها . وهذا السائل لزج ، لا تقل صلاحيته عن زيت الزيتون للمصباح ولكن تنبعث منه رائحة كريهة .

٩٥ — ولقد دبر المصريون هذه الحيلة (وقاية) ضد البعوض الذى يوجد عندهم بكثرة[2] : فالذين يسكنون شمال المستنقعات[3] ، يفيدون من أبراجهم التى يصعدون إليها وينامون بها . لأن البعوض لا يمكنه أن يطير إلى هذا

---

(١) KIKI : عرف المصريون القدماء كثيراً من الزيوت النباتية ؛ منهـا ما استعمل فى الغذاء ، ومنها استعمل فى أغراض صحية . ومن بينها زيت الخروع الذى كثر فى أيام الدولة الحديثة . وليس من الثابت أنهم أسموه « كاكا » كما جاء فى قاموس برلين .

انظر : (Wb. Bd. V, S. 109)

ثم انظر : (Kees, K. G. S. 33.) ، وما نريد أن ننكر ما قاله « هردوت » من أن المصريين قد استعملوه لتنظيف أمعائهم وتطهيرها كما نستعمله اليوم . والواقع أننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف سمى المصريون الخروع ، ذلك لأن قاموس برلين قد ذكره باسمين مختلفين فى غير تأكيد وإن كنا نرجّح أن ثانى الاسمين « dgm » هو الأصح . انظر : (Wb. Bd. Vs. 500) .

(٢) من الطبيعى أن يكثرُ البعوض حيث توجد مجارى المـاء عامة وتنتشر المستنقعات بخاصة .

(٣) الغالب أن هردوت يقصد من يعيشون جنوبى الدلتـا أى جنوبى « ممفيس » .

العلو تحت ضغط الرياح[١] . أما الذين يعيشون حول المستنقعات فقد فكروا فى وسيلة أخرى تحل محل الأبراج ؛ كل فرد منهم عنده شبكة يصيد بها السمك أثناء النهار ويستخدمها أثناء الليل كما يلى : يضرب الشبكة حول السرير الذى يستريح عليه ثم يتسلل داخلها وينام تحتها[٢] . وإذا ما نام أحدهم ملفوفا فى رداء أو ملاءة من الكتان لسعه البعوض من خلالها بينما لا يحاول البعوض ذلك مطلقا من خلال الشبكة .

٩٦ — ويصنع المصريون السفن التى تحمل البضائع من شجر السنط[٣].

---

(١) ربما يقصد بالأبراج هنا أعلى المنازل ، وهى تلك الأسطح المكشوفة يتخللها الهواء ولا يستقر فيها البعوض . والمصريون فى القرى يحيطون أسطح الدور بما يشبه الأبراج ، يحفظون فيها الغلال والوقود ، وينامون فيها فى ليالى الصيف ، وأحسن أمثلة لذلك ما نراه فى منطقة « القرنة » غربى « طيبة » .

(٢) لا غرابة فى أن يستخدم الناس شباك الصيد يتّقون بها لسع البعوض . فالأمر لا يختلف عما نفعل اليوم حين نستخدم « الكِلّة » (الناموسية) .

(٣) ACANTHUS : يقصد بها فى الغالب الشجر المعروف فى الكتب العلمية باسم MIMOSA NILOTICA . وهو معروف فى مصر منذ زمن بعيد ، وما زال يعرف اليوم — كما عرف فى الماضى — باسم « السنط » . والسنط كلمة مصرية أصيلة (ϣONTE : ϣON† فى القبطية) وشجرة السنط إذا لم تكن سامقة العود مديدة الغصن فإن خشبها قوى شديد الاحتمال ومنه يبنى السودانيون سفنهم حتى اليوم . انظر : (Schweinfurth, Im Herzen von Afrika, S. 24 (Akazienholz)) .

والمصريون القدماء لم يبنوا سفنهم من هذا الخشب وحسب ؛ بل كانوا يبنونها من أخشاب أُخَر ؛ فهم قد استغلوا أعواد البردى لبناء خفاف الزوارق وصغار المراكب ؛ يستخدمونها حين يخرجون للصيد والقنص أو للسفر القاصد . انظر : (الفصل الثانى والتسعين هامش رقم ٦) . ولم يكن من اليسير على المصريين =

وشكله كثير الشبه بالبشنين الكورنيائى(١) ويسيل منه الصمغ . يقطعون من خشبه ألواحاً طول كل منها ذراعان تقريبا ويصففونها كما يصفف اللبن ، ثم يصنعون منه السفن على الوجه الآتى : يعشقون الألواح التى طول الواحد منها ذراعان حول أوتاد طويلة متقاربة جداً ، وبعد أن يبنوا هيكل السفينة بهذه الكيفية يمدون عوارض على أعاليها . وهم لا يستخدمون الضلوع بل يسدون الفواصل التى بالداخل بالبردى ، ويصنعون دفة واحدة تدفع من قاع السفينة(٢). ويصنعون السارى من السنط ، والشراع من البردى . وهذه السفن لا يمكن أن تبحر صعداً فى النهر إذا لم تواتها ريح قوية . بل تجر حينئذ من الشاطىء وهى تسير مع التيار هكذا : يوجد إطار مصنوع من الأثل(٣) ، وقد حشى

= أن يقتلعوا الأشجار ذات الثمر الحلو للانتفاع بخشبها إلا عند الضرورة الملحة ؛ بل كان اقتلاع الشجر عامة ينبغى أن يصدر به أمر من كبير الوزراء . انظر : (Sethe, Urk. IV, 111) . واقتلاع شجر الجميز بخاصة كان مكروها (ولم يزل الأمر كذلك حتى يومنا هذا) إلا أن تكون الحاجة إلى خشبه ملحة ، كما وقع أيام الملكة «حتشبسوت» ، حين صدرت الأوامر بتوفير خشب الجميز اللازم لبناء السفينة التى حملت المسلتين الشهيرتين فى أيامها من محاجر أسوان إلى معبد الكرنك . وكان طول كل منها ٢٩٫٥٠ متراً ، كما بلغ وزن كل منها ٣٢٣٠٠٠ كجم . مما اقتضى بناء سفينة بلغ طولها نحو ٨٢ متراً ، كما بلغ سمكها ٢٩ متراً . ولم يكن من السهل بناء سفينة كهذه من خشب السنط (Sethe, Urk. IV, 425).

(١) اللوتس الكورنيائى : هو ما يسمونه RHAMNUS LOTUS .
انظر : (Herodot, IV. 177) . ويسمى أيضاً (Zizyphus و lotus) . وهو ما نسميه « السدر » وثمره « النبق » ومنابعه فى إفريقيا . (انظر : Wiedemann, H. Z. B. S. 385) وسمى بالكورنيائى نسبة إلى (برقة).

(٢) هكذا كان يبنى المصريون سفنهم حقا . انظر (Kees. K.G. S. 111 f.)

(٣) TAMARISK : فى هذه الفصيلة من الخشب نوعان ، أحدهما سامق العود واسمه العلمى Tamarix arpiculate وهو ما يسمى بالعربية الأثل ، ويسمى فى اللغات السامية الأخرى eshel فى العبرية و Ashlu فى الآشورية . وسماه المصريون القدماء «أزر» وفى القبطية « OCI » . انظر : (Wb. Bd. I, S. 130) . والثانى قصير العود ضامر الفروع واسمه العلمى Tamarix gallica ويسمى «الطرفاء».

بقصب مجدول وحجر مثقوب زنته تالنتان تقريبا . يُلقى بالإطار وقد شُدَّ بحبل ليطفو أمام السفينة، ثم بالحجر خلفها وقد رُبطَ بحبل آخر. وباندفاع التيار يتحرك الإطار فى سرعة ويسحب « الباريس »(١) (وهذا هو اسم السفينة) بينما ينسحب الحجر وراءها وهو فى قاع النهر فيَهْدِى السفينة فى إبحارها . وعندهم من هذه السفن أعداد كبيرة (٢) . ويحمل بعضها آلافا عديدة من التالنتات .

٩٧ — وعندما يفيض النهر على البلاد ، تظهر المدن وحدها فوق الماء ؛ وتكاد تشبه الجزائر فى « بحر إيجه » . على حين تصبح سائر أجزاء مصر بحراً . فلا يبدو منها غير المدن . وأثناء ذلك لا ينتقل المصريون بمراكبهم فى مجرى النهر ؛ بل فى وسط السهل(٣) . فالصاعد فى النهر مثلا من مدينة « نوقراطيس »(٤) إلى « ممفيس » يسير بحذاء الأهرام(٥) . وليس ذلك

(١) BARIS : تصحيف للكلمة المصرية Br ـ انظر : (Wb. I. S. 30) ـ التى عرفت منذ أيام الدولة الحديثة كصفة لنوع من سفن النقل والسفر فى آن معاً . وقد استخدم الإغريق هذا الوصف للسفن غير الإغريقية . انظر : (Plutarch. Isis & Osiris 18. p. 358 a) .

(٢) إن ما خلَّف آل فرعون من تراث ، يوضِّح لنا ذلك فى جلاء ، فما أكثر ما رسموا على آثارهم من ألوان السفن والزوارق التى استخدموها فى السفر ، وحمل السلع كما نرى فى أكثر ما صوَّروا من مناظر رحلاتهم وما جرى فيها من حوادث.

(٣) ذلك صحيح ، وهكذا كانت تبدو مصر أيام الفيضان . ولعل أروع وصف لتلك الصورة ما جاء فى رسالة « عمرو بن العاص » إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

(٤) NAUKRATIS : انظر: (الفصول ١٣٥ ، ١٧٨، ١٧٩). مدينة موقعها « كوم جعيف » الحالية قرب « نقراش » وعلى الشاطىء الأيسر للفرع الكانوبى ثم على بعد ٣٥ ميلا إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية . وقد كان إنشاؤها بين عامى ٦١٥ ، ٦١٠ ق . م .
انظر : (Kees, Naukratis, in RE. XVI 2, Sp. 1959—1966) .

(٥) يقصد أهرام الجيزة المعروفة .

بالطريق المعتاد التى تمر برأس الدلتـا وبمدينة « كركاسوروس »(١) . وإذا أبحرت من البحر وفرع « كانوپ » إلى مدينة « نوقراطيس » عابراً السهل فإنك تبلغها ماراً بمدينة « أنثيللا » والمدينة التى تسمى بمدينة « أرخاندروس »(٢) .

٩٨ — أولاها — « أنثيللا » فهى مدينة عظيمة ، اشتهرت بأنها توهب لزوجة الجالس على عرش مصر لشراء أحذيتها . ولقد جرى ذلك التقليد منذ عصر احتلال الفرس مصر(٣) .

والمدينة الثانية — ويلوح لى أنها أخذت اسمها من ختن « دناؤس » وهو « ارخاندروس » بن « فيثيوس » بن « أخيوس »(٤) — إذ أنها تسمى مدينة « أرخاندروس » . ويحتمل أن كان هناك شخص آخر يدعى « أرخاندروس » . ومهما يكن من أمر فالاسم ليس مصريا .

٩٩ — إن ما قلته حتى الآن هو نتيجة لمشاهداتى الخاصة وآرائى وأبحاثى الشخصيَّة . ولـكنِّى سأبدأ من الآن فصاعداً بقصِّ الروايات المصرية طبقا لمـا

---

(١) CERCASORUS : انظر (الفصل الخامس عشر هامش رقم ٦ من هذا الـكتاب) .

(٢) ANTHYLLA و ARCHANDER : مدينتان بالدلتا . تقع الأولى بين كانوپ (كوم مععدى) ونوقراطيس (كوم جعيف) وتقع الثانية بالقرب منها . انظر : (I Ball, Egypt in the classical geographers p. 17) .

(٣) ليس المقصود بالجالس على عرش مصر فرعونها ، وإنمـا المقصود هو الحاكم الفارسى الذى يمثِّل الغاصب المحتل . والظاهر أن نفقات حيـاة الترف التى عاشها زوجات أولئك الحـكام — وبخاصة نفقات زينتهن — كانت باهظة ؛ بحيث كانت تُوَزَّع على مدائن معينة من مدائن الوادى ؛ تلتزم كل منها بنفقات لون مُعيَّن من ألوان الزينة التى كان يهواها أولئك النِّسوة . وليس عجيباً أن يقع مثل ذلك العبث المنكر فى بلد محتل لا سلطان لأهله عليه .

(٤) كان « أرخاندروس » ابن « أخيوس » ولم يكن من أحفاده .

سمعته ، مضافا إليها — كذلك — بعض ما شاهدته بنفسى[1] . لقد حدثنى الكهنة[2] بأن « مينا » (منا) كان أول من حكم مصر[3] ، وبأنه أوجد جسرا لحماية « ممفيس » . إذ كان النهر كله يجرى بحذاء الهضبة الرملية من الجانب الليبى . على حين أن « مينا » — مبتدئا من أعلى — قد أنشأ بوساطة السدود الثنية التى تقع جنوبى « ممفيس » بنحو مائة « ستاد » ، وبذلك وجفف المجرى القديم ، وحول مجرى النهر لينساب فيما بين الهضبتين. ولايزال الفرس حتى الآن يتعهدون ثنية النيل هذه لكى ينساب النهر فى مجرى محدود ؛ يتعهدونها بالعناية البالغة ، ويدعمونها كل عام ؛ لأنه إذا اجتاح النهر الجسر فى هذه المنطقة لأمست « ممفيس » كلها فى خطر من الغرق ، ولما تكونت لمينا — أول ملك للبلاد — هذه البقعة التى جفت من الأرض بعد عزلها عن الماء ، أسس فيها المدينة التى تسمى الآن « ممفيس » ، (لأن ممفيس تقع فى الجزء الضيق من مصر)[4] وحفر خارج المدينة بحيرة تخرج من النهر وتتجه نحو الشمال والغرب

---

(١) انظر فصل ١٢٣ و ١٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أنه يقصد كهنة ممفيس .

(٣) انظر : (الحديث عن مينا « منــا » فى الفصل رقم (٤) هامش رقم (٥) من هذا الكتاب) .

(٤) مدينة ممفيس والظروف التى بنيت فيها : ليس لدينا ما ينفى تلك الرواية ، ولا ماينهض دليلا لبطلانها ؛ بل إن فى تاريخ آل فرعون الطويل ما يشير إلى قيام الصلة القوية بين « منا » و بين « ممفيس » ؛ فمعبودها « بتاح » قد قامت عبادته منذ نشأتها. وفى أخبار الأسرة التاسعة عشرة من الوثائق التاريخية ما يُسَمَّى « بتاح » هذا « بتاح منا » . انظر : (Badawi, Memphis, S. 13) . ثم قصة « منا » و بناء ممفيس فى الجزء الأول من كتابنا « فى موكب الشمس » جـ ١ الطبعة الثانية ص ١١٥ وما بعدها .

(والنيل نفسه يحدها من الشرق) ، ثم شيد فى المدينة معبد « هيفايستوس » ، وهو هائل ، ويستحق بكل جدارة أن نتحدث عنه (١) .

١٠٠ — وتلا على الكهنة — من ثبت بردى — (٢) أسماء ثلثمائة وثلاثين ملكا آخرين بعد « مينا » . وكان من ضمن هذه الأجيال ثمانية عشر ملكا من الأثيوبيين (٣) وامرأة واحدة من أهل

---

(١) معبد هيفايستوس : هو معبد « پتاح » الذى بُنِىَ فى الجنوب من ظاهر مدينة « ممفيس » أيام بناء المدينة . وتعاقب الملوك على تجديده والإضافة فى عمارته . انظر : (Badawi, Memphis, S. 12 ff.) .

(٢) إذا صح ما قاله « هردوت » من أن الكهنة قد تلوا عليه أسماء الملوك من قرطاس البردى ؛ فقد كان ذلك أمراً منطقياً ؛ لأن الكهان كانوا يملكون الكثير من تلك الوثائق الرسمية التى سجّلوا فيها أسماء الملوك ، وكانوا يحفظونها فى خزائن المعابد ؛ ومنها تلك الوثيقة التى آلت إلى متحف « تورين » ، وعُرِفَتْ من أجل ذلك باسم « قرطاس تورين » . وعلى تلك الوثيقة ونظائرها اعتمد المؤرخون حين كتبوا تاريخ الفراعنة وحساب أيامهم . وفى مقدمتهم مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » ومن جاء بعده من القدماء والمحدثين . وبذل المحدثون غاية الجهد فى تحقيق ما ورد فى ذلك القرطاس وبقية الأثبات الحجرية الموجودة فى المعابد ؛ وذلك فى ضوء ما وُجِدَ من آثار الحكام فيما تركوا من مختلف التراث . وعلى الرغم مما بذلوا من جهود جبّارة ؛ فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق كل ما أرادوا بالتفصيل والتحديد والضّبط ، وإن كانوا قد بلغوا أكثره جملةً وتقريباً .

(٣) لم يبلغ الملوك الأثيوبيُّون — ويقصد بهم النوبيين — هذا العدد الذى يزعمه هردوت ؛ وإنما كانوا ستةً هم على التعاقب : « كشتا » و « بعنخى » و « شباكو » و « شبتاكو » و « طهرقة » ثم « تنتامون » . وكان زمان حكمهم بين عامى ٧٥٠ و ٦٥٦ ق . م . انظر : (JEA. XXXV. P. 141 ff.) .

البلاد [1] . أما البقية فكانت من الرجال المصريين . والمرأة التى حكمت كانت تدعى « نيتوكريس » [2] . كالملكة

---

(١) كلا : لم تكن « نيتوكريس » المرأة الوحيدة التى حكمت البلاد ، فهناك الملكة « سبك ـ نفرو ـ رع » آخر حكام الأسرة الثانية عشرة ؛ وقد جلست على العرش نحو ثلاثة أعوام ، ثم «حتشبسوت» من حكام الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استقلت بالحكم نحو ثلاثة عشر عاماً .

انظر : (Parker, Journal of Near East. Studies XVI, 42) .

(٢) ظاهر فى تاريخ الدولة القديمة من حكم آل فرعون أن سلطان الأسرة السادسة على الرغم من ذكر أربعة ملوك بعد زمان « ببي الثانى » كان قد انتهى فعلا بموت هذا الأخير . ومهما يكن من أمر ؛ فإن المتواتر من أقوال المؤرخين القدامى ، وعلى رأسهم مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » يرسم لنا من ذلك العهد ملحمة لا يقبلها غير منطق الأساطير ؛ حين يعد فيما أسماها الأسرة السابعة ، سبعين ملكاً ، ويجعل مدى حكمهم جميعاً سبعين يوما . لكأنما هى ساحة من ساحات الصراع بين أبطال خياليين ؛ يبرز بعضهم لبعض بحيث يكون الحكم يومئذ لمن ظفر . . وهلم جراً . و « منتون » يجعل نهاية حكم الأسرة السادسة على يد امرأة يقال لها « نيتوكريس » ، ويزعم أنها بذلت من السعى كل ما كان فى طاقتها لتحتفظ بعرش آبائها . ويضيف إلى ذلك أنها كانت أحب وأنبل نساء عصرها جميعاً . وجاء فى « قرطاس تورين » NITOKERTI . كما جعلها ثانى أو ثالث من حكم بعد « ببي الثانى » .

ومهما يكن من شىء ، فإن وجودها قد وقع فى تلك الحقبة على كل حال . وإن كان يستبعد أن تكون هى « NEITH » التى كشف عن ضريحها الهرمى العالم السويسرى Jéquier . انظر : (C. Jéquier, Les Pyramides des Reines Neit et Apout; Caire 1933) . ذلك لأن « نيتوكريس » — إن صح ما جاء فى الخبر على نحو ما قدمنا — ربما كانت من بنات « ببي الأول » وأنها أضحت فى حريم أخيها « ببي الثانى » أول عهده بالحكم . =

البابلية (١) . ثم قالوا لى إنها احتالت ، وأهلكت الكثيرين من المصريين انتقاما لأخيها الذى قتله المصريون أثناء حكمه عليهم ، وولّوها المملكة بعد

= فأما ما جاء فى رواية « هردوت » من قصة احتيالها فى التدبير للانتقام ممن قتلوا أخاها ، فليس من اختراع « هردوت » وإنما هو خلط مبعثه — فى الغالب — ما كان من سيرة القصر أيام تلك الأسرة ، وما كان يدبّر فى البلاط من فتن ومؤامرات ؛ منها ما ذكره « منتون » من أن رأس الأسرة السادسة ويسميه « تتى » قد مات مقتولا . (انظر فى موكب الشمس جـ ١ الطبعة الثانية ص ١٧٥ و ١٧٦) . ومنها ما أثبته التاريخ فى تلك الإشارة التى وردت فى ترجمة « أونى » إلى مؤامرة الحريم فى بلاط « ببى الأول » . (انظر المرجع السابق ص ٩٩ وما بعدها) . يضاف إلى كل ذلك طول الزمن ؛ يتناقل الناس فيه تلك الروايات جيلاً بعد جيل . وإذا كانت رواية الخبر تتغير أحيانا بين عشية وضحاها ، ويتغير أسلوبها بين الرواة من البيئة الواحدة ومن أهل الزمن الواحد والثقافة الواحدة أحيانا ، فأخلق بقصة « نيتوكريس » — التى ظلت تتناوبها الرواية ، وتتناقلها الأجيال عبر الزمن الطويل الذى بلغ مداه أكثر من ألفى عام ، لتبلغ سمع « هردوت » فى القرن « الخامس قبل ميلاد المسيح » — . أن تحمل فى ثناياها ذلك اللون من ألوان الخيال . والشىء الواضح أن فى بناء تلك القصة أثراً من الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » التى لم تخل منه أكثر الأساطير المصرية .

(١) ورد ذكر هذه الملكة البابلية ضمن أسماء ملوك بابل . انظر : (هردوت الكتاب الأول فصل ١٨٥ ، ١٨٧) بوصفها أماً لآخر ملوك بابل . وكان يدعى LABYNETUS ، وأنها أنجبته فى الغالب لزوجها «نبوخاذنصّر». وقيل إنها ظفرت بالحكم بعد وفاة هذا الأخير عام ٦٠٤ ق . م . هذا ، وينبغى أن نقرر أن اسم « نيتوكريس» الذى ذُكِرَتْ به ملكة بابل لم يكن اسم علم ، وإنما كان فى الغالب صفة ؛ إذ قد جاء وصفا لغير واحدة من نساء بابل مثله فى ذلك كمثل SEMIRAMIS الذى وصفت به ملكة ومعبودة فى آن معا .

قتله . فقد ابتنت قاعة واسعة تحت الأرض ، وقالت إنها ستفتتحها . ولكنها في قرارة نفسها كانت تدبّر أمراً غير ذلك ؛ دعت إلى الوليمة عدداً كبيراً من المصريين وبخاصة أولئك الذين علمت أنهم كانوا من المتآمرين على قتل أخيها . وأطلقت عليهم — أثناء التهامهم الطعام — ماء النهر من قناة واسعة خفيّة . هذا كل ما رووه لى عن هذه الملكة فيما عدا أنها بعد أن قامت بفعلتها هذه ألقت بنفسها فى غرفة مليئة بالرماد حتى لا تعاقب .

١٠١ — وقالوا لى إنه لم يقم أحد من بين الملوك الآخرين بأى عمل مجيد ، ولم يكن منهم واحد ذائع الصيت غير آخرهم « موريس » ؛ فقد خلد ذكراه بتشييد بهو معبد « هيفايستوس »[١] الذى يتجه نحو الشمال ، وحفر بحيرة سأبيّن فيما بعد[٢] كم يبلغ طول محيطها بالأستاد. وبنى فيها أهرامات[٣]

---

(١) مر ذكر هذا المعبد فى الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب ، والمقصود به « معبد بتاح » . وبعد ، فأما كهنة منف قد ذكروا لهردوت — كما يزعم — أن الملك « موريس » « أمنمحات الثالث » قد كان آخر ملوك مصر الذين ذاع صيتهم ، فأكبر الظن أنهم قصدوا بذلك أنه كان آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة . وأما أن الملك المذكور قد شيّد بهو معبد « هفايستوس » ، فصحيح ؛ إذ المعروف أنه جدّد عمارة ذلك المعبد ، وقد وُجِدَ له فى أنقاضه ما يدل على ذلك . انظر : (Petrie, Tarkhan vol. I. pl. 7) .

(٢) انظر ما قلناه عن « موريس » (MOERIS) هذا فى (الفصل رقم ١٣ هامش رقم ١) . ثم الحديث عن البحيرة المعروفة بهذا الاسم فى (الفصل رقم ١٤٩) .

(٣) المعقول أنه يقصد هرم الملك الذى أقامه عند مدخل الفيوم ، وعلى مسيرة أربعة أميال منها . انظر : («فى موكب الشمس» جـ ٢ ص ١٤٣) . لولا أن الأمر أمر أهرام لا هرم واحد ، فإذا كان ذلك كذلك ، فليس أمامنا إلا نتصور الخلط وسوء الفهم . (انظر : الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٤٩ هامش رقم ٢) .

سأذكر أبعاده فى نفس الوقت مع أبعاد البحيرة . هذه هى الأعمال التى خلفها هذا الملك ولكن لم يعمل واحد من الآخرين شيئاً ما .

١٠٢ — وعلى ذلك ، سوف لا أتحدث عنهم ، وسآتى على ذكر الملك الذى خلفهم وكان يدعى « سيزوستريس »(١) . روى الكهنة أنه أقلع أولاً من الخليج العربى بسفن حربية ، وأخضع السكان على سواحل بحر أروترى(٢) ، ثم واصل الإبحار حتى بلغ المنطقة التى لم يعد عندها البحر صالحاً للملاحة لضحالته(٣) . ولما عاد بعدئذ إلى مصر أعد — وفقا لرواية الكهنة — جيشا جرّارا ، واخترق القارة ، وأخضع الشعوب التى كانت فى طريقه . وكان إذا صادف منهم شعوبا باسلة ، تقاتل بعنف من أجل حريتها أقام ببلادهم أعمدةً

---

(١) « سيزوستريس » : هو « سنوسرة الثالث » .
انظر : (Kees, RE. sp. 1861 Art. Sesostris) .
ثم (فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ١٣٧ وما بعدها) .

(٢) لا نعرف أن « سنوسرة » فى حروبه قد ركب البحر . ولكنا نعرف أنه ركب النيل ليخضع العصاة فى بلاد النوبة ، وليردَّ عنها إغارات الزنوج . فهو قد حمل على تلك البقاع حملات أربع ؛ كانت أولاها فى العام التاسع وكانت آخراها فى العام التاسع عشر من أعوام حكمه .
انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٢٣٧ وما بعدها) .

(٣) لقد اختلط الأمر على « هردوت » أو على رواته ؛ فهو قد سمع ذلك رواية من أفواه الكهان كما يقول . على أن الرواية لا تمثل الحقيقة دائماً . وإنما الحقيقة أن فرعون عندما فكر فى تحصين أقاليم النوبة ؛ بدأ بجزيرة الفيلة . ثم بدا له من بعد ذلك أن الملاحة فى النهر صعبة غير ميسورة ؛ فعمد إلى حفر قناة فى الصخر أسماها باسمه ، وبلغ طولها خمسين ومئة ذراع ، وبلغ عرضها عشرين ، كما بلغ عمقها خمس عشرة ذراعا . انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٧) .

عليها نقوش تنطق باسمه ووطنه ، وتبين كيف أنه أخضعهم بالقوة ، وعند هؤلاء الذين لم تقاوم مدنهم واستولى عليها فى سهولة ، نقش على الأعمدة نفس ما نقشه عند الأمم الباسلة ، وأضاف إلى ذلك نقشا يصوِّر عورة المرأة ؛ رغبة منه فى أن يبرهن بذلك على جبنهم(١) .

١٠٣ — وبعمله هذا ، عبر القارة واجتاز آسية إلى أوروبا ، وأخضع « السكيثيين » و « التراقيين »(٢) . ويخيل إلىَّ أن هذين الإقليمين هما أقصى

---

(١) إن فى الرواية خلطاً وسوءَ فهم ومبالغة . ومصدر هذا كله ماحفظته الأجيال من سيرة ذلك الملك العظيم ؛ فمن مأثور قوله يصف نفسه « إنه ملك إذا قال فعل ، ينفذ إرادته بقوة يمينه ، وإنه مولع بالفتح ، شديد الحرص على ما يفتح . لا تكاد رغبته تضطرب بين جوانحه حتى يعمل على تحقيقها ، لا يلين لعدوّ ، ولا يسكت على أذى ، ولا يقعد عن مهاجمة من هاجمه ، ولا يحجم عن مهادنة من هادنه . ويعرف كيف يرد القول بنظيره » . ثم يصف أعداءه فيقول : « إنهم يصدعون بقول الشجاع ؛ فإذا ما هوجموا خضعوا ، وإذا لان لهم امرؤ هجموا . وإنهم لقوم ضعفاء ؛ لا يقام لهم وزن ، ثم هم مساكين ؛ ضعاف قلوبهم » . ذلك بعض حديث فرعون تركه على لوح نصبه عند حدود أملاكه فى جنوب الوادى ، ثم ختمه بوصية إلى خلفائه فقال : « إن امرأ من ولدى يستطيع أن يحمى ما أقمت من حدود ، لهو ولدى من صلبى ، وإنه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده . فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودى ، فذلك ليس من ولدى ؛ لأنى لم ألده . وهذا تمثالى أقمته لكم على الحدود علَّه أن يُنهضكم فذودوا عنه » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٨) .

(٢) السكيثيون و التراقيون : من القبائل التى تفرقت قديماً فى جنوب روسية انظر : (الحديث عن السكيثيين فى الكتاب الرابع لهردوت من الفصل الأول حتى الفصل الرابع والأربعين بعد المئة . ثم ما جاء من ذكرهم أيام ابسماتيك =

ما وصل إليه الجيش المصرى ؛ إذ أن الأعمدة ما تزال قائمة بها . ولكن لا يرى لها أثر أبعد من ذلك . ومن هناك دار على عقبه ورجع . وليس بإمكانى أن أتكلم بدقة عما تم بعدئذ عندما بلغ نهر « فاسيس »[1] . أفصَلَ الملك « سيزوستريس » نفسه جزءاً من جيشه وتركه هناك لاستعمار الدِّيار ، أم أن طائفة من الجنود — وقد أنهكها السير — بقيت بمحض إرادتها على ضفاف « نهر فاسيس » .

١٠٤ — إذ أن من الواضح أن « الكولخيين » مصريون[2] . ولقد

= فى الكتاب الذى أخرجه MEULENAERE عن هردوت والأسرة السادسة والعشرين ص ٣٠ وما بعدها) .

فأما أن « سنوسرة الثالث » (سيزوستريس) قد عبر القارة واجتاز آسية إلى أوربا ليخضع هاتين القبيلتين ، فذلك قول لا يستند إلى أساس . وما نقدر له من سبب غير شخصية البطل الطاغية الساحرة التى نَسبَت إليه كل خارق من العمل . وبطولة ذلك الرجل لم تبهر الكتَّاب والمؤرخين فحسب ؛ بل بهرت خلفاءه من بعده ، فهذا أحد خلفائه الأبعدين « تحتمس الثالث » يامر بتقديسه فى معابد النوبة ، وهذا « طهرقه » — الذى عاش بعد أيامه بمئتين وألف عام — يعيد تقديسه فى معابد تلك الديار . وهكذا خدعت سيرة الرجل بعضَ المؤرخين وكتَّابَ السير فنسبوا إليه ما ليس له . والظاهر أنهم خلطوا بين سيرته وسيرة « تحتمس الثالث » ، كما خلطوا بين سيرة هذا الأخير وسيرة « رمسيس الثانى » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٤٦) .

(١) نهر « فاسيس » ، أشهر أنهار « كولخس » الواقعة على شاطىء البحر الأسود . وتُعزى شهرته إلى أنه كان أحد الأنهار التى اخترقتها السفينة « آرجو » .

(٢) لا نستطيع أن نكذِّب « هردوت » فيما روى من أنه زار بلاد « الكولخيِّين » وإن كنا لا نستطيع التسليم برأيه فى أن « الكولخيِّين » كانوا من مصر ، وأنهم من بقايا عساكر « سيزوستريس » الذين وصلوا إلى تلك =

ذهبت شخصيا إلى هذا الرأى الذى أعلنه قبل أن أسمع به من الغير. ولما خطر هذا الموضوع ببالى، استجوبت كلاً الشعبين وأدركت أن تذكّر «الكولخيين» المصريين أقوى من تذكّر هؤلاء إيّاهم. هذا، مع أن طائفة من المصريّين صرحت لى بأنها تعتبر «الكولخيين» بعضاً من جيش «سيزوستريس». ولقد خمنت ذلك بنفسى؛ لأن «الكولخيين» سمر البشرة، جعد الشعر. (ولكن ذلك لا يؤدى فى الحقيقة إلى دليل ما لأن غيرهم من الناس لهم هذه الأوصاف). وإنما يؤيّدنى علاوة على ذلك أنهم وحدهم مع الأثيوبين والمصريين (وهذا دليل أقوى) يمارسون دون سائر البشر عادة الختان منذ البداية[1]. إذ أن الفينيقيين والسوريين بفلسطين[2] أنفسهم يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين. أما السوريون[3] الذين يقطنون على ضفاف نهرى «ثرمودون» و «بارثينيوس»[4]

= البقاع؛ ذلك لأنه يسند هذا الرأى ويدعمه بممارسة الكولخيين عملية الختان كالمصريين والأثيوبيين. وليس ذلك — فى رأينا — بالدليل الكافى على أنهم كانوا مصريّين. لأن المصريين وإن كانوا من أقدم الشعوب التى عرفت الختان؛ إلا أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الشرق؛ وإنما عرفته شعوب أخرى فى آسية كالعبرانيّين مثلا.

(١) انظر الفصل رقم (٣٧) من هذا الكتاب.

(٢) السوريون بفلسطين هم اليهود بطبيعة الحال.

(٣) يقصد بهم سكان Cappadocia. انظر: (Breasted, Gesch. Aeg. S. 131). فأما عن أصل السوريّين عامة.

فانظر: («هردوت» الكتاب الأول الفصل رقم ٧٢).

(٤) نهرا «ثرمودون» و «بارثينيوس»: الأول هو نهر TERMID، والثانى يسميه الإغريق PARTHIN ويسميه الترك DOLAP.

و « الماكرونيون »(۱) الذين يجاورونهم ؛ فيقولون إنهم تعلموها حديثا من « الكولخيين » . وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون الختان . ويظهر أنهم يمارسونه كما يمارسه المصريون تماما . وأما فيما يتعلق بالأثيوبيين والمصريين ؛ فلا أستطيع أن أقول أى الشَّعْبَيْن أَخذ هذه العادة عن الآخر . إذ الظاهر أنها عادة قديمة عندهم . أما أن الشعوب قد تعلمتها من اختلاطها بالمصريِّين ؛ فبرهانى على ذلك ساطع ، لأن الذين يختلطون باليونانيِّين من الفينيقيِّين لا يقلِّدون المصريين فيما يختص بأعضاء التناسل ؛ بل يتركون ذرِّيتهم بلا ختان(۲).

١٠٥ — والآن ؟ دعنى أتحدث — مادمنا بصدد « الكولخيين » — عن عادة أخرى يشبهون فيها المصريين . فهم والمصريون فقط يصنعون التيل بنفس الكيفية ، كما أن طريقة الحياة واللغة متشابهة عند الشعبين(۳) . واليونانيون يسمون « التيل الكولخى »(٤) (ساردينيا) (٥) . بينما الذى يرد إليهم من مصر يسمونه مصرياً .

---

(۱) الماكرونيون : ليس بين أيدينا من الوثائق ما يمكننا من تحديد وطن هؤلاء القوم ، وإن كان يظن أنهم لم ينزلوا بعيداً عن Cappadocia .

انظر : (« هردوت » الكتاب الثالث الفصل رقم ٩٤ والكتاب السابع الفصل رقم ٧٨) . و Cappadocia تقع على مسيرة ٢٠ كم من « قيصرية » .

(۲) إذا صحّ أن بعض الفينيقيين كانوا يختتنون ؛ فليس ذلك بالدليل على أنهم قد تعلَّموا الختان من المصريين ؛ بل الأرجح أن يكونوا قد أخذوا ذلك عن اليهود بحكم الجوار وكثرة الاختلاط .

(۳) يبدو أن المؤرخ قد أخطأ التوفيق فى تصوير هذا الأمر ، إذ ليس من السهل عقد مقارنة بين الشعبين بهذه الصورة التى أوردها .

(٤) نسبة إلى بلد فى آسية الصغرى ، وفى الطريق إلى بلاد اليونان . ومنها كان الكتَّان يصل إلى تلك البلاد .

(٥) ورد ذكر هذا النوع من الكتان عند « سترابون » .

انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch S. 413) .

١٠٦ — ومع أن أغلب الأعمدة التى أقامها ملك مصر «سيزوستريس»(١) فى الأقطار اختفت ولم يبق منها شىء بعد ، إلا أننى لحظت بنفسى أن بعضها ما زال موجوداً بفلسطين السورية (٢) وعليها النقوش التى تحدثت عنها . وكذا عورة المرأة . وفى « إيونيا » يوجد أيضاً تمثالان(٣) لهذا الملك منحوتان فى الصخر ، أحدهما فى الطريق المؤدية من « إفسوس » إلى « فوكايا »(٤) ، والآخر فى الطريق المؤدية من « سارديس » إلى « سميرنا »(٥) . وفى كلا الحالتين يُصوِّر التمثال المنحوت رجلا ضخما ارتفاعه أربعة أذرع ونصف ؛ ممسكاً بيمينه حربة ، وبيسراه قوسا(٦) . وباقى عدته على هذا النمط ، بعضها

---

(١) انظر : (الفصل الواحد بعد المئة ، هامش رقم ١) .

(٢) الغالب أن المقصود هنا الساحل الفلسطينى الذى مر به « هردوت » فشواهد الأمور تدل على أنه لم يوغل فيما وراء الشاطىء .

(٣) ذلك خطأ وقع فيه «هردوت» . انظر (Legrand, p. 135, note 2.) ثم (Waddell, Herodotus, p. 216, note 5.) .

(٤) إفسوس ، وفوكايا : مدينتان من مدائن « ليديا » تقع الأولى وهى « سلجوق » — وكانت من الثغور المهمة — على شاطىء ليديا . وكان بها معبد شهير للمعبودة « أرتميس » . انظر : (Van Der Heyden, ATLAS of the Classical World p. 82, 85) . وتقع الثانية على شاطىء ليديا أيضاً . انظر : (المرجع السابق الخرائط رقم ١ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩) .

(٥) ساردیس . انظر : (الفصل رقم ١٠٥ هامش ٢) .

(٦) تلك صورة إن صحّت . قد تكون لآلهة الحرب أو الملوك الذين يصوَّرون فى صورتها .

مصرى ، وبعضها إثيوبى . ويمتد بعرض الصدر من كتف إلى كتف نقش محفور باللغة المصرية المقدسة يقول : « لقد استوليت على هذه الأرض بقوة أكتفى » ، ولكنه لا يوضح هنا من أين جاء ، إذ قد أوضح ذلك فى مكان آخر. ويظن بعض من شاهدوهما أنهما يمثلان « ممنون »(١) . ولكنهم فى ظنهم هذا يبعدون عن الحق كثيراً .

١٠٧ — وعندما وصل « سيزوستريس » المصرى إلى « دافناى البيلوزية »(٢) ، أثناء رجوعه وهو يقود رجالا عديدين من الشعوب التى قد أخضع بلادها ، عندما وصل هناك — وفقا لرواية الكهنة — دعاه أخوه(٣) الذى كان قد عهد إليه « سيزوستريس » بأمر مصر — إلى وليمة هو وأولاده ، ثم أحاط المنزل من الخارج بأكوام من الحطب ، وبعد تكريمه أشعل فيه النار . فلما علم الملك بذلك ، تشاور فى الحال مع امرأته التى كان قد أحضرها معه أيضاً . فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أولاده وكانوا ستة — على كومة الحطب المشتعلة ليكونا بمثابة جسر على النار وبذلك ينجّيان نفسيهما بالعبور عليهما . ففعل « سيزوستريس » هذا — فاحترق اثنان من أبنائه بهذه الطريقة ،

---

(١) ممنون : ابن Eos ملك أثيوبيا وحليف « بريام » . كما جاء عند « هومير » . انظر : (Homer, Ody. IV, 188 IX, 522) .

(٢) « دفناى البيلوزية » : وتسمى أيضاً « كوم دفنة » ؛ موقعها على الفرع البيلوزى وعلى مسيرة ١٥ كم من القنطرة الحالية وفيها وضع « ابسماتيك » الأول حامية من المرتزقين من جنود الإغريق الذين استعان بهم على الخلاص من نير الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ٣٠ من هذا الكتاب) . ثم (الاصحاح ٤٣ من أرميا : ٥ و ٧) .

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٠٨ هامش رقم ١) .

أما الآخرون فقد نجو مع أبيهم(١).

١٠٨ — عند رجوعه إلى مصر بعد أن ثأر من أخيه(٢) استخدم «سيزوستريس» العدد الغفير الذى أحضره معه من البلاد التى أخضعها فيما يلى: هم الذين جرّوا الأحجار التى نقلت فى عهده إلى معبد «هيفايستوس»، وقد كانت ضخمة الحجم. وهم الذين سُخِّروا فى حفر جميع القنوات التى توجد الآن فى مصر. وبذا جعلوا — بغير رضاهم(٣) — من مصر التى كانت كلها

---

(١) فى الحق إن الأثرة والأنانية من أخص خصائص النفس البشرية. وتقول العامة «إن جاء الطوفان حُطّ ابنك تحت رجليك». كما نسمع أن آباءً عزموا على التضحية بأبنائهم فى سبيل عقيدة دينية(انظر: ص ٢٣٧) على أننا لا نظن أن القصة صحيحة بحال من الأحوال.

(٢) لم يكن «رمسيس الثانى» بكر أبناء أبيه، وإنما ودّع البكر هذه الدنيا قبل أن يبلغ منها ما قدّر له أبوه. والعجيب أن الدهر الذى احتفظ لنا برسم ذلك الأمير وألقابه وصفاته، لم يدّخر لنا اسمه. ولقد حامت الشكوك حول مصيره، حتى ظن الناس برمسيس الظنون. ولم يستبعدوا أن يكون قد وقعت بين الأخوين وقائع انتهت بمصرع الأول على يد الثانى. وربما بقى دوىّ ذلك حتى طرق سمع «هردوت»؛ فكان ما كان من حبك تلك القصة التى رواها. والله يعلم الغيب من كل أمر.

انظر: (الحديث عن ذلك فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٨٣٨ و ٨٥١).

(٣) ذلك أمر لا يخالف منطق الظروف؛ فقد كانوا أسرى، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا. وإذا صح أن يُسمَّى العمل فى مرافق الدولة يومئذ «سُخرة»؛ فلم يكن الأسرى وحدهم هم الذين يُسخَّرون، وإنما كان يشاركهم فى ذلك المواطنون أيضاً. وتلك أمور لم تجر فى عهد آل فرعون وحسب؛ بل جرت فى سائر العهود قديمها وحديثها. وليس علينا إلا أن نذكر كيف شُقّت «قناة السويس»، وكيف شُقّت «المحمودية» و«الإسماعيلية» و«الإبراهيمية»، وكيف بُنِيت «القناطر الخيرية». وعلينا أن نذكر كيف كان يُستخدَم عساكر الجيش أيام «فاروق». وعلينا أن نذكر أن ذلك لم يجر فى مصر وحدها؛ بل جرى فى بلاد غير مصر. ويكفى أن نذكر نظام «الخدمة الإجبارية العامة» أيام النازيين فى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية.

من قبل بلادا — تقطعها الخيول والعجلات[1] — بلادا خالية منها . فمنذ ذلك الحين أصبحت مصر — بالرغم من أنها كلها مسطحة — خالية من الخيل والعجلات . وكانت القنوات السبب فى ذلك لكثرتها وامتدادها فى كل الجهات . ولقد شق الملك هذه القنوات فى البلاد لأن المصريين الذين كانوا يقطنون مناطق لا تقع على النهر وتقع فى داخل البلاد ، كانوا — لحرمانهم من مياه النهر كلما انحسر — يتعاطون شرابا صالحاً يستمدونه من الآبار . لذلك شقت القنوات .

١٠٩ — وقال الكهنة إن هذا الملك وزع الأراضى[2] على جميع المصريين ، فأعطى كلَّ فرد بالتساوى نصيبا مربعا . ومن هذا المصدر أوجد

---

(١) وهذا برهان آخر على أن « هردوت » قد فهم أن « سيزوستريس » لم يكن « سنوسرة » الثالث ، وإنما كان « رمسيس الثانى » ؛ ذلك لأن الخيول والعجلات لم تكن قد عرفت فى أيام «سنوسرة الثالث». ونحبُّ بهذه المناسبة أن نشير إلى أن حفر الترع والقنوات لا يمكن أن يكون قد قصد به الاستغناء عن العجلات ، وإنما قصد به فى الغالب توسيع الرقعة الزراعية .

(٢) الواقع أن تصديق رواية هردوت عن التوزيع أمر غير يسير . فقد كان التوزيع معروفا على حكام الأقاليم باعتبارهم ملتزمين . فأما مسح الأراضى الزراعية فكان من أهم الأمور التى تشغل الدولة والشعب فى كل عام . وذلك أمر اقتضته طبيعة النيل وما يفعل فيضانه فى الأرض . وما زلنا نعرف ما نسميه اليوم « أكل البحر » أو «طرح البحر» ، ونعرف أن حدود الأرض الثابتة لا يمكن أن تجرى صحيحة مع تلك الظاهرة ، إذ أن الأمر يتوقف على منسوب الفيضان من كل عام ؛ فعلى قدر المنزرع من الأرض كانت الدولة تقدر دخلها من الضرائب السنوية . انظر : (Strabon, XXII; 787) .

الدخل ، لأنه أمر بتأدية ضريبة سنوية (١) . وإذا أكل النهر جزءاً من نصيب أحد الأفراد (لطغيانه على هذا الجزء) ، توجه إلى الملك وبيَّن له ما حدث ، فكان « سيزوستريس » يرسل أشخاصا لمعاينة الأرض وقياس المقدار الذى نقص منها حتى يدفع من الضريبة المقررة ما يتناسب والمتبقى من الأرض . ويُخيَّل إلىَّ أن هذا كان بدء اكتشاف علم المساحة (٢) الذى انتقل إلى اليونانيين ، لأن هؤلاء تعلموا عن البابليين الساعة الشمسية والمزولة وتقسيم النهار إلى اثنى عشر قسما .

١١٠ — « وسيزوستريس » هو الملك الوحيد الذى حكم اثيوبية (٣) ، وقد خلَّف تخليداً لذكره أمام معبد « هيفايستوس » (٤) تماثيل حجرية : اثنان يُمثِّلانه هو وزوجته ، طول كل منهما ثلاثون ذراعا . والأخرى تمثل

---

(١) كان المعفون من الضرائب بين طبقات الشعب هم الكهان والجند .
انظر : (الفصل رقم ٨٧ و ١٦٨ من هذا الكتاب) .

(٢) ظاهر فيما قدمنا من الحديث عن اضطرار المصريين إلى مسح الأراضى الزراعية فى كل عام ليتبينوا مقدار مساحتها ، ولترتب الحكومة بناء على ذلك ما يخصها من ضرائب . (انظر : Kees, K. G. S. 35) ، أنَّ ذلك قد جعل مصر فى نظر هردوت وطنَ الهندسة عامة والهندسة المساحية بخاصة .
انظر : (Kees, K. G. S. 293) .

(٣) إن فى كلام « هردوت » نصف الحقيقة ، فسيزوستريس كان أول من أقر الأمور فى بلاد النوبة (إثيوبية) بحيث أصبحتْ جميعاً فى قبضة يده وتحت رايته ، إلا أن « سيزوستريس » هذا لم يكن « رمسيس الثانى » كما خال « هردوت » ولكنه كان « سنوسرة الثالث » . ثانى أبطال الأسرة الثانية عشرة ، وأقواهم عزيمة وأشدّهم بأساً .
انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (الفصل رقم ٩٩ هامش رقم ٥) .

أبنـاءه الأربعة وطول كل منها عشرون ذراعا[١] . وبعد ذلك بزمن طويل لم يسمح كاهن « هيفايستوس » لدارا الفارسى أن يقيم تمثاله أمام هذه التماثيل قائلا : إن الملك الفارسى لم يقم بأعمال مثل التى قام بهـا « سيزوستريس » المصرى ؛ لأن هذا قد أخضع من الشعوب مالا يقل عما أخضعه « دارا » . وبصورة خاصة « السكيثيِّين » الذين لم يستطع « دارا » قهرهم ، فلم يكن إذن من العدل أن يقام أمام الآثار التى شيَّدها « سيزوستريس » تمثـال « دارا » ما لم يبزه هذا بأعماله . ويقولون إن « دارا » قد وافق على ذلك الرأى[٢] .

١١١ — وبعد موت « سيزوستريس » خلفه على العرش فيما يقال ابنه

---

(١) كَدأْبِ الحكام البنَّائين من فراعنة الوادى وبخاصة « رمسيس الثانى » الذى بزَّ أسلافه وخلفاءه ؛ بل بزَّ ملوك الأرض جميعاً فى هذا الميدان ، لم يسبقه فيه سابق ولم يلحقه لاحق ، ولم تخل عاصمة من عواصم الأرض فى شمالها وجنوبها من آثاره الضخمة ، ونحن نعرف أنه سكَنَ « ممفيس » ونزل منها قصراً كان — أكبر الظن — فى غربها أو فى الشمال الغربىِّ منها . انظر : (Badawi, Memphis S. 110) ، وبنى فيها وعمَّـر ، وترك فى ضواحيها آثاراً لا تدع مجالا للشك فى رواية هردوت ؛ فلقد أبقت الأيام على بعض تماثيله بين خرائبها ، وحسبنا منها ذلك التمثال الضخم الذى ما زال فى قرية « ميت رهينة » ، ثم ذلك الذى نقلته حكومة الثورة وأقامته فى ميدان محطة القاهرة .

(٢) أما عن السكيثيين الذين لم يستطع داراً قهرهم . فانظر : (الفصل ١٧٣ هامش رقم ١ من هذا الكتاب) . وأما أن كاهن « هيفايستوس » (= پتاح) قد رفض أن يقام تمثال « دارا » أمام تماثيل « سيزوستريس » (= رمسيس الثانى) لأنه لم يستطع ما استطاعه هذا الأخير ، فأمر يحتاج إلى نظر ؛ ذلك لأن « دارا » كان فاتحاً ، وما أظن أن رأى الكاهن — إن صحت الرواية — قد كان يرضيه إلا أن يكون « دارا » قد كان حاكماً من طراز إنسانى ممتاز . وما أظن أن الغزاة والفاتحين من المغتصبين والمستعمرين قد كانوا كذلك .

« فيروس »(١) الذى لم يقم بحملة حربية واحدة . وحدث أن أصابه العمى من جرَّاء هذه الحادثة التالية : فاض النهر وقتئذ فيضانا شديداً جداً ؛ بلغ ارتفاعه ثمان عشرة ذراعا ، وغمر الزروع ، وذلك عندما ثارت الريح ، واضطرب النهر . وهم يروون أن الملك — وقد تملكه سخطٌ مُضِلٌ — أخذ رمحا

---

(١) إذا عرفنا أن « سيزوستريس » عند هردوت كان « رمسيس الثانى » ، فإن ابنه الذى بلغ العرش من بعده قد كان « منفتاح » . وأن هردوت لم يُسمِّه باسمه هذا ، وإنما أسماه « فرعون » . ولفظ « فرعون » كما نعلم ليس باسم علم ؛ وإنما كان لقباً يُنْعَتُ به الجالس على العرش ، ومعناه « البيت العظيم » . وقد ظهر وذاع فى العصور المتأخِّرة . ومَثَلُه مَثَلُ لقب « الباب العالى » الذى كان يُنْعَتُ به سلاطين « آل عثمان » . على أن اللَّقبَ — فيما يظهر — قد أصبح بعد أيام المصريِّين القدماء علما عاماً على كل من حكم مصر .

وبنو إسرائيل يُسمُّون من زعموا أنه عذَّبهم ، ثم أتبعهم بجنوده ليشردهم فى شرق الأرض « فرعون » .

والعجيب أن يُذكر اسم إسرائيل فى التوراة ثمانين وستمائة مرة ، على حين أنه لم يرد فى تراث المصريين الطويل غير مرةٍ واحدة ؛ وذلك فى أيام « منفتاح » حوالى عام ١٢٣٠ ق . م .

وليس ببعيد أن يكون فيما سمعه « هردوت » عن ذلك الملك ، وبخاصة قصة العمى ، والاستشفاء منه ببول النساء ، أثرٌ من الدِّعاية السيِّئةِ التى نشرها بنو إسرائيل حول سيرة « منفتاح » ؛ نقول لا نستبعد ذلك وبخاصة إذا ذكرنا أن « هردوت » قد جاء بعد الفتح الفارسىِّ الأول بنحو قرن من الزمان ، وأن اليهود الذين كانوا فى مصر قد انتهزوا فرصة دخول الفرس فباتوا يطالبون بحقوق زعموا أنها كانت لهم ثم هُضِمَت ، وباتوا يستصرخون الحاكم الفارسىَّ ويستعدونه على المصريين . كما أننا لا نستبعد آخر الأمر أن « سفر الخروج » على الأقل ، قد كتب فى ذلك العهد الفارسىِّ . انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٨٨٨) .

وألقى به وسط دوامات النهر . وبعد ذلك أصابه فى الحال أذًى فى عينيه ففقد بصره ، وبقى أعمى عشر سنوات . وفى السنة الحادية عشرة ، جاءه وحى من مدينة « بوطو »[١] ينبئه أن مدة العقوبة قد انقضت ، وأنه قد يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع إلاَّ بزوجها فقط . فبدأ أولاً بتجربة بول امرأته ، وبعد ذلك لم يبصر ، فجرب بعد ذلك على التوالى بول كثيرات من النساء . ولما عاد إليه بصره ، جمع النساء اللاتى جربهنَّ ، حاشا تلك التى أبصر بعد الاغتسال ببولها ؛ جمعهنَّ فى مدينة تسمى الآن (أروترى بولوس)[٢] ، وبعد جمعهنَّ أحرقهنَّ جميعاً والمدينة معهن . أما المرأة التى أبصر بعد الاغتسال ببولها فاتخذها زوجا له . ولنجاته من الأذى الذى لحق بعينيه أقام نصبا فى كل المعابد الشهيرة ، أحقها بالذكر على وجه الخصوص الأعمال التى أقامها فى معبد الشمس ، وهى جديرة بالمشاهدة : مسلتان حجريتان ، صنعت كل منها من حجر واحد ، وطول الواحدة مئة ذراع وعرضها ثمانية أذرع[٣].

---

(١) انظر الفصل رقم ٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) « أروترى بولُس » (ERYTHRABOLUS) يعنى « الأرض الحمراء » ويقصد بذلك غالباً منطقة « الجبل الأحمر » . وكانت لدى المصريين من البقاع المقدسة ، وكانت لهم فيها معبودة خالوها فى هيئة الطير وأسموها « الحمراء » .

(٣) لم يقم « منفتاح » مسلاَّتٍ فى « هليوبوليس » . وأكبر الظن أن تكون القصَّةُ كلها أثراً من تلفيق المؤرِّخ اليهودى « يوسف » حين استغلَّ قصة الهكسوس وهجومهم على مصر ، فانتحلها لصالح قومه من بنى إسرائيل . وهنالك خَلَطَ — عن قصد أو جهل — بين « منفتاح » و « تحتمس الثالث » فتجنَّبَ ذكرَ اسم الأول ؛ تماما كما هى الحال عند من كتبوا سفر الخروج من قومه حين سَمَّوا من شرَّدَ اليهود باسم « فرعون » . انظر : (سفر =

١١٢ — تولى الحكم من بعده — حسب قولهم — رجل من « ممفيس » ، يسمى باللغة اليونانية « پروتيوس »(١). له فى « ممفيس » حرم جميل جداً ، حسن الزينة ، يقع إلى الجنوب من معبد هيفايستوس(٢). يقيم حول هذا الحرم

= الخروج). ثم انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٢٩٤).

فالمسلتان كانتا لتحتمس الثالث ، وقد نُقلتا — فى زمان « أغسطس » وعلى يد الحاكم الرومانى « برباروس » عام ٢٥ ق . م — إلى الإسكندرية لتقاما فيها . وأسماها العرب حين رأوها « مَسلَّتى كليوبطره » ، ثم أُهديتْ إحداها فى زمان « محمد على » إلى حكومة بريطانيا ؛ فأقيمت على شاطىء نهر « التمس » بمدينة « لندن » عام ١٨٧٧ ، وأهديتْ الأخرى إلى حكومة الولايات المتحدة فى زمان حفيده « إسماعيل » عام ١٨٨٠ ، وهى تُزَيِّن اليوم « حديقة السنترال » بمدينة « نيويورك » .

(١) پروتيوس : إن الوصف الذى وصف به « هردوت » هذا الحاكم إنما يلائم تماماً الملك الذى عُرِفَ عند المصريين باسم « ست نخت » وظهر حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . وبه تبدأ الأسرة العشرون .

انظر : (Ed. MEYER, Gesch.II 1, S. 581) . ويظن بعض المؤرخين أنه ربما يكون من سلالة البيت الزائل . وقد جلس على العرش نحو عامين ، واستطاع خلال ذلك الوقتِ القصيرِ أن يردَّ الطامعين فى العرش من المدّعين . وأن يردَّ الحياة المصريّة إلى صوابها . انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٨٩٢ وما بعدها) كما استطاع — قبل أن يودع الدنيا (عام ١١٩٨) — أن يَجْعَلَ العرشَ من حقِّ ولدٍ له عُرِفَ فى التاريخ باسم « رمسيس الثالث » . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 262) .

(٢) الواقع أن ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، قد بنوا فى معبد « هيفايستوس » (= پتاح) كثيراً ، وبخاصّة « رمسيس الثانى » وولده « منفتاح » ، ثم الملك « ست نخت » الذى يسميه هردوت « پروتيوس » . وقد كانت عمارته — أكبر الظن — إلى الجنوب من عمارة « منفتاح » ، وفى المكان المعروف اليوم بين خرائب « ممفيس » باسم « كوم القلعة » .

انظر : (Badawi, Memphis. S. 19/20) .

« فينيقيون » من « صور » . ويسمى هذا الحى كله معسكر الصُّوريين(١). ويوجد فى حرم « پروتيوس » معبد يسمى معبد « أفروديت الأجنبيَّة »(٢) . وأظن أن هذا المعبد هو معبد لهيلينا ، ابنة « تنداروس » ؛ وذلك لما سمعته من أن « هيلينا » كانت تقيم عند « پروتيوس »(٣) . ولأن المعبد يسمى معبد « أفروديت الأجنبية » بينما لا تطلق هذه التسمية على أى معبد من سائر معابد « أفروديت » .

١١٣ — وعندما سألتهم ، روى لى الكهنة هذه القصة عن «هيلينا»(٤):

---

(١) اقتضت العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وجاراتها من دول الشرق القريب أن يفد إلى مصر كثيرٌ من أمراء تلك البلاد ، ليتربَّوا فيها تربيةً ثقافيةً وعسكرية وكانت « ممفيس » — وهى يومئذ قاعدة مصر الحربيَّة — مقرَّ أولئك الوافدين . وأكبر الظن أن أولئك الأمراء لم يفدوا وحدهم إلى مصر ، وإنما وفد فى ركابهم كثيرون من العُبْدان والجوارى ، وأصحاب التجارة . فنشأت لهم مع الزمن أحياء فى تلك العاصمة ؛ كان أكثرها إلى جوار معبد « پروتيوس » . انظر : (Badawi, Memphis S. 29) .

(٢) هذه المعبودة أسيوية الأصل ، واسمها الأسيوى الأصيل « عشتاره » ، ساواها المصريون — أو قل قرنوها — بمعبودتهم « زخمة » ، التى كانت كعبتها فى « ممفيس » ، والتى ساواها الإغريق بمعبودتهم « أفروديت » .

انظر : (Badawi, Memphis 31 — 32) .

(٤) هلينا : أكبر الظن أن قصَّة هيلينا كان أمرها قد ذاع فى مصر قبل أيَّام « هردوت » وأن الإغريق كانوا مشغوفين بالبحث والتقصى عن أصل كل ماجاء فى ملاحم هومير . انظر : (RAWLINSON, Herodotus II. p. 158).

خطفها الإسكندر[1] من إسبرطة وركب البحر نحو بلده . وبينما هو فى بحر إيجه طوّحت به رياح عاتية مضادة فى « البحر المصرى[2] » ، ومن هنـاك (لأن الرياح لم تهدأ) وصل إلى مصر ؛ وإلى ما يسمى الآن « بفرع النيـل الـكانوبى » والملاحات[3] . وكان يوجد على الشاطىء — وما زال موجوداً حتى الآن — معبد لهيرا كليس[4] ، إذا لجأ إليه عبدُ أىِّ كائن من البشر ، ووسم نفسه بالعلامات المقدَّسة — واهباً نفسه للإله — فلا يحلُّ لأحد أن يمسَّه بسوء . وما زالت هذه السُّنة متبعة فى زمنى ؛ تماما كما كانت منذ البداية . لذلك لـما علم أتباع الإسكندر[5] بالسنة الخاصة بهذا المعبد انفضُّوا من حوله ،

---

(١) هذا الإسكندر هو ثانى أبناء « بريا موس » صاحب طرواده من زوجه « هيكوبه » وكان يعرف أيضاً باسم « باريس » وقد خطف « هيلينا » هذه من « اسبرطة » ، وكان ذلك سبباً فى إشعال نار الحروب الطروادية المتصلة التى استمرت أحد عشر عاماً (١١٩٢ — ١١٨٣) . انظر : (Wiedemann, Herodots Zzweites Buch S. 432 ff.) .

(٢) البحر المصرى : هو بطبيعة الحال البحر الأبيض المتوسط .

(٣) المـلاَّحات : يقصد بهـا تلك المستنقعات البحرية التى كان المصريون يصطادون منها السمك، فيأكلونه أو يصدِّرونه مملوحاً إلى الخارج.وقد مر ذكر نظائر تلك الملاحات عند الفرع البيلوزى . انظر : (الفصل رقم ١٥ من هذا الـكتاب) .

(٤) كان هذا المعبد فى ضاحية يُسمِّيها الإغريق HERAKLEION موقعها على مصب قناة تجرى من الإسكندرية إلى الفرع الـكانوبى . كان معبدها الرئيسى لآمون . فأما معبد « هيراكليس » فقـد ذكره « استرابون » ، كما ذكره « ديودور » أيضاً . انظر : (Wiedemann, ibid. S. 436) .

(٥) يقصد بأتباع الإسكندر العبيد الذين كانوا معه .

وجثوا ضارعين للإله ، وشكوا « الإسكندر » بغية إيذائه ، ورووا القصة كلها ؛ ما حدث من أمر « هيلينا » والخطيئة التى ارتكبت فى حق « مينلاوس » . وأعلنوا هذه الاتهامات إلى الكهنة ، وإلى حارس هذا الفرع ، وكان يسمى « ثونيس »[1] .

١١٤ — وبعد أن أصغى إليهم « ثونيس » ، أرسل — على جناح السرعة — إلى « بروتيوس » بممفيس رسالة يقول فيها : جاءنا أجنبى تيوكرى الجنس بعد أن ارتكب ذنبا فاحشا فى بلاد اليونان ؛ إذ غرَّر بزوج مضيفه بالذات ، وأحضرها معه هى وثروة طائلة جداً . وقد طوَّحت به الرياح إلى أرضك ، فهل تدعه يقلع دون أذًى . أم تجرِّده مما جاء به ؟ .

فرد « بروتيوس » على ذلك قائلا : اقبضوا عليه مهما كان شأنه ، هذا الرجل الذى ارتكب إثما منكراً فى حق مضيفه ، وأحضروه إلىَّ حتى أعرف ما عساه أن يقول .

١١٥ — فلما سمع « ثونيس » بهذا ، قبض على « الإسكندر » واستولى على سفنه . وبعد ذلك ساقه إلى « ممفيس » هو و « هيلينا » ومعهما الأموال وكذا العبيد الضارعين . فلما حضروا جميعاً ، طلب « بروتيوس » إلى « الإسكندر » أن ينبئه من هو ومن أين أبحر . فحدَّثه الإسكندر بالتفصيل عن نسبه وأخبره باسم بلده وقصَّ عليه — فى إسهاب — أنباء رحلته من

---

(١) ثونيس THONIS : يزعم البعض أن ذلك ربما كان تصحيفا لاسم أحد حكام مصر ، وقد جاء ذكر زوجة له أسموها (POLYDAMNA) فى شعر « هومير » . انظر : (Odyss. IV, 228) ، وفى رأى « ديودور الصقلى » (Diod. I. 19) أن ذلك الحاكم قد خلع اسمه على تلك المدينة التى يقول إنها كانت إحدى الموانى التجارية على الفرع الكانوبى .

المكان الذى أقلع منه . وبعد ذلك سأله « پروتيوس » من أين أخذ « هيلينا » . ولما حاد « الإسكندر » عن جادة الصدق ، ولم يقل الحقيقة ، كذّبه الذين جاءوا ضارعين . ورووا قصة جرمه بحذافيرها . وأخيراً أعلن إليهم « پروتيوس » حكمه قائلا : لو لم أكن أهتم كثيراً بألاّ أقتل أحداً من الأجانب الذين تطوح بهم الرياح ويأتون إلى بلادى ، لثأرت لليونانى منك يا أخس الرجال ، لأنك بعد أن تمتعت بحقوق الضيافة ارتكبت أشنع ذنب ؛ فجامعت زوجة مضيفك نفسه ولم تكتف بذلك ؛ بل أغريتها بالفرار ، وخطفتها وأخذتها معك . ولم تكتف بهذا وحسب ، بل جئت بعد أن نهبت دار مضيفك . وبناء عليه ، لما كنت أعلّق أهمية كبيرة على ألاّ أَقتُلَ أجنبيًا ، فلن أسمَح لك بأن تأخذ معك هذه المرأة ولا تلك الأموال ؛ بل سأحتفظ بها لمضيفك اليونانى إلى أن يرى الحضور بنفسه لأخذها ، أما أنت ورفاقك ، فأنى أنذركم بأن تقلعوا وترحلوا عن بلادى إلى غيرها فى ظرف ثلاثة أيام ، فإن لم تفعلوا فسأعاملكم معاملة الأعداء (١) .

١١٦ — هكذا — وفقا لرواية الكهنة — وصلت « هيلينا » عند « پروتيوس » . ويخيل إلىّ أن « هوميروس » كان على علم تام بهذه الرواية ، ولكن لما لم تكن مناسبة للملحمة مثل الرواية الأخرى التى أخذ بها ، فأنه قد

---

(١) لقد يبدو أن تقوى هردوت ، وإيمانه بالعدل الإلهى ، وبالثواب والعقاب هما اللذان دفعاه إلى أن يُجرىَ على لسان « پروتيوس » مثل هذا الحديث كما فعل فى كتابه الأول . انظر : (الفصلين رقم ١١٨ ورقم ١٢٣ من الكتاب المذكور) . ولو اطلع هردوت على تراث المصريين لكفاه من ذلك — لتصوير سلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الخلقيّة — ما أسماه العلماء « كتاب الموتى » ؛ فإن فى هذا الكتاب ما يكفى للدلالة على حرْص كل امرىء من آل فرعون على أن يبرأ من الآثام كافة طمعاً فى أن يأتى رَبّه بقلب سليم .

أغفلها مع الأشارة إلى أنه كان على معرفة تامة بها . ويتضح ذلك مما رواه عن طواف الإسكندر فى « الإلياذة » (ولم يناقض نفسه فى أى موضع آخر) . إذ قال إن الاسكندر ومعه « هيلينا » قد حيد به عن طريقه ، فطوّف بأماكن مختلفة ، ثم وصل إلى « صيدا » فى « فينيقيا ». ثم هو يذكره فى الكلام عن بسالة « ديوميديس » فيقول فى أشعاره[١] :

« هناك حيث كانت توجد الثياب الموشّاة بالرسوم من صنع نسوة « صيدا » اللائى أحضرهن من هذه المدينة الإسكندر نفسه — الشبيه بإله — عندما ركب البحر الخضم أثناء رحلته التى حمل فيها « هيلينا » ابنة من يشار إليه بالبنان »[٢].

ثم ردّد ذكرها أيضاً فى هذه الأبيات من « الأوديسا »[٣] :

« وابنة « زيوس » كانت عندها عقاقير شافية ممتازة ، حُضِّرَتْ بمهارة فائقة ، أهدتها إليها « بوليدامنا » المصرية ، امرأة « ثون » . وأرض مصر خصبة تنتج من العقاقير مالا حصر له . كثير منها يضر ، وكثير منها إذا خلط كان دواء ناجحا » .

وفى البيتين التاليين أيضاً يقول « مينلاوس » لتليماخوس :

« وبمصر حجزتنى الآلهة ، رغم رغبتى الملحّة فى الرجوع إلى هنا ، إذ قد فاتنى أن أقرب لها قرباناً كافياً لأننى لم أنحر لها مائة ثور كاملة » .

---

(١) عنوان خامس كتب الالياذة .

(٢) (٦) ٢٨٩ وما يلى ذلك ، هو التقسيم الحالى للملاحم « الهوميرية » ويُنْسَبُ عادةً إلى Zenodote (عام ٣٠٠ ق . م) . ولم يكن ذلك معروفاً لدى هردوت بطبيعة الحال .

(٣) الأوديسّا (٤) ٢٢٧ وما يلى ذلك ، ٣٥١ — ٣٥٢ .

يتضح من تلك الأبيات أن « هوميروس » كان على علم تام برحلة «الإسكندر» إلى مصر ، لأن سورية تجاور مصر ، ولأن الفينيقين الذين يملكون « صيدا » يقطنون سورية .

١١٧ — ويتضح من هذه الأبيات أن « الملحمة القبرصية »(١) ليست قطعا لهوميروس ، ولكنها لشاعر آخر إذ ورد فيها أن الإسكندر وصل من « إسبرطة » إلى « طروادة » خلال ثلاثة أيام وبصحبته « هيلينا » . لأن الريح كانت مواتية له وكان البحر هادئا . بينما يقول « هوميروس » فى « الإلياذة » : إن الإسكندر قد هام على وجهه وهى معه . فلنترك الآن هوميروس والملحمة القبرصية .

١١٨ — ولما سألت الكهنة عما إذا كانت الرواية التى يرويها اليونانيون عن طروادة باطلة (فارغة) (تافهة) أم لا ، ردُّوا قائلين : إن معلوماتهم مستقاة من « مينلاوس » نفسه . وهذه روايتهم : بعد خطف « هيلينا » توجَّه إلى بلاد « تيوكريس » جيش عرمرم من اليونانيين لمساعدة « مينلاوس » . وعندما وصل الجيش إلى البر وضرب معسكراته ، أرسل إلى « طروادة » سفراء كان معهم « مينلاوس » نفسه . ولما اخترق هؤلاء أسوار المدينة ، طالبوا بهيلينا والأموال التى كان الإسكندر قد سرقها منهم عند رحيله ، وطالبوا بالتعويض عما ارتكب من ظلم . ولكن أهل « تيوكريس » أكدوا وقتئذ وفيما بعد ، مُقْسِمِينَ ، وبغير قسم ، أن « هيلينا » ليست عندهم ، وأنهم لا يستحوذون على الأموال التى يُتَّهمون بأخذها ، وإن كل ذلك فى مصر ، وإنه ليس من

---

(١) الملحمة القبرصيَّة : ينسبها بعض الكتَّاب إلى شاعر قبرصىّ عاش فى مطلع القرن الثامن قبل الميلاد . ويقال إنها كانت من سبعة أجزاء .

العـدل أن يؤخذوا بحيازة أشياء فى حوزة « پروتيوس » ملك مصر . وظن اليونانيون أنهم يسخرون منهم ، وعلى ذلك حاصروا المدينة واستمر حصارهم لها حتى استولوا عليها . ولما استولوا عليها ولم تظهر لهم « هيلينا » بل وسمعوا نفس القصة التى قيلت لهم من قبل ، آمنوا عندئذ بصحة ما سبق قوله وبعثوا بمينلاوس نفسه إلى « پروتيوس » .

١١٩ — وعندما وصل « مينلاوس » وأبحر إلى « ممفيس » ، روى القصة على حقيقتها ولقى منتهى الـكرم . إذ استرد « هيلينا » ولم يمسها سوء ، وكذا كل أمواله . ولـكن بالرغم من ذلك كله كان « مينلاوس » ظالمـا للمصريين . فبينما كان يسرع للرحيل ، عاقه نوء شديد ، ولما استمر الحال على هذا المنوال وقتا طويلا ، فـكر فى أمر حرام . إذ أخذ صبيين من أبناء أهل مصر فذبحهما وقدمهما ضحية (١) . ولما ذاع الخبر بأنه قد ارتـكب ذلك ، كرهه المصريون وطاردوه ، ففر هاربا بسفنه إلى ليبيا (٢) .ولم يستطع المصريون أن يذكروا الاتجاه الذى سار فيه هنـاك ، وقالوا إنهم وقفوا على بعض هذه المعلومات عن طريق الاستقصاء . أما ما حدث فى بلادهم فهم يروونه عن يقين.

---

(١) إن التَّضحية بالبشر تـكفيراً عن ذنب مقترف ، أو دَرْءًا لشرٍّ يُنتظر وقوعه ، أو نذراً للأرباب لقـاء خيرٍ مرتقب ، قد كانت من الأمور المعروفة فى الأساطير اليونانية القديمة . وقد عُرِفتْ عند غير اليونان أيضاً . وحسبنا أن نذكر قصة « إبراهيم » وإقدامه على التضحية بابنه (« إسحق » عند المسيحيِّين و « إسماعيل » عند المسلمين) . ثم قصة « عبد المطلب » وإقدامه على التضحية بولده « عبد الله » . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نُذَكِّرَ بأن المصريين من آل فرعون لم يعرفوا هذا النوع من التَّضحية .انظر : (ص٢٢٤هامش رقم١) .

(٢) ذكر « هردوت » فى كتابه الرابع (فصل ١٦٩) ميناءً نسبها إلى « مينلاوس » على الشاطىء اللِّيبى .

١٢٠ — ذلك ما رواه كهنة مصر . وأنا نفسي أوافق على ما قيل بشأن « هيلينا » للاعتبار التالى : لو أن « هيلينا » كانت فى « طروادة » لرُدَّت إلى اليونانيين ، رغب الإسكندر أم لم يرغب . إذ لم يصب « برياموس » ولا الآخرون من أهله بخبل لدرجة أنهم يعرِّضون أنفسهم للخطر ، وكذا أبناءهم ومدينتهم ليعاشر الإسكندر « هيلينا » . وإذا افترضنا أنهم أقرُّوا ذلك بادئ الأمر[١] ، إلا أنه لما كان عدد القتلى من سائر الطرواديِّين كبيراً كلما التحموا مع اليونانيين ، ولما كان يموت لبرياموس كلما نشبت الموقعة ، اثنان أو ثلاثة أو أكثر من أبنائه ، (إذا جاز الكلام اعتمادا على شعراء الملاحم)[٢] ، فإنى أعتقد شخصياً أن « بريامرس » — فى مثل هذه الظروف — كان يرد « هيلينا » إلى الآخيِّين ، حتى ولو كان هو نفسه الذى يعيش معها إذا قدِّر له أن يتخلص بذلك من الشرور المحيقة به . كما أن المُلك لم يكن ليئول إلى الإسكندر وأن مقاليد الأمور كانت فى يديه لشيخوخة « بريامرس » بل إن « هيكتور » ، أخاه الأكبر الذى يفوقه رجولة ، كان صاحب الحق فى تولى الملك بعد موت أبيه . ولم يكن من اللائق بهيكتور أن يسمح لأخيه بالاستمرار فى عبثه وخصوصاً أن شروراً جسيمة قد أصابت « هيكتور » بالذات وسائر الطرواديِّين بوجه عام بِسَبَبِ الإسكندر . كلا . . فلم يكن فى مقدورهم أن يردُّوا « هيلينا »[٣] ولم يصدقهم اليونانيون عندما قالوا الحق .

---

(١) يعنى أنه لم يكن فى الإمكان ردُّ « هيلينا » وتسليمها إلى « منيلاوس » .

(٢) يسمونهم الـ zykliker ؛ ويَعْنُونَ تلك الطائفةَ من الشعراء الذين كانوا يقلدونَ « هومير » ، والذين بَنَوا شِعْرَهم من أحداث حروب « طروادة » . انظر : (Dr. Friedrich Erdmann, Handbuch der Fremdwoerter, Leipzig 1887) .

(٣) إنهم — فى رأى « هردوت » — لم يكونوا قادرين على ذلك .

بل كان ذلك — وهذا رأيي الخاص أعلنه — تدبيرا إلهياً ليتضح للناس من هلاك أهل طروادة الذريع أن الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقاً للأخطاء الجسيمة. ذلك هو رأيي الشخصي(١).

١٢١ — وقال الكهنة إن « رامپسينيتوس »(٢) الذي ورث الملك عن « پروتيوس » قد خلّف تذكارا لحكمه بوابة معبد « هيفايستوس »(٣) التي تتجه نحو الغرب، وأقام أمام هذه البوابة تمثالين ارتفاع كل منهما خمسة وعشرون ذراعا. ويسمّي المصريون التمثال القائم ناحية الشمال « الصيف » والآخر القائم ناحية الجنوب «الشتاء». وهم يسجدون تعظيما للتمثال المسمى بالصيف

---

(١) ذلك مظهر من مظاهر تقوى «هردوت» وعقيدته في العقاب والثواب. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل رقم (١١٥) من هذا الكتاب.

(٢) RHAMPSINITUS. مثل هذا الاسم كمثل سابقه PROTEUS — الذي مر ذكره في الفصل الثاني عشر بعد المئة من هذا الكتاب — لم يرد ذكره بين أسماء الفراعنة في الأثبات والآثار المعروفة. على أنه إذا صح ما قدّرناه في الفصل المذكور من أن PROTEUS هو « ست نخت » وأنه كان آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة، أو بمعنى أدق، قد كان حلقة الوصل بين الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين؛ فمن المرجح أن يكون RHAMPSINITUS خليفته أول ملوك الأسرة العشرين ونعني «رمسيس الثالث». وإذا كنا نعترف بأننا لا نستطيع إثبات ذلك من واقع الآثار، فأننا لا نعدم في حكم المنطق ما يحملنا على مثل هذا التخمين. انظر: (Roeder, in RE. 2, 1. unter Rhamp. Sp. 14)
ثم (Helck, Untersuchungen Zu Manetho (Berl. 1956))

(٣) انظر الحديث عن هذا المعبد (في الفصل رقم ٩٩ من هذا الكتاب)؛ فلقد تعاقب أكثر الفراعنة منذ عهد «منا» على التجديد في عمارته ومنهم « رمسيس الثالث ». ولعمارة هذا الأخير فيه وصف رائع جاء تفصيله فيما بين أيدينا من تراث زمانه.
انظر: (Badawi, Memphis S. 20).

ويجلونه . أما المسمى بالشتاء ، فيتصرفون إزاءه خلاف ذلك[1] .

وقالوا إن « رامبسينيتوس » قد امتلك من الفضة ثروة طائلة ، لم يستطع ملك ممن خلفوه ، فيما بعد ، أن يقتني أكثر من هذه الثروة أو أن يدانيه فيها[2] . وحرصا منه على كنز هذه الأموال في أمان ، ابتنى خزانة من الحجر تمتد إحدى حوائطها إلى الجدار الخارجي من القصر[3] . ولكن البنّاء

---

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تمثالين ؛ أحدهما لحورس والآخر لست ، وقد كان الأول معبود الشمال وخليفة أبيه « أزوريس » رب الخصب والخير ، وكان الثاني عدو الأول وواتره ، وقاتل أبيه ، علماً على الجنوب ، ورباً للصحراء ، ورمزاً للعقم والجفاف .

(٢) الواقع أن أغنى كنوز مصر المعدنية وأشهرها قد كانت في الأغلب الأعم من الذهب ؛ ذلك لأن الذهب كان وفيراً في مناجمها . فأما الفضة فكانت تستوْردُ من الخارج . والشيء الذي لا شك فيه هو أن « رمسيس الثالث » قد كان ملكاً غنياً واسع الغنى ؛ يشير إلى ذلك مقدار ما أنفق على بيوت العبادة ، وما أغدق عليها من منح ، وما أوقف عليها من أرض وماشية . وفي الحق أنه أعطى فأجزل ؛ عطاءً لم نسمع بمثله في تاريخ الفراعين من أسلافه وخلفائه . انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٩٣ — ٨٩٩ وما بعدها) .

(٣) تشير هذه القصة إلى أنها إغريقية الأصل ؛ إذ تذكّرنا حوادثُها بقصة الأخوين : Agamedes ، Trophonius وكانا بنّاءين ؛ قاما ببناء خزانة لكنوز الملك Hyrieus . وحشرا في جدرانها حجراً يمكن سحبه في سهولة ويسر ؛ بحيث يتمكن من يريد دخول الخزانة أن يأتيها من غير بابها . ولما عرف الملك أن كنوزه تتناقص ، نصب في الخزانة شركاً وقع فيه أحد الأخوين المشار إليهما . وعجز أخوه عن تخليصه ، فاضطر إلى أن يحتزّ رأسه حتى لا يتعرف عليه أحد .

فالقصة ، كما نرى ، إغريقية النّسج . وليس ببعيد أن يكون المصريون قد سمعوا بها من الإغريق الذين سبقوا «هردوت» إلى مصر ، فأعادوا نسجها ==

— لغرض خبيث فى نفسه — فكر فى الحيلة التالية : رتب الأحجار بحيث كان من السهل على رجلين ، بل على رجل واحد رفع أحدها من الحائط . ولمّا تم بناء الخزانة كنز الملك أمواله فيها . ومرت الأيام .. فلما قاربت حياة البنّاء على الانتهاء استدعى أولاده (وكان له اثنان) . وبيّن لهما كيف أنه لجأ إلى الحيلة فى بناء خزانة الملك حرصا منه على أن يعيشا فى رخاء . وشرح لهما بإيضاح كلّ ما يتعلق برفع الحجر ، وأعطاهما أبعاده ، ثم قال إنهما إذا حافظا على ذلك باهتمام ، فإنهما سيصيران الأمينين على أموال الملك . ولما مات أبوهما ، لم ينتظرا طويلا قبل أن يبدآ العمل . وذهبا إلى القصر ليلا ، واكتشفا الحجر فى الجدار ، وانتزعاه بأيديهما دون مشقة . وحملا مقداراً عظيما من الأموال . وحدث أن فتح الملك الخزانة ، فأخذته الدهشة عندما شاهد أن المال الذى بالقدور[1] قد قل . ولكنه لم يستطع أن يتّهم أحداً لأن الخزانة مقفولة والأختام بقيت سليمة . ولما فتح الخزانة مرّة ثانية وثالثة ، تبيّن له أن الأموال آخذة فى النقصان باستمرار . (لأن اللصين لم يتراخيا فى النهب) فلجأ الملك إلى هذه الحيلة : أمر بصنع أشراكٍ ووضعها بجانب القدور التى وضعت فيها الأموال . وذهب اللصّان إلى الخزانة كما فعلا فى الأيام السابقة . ولما دخل

= بعد أن أضافوا إليها شيئاً من خيالهم القصصى . وقد يكون السبب فى إدارة حوادثها حول ذلك الفرعون (رمسيس الثالث) بالذات ما كان معروفاً عن ثرائه الواسع العريض من ناحية ، ثم ما عُرِفَ من المؤامرات التى دُبِّرَتْ فى بلاطه . — وقد تكون أودَتْ بحياته — من ناحية أخرى . والله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(١) إن حفظ العُمْلة فى قدور الفخّار من الأمور المألوفة . وما زال المصريون من أهل الريف يفعلون ذلك ، لأن الفخّار أجَفُّ ، وأحفظ ، وأوعى من غيره .

أحدهما فيها وأقترب من القدر ، وقع لتوه فى الشرك . ولما أدرك فى أى مأزق حرج هو ؛ دعا أخاه فى الحال وأراه ما ألمّ به ، وأمره بأن يدخل بسرعة متناهية ليقطع رأسه ، حتى إذا رآه أحد وتعرَّف على شخصه ، لا يكون فى ذلك هلاك الثانى أيضاً . واعتقد هذا بوجاهة الفكرة فاقتنع بها ونفّذها ، ثم أعاد الحجر إلى مكانه ، ورجع إلى بيته يحمل رأس أخيه . وفى صبيحة اليوم التالى دخل الملك الخزانة ، وذهل عندما رأى جثة اللص فى الشرك دون رأس ، وأن المكان كان سليما لا أثر فيه مطلقا لدخول أو خروج . ولجأ الملك — فى حيرته — إلى عمل هذا . . علق جثة اللص فوق الحائط[1] ، وأمر الحرّاس الذين عينهم لحراستها أن يقبضوا على من يرونه باكيا أو نادباً ، وأن يحضروه إليه . ولما عُلِّقتْ الجثة ، ثارت ثورة أمّه وتحدثت إلى ابنها الذى تبقى لها ، وأمرته بأن يحتال بكل ما يستطيع من الوسائل حتى يفك جثة أخيه ويحضرها ، وهددته بأنها — إذا هو أهمل ما قالت — ستذهب بنفسها إلى الملك وتبلِّغ عنه بأنه سارق المال . ولما داومت على تأنيبه بمرارة[2] ، ولما لم ينجح هذا الولد المتبقى فى إقناعها رغم ما ردَّده عليها من قول ، فكر هو فى هذه الحيلة . أعدَّ حميراً وزقاقا ملأها بالنبيذ وحمل بها الحمير ، ثم ساق هذه وعندما

---

(١) كان ذلك النوع من الصَّلب معروفاً عند قدماء المصريِّين ، ويكفى أن نذكر ما فعله فرعون مصر « أمينوفيس الثانى » بالعصاة والخارجين من أهل فلسطين . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ . ص : ٥١٦) .

وانظر أيضاً (Legrand, Hérodote, Livre 2. P. 148. Note 3.).

(٢) ذلك أمر يبدو طبيعياً ؛ لأن الأم تكره أن تبقى جثة ولدها بغير تحنيط . انظر : (ما ذكر عن قيمة التحنيط عند الفراعنة فى الفصل رقم ٨٥ من هذا الكتاب) .

اقترب من حرّاس الجثّة المعلقة شدَّ إليه من الزقاق اثنتين أو ثلاثا ، وفك بنفسه رقابها المربوطة ، ولما أخذ النبيذ فى الانهمار ، بدأ يضرب رأسه ويصيح بصوت جهورى ــ كأنه لا يدرى إلى أى الحمير يتجه أولا ــ ولما رأى الحرّاس النبيذ المنهمر(١) ، أسرعوا جميعاً ، يحملون أوعية ليأخذوا فيها النبيذ المتدفق حاسبين ذلك غنما . أما هو فتظاهر بالغضب وأمطرهم وابلا من اللعنات . ولما أخذ الحرّاس فى مواساته ، تصنع الهدوء بعد برهة ، وتخلَّى عن غضبه . وأخيراً ساق الحمير من الطريق ، وأخذ فى إعدادها . وجرى بينهم حديث طويل ، ومزح معه أحدهم بما حمله على الضحك ، فقدم لهم إحدى الزقاق وجلس الحراس فى الحال ، حيث كانوا ، معتزمين الشرب ، ودعوه إلى البقاء معهم لمشاركتهم فى احتساء النبيذ فوافق وبقى . وبدأ الحرّاس يتلاطفون معه فى ود . فقدم لهم أيضاً إحدى الزقاق . ولما أفرط الحراس فى شرب النبيذ ، صرعهم السكر ، وغلبهم النوم فناموا بالمكان الذى كانوا به يشربون . فأما هو ، فحين تقدم الليل ، فك جثة أخيه ، وحلق على سبيل السخرية الخد الأيمن لجميع الحراس(٢) ، ثم حمل الجثة على حميره وعاد إلى داره بعد أن نفذ ما قد أمرته به أمه .

فاستشاط الملك غيظا حينما بلغه الخبر بأن جثة اللص قد سرقت . وأراد أن يكشف بأى حال من الأحوال شخصية ذلك الذى دبَّر تلك المكيدة ، فلجأ إلى الحيلة التالية : ولو أننى لا أصدقها .

---

(١) أكبر الظن أن «هردوت» قد خلط هنا بين الجعة والنبيذ ، فقد كانت الجعة هى الشراب الوطنى المألوف عند آل فرعون . انظر : (الفصل السابع والسبعين من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر منطقى ؛ لأن حلق الذقن على هذا النحو شىء مهين .

وضع ابنتـه فى ماخور ، وأمرها أن تستقبل جميع من يفـدون إليها على السواء . وأن تختبر كل زائر منهم،قبل مجامعته إياها ، على أن يقص عليها أبرع وأخْبَثَ ما فعل فى حياته . فإذا روى لها أحدهم ما حدث بشأن اللص ؛ فعليها أن تمسك به ولا تسمح له بالخروج. وعندما بدأت الصبية بتنفيذ ما أمرها به أبوها ؛ فـكر اللص فيما يلى : — لأنه كان عليما بالسبب الذى من أجله دُبِّرت هذه الخديعة ، وكان يرغب فى أن يبزَّ الملك فى مكره — قطع من عند الـكتف ذراع جثة شخص مات حديثا ، وذهب إلى ابنة الملك ، يحمل الذراع تحت ردائه . ولما دخل عندها ، وجهت إليه الأسئلة التى وجهتها لمن سبقوه . فأنبأها أن أشنع ما قام به هو قطع رأس أخيه عندما وقع فى شرك فى خزانة الملك ، وأن أمهر ما أقدم عليه هو إسكار الحراس وفك جثة أخيه المعلقة . فلما سمعت الفتاة ذلك ، همَّـت بالقبض عليه ، فمدَّ إليها اللص فى الظلام ذراع الجثة ، فأمسكت بها . وأطبقت عليها حاسبة أنها ممسكة بذراعه هو . أما اللص فترك لها الذراع وخرج هاربا . فلما وصلت هذه الأنباء أيضاً إلى مسامع الملك ، اندهش لفطنة هذا الرجل وجرأته وأرسل فى النهاية إلى كافة المدن معلنا ، أنه إذا جاء الرجل إلى حضرته فهو يضمن له حرِّيته ، ويعده بوعود مغرية . فوثق به اللص وذهب إليه فأعجب به « رامپسينيتوس » أشد الأعجاب وزوَّجه من ابنته هذه ؛ لـكونه أبرع الخلق أجمعين ، إذ أنه يبز المصريين كلهم وهؤلاء يبزون سائر البشر فى البراعة .

١٢٢ — وبعد ذلك قيل لى[١] إن هذا الملك نزل حيًّا إلى العـالم

---

(١) يقصد أنه سمع ذلك من الـكهَّـان .

السُّفلى[1] الذى يسمِّيه اليونانيون الجحيم وهناك لعب النرد مع « ديميتر » وتغلب عليها أحيانا وانتصرت أحيانا عليه[2] . ثم عاد ثانيـة إلى الأرض ومعه منديل مشغول بالذهب ، أهدته إليه[3] .

---

(١) تلك قصة كانت معروفةً لدى المصريين وبخاصة فى عصورهم المتأخرة . انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٩٠٦ وما بعدها) .
ثم انظر : ما جاء عن قصة «خمواسى»فى(ERMAN, Relig. S. 406 ff.).

(٢) إن « لعب النرد » (أو كيفما كانت تسميته) قد كان معروفاً فى العـالم القديم ، وبخاصة عند المصريين من آل فرعون الذين عرفوه قبل الإغريق ؛ تشير إلى ذلك آثارهم المعروفة منذ أبعد عصور التاريخ . وحسبنا ما عُثِر عليه من أدوات تلك اللعبة بين آثار الملك « توت عنخ آمون » ، ثم ما نراه مصوَّراً من ممارسة اللعبة فى رسوم قبر الملـكة « نفرتارى » زوجة « رمسيس الثانى » فى جبانة الملـكات غربى طيبة (WRESZINSKI, ATLAS, Taf. 49) .
ثم (Erman - Ranke, Aeg. 1923) .
ثم (Posener, Dict. de. la Civil. eg. Paris 1954) .
وأخيراً (Pieper, D. Brettspiel d. alt. Aeg. 1909 S. 10 f.).
ويقول « هردوت » إن الإغريق عرفوا تلك اللعبة عن اللِّيديِّين . انظر : (هردوت الـكتاب الأول فصل ٩٤) . ونحن نعتقد أن ما أشار إليه من لعب الفرعون الذى أسماه RHAMPSINITOS مع «ديمتر» (= ايزيس) قد كان له معنى رمزى كالذى صوَّره بلوتارخ بين « هرميس » « وسيلين » . انظر : (Plut. Isis & Osiris, Cap. 12) .

(٣) نكاد نعتقد أن تلك الهديَّة التى صورتها الأسطورة فى صورة « منديل » موشَّى بالذهب لا تخرج عن تصوير المصريين من آل فرعون لآمالهم فى الخصب ، فالمنديل — أغلب الظن — يمثل الأرض الزراعية ، ووشى الذهب يمثل القمح . وقديما سمى المصريون القمح «ذهبا» (Wb. Bd. II, S. 240) . ثم إنا نعتقد آخر الأمر أن عودة RHAMPSINITOS من أسفل الأرض رمزٌ إلى عودة الخصب والخير . نقول هذا ونحن نعلم أن بعض العلماء قد عرضوا لتفسير قصة =

ويقولون إن عودة « رامپسينيتوس » من الجحيم — بعد أن نزل إليه — جعلت المصريين يحتفلون بعيد ما زالوا — فيما أعلم — يحيونه حتى وقتى هذا . وليس فى إمكانى القول بأن ذلك هو السبب فى إقامة العيد . ويوم العيد نفسه ، بعد انتهاء الكهنة من نسج ثوب ، يلبسونه أحدهم ويعصبون عينيه بعصابة ، ويقودونه على الطريق المؤدية إلى معبد « ديميتر » الذى يبعد عن المدينة عشرين « ستاد » . ثم يعودون أدراجهم فى الحال . أما ذلك الكاهن الذى عصبت عيناه ، فيقوده — حسب قولهم — ذئبان إلى معبد «ديميتر» ، ثم يرجعان به على الفور من المعبد إلى نفس المكان(١) .

=المنديل ومنهم Legrand فقال إنه منديل لتجفيف العرق كذلك الذى نراه غالباً ممثلا فى أيدى التماثيل .

انظر : (Legrand, Hèrodote, Livre, II Notice, 47) .

ثم Sethe ، ويرى أنه المنديل الملفوف حول شارة الحياة التى يمسك بها الملك .

انظر : (Sethe, Untrsuchungen zur Gesch. & Altertumskunde Aegyptens, Bd. II, Sesostris, (Leipzig 1900), 6) .

(١) إن فى تسمية هذا الحيوان بالذئب أثراً من خطأ الإغريق وخلطهم ، وربما شاركهم فى هذا الخطأ من عاصروهم من المصريين فى العصور المتأخرة ، يؤيد ذلك ما أطلق الإغريق مثلا على « سيوط » حين أسموها « ليكوپوليس » (= مدينة الذئب) على حين كان رمزها المقدس حيوانا من بنات آوى ، ولم يكن من الذئاب . انظر : (Kees, G. G. S. 27) . والمصريون قد عرفوا طبيعة « ابن آوى » منذ أقدم العصور ، وعرفوا له حاسة الشم القوية ، وقدسوه من أجل ذلك . ثم خافوه على قبور موتاهم من أن ينبشها وحاولوا أن يعزوا أنفسهم عن ذلك فخالوه حارسا على قبور موتاهم . والفكرة — على بساطتها — من طبيعة النفس البشرية حين تلتمس العزاء فى ساعة المحنة الطارئة . ويكفى أن نذكر — على سبيل المثال — أن الناس فى عصرنا الحديث قد كانوا يلجأون =

١٢٣ — وليقبل روايات المصريين من يرى أن مثل هذه الأشياء تحتمل التصديق . أما أنا فهمتى أن أسجل فى هذا التـاريخ ما أسمع من أقوال أية جماعة[١] . يقول المصريون إن « ديميتر » و « ديونيسوس » هما أصحاب السلطان فى الجحيم[٢] . والمصريون كذلك هم أول القائلين بخلود الروح[٣] ودخولها — بعد فناء الجسد — فى جسم حيوان آخر عند ميلاده . وبعد أن

= إلى « شيوخ المناسر » فيعهدون إليهم بحراسة أرزاقهم .

ولقد بالغ المصريون القدماء فى تقديرهم حين جعلوا من «ابن آوى» الذى خافوه على قبور موتاهم « محنـطاً » لأجساد أولئك الموتى ، مقدرين — فى الغالب — أن الصانع شديد الحرص على ادخار آثار صنعته والمحافظة عليها .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر ما جاء فى حديث القوم عن رحلة الشمس الليلية — حين تخيلوا سيرة موكبها من تحت هذه الأرض — من أن تلك الكلاب من بنات آوى قد كانت تجر زورقها فى الظلام . وظاهر من خلال كل ذلك أن الإبصار لم يكن هو الذى يهدى تلك الكلاب من بنات آوى ، وإنما هى حاسة الشم القوية عند تلك الحيوانات. انظر : (Sethe, Pyr. Texte, Spruch 215).

(١) انظر الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب .

(٢) يعنى «إيزيس» و «أزوريس» وقد كان الأخير سلطانا على العالم الآخر .

(٣) آمن المصريون القدماء بحياة أخرى من وراء الموت وآمنوا بالخلود فيها ، ودعاهم ذلك إلى التفكير فى تأمين أجسادهم وحفظها من العدم .

انظر : (Kees, Totenglauben, S. 38 ff. 45. 46 ff,) ، والحرص على تحصينها بما نحتوا لها فى الصخر من بيوت، وما حملوا إليها من زاد مادى ومعنوى. انظر : (Kees. Totenglauben S. 50) وحتى لاتضل الأرواح السبيل إليها . وفى ذلك مايشير إلى اعتقادهم فى خلود الروح. على أن السبيل إلى حياة الخلد لم يكن هينا ولا ميسورا ، وإنما كان مشروطا بالتقوى والبراءة من كبائر الإثم . انظر : (Erman, Relig. S. 158 f.) . كذلك صور المصريون الروح فى هيئة طائر . انظر : (Naville, T. B. cap. 76 - 88) ثم (Kees. T. G. S. 56 f.) .

تطوّف بجميع مخلوقات الأرض والماء والهواء ، تدخل ثانية فى جسم إنسان عند ميلاده ، ويتم تطوافها هذا فى ثلاثة آلاف عام[1] . ومن اليونانيين مفكرون — سابقون[2] ومتأخرون[3] — اعتنقوا هذه النظرية ، ونادوا بأنها من ابتكارهم الخاص . ومع أننى أعرف أسماءهم فإنى لا أسجلها[4].

١٢٤ — وقال الكهنة : إنه حتّى عهد الملك « رامپسينيتوس » كان يسود مصر كلها نظام تام ، ويعمّها رخاء عظيم . ولكن حكمهم من بعده « كيوپس »[5] الذى ساقهم

---

(١) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى والأربعين بعد المئة .

(٢) عله يقصد بذلك « الأورفيّين » .

(٣) ربما يقصد « فيثاغورس » ومدرسته .

(٤) ذلك دأبنا من « هردوت » حين يطعن على من يسفه آراءهم ، ويتجنب ذكر أسمائهم . وليس علينا إلا أن نذكر ما جاء فى كتابه الأول (الفصل رقم ٥١) . ثم فى كتابه الثانى غير مرة . ثم فى كتابه الرابع (الفصل رقم ٤٣) .

(٥) كيوپس : هو فرعون مصر المعروف « خوفو » الذى أسماه الإغريق أيضاً (Suphis) ثانى ملوك الأسرة الرابعة ، وصاحب الهرم الأكبر ، حكم حوالى عام ٢٦٥٠ ق . م . واستمر حكمه نحو ٢٣ عاما . وليس من المعقول — بعد الذى قدّرنا فى التعليق على ما جاء فى الفصل رقم ١٢١ من أن المقصود بمن أسماه هردوت (RHAMPSINITOS) قد كان « رمسيس الثالث » — أن يكون « كيوپس » خليفة له . ويحاول بعض المؤرخين أن ينسب ذلك إلى خطأ فى ترتيب مخطوطة الكتاب الثانى من كتب « هردوت » . انظر : (Erick Lueddeckens, Wissenschaftliche Buchgesellschaft (Darmstadt 1962) .

إلى البؤس[1] . إذ بدأ بإغلاق المعابد ، ومنع المصريين من التضحية[2] . ثم أمرهم جميعاً بالعمل من أجله ؛ فأجبر البعض على جرّ الأحجار من المحاجر الموجودة بالجبل العربيّ[3] حتى النيل ، وأمر البعض الآخر باستلامها بعد نقلها في السفن عبر النهر ، وجرّها إلى الجبل المسمّى بالجبل الليبي[4] . وكانوا

---

(١) لا نظن أن عصر « خوفو » كان عصر بؤس . ولو كان كذلك ؛ لما قدّر لخلفائه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمرانى الذى نرى آثاره فيما تركوا وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادى . وأكبر الظن أن يكون ما سمعه « هردوت » ، بقية من آثار الدعاية التى قام بها كهان الشمس ، وأثاروا حربها على البيت الحاكم أيام الأسرة الرابعة . وشواهد ذلك بادية واضحة فى ذلك القصص الذى نطالعه فى القرطاس المعروف باسم « قرطاس ڤستكار » .

انظر : (« فى موكب الشمس » جـ ١ ص ٢١٨ وما بعدها) .

(٢) ليس ذلك بالأمر المعقول ، وإنما هو أثر من آثار الحرب الباردة التى أدارها أصحاب مذهب الشمس من أعداء البيت الحاكم والثائرين عليه .

انظر : (« فى موكب الشمس » جـ ٢ ص ٨٨٧ وما بعدها) . مثل هذه الإشاعات قد كانت معروفة بين الناس؛ولا أدّل على ذلك من أنها بقيت إلى ما بعد أيّام «هردوت» بقرون ، وقد ذكرها المؤرخ المصرى السمنودى « منتون» . وكان كاهنا مصرياً عاش فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد .

(٣) انظر الحديث عن محاجر الجبل العربى فى الفصل الثامن من هذا الكتاب . فأما إجبار الناس وتسخيرهم فى أعمال الدولة فمسالة فيها نظر ، وما ينبغى لنا مطلقاً أن نحكم على عصر «خوفو» بمنطق الحياة وأهلها فى أواخر القرن العشرين . انظر :(حديثنا عن السخرة فى الفصل الثامن بعد المئة من هذا الكتاب) ، ثم عن«الخدمة الإجبارية» فى كتابنا عن تاريخ ممفيس .

انظر : (Badawi, Memphis S. 42) .

(٤) يَقصدُ بالجبل الليبي الهضبة التى أقيمت عليها الأهرام من شاطىء الوادى الأيمن .

يشتغلون فى مجموعات من مائة ألف رجل ؛ تعمل كل منها ثلاثة أشهر . ولقد مرت عشر سنوات أُنهكت فيها قوى الشعب لإنشاء الطريق الذى جرّوا عليه الأحجار(١) . وهذا — فى نظرى — عمل لا يقل كثيراً عن تشييد الأهرام (طوله فى الواقع خمسة « استاد » وعرضه عشرة « أبواع » وعلوه فى أقصى ارتفاعه ثمانية أبواع) (٢) . وهو مبنىٌّ من أحجار مصقولة ، حفرت عليها صور . وقد انقضت العشر سنوات فى بناء هذا الطريق ، وبناء الغرف التى تحت الأرض فى التل الذى تقوم عليه الأهرام . وقد بنى هذه الغرف

---

(١) لقد خلط « هردوت » بين شيئين؛ خلط بين الطريق الذى كانت تسحب عليه الأحجار محمولة فوق الزحافات الخشبية — ولم يكن طريقاً واحداً بل كانت طرقا متعددة — وبين الطريق الذى يجرى بين ما نسمّيه اليوم « معبد الوادى » الواقع على شاطئ النهر ، والمعبد الجنازىّ الذى يقع فى شرق الهرم مباشرة . وأوضح مثل لذلك ما بقى إلى اليوم من عمارة هرم « خفرع » . فأما أثره عند « خوفو » فلا نشك فى أن « هردوت » قد رآه ؛ ولا أدل على ذلك من أن العالم الألمانى R. Lepsius الذى زار مصر قبل مئة عام ويزيد قد رآه وتحدَّث عنه ، وعن النَّفق من تحته يسلكه الحجيج وغيرهم من الزوَّار إلى الناحية المقابلة بدلا من الدوران حول الضريح . وقد كشفت أعمال التنقيب عن بقايا هذا الطريق ؛ وكانت صفحاته مزدانة بالرسوم ، كما وجدتْ كذلك بقيةٌ من أسس المعبد الجنازىّ فى الجهة الشرقية من الهرم .

انظر : (Ricke, Bemerkungen, 1, 37, Fig. 10.) .

(٢) لم يكن من السهل على « هردوت » ولا على الذين تحدث إليهم أن يعرفوا الحجرة التى دُفنَ فيها الملك ؛ ذلك لأن علماء الآثار والعمارة فى العصور الحديثة قد تأكدوا فى ضوء دراساتهم الدقيقة من أن تغييراتٍ كثيرة قد حدثت فى تصميم بناء الهرم بحيث تغيَّر موضعُ الدَّفن فى بناء الهرم غير مرة . يضاف إلى ذلك أن مواضع الدفن فى أهرام الأسرة الخامسة ، قد وُجدتْ فى مستوى عادىّ لا ينخفض عن قاع الهرم .

واتخذها مقابر لنفسه[1] فى جزيرةٍ تنقل إليها مياه النيل بوساطة قناة[2] . واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما . وهو مربع طول كل واجهة من واجهاته ثمانية بلثرا ، وارتفاعه مثل ذلك[3] . وهو مبنيٌّ من حجر مصقول

---

(١) ظاهر أن حديث القناة والجزيرة خلطٌ وسوء فهم مصدرها بعض ماترك المصريون من قبور وهمية لإمام الشهداء « أزوريس » ؛ ومنها ذلك الأثر الباقى إلى جوار معبد الملك « سيتى الأول » فى العرابة المدفونة ؛ فحجرة الدفن قد كانت فى قلب الهرم ، ولا يمكن أن تصل إليها الميـاه بحال من الأحوال ؛ بل إن الهرم كله قد بنى على ربوةٍ لا يمكن أن يصل إليها ماء النيل مهما يرتفع منسوب فيضانه . فأما القناة فهى تلك الحفر الدائرة من حول الهرم والتى خصصت لوضع السفن التى خال المصريون أن موتاهم سوف يستعينون بها فى العالم الآخر على الانتقال من مكان إلى مكان . ولقد أسماها بعضهم خطأً « مراكب الشمس » . ويبلغ عددها ثمانية . لم يستحق منها هذا الاسم الأخير غير اثنتين؛ إحداها لرحلة النهـار والأخرى لرحلة الليل . ولقد كُشِفَ عن إحدى تلك الحفر عام ١٩٥٤ فى الناحية الجنوبية من ضريح «خوفو» ؛ طولها ٢٠ر٣١ متراً ، وعرضها ٦٠ر٢ من الأمتار ، وعمقها ٥٠ر٣ . ووجدت بها سفينة من خشب الأرز تكاد تكون — بين ما عثر عليه من السفن — منقطعة النظير . ومن أمثالها — وإن لم يكن يناظرها فى الجودة — ما عثر عليه منذ أكثر من ستين عاماً فى منطقة دهشور ونعنى المراكب الثلاث التى آل منها مركبان إلى متحف القاهرة وآلت الثالثة إلى شيكاغو حيث استقرت بمتحف التاريخ الطبيعى فيها ، وكلها من أيام الأسرة الثانية عشرة .
انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 45) .

(٢) يعنى نحو ثمانمئة قدم .

(٣) الواقع أن الأحجار التى استخدمت فى بنـاء الهرم كانت مصقولةً بحيث لا يحتاج البَنَّـاء فى وضعها إلى ما يسمُّونه « المونة » إلا بقدر ما يسمح بدفع الواحد منها فوق الآخر فى سهولة ويسر . فأما وزن كل منها فيبلغ فى الأغلب الأعم طنًّا ونصف طن .

يلتصق بعضه ببعض تمام الالتصاق[1] . وليس هناك حجر واحد يقل طوله عن ثلاثين قدما .

١٢٥ — وفيما يلى وصف بناء هذا الهرم . بُنِىَ أولاً على هيئة سلالم يسمِّيها البعض « درجات » والبعض الآخر هياكل[2] . وبعد تشييده بهذا الشكل رفعوا الأحجار الباقية بوساطة آلات مصنوعة من ألواح خشبية قصيرة[3] ، وكانوا يرفعون الأحجار من الأرض إلى الطبقة الأولى من الدرجات . وبعد رفع الحجر إلى هذه الطبقة كان يوضع على آلة أخرى قائمة على الطبقة الأولى ، ومنها يرفع إلى الدرجة الثانية ويوضع فى آلة أخرى . وكانت هناك آلات بعدد الدرجات ، أو لعلها كانت آلة واحدة سهلة الحمل . كانوا ينقلونها من طبقة إلى أخرى كلما جرُّوا الحجر . ومن الواجب التحدث

---

(١) يعنى أن الأحجار ملتصقة بالثقل والتفريغ .

(٢) علَّه يقصد بالهياكل ما نُسمِّيه اليومَ « بالمصاطب » . والشيء الذى لا شك فيه هو أن بناء الهرم يُعدُّ من المعجزات . ولست أشك فى أن رجال العمارة فى العصر الحديث بكافة ما أوتوا من أدواتٍ ووسائل ، سوف يشفقون على أنفسهم أشد الإشفاق ، وقد يتردَّدُون ؛ بل ربما يحجمون ، إن نحن طلبنا إليهم أن يبنوا لنا هرماً مثل هرم خوفو .

(٣) علَّه يقصد الزحافاتِ المصنوعة من الخشب ، والتى كانت توضع فوقها الأحجار ، ثم تُجرُّ بها من « مدماك » إلى « مدماك » . وأول من تحدَّث عن الطريقة التى اتَّبعها البناؤون فى تشييد الهرم ؛ وهى طريقة استخدام الجسور الصاعدة هو « ديودور الصقلى » وقد آمن بها بعض العارفين بشئون العمارة فى العصر الحديث .

انظر : (S. Clarke & R. Engelbach, Anc. Eg. Masonry The Building Craft, p. 127) .

عن الطريقتين ؛ إذ يقال بكلتيهما ، تم – أولا – بناء أعلى جزء من الهرم ، ثم بعد ذلك بنوا الأجزاء التالية بالتدريج . وأخيراً أكملوا الأجزاء السفلى التى على الأرض(١). وقد بُيِّن على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمنا لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم. وإذا وعت ذاكرتى بالضبط ما قاله لى الترجمان عندما قرأ علَّى النقش فإن النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة(٢).

---

(١) لم تكن الأحجار التى استخدمت فى بناء الهرم مقدودةً كلها من محاجر الجبل الواقع على شاطئ النيل الأيسر (= جبل طره أو المعصرة) ، وإنما شيد الهرم من الحجر المقدود من الهضبة التى بنى عليها . ولم يستخدم فى بنائه من مقالع الأحجار فى الشاطئ الأيسر (= الشرقى) غير تلك الصفائح الرقيقة التى استخدمت فى الكساء الخارجى .

(٢) لم ينفرد « هردوت » بالحديث عن تلك النقوش التى ازدانت بها صفحات الهرم الأكبر ، بل أشار إليها غيره من الكتاب الذين رأوها من قبله ومن بعده ، فأما الذين من قبله فيكفى أن نذكر منهم الأمير «خمواسى» بكرَ فرعون مصر « رمسيس الثانى » الذى طال الحديث عنه فى كتب العلماء نظراً لما قام به من رعاية آثار السلف الصالح ، ثم المؤرخ العربى « عبد اللطيف البغدادى » الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وقال إن ما وُجِدَ على صفحات الهرم الأكبر من كتابات ونقوش تملأ عشرات الألوف من صفحات الكتب. إلا أنها أزيلت حينما بدأ الناس ينتزعون كساءَ الهرم خلال القرن الثالث عشر الميلادى . ولولا اهتمام الهواة من رجال العمارة فى القرن التاسع عشر الميلادى لضاعت كل معلوماتنا عن الهرم والغرض من بنائه . انظر : (Vyse, Operation Carried on the Pyramids of Gizeh II, 152) .

ثم (F. Petrie, The Pyramids & Tempels of Giza) .

فأما حسبة التكاليف فذلك شىء من عمل « هردوت » ، ذلك بالإضافة إلى أن الفضة لم تتداول فى مصر إلا بعد زمان «خوفو» بوقت طويل . وفى ذلك ما يدل =

فإذا كان الأمر كذلك ، فماذا كان — بالإضافة إلى هذا — مقدار ثمن الآلات الحديدية التى اشتغلوا بها ، وما مقدار ما أُنفِقَ على مأكل العمال ، وملبسهم. ذلك إذا ما كان الوقت الذى أمضوه فى العمل كما ذكرت ، مضافا إليه ، ما قضوه من الزمن فى قلع الأحجار و نقلهـا ، وفى حفر القناة التى تحت الأرض ، ذلك عمل لم يستغرق ، فيما يخيل إلى ، وقتا قليلا .

١٢٦ — ولقد بلغ « كيوپس » — فيما يقولون — أحط درجات الرذيلة حتى إنه — لحاجته إلى المال — وضع ابنته هو فى ماخور وأمرها أن تحصل على مبلغ معيَّن لم يذكروا لى مقداره (١) . وفضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها فإنها فكَّرت بدورها فى ترك أثرٍ خاص بها ؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهدى إليها حجراً . ومن هذه الأحجار — فيما يقال — بُنِىَ الهرم الذى يقع بين الثلاثة ، وهو أمام الهرم الأكبر . ويبلغ طول كل

= على بساطة «هردوت» . فهو لم يُخدَع فى هذه وحسب ، بل خُدِعَ غير مرة . انظر : (الفصلين رقم ٣٦ ، رقم ١٣٦ من هذا الكتاب) .

(١) إن أقل الناس حظا من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الإنسانية ، واعتبارهم الزنا من كبائر الإثم التى يُجازى مرتكبها بالموت . (انظر : فى موكب الشمس جـ ١ ص ٢١٤) . لا يستطيع أن يصدق مثل هذه الفرية . ولست أستبعد أنها من رواسب الماضى ، وأن أعداء بيت خوفو من أصحاب المذهب الشمسى هم أصحاب هذه الفِرْية ، يضاف إلى ذلك الخلاف الذى يُحتَمَلُ أن يكون قد وقع بين أبنائه من بعده — وكانوا من أمهات مختلفات — ومِنهُنَّ تلك الليبية الشقراء ذات العينين الزرقاوين ، وأعنى «حتبحرس» الثانية التى يظن بعض المؤرخين أنها أم ولده الذى يحتمل أن يكون قد خلفه على العرش وهو « رع — ددف » ؛ ذلك الذى بنى هرمه فى منطقة « أبى رواش » . لسنا نستبعد أن يكون لكل ماذكرنا أثر فى اختلاق هذه الفرية .

جانب من جوانبه بلیثرون ونصف(١) .

١٢٧ — ويقول المصريون إن « كيوپس » هذا حكم خمسين عاما(٢). وبعد موته تولى الملك أخوه « خفرع »(٣) وسار هذا على منوال أخيه فى كل شيء . وبنى كذلك هرماً لا يبلغ فى أحجامه هرم كيوپس ، (إذ قد أخذنا المقاييس بأنفسنا) ولا توجد بأسفله غرف تحت الأرض ولا تصل إليه قناة من النيل مثل التى تتصل بالهرم الأكبر وتنساب من مجرى مبنى ، وتحيط بجزيرة يرقد فيها « كيوپس » حسب قولهم . وقد بنيت الطبقة الأولى من حجر إثيوبى مختلف الألوان(٤) . وبنى « خفرع » هذا الهرم الذى يقل فى ضخامته أربعين قدماً عن الهرم الأكبر ؛ بناه بجانب الأخير . ويقع كلاهما على نفس التل

(١) فى الحق أنه يوجد فى شرقى هرم « خوفو » ثلاثة أهرام صغيرة . لا نستبعد أن تكون قد بُنِيتْ لتصبح مثوى لثلاث من أزواجه. كل ذلك على الرغم من وجود شاهد عُثِرَ عليه فى معبد لإيزيس يحمل ما يشير إلى أن أحدى تلك الأهرام الثلاثة لأحدى بنات خوفو ، ونحن نستبعد أن يكون الهرم لأحدى بناته ؛ ذلك لأن أولاده جميعاً قد دفنوا فى قبور كانت على هيئة ما نسميه المصاطب.

(٢) لا تظن أن حكم « خوفو » قد بلغ هذا المدى ؛ فلدينا من الوثائق التاريخية ما لم يجاوز بأيام حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً . وما يدلُّ على أنه تزوج بغير واحدة ، ومنهن تلك التى تحمل اسم أمه «حتپ حرس»، والتى صُوِّرت فى قبر ابنتها شقراء الشعر زرقاء العينين ، وقد قيل إنها من أصل ليبى . انظر : (فصل ١٢٦ هامش رقم ١) ، كما كان له كثير من البنين والبنات .

(٣) لم يكن « خفرع » من إخوة « خوفو » ، وإنما كان من أبنائه ، وكان ثانى خلفائه ؛ وربما كان ثالثهم . وقد حكم حوالى عام ٢٦٢٠ ق . م .

(٤) يقصد حجر الجرانيت ما بين أحمر وأسود . وقد نُسِبَ إلى «إثيوبية» لأن الإغريق كانوا يسمون مناطق النوبة « إثيوبية » .

الذى يبلغ ارتفاعه مائة قدم تقريبا (١). وقيل إن « خفرع » حكم ستا وخمسين سنة (٢).

١٢٨ — وهم يعتبرون أن المصريين قد تعرضوا لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة (٣). إذ لم تفتح أثناءها المعابد التى كانت قد

---

(٤) يبلغ ارتفاع هرم « خفرع » ١٤٣ م . كما يبلغ طول كل جانب من جوانبه ٢١٥ م . وتعد عمارته أتم عمارات الأهرام مجموعة وأكملها أجزاء . كشف العالم الفرنسى « أغسطس ماريت » عما يسمونه معبد الوادى من عمارته عام ١٨٥٣ ، وهو أروع مثل بين نظائره . ولم يوضع كساء الهرم إلاّ فى عصر متأخر نسبياً ، ولعل ذلك هو السر فى بقائه مدى طويلا . ويقدر العالم البريطانى « فلندرز بترى » عدد من كانوا يعملون فى بنائه فى وقت واحد بما يتراوح بين ٣٥٠٠ — ٤٠٠٠ من العمال .

(٥) المعروف أن مدى حكم الأسرة كلها لم يجاوز ١٨٠ عاما (من ٢٩٣٠ — ٢٧٥٠ ق . م) .

(١) واضح أن هردوت يجعل هذه قسمة بين ملكين هما « خوفو » و « خفرع » ؛ جعل لأولهما خمسين عاما ، وجعل لثانيهما ستةً وخمسين عاما . على أن فى الأسرة غير هذين ملوكاً آخرين ؛ فرأس الأسرة قد كان الملك « سنفرو » ، وآخرها كان « شبسسكاف » . إلا أن ترتيب الملوك من بعد أيام « خوفو » لم يتضح بعد ؛ فخليفة « خوفو » لم يكن « خفرع » وإنما الراجح أنه كان « رع — ددف » الذى أقام هرمه على مسيرة ٧ كيلو مترات من شمالى هرم أبيه ، وفى المنطقة المعروفة باسم « أبى رواش » . ثم جاء من بعده « خفرع » . وبين تراث هذه الأسرة ما يشير إلى وجود ملكين آخرين بين « خفرع » و « منكاورع » وهما « حور — ددف » ثم « باوف — رع » .
انظر : (Debono, F. Expédition archéolcgique royale du desért oriental, An. d. Serv. LI. 1951) p. 89.

أغلقت . ولا يرغب المصريون مطلقا فى تسمية هذين الملكين لكرههم بل إنهم ليُسمُّونَ الهرمين باسم الراعى « فيليتيوس »[1] الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة .

١٢٩ — وبعد «خفرع» — وفقا لما قالوا — تولى الملك « منكاورع » ابن « كيوپس »[2].ولم يرض « منكاورع » عن أعمال أبيه ففتح المعابد وسمح للشعب — الذى عانى أقصى درجات البؤس — بأن يمارس أعماله ويقدم الأضحيات . فكانت الأحكام التى يصدرها أعدل من أحكام سائر الملوك .

= ولسنا نستبعد أن الأدلاء الذين صاحبوا هردوت قد خلطوا بين زمان هذه الأسرة وزمان الهكسوس . انظر : (الفصل رقم ١٣٣ من هذا الكتاب؛ حيث جاء أن الشقاء قُدِّر على مصر مئة وخمسين عاماً ، وهى المدة التى حكمها الهكسوس) ، وإن فى خلطهم هذا لبَقِيَّة من آثر الدعاية التى لم يفتر أصحاب مذهب الشمس من أعداء « خوفو » وقبيله فى نشرها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٨٠٦ وما بعدها) .

(١) لا نعتقد أن ذلك صحيح ، لأن الشعائر الدينية والطقوس الجنازية الخاصة بالملك «خوفو» قد كانت قائمة عند ضريحه فى أيام العصر الصاوى .

انظر:(Gauthier, L. d. R. I, p. 78) . كما ظلت كذلك فى زمان الفرس؛ بل ربما بقيت بعد ذلك أيضاً . فأما نسبة الهرمين إلى الرّاعى الذى ذكره « هردوت » فقد لا يعدو سببها فى الأغلب الأعم ملازمة ذلك الرّاعى منطقة الهرمين . كما سمى الناس فى العصر الحديث أحد الأهرام باسم « هرم الشواف » ، وذلك لأن اللصوص من نبّاشى القبور قد استخدموه مرقباً ، يرصدون منه حركات الحراس . ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون اسم PHILITIS اسماً مصرياً مؤغرقاً .

(٢) حقيقة إن « منكاورع » قد خلف « خفرع » على العرش ، إلا أنه لم يكن من أبناء « خوفو » وإنما كان من أحفاده .

ولهذا السبب، فهم يخصونه بالمديح دون سائر الملوك الذين حكموا مصر حتى ذلك الحين[١] . وعلاوة على إصدار الأحكام العادلة ، فإنه كان يعطى تعويضا من ماله الخاص كلَّ من لم ترضه أحكامه ويهدئ ثورة غضبه[٢] . وبينما هو يحبو الرعية بحسن رعايته ، دائب على عمل ذلك فى ورع ، حلَّت به أولى المصائب وهى وفاة ابنته ، الطفلة الوحيدة التى كانت له فى القصر[٣]. فاستولى عليه حزن عميق من جَرَّاء الخطب الذى نزل به . وأراد أن يدفن ابنته بطريقة تخالف كل ماعداها ، فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب ثم دفن بداخلها ابنته المتوفاة[٤] .

١٣٠ — ولم تُغَيَّب هذه البقـرة فى الأرض ، ولـكنها ما زالت ترى حتى يومنا هذا ، فى مدينة « سايس »[٥] ، موضوعة فى القصر الملـكى

(١) نلمح فى ذلك بقيةً من آثار الدعاية التى آثارها أصحاب المذهب الشمسى . فقد كان « منكاورع » أول من أسمى نفسه « ابن الشمس » وأخذ خلفاؤه بهذه السنة من بعده . انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ص ١٦١ وما بعدها) .

(٢) من الجائز أن يكون «هردوت» قد خلط بين سيرة هذا الملك وسيرة الملك «بوخريس» الذى حكم فى سايس أيام العصر الأثيوبى (حوالى عام ٧١٥ ق.م) .

(٣) انظر قصة ذلك فى الفصل الثالث والثلاثين بعد المئة من هذا الـكتاب .

(٤) ربمـا كان مرجع ذلك إلى أن الناس كانوا يرون صورا ورسوما على توابيت العصور المتأخرة وبينها ما يمثل جثة الميت محمولة على ظهر بقرة .

(٥) إن الجبانة التى كان ينبغى أن تدفن فيها ابنة « منكاورع » — إن صح أن ينظر إلى مثل هذه القصة — قد كانت جبانة الجيزة ، حيث مدافن الأسرة ولم يكن هناك من داع مطلقاً إلى نقلها إلى « سايس » . وليس من المقبول ولا من المعقول أن نتصور أن الأجيال قد احتفظت بتابوت ابنة « منكاورع » حتى أيام « هردوت » . وليس من المعقول كذلك أن يوضع تابوتها فى القصر الملـكى ، ليُحرق فوقه البخور ، وتضاء من حوله المصابيح .

بأحدى غُرفه المزَّينة . ويحرقون طول النهار بجانبها مختلف أنواع البخور . وكل ليلة يشعلون مصباحا بالقرب منها . وعلى مقربة من هذه البقرة توجد فى قاعة أخرى تماثيل لسرايا « منقرع » — حسب قول كهنة « سايس » — إذ تقوم هناك تماثيل ضخمة من الخشب يبلغ عددها العشرين تقريباً . وهى تُمَثِّل نسوةً عاريات . أما من عسى أن يَكُنَّ فليس فى إمكانى أن أجزم إلا بما رووه(١) .

١٣١ — ويروى البعض القصة التالية بخصوص البقرة والتماثيل الضخمة : يقولون إن « منكاورع » هام بحب ابنته وجامعها رغما عنها . وإن البنت شنقت نفسها بعد ذلك ، وإن الملك دفنها فى البقرة . وقالوا : إن الأم قطعت أيدى الوصيفات اللائى قدّمْن البنت إلى أبيها ، وإن التماثيل تعرضت الآن لما لاقته النسوة فى حياتهن . ولكنى أعتقد أن ما رووه هو محض هراء وخاصة ما يتعلق بأيدى التماثيل ؛ لأننا قد شاهدنا بأنفسنا أن التماثيل قد فقدت أيديها بفعل الأيام ، وأن الأيدى إلى يومنا هذا ترى ملقاة تحت أقدامها(٢) .

---

(١) لا نكاد نجد داعيا للاحتفاظ بتماثيل لسرايا « منكاورع » فى مدينة « سايس » وأكبر الظن أن القصة من أولها إلى آخرها قد استغلت فى الدعاية أيام الملك إبسماتيك الثانى ذلك لأن « منكاورع » من أسماء إبسماتيك الثانى . انظر : (HERMAN DE MEULENAERE, Herodotos over de 26ste Dyn: S. 152) .

(٢) فى هذه الرواية خلط مصدره بقية من آثار الدعاية التى قام بها أصحاب المذهب الشمسى من أعداء هذه الأسرة ، كما رأينا غير مرة . ثم من عقائد المصريين التى غُمّت على أكثرهم لطول العهد ، وتتابع المحن ؛ فهم يذكرون « كاموتف » (= فحل أمه) ، وهم قد فهموا خطأ ما يروى عن زواج بعض الملوك ببناتهن ، مثل « أمنوفيس الثالث » و « رمسيس الثانى » ، ولعلهم نسجوا من كل هذا التراث المهلهل تلك القصة وأمثالها مما سمعه « هردوت » فانكره . =

١٣٢ — وقد أُخفيت البقرة بجميع أجزائها فى غطاء أحمر فيما عدا الرقبة والرأس؛ فبقيت ظاهرة للعيان، تكسوها طبقة سميكة جداً من الذهب، ويوجد بين القرنين قرصٌ من الذَّهب، تقليداً لقرص الشمس. والبقرة لا تقف على أرجلها ولكنها جاثمة على ركبتيها. وهى فى حجم بقرة ضخمة حيَّة. وتنقل البقرة خارج الغرفة عندما يلطم المصريون على الإله الذى لا أسميه(١) فى مثل هذه المناسبة(٢)؛ يخرجون وقتئذ البقرة إلى ضوء النهار لأنهم يدعون أن البنت عند موتها توسَّلت إلى أبيها أن ترى الشمس مرة واحدة فى السنة(٣).

١٣٣ — وبعد موت ابنته ألمَّ بالملك خطب آخر، هذا هو: جاءه وحىٌ من مدينة «بوطو»(٤) يخبره أنه سيعمِّر ست سنين فقط ويموت فى السنة السابعة.

= ونحب أن نضيف إلى كل ذلك ما لسنا نستبعده من أن يكون للدعاية الإسرائيلية أثر فى هذه القصص. فاجتماع الأب بابنته أمر عرفه بنو إسرائيل وقالوا إنه جرى بين «لوط» وابنتيه. انظر: (التوراة وسفر التكوين ١٩, ٣٢—٣٦).
وأما تقطيع الأيدى فقد جاء ذكره فى قصة يوسف. انظر: (قرآن كريم سورة يوسف ٣١, ٥٠).

(١) يعنى «أزوريس».

(٢) ليس خافياً أن البقرة قد كانت من الحيوانات المقدسة عند آل فرعون، وكانوا يرمزون بها إلى الأمومة، ويتخذون منها علما على «إيزيس»، فضلا عن وصفها «حتحور» الذى أضحى يشير إلى أن القوم اعتبروها مرضعة لحورس ابن «إيزيس» وأماً له. فأما الصورة التى يتحدث عنها هردوت، فليست غريبة عن المصريين. فإذا صح أنهم كانوا يفعلون ما رواه، فأكبر الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك فى ذكرى الشهيد «أزوريس».

(٣) فى ذلك ما يدلُّ على الجهل وسوء الفهم؛ فلم يكن يكفى أن يطمع القدماء لموتاهم فى أن يروا الشمس مرة واحدة، وإنما كانوا يأملون لهم أن يروها فى كل يوم.

(٤) انظر فصلى ٨٣، ١٥٢ من هذا الكتاب.

فاستشاط الملك غيظا ، وأرسل يُسَفِّه الوحي والإله معاً[1] على أن أباه وعمّه اللذين أغلقا المعابد ، وأغفلا ذكر الآلهة ؛ بل وساقا الناس إلى التهلكة[2] قد عاشا زمنا طويلا . أما هو التقي فسيموت بمثل هذه السرعة . وجاءه من الوحي ردٌّ ثان يقول إن أيام حياته قد مرّت سراعاً لهذه الأسباب ؛ إذ أنه لم يفعل ما كان يجب فعله . فقد كان مقدَّراً على مصر الشقاء حتماً مدة مئة وخمسين عاما . وقد فهم الملكان السابقان ذلك . أما هو فلم يدركه . ولما سمع «منكاورع» بهذا الردّ عرف أن مصيره قد تقرّر فأمر بصنع مصابيح عديدة كان يشعلها عند مجيء الليل ؛ ويشرب ويتمتع بلذات الحياة دون انقطاع سواء بالليل أو بالنهار ، وطاف بالمستنقعات والغابات ، وورد كل مكان علم أن به أحب متع الشباب . وقد فعل ذلك رغبةً منه فى تكذيب الوحي . فهو قد جعل من اللّيلِ نهاراً حتى تصير السنوات الست أثنتى عشرة سنة .

---

(١) تأنيب الآلهة ، بل وتهديدهم أحياناً ، كان شيئاً معروفاً فى العالم القديم ، وقد أشرت إلى ذلك فى بعض ما كتبت . انظر : (فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٨٧٠) . فأما الأب والعم اللذان أشير إلى أنهما حكما طويلا ؛ فأكبر الظن أنه يعنى بهما « خفرع » و « خوفو » . فإذا كان ذلك كذلك ؛ فينبغى أن نشير هنا إلى أن فى الأمر خلطاً ؛ لأن شواهد الأمور تدل على أن البلاد إبّان حكم « خفرع » وأواخر أيامه قد كانت تجتاز فترة عصيبة بسبب الخلاف الذى نشب بين الطامعين فى العرش من ولد « خوفو » .

(١) انظر : Ed. MEYER, Chronologie S. 142 .

(٢) Walter Federn, Zur Familiengeschichte d. IV. Dyn. Aegyptens (Wiener Ztsch. f. d. Kunde des Morgenlandes XLII, S. 163 - 192)

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٢٨ هامش رقم ١) .

١٣٤ — وترك هو بدوره هرماً ، أصغر بكثير من هرم أبيه[١] ؛ يقلّ عنه فى كل جانب من جوانبه عشرين قدما فى كل ثلثمئة قدم ، وهو مربّع ؛ مبنيّ إلى النصف بالحجر الأثيوبى[٢] . ويدعى بعض اليونانيين أنه يُنسبُ إلى الغانية « رودوپس »[٣] . ولكنهم لا يقولون صدقا . ويلوح لى أنهم يتكلمون دون أن يعرفوا من عساها تكون « رودوپيس » . (وإلا لما نسبوا إليها بناء هرم مثل هذا ، أُنفِقَ عليه مالا يعدُّ من ألوف التالنتات كما نقول) . هذا إلى أن « رودوپيس » كانت فى ربيع الحياة ، أثناء حكم الملك « أمازيس » لا فى عهد « منكاورع »[٤] . فهى عاشت إذن بعد هؤلاء الملوك الذين خلّفوا الأهرام بسنين كثيرة جداً . وأصل « رودوپيس » من « ثراقيا » وكانت

---

(١) نعم إن هرمه أصغر من هرم أبيه ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته يبلغ حوالى ١٠٨,٥٠ م . فأما ارتفاعه فكان أصلا ٦٦,٥٠ م .

(٢) يقصد الكساء الذى يغطى صفحات البناء من حجر الجرانيت فيغطى من ذلك ما لا يقل عن ١٦ « مدماكاً » . وأكبر الظن أن « منكاورع » قد مات قبل أن يتم بناء هذا الضريح ، أو قبل أن يتم وضع هذا الكساء .

(٣) إذا صح أن نعجب بوعى هردوت ، ويقظة عقله أحياناً ، ثم بصدق حسه التاريخى حين ينكر نسبة هذا الهرم إلى هذه الحسناء . وينكر أنها عاشت أيام « منكاورع » ، فمن الحق علينا أن نبحث عن الأسباب التى جعلت أصحاب هذه الفرية ينسبون الهرم إلى تلك الغانية بالذات . ولكنا حين نفعل ، لا نكاد ننتهى إلى سبب ، وإن كنا نسأل : ترى أيكون مبعث ذلك ما بين اسمها واسم « رودده » زوج كاهن الشمس التى ورد اسمها فى قرطاس « وستكار » إبّان حكم « منكاورع » . انظر : (فى موكب الشمس جـ ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨) . الله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(٤) انظر : (فصل ١٧٢ من هذا الكتاب) .

عبدة لأيدامون بن « هيفايستوپوليس » . وهو من جزيرة « ساموس » . وكانت زميلة فى الرِّق لأيزوبوس[1] راوية الخرافات ؛ لأن هذا كان عبداً لأيدامون . ويتضح ذلك بوجه خاص مما يلى . لما نادى رسول من قبل أهل « دلفى » عدة مرات من يريد أن يأخذ دية « ايزوبوس » ؛ لم يتقدم لأخذها أحدٌ آخر غير « إيدامون » وهو حفيد الأول . وهكذا كان « إيزوبوس » عبداً لأيدامون[2] .

١٣٥ — وصلت « رودوپيس » مصر حيث أحضرها « كسانثوس السَّامُوسى » ؛ ولما كان مجيئها بقصد التكسُّب أعتقها « خرا كسوس الميتيلينى » وهو ابن « سكاماندرونيموس » وأخو الشاعرة « سافُو » لقاء ثمن باهظ . وهكذا تحررت « رودوپيس » وبقيت فى مصر . ولما كانت فى منتهى الجاذبية[3] ، أحرزت ثروةً كبيرة كافيةً لها . ولكنها ليست بالثروة الطائلة التى تكفى لبناء هرم مثل هذا ، إذ من الممكن لكل من يشاء — حتى يومنا هذا — أن يعرف عشر ثروتها فلا ينبغى أن تنسب إليها ثروة طائلة . فقد أرادت « رودوپيس » أن تخلِّف لها أثراً فى بلاد اليونان ، فأمرت

---

(١) AESOPUS صاحب الخرافة الشهيرة التى أدار حوادثها أيام القرن السادس ق . م . انظر : (Plut., Moral. ,557 a) .

(٢) واضح أن « هردوت » — يؤمن على الأقل — بوجود شخصية AESOPUS ، وواضح كذلك أن وجوده فى رأى « هردوت » قد كان فى الأولمپياد الخامس . وجاء فى بعض القصص أن أهل « دلفى » قد ألقوا بهذا الرسول من فوق صخرة عالية ، وأن « أپوللون » جازاهم على ذلك بمحنتين ؛ محنة الجوع ، ومحنة المرض . وأنهم كفَّروا عن ذلك بدفع الدِّية .

(٣) معنى الاسم « ذات الوجه الوردى » .

بصنع شيء لم يكن لغيرها أن يفكر فيه أو يقدمه للمعبد، ووهبته لدلفى تذكارا لها . وبعُشر ثروتها، طلبت صنع سفافيد كثيرة من حديد، خاصة بشى البقر بقدر ما سمح به عشر الثروة، وأرسلتها إلى « دلفى » . ولا تزال هذه السفافيد حتى الآن مكومة هناك خلف الهيكل الذى وهبه الخيويون أمام المحراب ذاته .
وغوانى « نوقراطيس » هنَّ فى العادة على درجة كبيرة من الجاذبية . إذ لا يُقتصر الأمر على هذه التى دار حولها الحديث هنا، والتى طبقت شهرتها الآفاق، حتى أن كافة اليونانيين عرفوا باسم « رودوپيس » ؛ بل وجدت غانية أخرى فيما بعد تدعى « أرخيديكى » ذاع صيتها فى بلاد اليونان . ولو أنها لم تكن موضوعا لحديث الجميع بقدر ما كانت « رودوپيس » . وبعد أن أعتق « خراكسوس » هذه وعاد إلى « ميتيلينى » سخِرتْ منه « سافو »[١] فى إحدى قصائدها من السخرية، والآن ينتهى حديثى عن « رودوپيس » .

١٣٦ — ويقول الكهنة أن «أسوخيس»[٢] حكم مصر بعد « منقرع » .

---

(١) يؤكد ATHÉNÉE على أى حال أن الشاعرة هاجمت « رودو پيس » . انظر : (ATHÉNÉE, XIII. P. 596) .

(٢) إن الذى حكم بعد « منكاورع » مباشرة قد كان « شبسسكاف » . وله قبر قائم عرف فى الكتب العلمية باسم « مصطبة فرعون » . فأما ASYCHIS هذا فيما نذكر أنه ورد ضمن أسماء الملوك عند مؤرخنا الوطنى « منتون » . ولانذكر كذلك أنه ورد ضمن أسماء الملوك التى دونها الفراعنة فى الأثبات التى عرفت فى بعض معابدهم، أو فى القراطيس التى خصصت لذلك . ولربما يبدو طبيعياً أن يظن بعض المؤرخين أن المقصود بهذا الاسم هو Bochoris ، وإن كنا لا نعرف له مثل هذا الاسم . انظر : (Wiedemann, ibd. S. 490) . كذلك ظن بعضهم أن ذلك الملك هو من أسماه « يوسف اليهودى »(آسوخايوس) ونسب إليه فتح «أورشليم» . انظر : (Josephus, Bellum Jud. 6. 10 =

وهو الذى شيَّد مدخل معبد « هيفايستوس »[1] الذى يتجه نحو الشرق . وهو أكثر المداخل جمالاً وضخامة . فمع أن كل المداخل تحوى أشكالا محفورة وآلافا من المناظر الأخرى للعمارة ، فإن هذا المدخل يفوقها جميعاً إلى حد بعيد . ويقول الكهنة : إن النقد فى عصر هذا الملك كاد يكون معدوما ، وإنه صدر إلى المصريين قانون بمقتضاه يقدم الفرد جثة أبيه رهناً ليحصل على قرض . وأضيف إلى هذا القانون بندٌ آخر يخوِّل الدائن التحكّم فى مقبرة المدين كلها[2] . وإذا رفض المدين الذى قدَّم ذلك الرهن ، سداد دينه ، عوقب بألا يدفن بعد موته لا فى مقبرة آبائه ولا فى أى مقبرة أخرى . وليس له أن يدفن أى ميت آخر من أقاربه . وقد أراد ذلك الملك أن يبز

=(436)) . ثم (Pietschmann. in RE. unter Asychis) . وبذلك يكون الملك الذى عناه « هردوت » هو « شيشنق الأول » ؛ وإن كان قد خلط بينه وبين « بوخوريس » . وربما يؤيد هذا الزعم ما نسب إليه « هردوت » من العمائر الضخمة فى معبد « بتاح » . وقد كان « شيشنق الأول » من كبار البنائين فعلا . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن شيشنق وآله جميعاً لم يبنوا أهراما . ومهما يكن من شىء فليس لدينا آخر الأمر مايمكن أن نسند به كل هذا الزعم .

(١) انظر : (فصل ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر لا يمكن تصوره فى سهولة ؛ فنحن نعرف عقيدة الشعب المصرى فى الحياة والموت ، ونعرف شدة محافظته على آثار السلف ، ومقدار احترامه للتقاليد . كما نعرف تقواه التى لم يستطع هردوت نفسه إنكارها ، ونعرف فوق ذلك تقديره الصادق لمقام الأبوة . ونحن لا نقول ذلك تعصبا لشعبنا الذى ما زلنا نعيش على بعض تراثه ، وإنما يقوله بعض علماء الغرب المحدثين من المنصفين فى هذا العصر الحديث .

انظر : (Erman, Relig d. Aeg., Kap. XV, S. 291 f.) .

الملوك الذين حكموا مصر قبله ، فخلف أثراً عبارة عن هرم مبنى من اللَّبِن ، وعليه نقش — محفور على حجر — يقول : « لاتحتقرنى بالقياس إلى الأهرام الحجريّة فأنا أفوقها بقدر ما يفوق « زيوس » الآلهة الآخرين[1] . فقد أُلْقِيَ مسبار فى البحيرة فلصق به بعض الطين وأُخِذَ هذا الطين وصنعت منه لبنات . وبهذه الوسيلة كان بنائى » . تلك هى أعمال هذا الملك .

١٣٧ — وتولى الحكم ، بعد هذا الملك ، رجل أعمى من مدينة « أنيسيس »[2]. وفى عهد هذا الملك تقدّم الأثيوبيون وملكهم «شباكو»[3] نحو مصر بقوة عظيمة . ففر الأعمى هاربا إلى المستنقعات ، وحكم الأثيوبى مصر خمسين عاما فعل فيها الآتى[4] : إذا ارتكب أحد المصريين خطأ ما ، رفض أن يقتل أى واحد منهم ، ولكن كان يحاكم كلا بما يتناسب وجسامة الخطأ ،

---

(١) ما زالت بعض أهرام المصريين المبنية من اللّبِن قائمةً . ويسميها المواطنون « الأهرام السُود » . ويكفى أن نذكر منها « أهرام دهشور » التى تقع على بعد قريب من منطقة صقارة . وقد يكون للقصص الذى طالعنا فى ما كتب المؤرخون أثرٌ فى ذلك الخلط . فنحن نذكر كيف قيل إن « منكاورع » قد مات قبل أن يتمّ هرمه ، وأن ابنته « نيتوكريس » قد أتمت بناءه من اللبن . وليس يفوتنا « ونحن ننظر فى رواية هردوت » كذلك أن « آمون » الذى أسماه الإغريق « زيوس » لم يكن معروفا أيام « منكاورع » .

(٢) من الجائز أن يكون واحداً من حكام الأقاليم . فأما المدينة نفسها فكانت أغلب الظن فى شرقىّ الدلتا وعلى مسيرة نحو ١٩ كم إلى الشمال الغربى من القنطرة وفى المكان المعروف بتل « بليم » . انظر : (J.Ball, 17, 168) .

(٣) شباكو : أحد الملوك الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ١٠٠) .

(٤) إن « شباكو » لم يجاوز مدى حكمه اثنى عشر عاما ، ولم يبلغ حكم الأسرة كلها خمسين عاما .

مصدرا الأمر إلى كل فرد من المذنبين بأن يقيم السدود أمام المدينة التى ينتسب إليها، وبذلك صارت المدن أكثر ارتفاعا . وقد علت أول الأمر نتيجة لعمل الذين شقوا القنوات فى عهد « سيزوستريس »[1] ، ثم فى عهد الأثيوبى . فصارت ذات علو شاهق . ومع أن سائر المدن فى مصر أصبحت مرتفعة إلا أن أكثرها ارتفاعا فى نظرى هى مدينة « بوباسطيس »[2] ؛ حيث يوجد معبد « بوباسطيس » وهو جدير جداً بالوصف ، وإن كانت المعابد الأخرى أعظم منه وأبهظ نفقة إلا أنه أكثرها بهجة للنظر . و « بوباسطيس » باللغة اليونانية هى « أرتميس »[3] .

١٣٨ — وهذا هو وصف المعبد : فيما عدا المدخل يقوم على جزيرة ؛ إذ ينساب فى النيل مجريان ، لا يختلطان ببعضهما ؛ بل يسيران حتى مدخل المعبد كل على حدة ؛ هذا من جانب وذلك من الجانب الآخر . وعَرضُ كل منهما مائة قدم ، تظللهما الأشجار . والمدخل ارتفاعه عشرة أبواع[4] ، مزخرف بأشكال ، ارتفاعها ست أذرع[5] تستحق الكلام . ويقع المعبد فى وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ؛ إذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمى ، بقى المعبد كما شُيِّد منذ البداية ؛ لم يلحق به أى تغيير ، لذا من الممكن رؤيته . ويحيط بالمعبد سور حفرت عليه أشكال

(١) انظر : (الفصل رقم ١٠٨) .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦٠) .

(٣) هكذا سمى الإغريق « بسته » المصرية ، كما أطلقوا نفس الاسم على «پخه» (Pakhet) التى كانت تقدس فى وادى بنى حسن وكانت هرةً برية .

(٤) أى حوالى ١٠٠ قدم .

(٥) أى حوالى تسع أقدام .

وبداخل السور فناء تنمو به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الآلهة ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد فى جميع الجهات ، وقبالة المدخل ، يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة ستاد تقريبا . وهو يخترق السوق متجها نحو الشرق وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبى هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع إلى عنان السماء وهو يؤدى إلى معبد هرمس . تلك هى الحال التى عليها المعبد .

١٣٩ — وقال الكهنة إن انسحاب الأثيوبى قد انتهى بهذه الصورة : ولىّ هارباً بعد أن شاهد فى نومه الرؤيا التالية : بدا له رجل يقف بجانبه ، ينصحه بجمع كل كهنة ويقطعهم نصفين . فلما رأى هذا الحلم قال إن الآلهة — فيما ظن — أرته هذا كمبرر لكى يصيبه شر ، بعد انتهاك حرمة الأشياء المقدسة ، من الآلهة أو من الناس(٢) . وعليه فلن يفعل من ذلك شيئاً بل إنه سينسحب لأن الوقت الذى تنبىء به لحكمه مصر قد انقضى وبالفعل لما كان بأثيوبية أعلن الوحى الذى يستنبوءه الأثيوبيون أنه من الواجب عليه حكم مصر خمسين عاما . فبما أن هذه المدة قد مرت ؛ فضلا عن انزعاجه من الحلم الذى رآه فى منامه ، فقد انسحب « شباكو » من مصر برضاه(٣) .

---

(١) أى حوالى أربعمائة قدم .

(٢) انظر : (هردوت جـ ١ فصل ٣٢) حيث نجد ما يشبه تلك الصورة .

(٣) انظر : (Diod. I. 65. 5 - 8) . ونحن نتساءل : ترى أيكون فى قصة الرؤيا أثر من قصة رؤيا « تانوتامون » ؟

انظر : (Schaefer, Urk. d. aelteren Aethiopen Koenige 577—7 Siegesinschr. d. Tanotamon (Die sog. Traumstele). Les Songes et Leur irterprétation (Ed. du SEUIL) p. 26) .

١٤٠ — وعندما رحل الأثيوبى عن مصر ، حكمها الأعمى ثانية بعد رجوعه من المستنقعات . حيث كان يسكن خلال الخمسين عاما ، جزيرة[(١)] علاها بركام الرماد والتراب . إذ كلما جاء إليه ، دون علم الأثيوبى ، مصريون يحملون له الحنطة — وفقا لما كان مقررا على كل منهم — أمرهم بأن يحضروا رمادا مع هديتهم . ولم يستطع أى فرد أن يجد هذه الجزيرة قبل « أميرتيوس »[(٢)] . بل إنه خلال فترة تزيد على سبعمائة عام لم يكن فى مقدور الملوك الذين سبقوا « أميرتيوس » فى الحكم ، أن يكتشفوا هذه الجزيرة ؛ واسمها « ألبو »[(٣)] وحجمها عشرة استاد فى جميع الجهات .

---

(١) ليس من السهل أن نعرف موقع هذه الجزيرة .

(٢) امرتيوس Amyrtée تحريف أو تصحيف لاسم أمير وطنى من أمراء الدلتا « آمن حرى » (= آمون حرى) كان أميراً لسايس . ظهر إبان ضعف الفرس وأيام الثورة التى قام بها المصريون عام ٤٦٠ ق.م. والتى أعان الإغريق فيها المصريين على الفرس ، فبعثوا إليهم بأسطول من ثلثمئة (٣٠٠) سفينة . وكان الفرس قد بعثوا على مصر جيشا من ٣٠٠,٠٠٠ رجل التقوا بالمصريين قبل وصول المدد الإغريقى فى مدينة Paprimus ، وكان قد سبقه إلى الجهاد أمير مصرى يدعى « إنتحررو » . أكبر الظن أن يكون ذلك تصحيفا للاسم « إرت — إن — حور » (بمعنى عين حورس) ، ويسميه الإغريق Inarus . وفى رواية هردوت خلط من الناحية التاريخية . انظر : (Legrand, Hérodote II, p. 54 - 55) .

(٣) ليس ببعيد أن تكون هذه الجزيرة (إلبو) فى منطقة بحيرة المنزلة على أن الطبيعة قد تغيرت ، وتغيّر معها وجه الأرض فى تلك البقعة من زمن هردوت أو من زمن الفراعنة عموما حتى يومنا هذا . فأما هذا التحديد الزمنى الذى يقدره هردوت بأكثر من سبعة قرون ، فليس من السهل أن نأخذ به .

١٤١ — خلفه فى الحكم كاهن «هيفايستوس» ويسمى «سيثوس»(١). ولقد عامل المحاربين المصريين بازدراء ، ولم يكترث بهم — ظانًّا أنه لن يحتاج إليهم — ومن بين الأمور الأخرى التى قام بها ليحط من قدرهم ، أنه انتزع أراضيهم ، وهم الذين كان يملك كل واحد منهم فى عهد الملوك السابقين اثنى عشر فدانا من الأرض الممتازة(٢) . وبعد ذلك ساق ملك

---

(١) إن Selhos هذا الذى يصفه هردوت بأنه كان من كهان «هيفايستوس» (= بتاح) ، والذى يجعله خليفة للحاكم الأثيوبى « شباكا » ، ينبغى أن يكون بداهة « شباتاكا » . والظاهر أن هذا الأخير قد آثر أن يختفى وراء ستار المسرح ، ويجعل مكانه « طهرقه » بن « بعنخى » . وكان يومئذ فتىً لم يجاوز العقد الثانى من عمره ، وكان قد جاء فى ركاب « شباكا » وأسهم فى غزو الدلتا عام ٧١٥ ق . م .

وليس بمستبعد أن يكون لذكرى ملك مصر العظيم « سيتى الأول » وحروبه التى أجراها فى فلسطين أثرٌ فى هذا الخلط ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاكم الأثيوبى « كشتا » قد ورد ذكره عند « منتون » تحت اسم (سيتى) . وظاهر أن الحكام الأثيوبيين لم يستطيعوا توحيد مصر بحال من الأحوال . ونحن نسمع صدى ذلك فى النبوءة المنسوبة إلى يوشع (إصحاح ١٩) حيث يقال : « أهَيِّجُ مصريين على مصريين ؛ فيحارب رجلٌ أخاه ، ورجل صاحبه ؛ مدينة مدينة ، ومملكة مملكة» . و «سيتون» فى رأى Griffith هو بطل من أبطال ذلك القصص الذى أخرجه تحت عنوان « قصص أخبار ممفيس » .

انظر : (Griffith, Stories of the High - Priests of Memphis (The SETHON of Herodotus (Oxford 1909, 13 - 40) .

وكان ذلك القصص جاريا على ألسنة الناس أيام هردوت .

(٢) من الحقائق المعروفة فى تاريخ مصر الفرعونية وبخاصة أيام الدولة الحديثة ؛ بل منذ طرد الهكسوس ، أن القواد والأبطال من رجال الحرب =

العرب(١) والآشوريين سنحريب جيشاً عظيما نحـو مصر(٢) . وهنالك رفض المحاربون المصريون مد يد المساعدة له . فلما وقع الكاهن فى هذه الحيرة ، توجه إلى المحراب يندب أمام التمثال ما يعانيه من خطر . وفيما هو يئن استولى عليه النعاس ، وبدا له فى الحلم أن الرب يقف بجانبه ، يشجعه ويقول : إنه لن يصيبه مكروه إذا خرج لملاقاة الجيش العربى ، لأن الإله نفسه سيبعث إليه بمن يدافعون عنه . ولثقته فى أحلامه ، أخذ معه من المصريين من رغب فى اتّباعه ، وعسكر فى « بيلوزيوس » (إذ هناك توجد المنافذ إلى مصر) . ولم يكن بين من تبعوه واحد من المحاربين ؛ بل كانوا من صغار التجار والصناع الذين يرتادون الأسواق . فلما وصل الأعداء هناك انقضّت الفئران ليلا على الأعداء كالسيل الجارف ، وقرضت جُعَبهم وأقواسهم وحمائل دروعهم أيضاً . فكانت النتيجة أنهم — وقد أصبحوا عزّلا من السلاح — ولوا الأدبار ، وسقط منهم الكثيرون . وحتى الآن يقوم لهذا الملك تمثال حجرى فى معبد « هيفايستوس » ، يمسك فى يده فأرا ، عليه نقش ، ينطق بهذه العبارة :

= قد كانوا يُقْطَعون مساحات من الأرض الزراعية ، وحسبنا أن نذكر من ذلك على سبيل المثال ما رواه البطل « أحموسى بن إبنا » الذى شارك فى طرد الهكسوس تحت قيادة « أحموسى » الأول . انظر : (Sethe, Urk. IV, 18 Dyn,. 6) . ثم (Badawi, Memphis, S. 59) . فأمّا مساحة الفدان المصرى القديم فكانت بحساب اليوم تساوى ٢١ س ١٥ ط .

(١) أكبر الظن أن المقصود بالعرب هنا قد كانوا سكان وادى النهرين ومن يليهم من أهل البقاع المجاورة الذين خضعوا يومئذ لسلطان « سنحريب » .

(٢) كان ذلك حوالى عام ٧٠١ ق . م . أيام حَكَمَ « طهرقه » الأثيوبى مصر .

« فليتق الله من ينظرنى »[1] .

---

(١) ليس من السهل أن نعرف أسباب الهزيمة على وجه التحقيق ، وإن كان يمكن — بسبب ذكر الفيران — أن نتصور أن الجيش الآشورى قد هلك بوباء الطاعون وبذلك نجّى الله « أورشليم » ؛ وفاز معها جيش « طهرقه » بالنجاة . وتلك قصة تذكرنا بهجوم « أبرهة الأشرم » على الكعبة ، وما كان من معجزات « عام الفيل » ، الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم . وتذكرنا كذلك بما وعد به الله النبىَّ فى « وقعة بدر » وبما كان فى « وقعة الخندق » ، وظاهر من شواهد الأمور أن الخطر الآشورى قد كان يتزايد ، وأن «سنحريب» الذى خلف أباه « سرجون الثانى » منذ عام ٧٠٥ ق . م . كان قد قرر أن يهاجم فلسطين ، وأن ملوك آسيا الدنيا قد اضطروا إلى التّحالف لمواجهة هذا الخطر . انظر : (التوراة سفر الملوك الثانى ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٩ : ١٢ — ١٣) ، وكيف أن « سنحريب » قد حاصر « أورشليم » ، وكيف استطاعت هذه بفضل قوة حصونها أن تقاوم هجوم الآشوريين ، وكيف أن ملك مصر « شباتاكا » قد بعث بجيش إلى آسيا تحت إمرة « طهرقه » ، وكيف أن « سنحريب » قد هزأ بكل ذلك فأرسل إلى « حزقيا » قائلا : على من اتكلت حتى عصيتنى ، هو ذا قد اتكلت على مصر ، واتخذت عكازه هذه القصبة المرضوضة التى إذا اتكأ عليها إنسان دخلت فى كفه وثقبتها . كذلك هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه . انظر : (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٢٠ — ٢١) .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أننا لا نملك من وثائق التاريخ الصحيح ما يؤيد تلك الهزيمة التى حاقت بسنحريب وجيشه ، وإن كنّا نملك روايتين ولا نملك إزاء أحداث التاريخ إلا أن نضعهما فى مصاف المعجزات : أولاهما أن « يهوى » رب العبرانيين قد بعث بواحد من ملائكته أهلك بسيفه ١٨٥٠٠٠ من عساكر الآشوريين . انظر : (كتاب الملوك : ١٩ : ٣٥ — ٣٦) ، وتلك — فى رأيى — أشبه بالمعجزة التى أهلك بها الله أعداء المسلمين يوم « بدر » ، والثانية هى التى تصدى لها « هردوت » .

انظر : (Legrand, Hérodote. p. 165) .

١٤٣ — إلى هذا الحد من الرواية ، كان الكلام للمصريين وكهنتهم : وضحوا لى أنه وجد عندهم ابتداء من أول ملك إلى كاهن « هيفايستوس » هذا — وهو آخر من حكمهم — واحد وأربعون وثلاث مئة جيل من البشر(١). وخلال هذه الأجيال ، كان عدد كبار الكهنة بقدر عدد الملوك(٢). والآن. فإن ثلاث مئة جيل من الرجال تعادل عشرة آلاف عام ؛ لأن ثلاثة من هذه الأجيال تعادل مئة سنة(٣) ، ويبلغ ما تشتمل عليه الأجيال الواحد والأربعون الباقية — التى تضاف إلى الثلاث مئة — ١٣٤٠ عاماً(٤) . وهكذا ؛ لم يظهر — حسب قولهم — إله على شكل إنسان(٥) . وقالوا : إنه لم يظهر شىء من هذا القبيل ، لا من قبل ولا من بعد فى عهد ملوك مصر الباقين . ثم قالوا إن الشمس فى ذلك العصر غيَّرت مناطقها المألوفة أربع مرات ؛ فأشرقت مرّتين حيث تغرب الآن ، وغربت مرتين حيث تشرق الآن . ولكن لم يتبع ذلك أى تغيير فى مصر ، لا فيما تُغِلّه الأرض ، ولا فيما يجود به النهر ، ولا فيما يتعلّق

(١) يقصد « منا » أول الملوك فضلا عن الثلاثين والثلاث مئة . كما أوضح فى الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب ، ثم يضيف إلى ذلك العشرة الذين ورد ذكرهم بين فصلى (١٠٢ — ١٤١) .

(٢) ليس ضروريا أن يكون عدد كبار الكهان بقدر عدد الملوك .

(٣) يتضح من ذلك أن « هردوت » لم يتوخ الدقة ، وإنما أخذ بالتعميم ؛ حين جعل لكل ملك متوسطاً من العمر لا يعدو الجيل الواحد .

(٤) لقد أخطأ « هردوت » ولم يكن دقيقاً فى حسابه ، إذ أن الأجيال التى ذكرها ؛ وعددها واحد وأربعون وثلاث مئة تعد من السنين ١١٣٦٦ ⅔ . وذلك على أساس أن كل قرن من السنين يشمل ثلاثة أجيال .

(٥) ذلك كلام تنقصه الدقة . وحسبنا أن معبود المصريين « بتاح » قد كان منذ أول عهد المصريين يظهر فى صورة بشر .

بالأمراض أو الموت(١) .

١٤٣ — وعنـدما وضح المؤرخ « هيكاتيوس »(٢) ـ فيما مضى أثناء وجوده فى طيبة ـ تسلسل أنسابه ؛ فرفع أصل أسرته إلى إله جعله جده السادس عشر(٣) ، فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معى . ولو أننى لم أوضح نسبى . فقادونى داخل المحراب(٤) وهو ضخم . وأرونى تماثيل خشبية ضخمة وعدّوها ؛ فكان عددها كما قالوا تماماً ؛ لأن كل كاهن كبير يقيم هناك فى حياته تمثالا لنفسه. وفيما كان الكهنة يعـدّونها ويطلعوننى عليها أكدّوا لى أن كل ابن منهم كان خليفة لأبيه . بادئين بآخر من مات منهم . ومارّين بهم جميعاً حتى أتوا على ذكرهم جميعاً . وعندما وضح « هيكاتيوس » نسبه ووصل بأصله إلى إله

---

(١) يقصد ما كان يعترى بدء السنة المصرية من تغيير . انظر : (ما جاء من الحديث عن ذلك فى (Erman, Aegypten S. 397 - 399) .

(٢) هيكاتيوس : هو الشهير « بالمَلَطِى » نسبة إلى وطنه « مَلَطْية » . وكان من أشهر رجال زمانه . سبق « هردوت » فى كتابة التاريخ ، ويعد أول أسلافه فى هذا المجال ؛ زار كثيراً من بقاع الدنيا المعروفة فى أيامه ، وسجل كل مشاهداته وبخاصة وصف تلك البقاع ومنها مصر ؛ وذلك فى كتابه « حول الأرض » . وله كتاب آخر أسماه « الأنساب » . وظاهر فى أكثر ما كتب « هردوت » أنه شديد الكره لسلفه هذا ، كثير الطعن عليه ، شديد الميل إلى تسفيه آرائه . ويكفى أن نشير إلى ذلك فى بعض فصول هذا الكتاب مثل : (فصل : ٢١ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١٥٦) . وليس بين أيدينا ما يحقق زعم « هردوت » من أن سلفه قد حكى كلّ ما نُسِبَ إليه ، وأكبر الظن أن الأمر لا يخرج عن افتراء مصدره الكره والحسد .

(٣) أغلبَ الظن أن الإله المعنى هنا هو « أبوللون » الذى عبد فى « مَلَطْية » وطن « هيكاتيوس » .

(٤) لا ندرى لم لم يصف « هردوت » ذلك المحراب بالتفصيل كدأبه ؟ .

بمثابة جده السادس عشر ، عارضوه فى أن نسبا يعتمد على هذا الثبت لأنهم لا يسلمون بقوله إن إنسانا يخلق من آله ، وعارضوا نسبه بهذه الكيفية . . . أعلنوا أن كل واحد من أصحاب التماثيل الضخمة كان « پيروميس »(١) خليفة « پيروميس » إلى أن وضحوا أن هذا التسلسل من « پيروميس » إلى «پيروميس» يشمل الخمسة والأربعين والثلاث مئة تمثال ولم ينسبوهم إلى إله أو بطل . و« پيروميس » تعنى فى اللغة اليونانية « الرجل الفاضل » .

١٤٤ — إذن هذه التماثيل — وفقا لتبيانهم — كانت على شاكلة أصحابها (من البشر) ، بعيدة كل البعد عن الآلهة . ولكن قبل هؤلاء الناس ، كان حكّام مصر آلهة يعيشون مع البشر ، وكان صاحب السلطان دائماً واحدا منها ، وآخر الملوك من الآلهة هو « حورس » بن « أزوريس » . ويسميه اليونانيون «أپوللون»(٣) ، حكم بعد أن خلع «تيفون»(٤) ، فكان آخر ملوك مصر من الآلهة.

---

(١) الواقع أن « هردوت » يقصد إلى تحوير اللفظ فى اللغة الإغريقية إلى معنى « الرجل الفاضل » ؛ وإن كان يمكن إرجاعه إلى أصل مصرى قديم لا يعدو بمعناه كلمة « الرجل » ، « الإنسان » ، « البشر » .

(٢) عرف المصريون من آل فرعون — كغيرهم من سائر شعوب الأرض القديمة — أسراً مقدسة لأربابهم التى عبدوها .

انظر: (Alex. Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne, p. 68.)

(٣) كان « أپوللون » هو الاسم الذى أطلقه الأغارقة على المعبود المصرى « حورس » ، وكان هذا الأخير إنما يُمثِّل — فى الأغلب الأعم — «الشمس» . وهى مظهر القوة الطبيعية التى تفعل فعلها فى الحياة وتطورها على مدار السنة . وأما أن « حورس » كان آخر من حكم من الآلهة ، فذلك قول يطابق ما جاء فى نظرية هليوپوليس الدينية .

(٤) الاسم الذى أطلقه المصريون على المعبود المصرى «ست» رمز الجفاف ، وصاحب الصحراء ، وقاتل أخيه « أزوريس » ، وعدو ولده « حورس » (= أپوللون) .

« وأزوريس » هو في اللغة اليونانية « ديونيسوس »[1] .

١٤٥ — يعتبر « هيرا كليس »[2] و « ديونيسوس » و « پان » عند اليونانيين أحدث الآلهة . أما المصريون فيعتبرون « پان » أقدم الآلهة . وبعد الآلهة التي يسمونها الآلهة الثمانية[3] الأولى . و « هيرا كليس » أحد آلهة المرتبة الثانية المسماة بالآلهة الاثنى عشر[4] ، و « ديونيسوس » أحد آلهة المرتبة الثالثة الذين خلقوا من الآلهة الاثنى عشر . ولقد بيّنت — فيما سبق — عدد السنين التي انقضت — حسب قول المصريين أنفسهم — بين « هيرا كليس » والملك « أمازيس »[5] . ويقال إن المدة التي مرّت منذ « پان » أطول من ذلك أيضاً ، وانقضت منذ « ديونيسوس » فترة أقصر من هذه وتلك . ويعدون من زمان « ديونيسوس » إلى زمان الملك « أمازيس » خمسة عشر ألف عام[6] . ويؤكد المصريون أنهم يعرفون ذلك بمنتهى الدقة لأنهم يحسبون السنين ويسجلونها باستمرار . مع أن الفترة منذ وجود « ديونيسوس » بن « سميلي » بنت « كادموس » حتى أيامنا هذه ، تبلغ ألفاً

---

(١) واضح أن « هردوت » يعني بالمعبود الإغريقي Dionysos نظيره من معبودات المصريين « أزوريس » الذي يمثل البعث في الطبيعة . وقد أوضحنا ذلك في غير موضع من هذا الكتاب . انظر : (الفصلين رقم ٤١ ، ورقم ١٢٣) .

(٢) انظر : (الفصلين رقم ٤٣ ، رقم ٤٤) من هذا الكتاب .

(٣) انظر : (الفصول رقم ٤ ، ٤٣ ، ٤٦) من هذا الكتاب .

(٤) انظر : (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب .

(٥) انظر : (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب .

(٦) انظر : (Legrand, H. L. II p. 144, Note 7) .

وستمئة سنة تقريبا[1] . ومنذ زمان « هيرا كليس » بن «ألـكمينى» تسع مئة عام على وجه التقريب . ومنذ « پان » بن « پنيلوپى » . (إذ يقول اليونانيون إنه ابنها من « هرمس »)[2] ، انقضت أعوام أقل مما انقضى منذ حرب طروادة أى ما يقرب من ثمان مئة .

١٤٦ — ولكل امرئ أن يختار من هاتين الروايتين ما يرى أنها أولى بالتصديق . أما أنا فلقد سبق أن بيَّنْت رأيى فى هذا الشأن[3] ، لأنه إذا كان « ديونيسوس» بن « سميلى » و « پان» بن « پنيلوپى » اشتهرا وعَمُرًا كذلك فى بلاد اليونان مثل «هيرا كليس» بن « أمفيتريون » ، فللمرء أن يقول إنهما كانا — مثل « هيرا كليس » — رجلين يسميَّان باسْمَىْ الإلهين اللذين وجدا من قبلهما . على أن اليونانيِّين يقولون عن « ديونيسوس » أن « زيوس » قد خاطه إلى فخذه بمجرد ولادته ، وحمله إلى « نيسا »[4] التى تقع بأثيوبيه فيما وراء مصر . أما بخصوص « پان » فليس فى إمكانهم أن يقولوا إلى أين

---

(١) إذا جاز لنا أن نرى أزهر أيام « هردوت » خلال رحلته إلى مدينة «تورى» Thurii بإيطاليا ؛ أى حوالى ٤٤٤ ق. م ، فإن أيام « ديونيسوس » ينبغى أن تقع حوالى ٢٠٦٤ ق. م ، وأيام «هيراكليس» حوالى ١٣٤٤ وأيام « پان » حوالى ١٢٤٤ ق. م.

(٢) انظر الحديث عن Hermes فى الفصل رقم ٥١ من هذا الكتاب ، فأما «Penelope» فلن يختلف وضعها هنا عن وضع Helena أو عن وضع «Jo».

(٣) انظر الفصول من ٤٣ — ٤٩ ، ثم الفصل رقم ٥٢ من هذا الكتاب .

(٤) هذا هو الاسم الذى وضعته الخرافة الإغريقية علماً على الموضع الذى بعث إليه «زيوس» بالطفل « ديونيسوس» ، وأسلمه إلى الحور ليرضعنه . ولما انتشرت شعائر « ديونيسوس» مع الزمن أخذت أسماء الأماكن الخاصة بمولده ونشأته تتردّد وتختلف بين « تراقية » ، و« آسية الصغرى» ، و«الهند» .

تَوجَّهَ بعد مولده . ومن ذلك يتضح أن اليونانيين ــ فيما يبدو لى ــ قد عرفوا اسْمَىْ هذين الإلهين بعد أسماء الآلهة الآخرى ، وأنهم حددوا تاريخ ميلادهما وقتما علموا بهما .

١٤٧ ــ إن ما سبق هو من كلام المصريين أنفسهم : وأقص الآن روايات الآخرين ؛ وتلك يوافق عليها المصريون ، بشأن ما حدث فى هذا البلد . وسيضاف إلى هذا أيضاً بعض مشاهداتى الخاصة (١) .

لمـا تحرَّر المصريون بعد حكم « كاهن هيفايستوس » (لأنهم لم يستسيغوا مطلقا أن يعيشوا زمناً بدون ملك) ، قسَّموا مصر كلها اثنى عشر قسما ، وَنصَّبوا عليها اثنى عشر ملـكا(٢) .

---

(١) انظر الفصل رقم ٩٩ من هذا الـكتاب .

(٢) الواقع أن فـكرة الاثنى عشرية لا تبدو قائمة على أساس واضح . فأما فـكرة الانحلال والتـكالب على الحـكم قبل أيام الأسرة السادسة والعشرين فأمرها معروف ، وإن كان قد غاب عن « هردوت » أن هذه الصورة من الانقسام والتفـكك قد عُـرِفَتْ وتـكررت فى مصر قبل أيام الأسرة الخامسة والعشرين ؛ فهى قد عرفت قبل أيام «منا» ، وهى قد عرفت قبل أيام الدولة الوسطى ، و بعد انتهاء أيامها أيضاً . انظر : (de Meulenaere ibd.12 f.) . و أكبر الظن أن ضخامة بناء « اللابيرنث » . انظر : (الفصل رقم ١٤٨) قد راعت هردوت بحيث لم يستطع أن يتصور أنه من عمل ملك واحد . والواقع أن ذكر العـدد والإصرار على تحديده لم يكن من عمل هردوت وحده ، بل أخذ به كل من « استرابون » و « بلينيوس » فجعلا كل فنـاء من أفنية المعبد الاثنى عشر لإقليم من الأقاليم الاثنى عشر . انظر : (Plinius, Naturalis historia 36, Cap. 13) .

وفـكرة تمثيل الأقاليم فى المعابد كانت معروفة قبل أيام هردوت ، وقبل أيام الأسرة السادسة والعشرين ؛ بل قبـل أيام صاحب اللابيرنث . عرفت أيام « منكاورع » . انظر : (Reisner, Mycerinus (Cambridge 1913)) .

وتحالف هؤلاء الملوك فيما بينهم عن طريق الزواج ، وحكموا متبعين هذه القواعد . ألا يخلع أحدهم الآخر ، ألا يسعى أحدهم إلى أن يمتلك أكثر من الآخر ، وأن يكونوا أصدقاء مخلصين . أما السبب الذى من أجله استنوا هذه القواعد واحترموها احتراما فائقا فهو أن وحياً بمجرد توليتهم الحكم جاءهم منذ البداية قائلاً إن حكم مصر سيئول إلى من يسكب منهم القربان من قدح برونزى فى معبد « هيفايستوس »[1] (ذلك لأنهم كانوا يجتمعون فى جميع المعابد)[2] .

١٤٨ — وقرروا جميعاً أن يخلفوا أثراً مشتركا . وعلى أثر ذلك القرار ، شيدوا « اللابيرنث »[3] الذى يقع وراء بحيرة

---

(١) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل (رقم ٥١) من هذا الكتاب .

(٢) يعنى أن الاجتماع لم يكن قاصراً على المعبد التابع للإقليم الذى سيتولى حكمه كل واحد من أولئك الأثني عشر ، بل كان فى معابد الأقاليم الأخرى ، وفى مقدمتها معبد « بتاح » .

(٣) اللابيرنث المصرى : كتب فى وصفه غير هردوت آخرون من كتاب العالم القديم ، وليس فى مقدورنا اليوم تحقيق الوصف الذى أورده هردوت ، بعد أن تتابعت محن الأيام على البناء ، وعدت عليه العوادى فى القديم والحديث ، ففى العصر الرومانى بنيت من أنقاضه مدينة « كروكوديلوپوليس » (مدينة التمساح) . ومنها بنيت أكثر مرافق السكة الحديدية فى الأيام الحديثة ، وتحير الباحثون فى تحديد مكانه . انظر : (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889).
ومن الذين وصفوا المعبد غير « هردوت » « استرابون » . انظر : (Strab. 17, 811) الذى عاش بعده بأربعة قرون . ونستطيع أن نقدر مطمئنين أن بناء المعبد قد تغير فى هذا المدى الطويل ، ويتضح أثر ذلك فى اختلاف الوصفين ، كما يتضح مما رواه « ديودور الصقلى » . انظر : =

« مويريس »[1] بقليل ، وعلى قرب من المدينة المسماة بمدينة التماسيح[2] .
ولقد رأيته بنفسى ، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان . إذ لو قدر لامرئ أن يجمع معرضا للمبانى والآثار الفنية التى شيدها اليونانيون ، لبدت عملاً أقل من هذا « اللابيرنث » بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق . ولو أن معبدى «إفسوس»[3] و «ساموس»[4] ليستحقان الكلام . كذا لاحظنا أن الأهرام تجل عن الوصف وأن كلا منها يكافئ كثيراً من آثار يونانية ، حتى عظيمها .
ولكن « اللابيرنث » يفوق الأهرام أيضاً وبه اثنا عشر بهوا مسقوفا مداخلها متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة ، يحيط بها سور خارجى واحد . وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق الأولى ، تحت سطح الأرض . وعددها ثلاثة آلاف قاعة . خمسمائة وألف من

= (Diod. I, 66) . والواقع أن فى ضياع هذا الأثر خسارةً فى تراث العمارة الفرعونية لاتعدلها خسارة ؛ فهو كما وصفه الكتّاب الذين ذكرنا يعد شيئاً منقطع النظير بين عجائب الدنيا ؛ بل هو كما وصفوا يفوق كافة المعابد المصرية من حيث المساحة ، وتعدد الغرفات وزينتها وزخرفها وتماثيلها. انظر:(Petrie, ibd.) ثم (Petrie, Labyrinth, Gizeh & Mazghuneh) . ثم انظر الحديث الذى جاء عن ذلك فى الكتاب الذى أصدره de Meulenaere عن هردوت والأسرة السادسة والعشرين عام ١٩٥١ ، وأخيراً المقال الذى نشره العالم Kees.
انظر : (Kees, Aeg. Laby. RE. XII, 1, S. 323 - 326) .
ثم (Wiedemann, Herodots II tes Buch S. 525—533).

(١) انظر ما جاء عن البحيرة فى الفصل رقم ١٣ من هذا الكتاب .

(٢) « مدينة التماسيح » التى عرفت بعد أيام الفراعنة باسم Arsinoe و هى تبعد كثيراً عن مدينة الفيوم الحالية (انظر : ص ٢٧٩ هامش ٣) .

(٣) يقصد معبد ARTEMIS فى تلك المدينة. انظر : (هردوت جـ ١ فصل ٩٢).

(٤) يقصد معبد HERA ؛ وكان فى رأيه أكبر المعابد . انظر : (هردوت جـ ٣ فصل ٦٠) .

كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التى فوق سطح الأرض وجسنا خلالها . وإنا لنتكلم عما شاهدناه بأعيننا . . أما القاعات التى تحت الأرض ، فوقفنا على أمرها مما قيل لنا. لأن هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة أن يرونا إياها ، مدعين أنه توجد بها توابيت الملوك الذين بنَوا ، أول الأمر ، ذلك اللابيرنث. وبها توابيت التماسيح المقدَّسة أيضاً. وهكذا تلقفنا الحديث عن القاعات السفلى ، عرفناه عن طريق السماع . أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا وهى تفوق أعمال البشر . فالممرات خلال الردهات والمنعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الأبهاء كانت لنا مصدر أعجاب لا حد له ، أثناء مرورنا من البهو إلى القاعات . ومن هذه إلى الأروقة ، ومن هذه إلى ردهات أخرى ومن القاعات إلى سائر الأبهاء . وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ، والجدران ممتلئة بالأشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة بإتقان فائق . ويلتصق بالركن الذى ينتهى عنده اللابيرنث هرم ارتفاعه أربعون باعا ، حفرت عليه أشكال حيوانات كبيرة [1] ، وقد بنى تحت الأرض طريق تصل إليه .

---

(١) إنه هرم « أمنمحات الثالث » فى « هوَّاره » . ويقصد هردوت بالأشكال الكبيرة الكتابة الهيروغليفية ، وعلى ذلك جرى النظراء من الكُتَّاب الأقدمين ، إذ كانوا يسمُّون إشارات الكتابة المصرية « الحيوانات الكبيرة المحفورة » ، وفى ذلك الوصف ما يدل على أن هردوت قد رأى هذا الهرم ، فأما تقدير الارتفاع عنده ويبلغ ٢٤٠ قدما فيختلف عن تقدير Perring الذى يبلغ ١٦٠ قدما. هذا ، ولا يفوتنا أنَّه قد كان لأمنمحات هذا هرم آخر على بعد قريب من منف ، وقد بقيت منه قمته الموجودة بالمتحف المصرى والتى بلغ ارتفاعها ١٫٤٠ م كما بلغ طول قاعدتها ١٫٨٥ م. انظر : (Schaefer, Z.Ae.S. 41, 1904 S. 84. f.) .

١٤٩ — ومع أن « اللابيرنث » على هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة بحيرة مويريس[١] والتى بنى « اللابيرنث» بالقرب منها ، تثير عجبا أشد ، فطول محيطها ٣٦٠٠ ستاد أو ستون اسخينوس ، وهذا مدى يساوى امتداد مصر نفسها على ساحل البحر . وتمتد البحيرة نحو الشمال والجنوب ، وغورها فى أعمق الجهات خمسون باعا ، وهى ذاتها تشير إلى أنها صناعية ، صورتها السَّواعد ، إذ يقوم فى وسطها تقريبا هرمان ، يرتفع كل منهما فوق الماء خمسين باعا ، وما بنى تحت الماء منهما يعادل هذا القدر . ويوجد فوق كل منهما تمثال ضخم من الحجر يجلس على عرش . وبذا يكون ارتفاع كل من الهرمين مئة باع ومئة باع تساوى «ستادا» واحدا مكونا من ستة بليثرونات ، لأن الباع يساوى ستة أقدام أو أربع أذرع ؛ ذلك لأن القدم أربعة أشبار والذراع ستة أشبار[٢]. والماء الذى بالبحيرة ليس فيها بالطبيعة (فالإقليم فى هذه المنطقة شديد الجفاف) بل يصل إليها

---

(١) يقصد البحيرة المعروفة اليوم باسم « بركة قارون » انظر فصل ١٣ .

(٢) إن التمثالين اللذين ظَـنَّ « هردوت » أن قاعدة كل منهما هرم ، يقعان على مسيرة ٨ كيلو مترات إلى الشمال من مدينة ARSINOE ، ولسنا نعتقد أنهما يوم رآهما هردوت كانا — كما يقول — يتوسطان البحيرة . وقد عثر « بترى » على القاعدة فى القرن المـاضى ، وكان ارتفاع التمثالين ١٢ م ، وكان جزءاها السفليان واضحين حتى أيام القرن السابع عشر . وعثر « بترى » أيضاً على شىء من حطام هذين الأثرين . ونحب أن نقرر آخر الأمر ؛ أن هردوت لم يكن كاذباً ، وإنما كان معذوراً حين رأى القاعدة هرماً ، إذ أنه رآها من بُعْـدٍ ، فهالته ضخامتها .

انظر : (Brown, The Fayum & lake Moeris 1892) .

ثم (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889) .

من النيل بوساطة قناة[1] وينساب الماء من النيل إلى البحيرة مدة ستة أشهر ، ثم يرجع منها إلى النيل ثانية مدة ستة أشهر ، وعندما يخرج منها الماء فى الأشهر الستة ، تجلب من الأسماك[2] ما يُدِرُّ يوميا على الخزانة الملكية (مبلغ) تالنت من الفضة ، وعندما يدخلها الماء يكون واردها عشرين مَنًّا فحسب.

١٥٠ — وكذلك قال أهل البلاد : إن هذه البحيرة تتجه من ناحيتها الغربية إلى الأرض الداخلية بحذاء الجبل الذى يقع فوق ممفيس ، وتصب تحت الأرض فى «السيرتيس» فى ليبيا . ولما لم يقع بصرى فى أى مكان على الرَّديم الناتج عن حفر البحيرة ، فقد شغلنى الأمر ، فسألت الذين يسكنون قريباً جداً من البحيرة أين يوجد الرَّديم الذى أخرج منها . فوضحوا لى بالقول أين نقل . فصدقتهم فى سهولة ؛ لأننى كنت علمت بالسماع أن شيئاً مثل هذا حدث بالمدينة الآشورية « نينوى »[3] ، إذ أن « اساردانا پالوس »[4] ملك نينوى كان يملك أموالا طائلة محفوظة فى كنوز تحت الأرض ، وأن اللصوص فكروا فى سرقتها . فشرع هؤلاء فى الحفر تحت الأرض ، مبتدئين من بيوتهم

---

(١) تلك هى القناة المعروفة اليوم باسم «بحر يوسف» الذى يفصل من النيل عند ديروط ثم يجرى بالماء إلى واحة الفيوم . وأكبر الظن أن القناة القديمة كانت أوسع من قناة اليوم .

(٢) ليس غريباً أن تغَنَّى البحيرةَ بأسماكها ، وقد أشار إلى ذلك « ديودور » ، انظر : (Diod. I, 52) ، وإن كان قد أخطأ حين نسب إلى الملك «موريس» تخصيص إيراد السمك الخارج من هذه البحيرة لزينة زوجته ، وأغلب الظن أنه خلط بين هذا الملك وبين حكام الفرس الذين خصصوا إيراد بعض المدن لزينة أزواجهن .

(٣) نينوى : عاصمة آشور من عام ١٣٠٠ — ٦١٢ ق . م .
انظر : (هردوت ج ١ فصل ١٧٨) .

(٤) ملك من ملوك آشور ورد اسمه كالآتى فى الخط المسمارى : AŠŠUR—DAN—APLU . عاش فى القرن السابع قبل الميلاد .

ومقدرين المسافة إلى القصر الملكى ، وكانوا كل ليلة يحملون التراب الناتج عن الحفر إلى نهر دجلة الذى ينساب بالقرب من «نينوى» حتى حققوا بغيتهم . ولقد سمعت أنَّ شيئاً من هذا القبيل قد حدث عند حفر البحيرة فى مصر . إلا أنه لم يتم بالليل ؛ بل تم بالنهار . إذ كان المصريون يحملون التراب الذى يُخْرِجُونَه إلى النيل ، وكان النهر يأخذه معه ويبعثره حتما .

١٥١ — واتبع الملوك الاثنا عشر العدل . وبعد مرور فترة من الزمن ، بينما كانوا يُقَرِّبون فى معبد هيفايستوس ، وفيما هم يزمعون سكب القربان فى آخر أيام العيد ، أحضر لهم الكاهن الأكبر الأوانى الذهبية التى اعتادوا استخدامها فى سكب القربان . ولكنه أخطأ فى العدد فأحضر إحدى عشرة آنية مع أنهم كانوا اثنى عشر ملكا . ولما لم يكن لا پسماتيك[1] ، الذى كان يقف آخرهم ، إناء نزع خوذته وكانت من البرونز[2] ومدها ثم سكب بها القربان . وكان جميع الملوك الآخرين أيضاً يلبسون خوذات . وتصادف عندئذ أنهم كانوا يلبسونها . (ومعنى ذلك أنه) لم يجل مطلقا بخاطر «اپسماتيك» أى تفكير خبيث عندما مد خوذته . ولكن الآخرين فكروا فيما فعله ، وفى الوحى الذى كان قد أنبأهم بأن الذى يسكب منهم القربان من إناء برونزى سيكون وحده ملك

(١) اپسماتيك الأول حكم بين عامى ٦٧٠ ، ٦١٦ ق . م . انظر : (الفصل رقم ١٥٧) .

(٢) لم تكن كافّة التيجان التى نراها فى الصور والرسوم على رءوس الفراعنة من المعدن . وليس بمستبعد كذلك أن يكون فى الأمر خلط وسوء فهم فى تفسير كلمة برونز . انظر : (de Meulenaere ibd. p. 24 s. 99) .

مصر . ولما تذكروا النبوءة ، اعتبروا أنه من الظلم قتل « اپسماتيك » إذ اكتشفوا ، بعد سؤاله ، أنه أقدم على فعلته دون أى تفكير مقصود . وقرروا إبعاده إلى المستنقعات[1] بعد تجريده من الجزء الأكبر من سلطانه . وعلى ألا يغادر المستنقعات ، وألا تكون له صلات مع باقى أقاليم مصر .

١٥٢ — واپسماتيك هذا كان قد فر فيما مضى أمام «شباكو» الأثيوبى الذى قتل أباه « نيكوس »[2] ولجأ عندئذ إلى سورية . وعندما انسحب الأثيوبى بسبب الحلم الذى رآه ، أرجع المصريون (أهل سايس) اپسماتيك الذى تولى الحكم بعد ذلك . وحدث لسوء حظه أن نفاه الملوك الأحد عشر مرة ثانية إلى المستنقعات بسبب الخوذة . ولما أحسَّ أنهم امتهنوا كرامته فكر فى الانتقام ممن طردوه فأرسل إلى معبد «ليتو» فى مدينة «بوطو» حيث يوجد وحى مصدق تمام التصديق عند المصريين[3] ، وجاء الوحى بأن الانتقام سيأتى من البحر عند ظهور قوم برونزيين ، وداخله شك كبير فى مجىء رجال برونزيين لمساعدته . ولكن بعد مضى وقت غير طويل شاء القضاء المحتوم أن يطوح إلى مصر بنفر من الأيونيين والكاريين[4] ، كانوا قد أبحروا بغية السلب .

---

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٢ ، رقم ١٤٠). المقصود هنا منخفضات الدلتا تحيط بها القنوات أحيانا وتغطيها الأخوار أحيانا أخرى .

(٢) نخاو : والد أوسلف اپسماتيك ؛ قتله الأثيوبيون عام ٦٦٣ ق . م . انظر : (de Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn. Leuven 1951) .

(٣) انظر : (فصل ١٥٥) ، ثم انظر : (ماورد فى الفصل الثالث والثمانين) .

(٤) كان الكاريُّون أصلاً يحترفون القرصنة ، ثم أصبحوا بعد ذلك من الجنود المرتزقين . وقد عُثِر بين نقوش معبد أبى سنبل على نصوص تدل أن الجنود الكاريِّين قد بلغوا أسوان تحت إمرة « اپسماتيك » فعلاً . انظر : (Wiedemann, Hersdots IItes Buch S. 592) .

ولما نزلوا إلى البر ، مدرعين بالبرونز ، ذهب أحد المصريين إلى المستنقعات إلى « ابسماتيك »، ولم يكن قد رأى من قبل رجالا مدرعين بالبرونز ، فأبلغ «ابسماتيك» أن رجالا برونزيين قد وصلوا من البحر وأنهم ينهبون الأرض المنزرعة. فأدرك «ابسماتيك» أن النبوءة قد تحققت وعمل على مصادقة الأيونيين والكاريين وإغرائهم بوعود سخية لينضموا إليه . فلما أقنعهم ، خلع الملوك بمساعدة هؤلاء المرتزقة والمصريين الذين رغبوا فى تأييده .

١٥٣ — ولما تمت له السيادة على مصر كلها ، أقام «ابسماتيك» فى ممفيس رواقاً لهيفايستوس ، يتجه نحو الجنوب . وبنى لأبيس[١] تجاه الرواق فناء حيث كان يطعم عندما يتجلى، والفناء كله محاط بالأعمدة ومملوء بالصور[٢]. وبدلا من أن يقوم على أعمدة ، تحمله تماثيل ضخمة ، طول كل منها اثنتا عشرة ذراعا . و« آپيس » فى اللغة اليونانية هو « إپافوس »[٣] .

١٥٤ — وأعطى « ابسماتيك » الأيونيين والكاريين الذين ساعدوه أراضى ليسكنوها ، بعضها قبالة البعض[٤] يمر النيل فى وسطها ، وتسمى المعسكرات[٥] ، منحهم هذه الأراضى ووفّى لكل بما كان قد وعد به . كما أنه عهد إليهم بصبية مصريين لِيتَعَلَّموا اللغة اليونانية . ومن هؤلاء الذين تعلموا انحدر التراجمة[٦] الحاليون بمصر . وأقام الأيونيون والكاريون بهذه

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٩ ، رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .
(٢) يعنى الكتابة الهيروغليفية .
(٣) انظر : (ما جاء عن « إپافوس » فى الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) .
(٤) انظر : (Kees, Zur Innenpolitik der Saiten Dyn.)
(٥) انظر : (الفصل رقم ١١٢) .
(٦) انظر : (المقدمة ثم الفصل رقم ١٦٤) .

الأراضى وقتا طويلا . وتقع بجانب البحر بعد مدينة « بوباسطيس » بقليل ، وعلى فرع النيل المسمى بالفرع البيلوزى ، وأخيراً هجَّرهم « أمازيس » من هذا المكان وأسكنهم « ممفيس » وجعلهم حرسه الخاص ؛ يتقى بهم المصريِّين . وبسكنى هؤلاء مصر وبفضل اتصال اليونانيين بهم عرفنا تماما كل ما جرى بمصر ابتداء من حكم « اپسماتيك » وما بعده . وهم أول من سَكَنَ مصر من الأجانب . ولقد بقيت حتى وقتنا هذا الأماكن التى كانوا يحفظون فيها سفنهم[1] . وبقايا مساكنهم موجودة فى الأراضى التى هاجروا منها . تلك كانت سبيل استيلاء « اپسماتيك » على مصر .

١٥٥ — ذكرت فيما سبق وحى[2] مصر مرات عديدة ، وسيدور حديثى عنه لأنه جدير بالكلام ؛ إن مهبط وحى مصر هو معبد « ليتو » ، المقام فى مدينة كبيرة على فرع النيل[3] المسمى بالفرع السبينِّيتى فى طريق صاعد فى النهر من البحر متجها إلى الداخل . وتدعى هذه المدينة التى يوجد بها الوحى « بوتو » كما سميتها من قبل[4] . وفى مدينة « بوتو » هذه معبد لأپوللون وأرتميس . أما معبد ليتو[5] الذى يوجد به الوحى فهو فى حد ذاته ضخم وله صرح ارتفاعه عشرة أبواع[6] وسأتكلم الآن عما أثار فى نفسى أشد العجب

---

(١) يقصد القواعد التى كانت تحفظ عليها السفن إذا ما أخرجوها من الماء ، ثم تُدفع بعد ذلك بواسطتها إذا ما أرادوا إنزالها إلى الماء .

انظر : (Wiedemann, H. II^tes Buch S. 554) .

(٢) انظر : (فصل ٨٣ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر : (فصل ١٧ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (الفصول ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ثم ١٣٣) .

(٥) يقصد معبد « حتحور » .

(٦) أى نحو ٦٠ قدما .

مما رأيت : يوجد داخل سور معبد «ليتو» محراب مصنوع من حجر واحد[1]، وهو متساوى الأبعاد من ناحية الارتفاع ومن ناحية الطول ، فكل منهما أربعون ذراعا . والسقف الذى يغطيه عبارة عن حجر له إفريز بارز (سمكه) أربع أذرع .

١٥٦ — إن هذا المحراب — من بين ما شاهدت فى نطاق هذا المعبد — يثير فى النفس منتهى العجب . ومن بين الأشياء التى تليه (فى إثارة الدهشة) ، الجزيرة المسمَّاة « خِمِّيس »[2] وتوجد هذه فى بحيرة عميقة واسعة[3] بالقرب من معبد « بوتو » . ويسميها المصريون الجزيرة الطَّافية . أما أنا فلم أرها طافية أو متحركة ؛ بل عندما سمعت بهذا ، أخذتنى الدهشة . وفكرت فيما إذا كانت توجد حقًّا جزيرة طافية[4] . ولكن مما لا شك فيه أن بهذه الجزيرة معبدا عظيمًا لأپوللون وثلاثة هياكل . وينمو فيها نخيل متكاثف وأشجار

---

(١) يقصد ما نسميه الناووس ومِثله كثير بين آثار المصريين .

(٢) ليست هذه نفس مدينة « خميس » التى ورد ذكرها فى الفصل ٩١ . وإنما هذه كانت موجودة بالدلتا ، وأكبر الظن أن يكون اسمها مصرى قديم « خم » بمعنى « المقصورة » ، أو « القدس » ، وربما كانت الجزيرة قريبة من « بوتو » . انظر : (J. Ball, 17) .

(٣) البحيرة التى يصفها هردوت بالعمق والاتساع قد تكون « بحيرة البرلس » التى كانت تتصل بالبحر يومئذ عن طريق الفرع السَّمَنُّودى .

(٤) قد نرى فى ذلك ما يدل على أن « هردوت » كان حريصاً كلَّ الحرص على ألا يصدِّق كل ما كان يسمع . ولم يكن عليه من بأس أن هو صدق ذلك فى سهولة ؛ ذلك لأنه يعرف من أساطير قومه اليونان أن هناك جزيرة طافية قالوا أن AELUS قد عاش فيها . انظر الحديث عن ذلك فى : (Odyss. X, 3) . ثم حديث الجزيرة العائمة أيضاً فى (Kees, G. G. S. 50) .

أخرى كثيرة ، بعضها يثمر وبعضها لا يثمر . ويؤكد المصريون أن الجزيرة طافية ، ويرددون هذه الرواية . لقد حدث فى هذه الجزيرة — ولم تكن طافية فيما مضى — أن إحدى الآلهة الثمانية الأولى[1] ، « ليتو » التى كانت تسكن فى مدينة « بوتو » ، حيث يوجد وحيها ذاك ، حدث فى هذه الجزيرة أن تسلمت « ليتو » من « إيزيس » « أپوللون » وديعة . وأنقذت حياته بأن خبأته فى الجزيرة التى تدعى حاليا بالجزيرة الطافية . حدث ذلك وقتما ذهب « تيفون » يبحث فى كل مكان رغبة منه فى العثور على ابن « أزوريس »[2] . (يقول المصريون إن « أپوللون » و « أرتميس » هما من ولد «ديونيسوس» و « إيزيس» وأن « ليتو » كانت مربيتهما ومنقذتهما . وفى اللغة المصرية ، « أپوللون » هو «حورس» و «ديميتر» هى «إيزيس» و « أرتميس » هى « بوباسطيس »[3]. وعن هذه الرواية — وليس عن أى مصدر آخر — أخذ « أيسخيلوس » ابن « أوفوريون » — وحده من بين الشعراء السابقين — أخذ ما سأقول : جعل « أرتميس » ابنة « ديميتر ») . ومن أجل هذا ، صارت الجزيرة طافية . تلك هى رواية المصريين .

١٥٧ — وحكم إبسماتيك مصر أربعاً وخمسين سنة[4] ، استمر أثناء تسع وعشرين منها محاصراً لأزوتوس[5] حتى استولى عليها ، وهى مدينة

---

(١) انظر : (الفصل رقم ٤٣ من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : (الفصلين رقم ٥٩ ، رقم ١٤٤ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب) .

(٤) ذلك صحيح فقد حكم إبسماتيك من ٦٦٣ إلى ٦٠٩ ق . م .

(٥) أزوتوس AZOTUS « أشدود » مدينة قديمة موقعها فى المنطقة الحصينة الممتدة على الساحل بين « غزة » و « الكرمل » . وقد يكون موقعها قريباً من «عسقلان » . تردد ذكرها فى التوراة ، وكانت مركزا من المراكز=

كبيرة بسوريا . وقد صمدت « أزوتوس » هذه أمام الحصار من بين كل المدن التي نعرفها أطول مدة .

١٥٨ — وأنجب « اپسماتيك » ولداً ، (هو) « نيخوس »(١) ، حكم مصر . وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحر « أروترى » ، والتي أتم حفرها من بعده (دارا) الفارسي(٢). وطول القناة يساوي مدى إبحار

= الحربية الهامة في الشرق القريب عامة وبالنسبة لسياسة مصر يومئذ بخاصة . وقد حاصرها « اپسماتيك » زمناً طويلا ، وكان عظيم الأمل في استرداد أملاك مصر في غرب آسية ، ثم اضطر أخيراً إلى فك الحصار عنها ليعود إلى بلاده ويحميها من ذلك الخطر الداهم الذي كان يهدد حدودها بين أيدي « السكيثيين » الذين أخذوا يجتاحون بلاد الشرق الأدنى حتى قربوا من حدود مصر . انظر : Breasted, Gesch. Aegypten S. 307; ثم de Meulenaere, H. p. 30

(١) NEKOS : فرعون مصر « نخاو » الذي تردد اسمه في التوراة كما ورد على كثير من آثار عهده بين عامي ٦١٠ ، ٥٩٥ ق . م .

(٢) كانت الملاحة في البحر الأحمر من أشق الأمور على المصريين في ذلك العهد وهي ما زالت كذلك إن قارناها بالملاحة في غيره من البحار وبخاصة إذا كانت بالشراع. انظر: (Koester, Z. Ae. S. 58, S. 125 f). والغالب أن ذلك كان من دواعي التفكير في شق قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق « وادي الطميلات » ، وإن كنا لا نكاد نجد في تراث المصريين ما يشير إلى ذلك ؛ لا في أيام الدولة القديمة ، ولا في أيام الدولة الوسطى ؛ وإنما بات أمر ذلك يشغل بال المصريين منذ أيام الدولة الحديثة ؛ فالرسوم التي تمثل مناظر الأسطول المصري في رحلته إلى بلاد « بنـط » تشير إلى اختراقه مياه النيل ، وفي ذلك ما يدل على وجود قناة تصل النيل بالبحر الأحمر . ومن الجائز أن يكون استخدام تلك القناة قد بطل في عهد الرعامسة . ولما كانت أيام الأسرة السادسة والعشرين أخذ « نخاو » في حفر القناة التي يتحدث عنها « هردوت » والتي أتم حفرها من بعده الحاكمان الفارسيان « داريوس » و « إجزركسيس » (Ξέρξης) ، إلا أنها لم تعمر طويلاً .

أربعة أيام ، وقد حفرت عريضة ، حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنباً إلى جنب [1]. ويؤتى إليها بالماء من النيل ، منصرفاً من مكان فوق مدينة « بوباسطيس » بقليل ، بالقرب من المدينة العربية « باتوموس »[2]، وتنتهى إلى بحر « أروترى » . حفر منها الجزء الذى فى السهل المصرى من جانب بلاد العرب ، ويتصل بهذا الجانب إلى الشمال من السهل ، سلسلة الجبال التى تواجه « ممفيس »[3] ، والتى توجد بها المحاجر . وعلى ذلك فالقناة تجرى بحذاء أسفل الجبل ، ممتدة من الغرب إلى الشرق[4] ثم تسير فى منحدرات متجهة من الجبل نحو الجنوب ، ونحو مهب الريح الجنوبية حتى تبلغ الخليج

---

(١) إذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أن القناة قد كانت تستخدم فى أغراض حربية ؛ ذلك لأن السفن ذوات الصفوف الثلاثة من المجاديف كانت سفناً حربيّة . انظر : (فصل ١٥٩ من هذا الكتاب) .

(٢) PATUMOS : مدينة مصرية قديمة ، ورد ذكرها فى التوراة ؛ حيث جاء فى الإصحاح الأول من سفر الخروج أن بنى إسرائيل قد بنوا لفرعون مخازن مدينتى « فيتوم » و « رمسيس » . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد موقع المدينتين وطال الجدل حول ذلك زمناً وبخاصة حول موقع الثانية منهما ؛ وإن كانوا يجمعون على أنها فى شرق الدلتا وعلى بعد قريب من « فاقوس » . فأما « فيتوم » فقد جعلها بعضهم عند « تل المسخوطة » . انظر : (I. Ball, P. 15) .

ثم (Breasted, Gesch. Aegypten S. 248) . وأحدث من كتب عنها هو المهندس « على شافعى » فى المقال الذى أخرجه حديثاً حول هذا الموضوع . انظر : (Historical Notes on the Pelusiac Branch, the Red sea Canal & the Route of the Exodus, Bul. d. l. soc. Geogr. d' Egypte XVI) .

(٣) انظر (الفصل رقم ٤٨ هامش رقم ١)

(٤) يعنى : إلى البحر الأحمر

العربى . وهنـاك ، حيث يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالى[1] إلى البحر الجنوبى — وهذا نفسه يسمى بحر « أروترى » — من جبل « كاسيوس »[2] ، الحد الفاصل بين مصر وسورية ، تبلغ المسافة من هذا المـكان حتى الخليـج العربى ألف استاد . هذا هو أقصر طريق . أما القناة فهى أطول من ذلك بـكثير بقـدر ما هى أكثر تعرّجا . وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها فى عهد « نيخوس » مئة وعشرون ألف عامل[3] . وتوقف « نيخوس » فى منتصف عمليّة الحفر لأن نبؤة عاقته بقولها أنه يعمل لصالح البربر ، والمصريون يسمون كل من لا يتكلمون لغتهم بربرا[4] .

---

(١) أى ، من البحر الأبيض

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦)

(٣) ليس عجيباً أن يهلك مثل هذا العدد من الرجال فى حفر تلك القناة . وإن كان رجال الأعمال من المصريّـين أيام الفراعنة لم يذكروا فى كافة ماقاموا به من عمل — فى المحاجر والمناجم ؛ بل ولا فى أعمال البناء ، وإنشاء المرافق العامة ، وما اقتضاه كل ذلك من جهود شاقة — عدد من فقدوا من العمال . ولن يـكون فى سـكوتهم هذا مايدل على أن أعمالهم قد تمت فى سلام .

انظر : ماكتبه Reg. Engelbach عن مسلة أسوان عام ١٩٢٢) .

على أن أيسر النظر فى خسارة مصر فيمن فقدت من رجالها أيام حفر قناة السويس ، وقناة المحمودية ، وغير ذلك من مرافق الرىّ ، ليدلنا على أن « هردوت » لم يبالغ فى تحديد عدد العمال الذين هلـكوا أثناء العمل فى القناة المشار إليها .

(٤) ذلك تعبير غير مصرى ؛ وإنمـا هو إغريقى استعمله الإغريق وصفا لـكل من لايتـكلم بلسانهم ؛ فالبربرى عندهم هو الأجنبى بصفة عامة . (انظر الفصل رقم ١٦٧ من هذا الـكتاب) .

١٥٩ — ولما توقف « نيكوس » عن حفر القناة ، وجّه اهتمامه نحو الخدمة العسكرية ، فبنى سفنا ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف ؛ بعضها للبحر الشمالى، وبعضها الآخر فى الخليج العربى فى بحر أروترى . وما زال من الممكن ، حتى الآن ، رؤية الأماكن التى كانت تحفظ بها . وكان يستخدم هذه السفن وقت الحاجة . واشتبك برًّا فى معركة مع السوريين[1] عند «ماجدولوس»[2]، فانتصر فيها . وبعد هذه الموقعة ، استولى على « كاديتيس »[3] ، وهى مدينة كبيرة فى سورية . وأرسل إلى «البرانخيديين» فى « Milet»[4] الملابس التى كان

---

(١) ينبغى أن نعرف هنا أن المقصود بالسوريين لم يكونوا سكان سورية وحسب ؛ بل يجب أن نطوى تحتهم أهل فلسطين وغيرهم من بعض سكان آسية الدنيا الذين شملهم ذلك المجوم الذى قام به « نخاو » ، والذى وردت أخباره فى التوراة . وكانت وجهة الحملة شطر القوّات الآشورية عبر فلسطين ؛ حيث التقى « نخاو » بيوشع JOSIAS ملك اليهود . وكان قد خرج للقائه بغية صدّه ، إلا أنه سقط عند « مجدو » وعلى بعد قريب من « جبل الكرمل » . هنالك أصبحت السيادة لصاحب مصر المظفر على جميع تلك البقاع بما فيها « أورشليم ». وهنالك واصل « نخاو » زحفه مزهواً بالنصر إلى وادى النهرين ؛ حيث لقيه صاحب آشور « نبوكاذ نصر » على مقربة من الفرات فهزمه .

(٢) ماجدولوس MAGDOLUS : هى « مجدو » عند السهل الذى اخترقه المصريون إلى بابل وآشور والذى يعرف اليوم باسم « مرج ابن عامر » .

(٣) كاديتيس CADYTES (المدينة المقدسة) ، وهى « أورشليم » وتعرف اليوم باسم « القدس » . ويرى بعضهم أنها « غزة » . انظر :
(Strab. XIII, 2. 3. p. 617) ثم انظر: (de Meulenaere, H. 152)
ثم « Wiedemann, H. II tes Buch. 566 »ونحن نرجح الرأى الأخير ، ذلك لأن مكانها على شاطىء البحر .

(٤) كان « البرانخيديون » يشكلون طائفة مرموقة من الكهّان الذين اشتهروا بالحكمة ، وكانوا يخدمون فى معابد «أپوللون». وظلوا محتفظين بمكانتهم تلك حتى أيام العصر الرومانى .

يرتديها عند قيامه بهذه الأعمال ، ووهبها « لأپوللون »[1] . وبعد حكم بلغ في مجموعه ست عشرة سنة[2] ، مات تاركا السلطة لابنه « پساميس »[3].

١٦٠ — وأثناء حكم « پساميس » هذا لمصر ، جاء سفراء من الإيليائيين[4] ، يتباهون بأن نظام المباراة الأولمبية عندهم أعدل وأحسن النظم التي عند الناس أجمعين[5] ، وكانوا يظنون أن المصريين — وهم أحكم البشر — لن يضيفوا باختراعهم أي شيء يقارن بذلك . وعندما وصل الإيليائيون إلى مصر ، أعلنوا أسباب مجيئهم . عندئذ استدعى الملك من يقال إنهم أحكم المصريين . ولما اجتمع المصريون ، عرفوا من كلام « الإيليائيين » بكل الأنظمة المعمول بها عندهم بشأن المباراة . وبعد أن شرح الإيليائيون كل ما عندهم ، قالوا : إنهم جاءوا ليعلموا ما إذا كان في مقدور المصريين أن يكتشفوا ما هو أعدل منها . وتشاور المصريون وسألوا الإيليائيين عمّا إذا كان مواطنوهم يشتركون في المباراة . فأجاب هؤلاء بأنه يسمح في المباراة لكل من يشاء من الإيليائيين ومن باقي اليونانيين على حد سواء فقال

---

(١) في تلك الإشارة — إن صحّت — ما يدل على حسن العلاقات بين المصريين والإغريق ، وكانت قد بدأت منذ أيام « ابسماتيك » (انظر : الفصل رقم ١٥٤) ثم (هردوت جـ ١ الفصل رقم ٩٢) .

(٢) أي من عام ٦٠٩ إلى عام ٥٩٣ ق.م .

(٣) « پساميس PSAMMIS » : هو « ابسماتيك الثاني » وأكبر الظن أن صيغة الاسم على هذا النحو منشؤها خطأ في النقل بالقلم اليوناني عن الأصل المصري . انظر : (Wiedemann, H. II^tes Buch, S. 568)

(٤) ذلك مخالف لما يقرره « ديودور الصقلي » ، الذي ذكر أن مجيء أولئك السفراء قد كان أيام الملك « أمازيس » انظر : (Diod. 195)

(٥) انظر : (الفصل رقم ٩٢ من هذا الكتاب) .
ثم (Plut. Mor., 160 c. 215 f; Athénée 350)

المصريون إنهم بوضعهم هذه القاعدة قد اخفقوا تماما فى تحقيق العدل، إذ ليس من المحتمل مطلقا ألاَّ يتحيزوا لمواطنهم عندما يتبارى ويظلموا الأجنبى . ولكن إذا شاءوا أن يطبقوا العدل — وكان ذلك سبب مجيئهم إلى مصر — فليأمروا أن تقام المسابقة بين المتبارين من الأجانب . وألاَّ يسمحوا لإيليائى أبداً بالاشتراك فيها . ذلك ما اقترحه المصريون على الإيليائيين .

١٦١ — حكم « پساميس » مصر ست سنوات[١] فقط ، وقام بحملة على « أثيوپيه »[٢] . ثم توفى بعد ذلك مباشرة وخلفه ابنه « أپريس »[٣] . وكان هذا — بعد جده الثانى « اپساتيك » — أسعد الملوك السابقين ؛ حكم خمسة وعشرين عاما[٤]. سير أثناءها جيشاً إلى «صيدا ».وحارب ملك «صور» بحرا ، وكان سوء الحظِّ قد أصابه كما سأفصِّل فى رواياتى الليبية[٥] . أما الآن فسأذكره باختصار : عندما أرسل جيشاً عظيما ضد السكورينائيين أصابه فشل ذريع ، فأنتبه المصريون لذلك وثاروا ضده ؛ إذ ظنوا أنه قد أرسل بهم ، قصدا ، إلى هلاك محقق ليصيبهم الدمار . وليحكم هو بنفسه بقية المصريين فى أمن أكثر ثباتا . فسخط من ذلك الذين عادوا ، وأصدقاء الذين هلكوا وثاروا جهرا .

---

(١) يعنى من ٥٩٤/٥٩٣ حتى ٥٨٨ ق.م . ومن هذا التاريخ حتى عام ٥٧٠ حكم « أپريس » . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 310-313)

(٢) وفى حملتهم هذه سجلوا أسماءهم على تماثيل « معبد أبى سنبل » (انظر الفصل رقم ١٥٢ من هذا الكتاب) .

(٣) اسم « أپريس » فى اللسان المصرى « واح — إيب — رع » .

(٤) لم يبلغ ٢٥ عاماً ولم يعد ٢٢ عاماً .

(٥) انظر : (هردوت جـ ٤ — الفصل رقم ١٥٩) .

١٦٢ — ولما علم « أبريس » بذلك أرسل إليهم « أمازيس » ليحدثهم ، ويتوسل إليهم ليكفوا عن ثورتهم ، فلما وصل هذا عندهم ، حاول أن يمنعهم عن عمل ذلك . وبينما هو يتحدث إليهم وضع أحد المصريين — وقد وقف وراءه — على رأسه خوذة ، وقال : إنه وضعها وليجعل منه ملكاً . ولم يكن « أمازيس » — كما أظهر — غير راغب فيما حدث . إذ بعد أن نصَّبه الثوار المصريون ملكاً ، بدأ يعدُّ حملة للسير ضد « أبريس » . وعندما عرف « أبريس » بذلك أوفد إلى « أمازيس » رجلاً محترما من أفراد حاشيته المصريين يدعى باتاربيميس وأمره أن يحضر له « أمازيس » حيًّا . ولما وصل « باتاربيميس » عند « أمازيس » ناداه وتصادف أن كان « أمازيس » ممتطيا جواده ، فنهض وأخرج ريحا وأمره أن يأخذه إلى « أبريس » . وبالرغم من ذلك ، توسل إليه « باتاربيميس » أن يذهب إلى الملك الذى أرسل فى طلبه ؛ فأجابه «أمازيس» بأنه كان يستعد لعمل ذلك منذ وقت بعيد ، وليس لأبريس أن يشكو من ذلك لأنه سيحضر بنفسه وَسَيُحْضِرُ معه آخرين. ومن ذلك الكلام ، ومما رأى « باتاربيميس» من استعداداته ، فطن إلى قصده ، فعاد مسرعا رغبة فى أن يوضح للملك ، بأقصى سرعة ممكنة ، ما يجرى . فلما وصل عند «أبريس» — دون أن يحضر « أمازيس » — لم يعط الملك نفسه فرصة للتروِّى ؛ بل استولى عليه الغضب وأمر بقطع أذنه وجدع أنفه . وعندما شاهد باقى المصريين الذين كانوا يخلصون له حتى ذلك الوقت ؛ ما يعانيه أعظمهم مكانة من الامتهان ، على تلك الصورة القاسية ، لم يتريثوا لحظة واحدة فى الانفصال والانضمام إلى الآخرين وتقديم أنفسهم إلى « أمازيس » .

١٦٣ — وعندما علم «أبريس» بذلك أيضاً ، سلَّح جنوده المرتزقة ، وقادهم ضد المصريين. وكان معه ثلاثون ألف جندى مرتزق من الكاريِّين والأيونيين[1]

(١) انظر الفصلين (١٥٢ ، ١٥٤ من هذا الكتاب) .

وكان قصره الملكى فى مدينة « سايس » ، ضخماً ، جديراً بالمشاهدة . وكان أن سار أتباع « أبريس » ضد المصريين وأتباع « أمازيس » ضد الأجانب والتقى الجمعان عند مدينة « موممفيس »(١) ، وكادا يلتحمان ليظهرا مقدرتهما .

١٦٤ — وتوجد سبع طبقات(٢) من المصريين تسمى : طبقة الكهنة ، وطبقة المحاربين، ورعاة البقر، ورعاة الخنازير ، والتجار، والمترجمين ، والملاّحين . تلك عدة طبقات المصريين . وأسماؤها ناشئة من حرفها ؛ المحاربون يسمون

---

(١) مومفيس . يظن J. Ball أنها كانت فى الغالب فى المكان المعروف اليوم باسم « كوم أبو بيلّو » انظر : (J. Ball, p. 172) ويرى غيره أنها كانت فى المكان المعروف باسم « كوم الحصن» .

انظر : (de Meulenaere, S. 153)

(٢) نلاحظ على ذلك أمرين : الأول ؛ أن هردوت استعمل لفظ γένεα وهو نفس اللفظ الذى استخدمه للدلالة على قبائل الميديّين والفرس ؛ فى حين أنه يتحدث هنا عن طبقات الشعب من حيث العمل والحرفة لا من حيث الجنس والقبيلة . والثانى ؛ أن الكتّاب القدماء لم يتفقوا على تحديد عدد تلك الطبقات ؛ إذ جعلها بعضهم ثلاثاً ، وبعضهم الآخر ستاً ؛ كما جعلها آخرون سبعاً . وأرقى تلك الطبقات اثنتان : طبقة الكهان ؛ وكانوا أغنى الطبقات مالا ، وأعلاها قدراً ؛ وأقواها نفوذاً ، وأعظمها حظاً من الثقافة . ثم طبقة المحاربين (وهم الذين يسميهم هردوت فى الفصل ١٦٦ كالاسيريس) ؛ وكانوا غالباً فى الدلتا ذات الأبواب المفتوحة ليدفعوا عنها إغارة المغيرين . وكانوا يُقطَعون أرضاً يرتزقون من غلاّتها أيام السلم ، كما كانوا يعملون فى خدمة الملك .

ثم يأتى من بعد ذلك بقية الطبقات مثل : رعاة البقر، ورعاة الخنازير ؛ ويراهم « ديودور » طبقة واحدة . وإن كان رعاة الخنازير قد كانوا من أحط الطبقات . انظر : (Diod, I, 73, 2.) . وهنالك «طبقة التجار » κάπηλοι ، ثم «طبقة التراجمة»، وكان حظ هذه الطبقة الأخيرة من الرزق يتوقف على ظروف =

« كالاسيريس »[1] و « هرموتوبيس »[2] . وهم من المقاطعات التاليه لأن مصر كلها مقسمة إلى مقاطعات .

١٦٥ —(مقاطعات) الهرموتوبيس كالآتى : بوسيريس، وسايس، وخميس ، وپاپريميس ، ومقاطعة الجزيرة التى تسمى «پروسوپيتيس» ، ونصف ناثو[3] . فالهرموتوبيس إذاً من هذه المقاطعات وكان عددهم عندما بلغ أقصاه ، مئة وستين ألفا. ولم يتعلم أى واحد منهم حرفةً على الإطلاق ، ولكنهم مُخصَّصون للجندية .

١٦٦ — وهذه بدورها مقاطعات « الكلاسيريس » : طيبة ، وبوبسطيس ، وأفثيس ، وتانيس ، ومنديس ، وسبينّيتوس ، وأثريبيس ، وفاربايثيس ، وثمويس ، وأنوفيس ، وأنوسيس ، ومويكفوريس . (هذه المقاطعات تقع فى جزيرة تجاه مدينة « بوبسطيس »)[4] . تلك مقاطعات

= مصر من حيث علاقاتها بالبلاد الأخرى ، وفتح الأبواب فى وجوه السائحين . وأخيراً رجال الملاحة وطبقة الزراع (عمال الفلاحة) . ونلاحظ أن هذا التحديد — على اختلاف الآراء فيه — لا يمكن أن يكون مضبوطاً ، إذ ينبغى أن يكون أكثر من ذلك عدداً .

(١) انظر الحديث عن ذلك فى الهامش رقم ١ من صفحة ٢٩٩ .

(٢) أرجع Spiegelberg هذه الكلمة إلى أصلها المصرى «رم(ة)حت(ر)» ومعناها « فارس » .

(٣) Ναθῶ تقع — أغلب الظن — فى شرق الدلتا بين الفرعين البوصيرى والبوبسطى . انظر : (Wiedemann, H. IItes Buch, S. 575)

(٤) كل هذه المقاطعات — فيما عدا « طيبة » — كانت فى الدلتا . فأما عن « بوبسطيس » فانظر (الفصل رقم ٦٠) . وعن « أفثيس » انظر : J. Ball, فأما « تانيس » هى « صان الحجر » و « منديس » هى « تل الربعة » و « سبنيتوس » هى « سمنود » و « أتريبيس » هى « تل أتريب » قرب بنها . و « فاربايثيس » هى « هوربيط » شمال شرقى الزقازيق ، و « ثمويس » هى « تمى الأمديد » و « أنوفيس » هى « تل بلال » إلى الجنوب الغربى من « د كرنس » . أما عن « أنوسيس » فانظر (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب).

« الـكالاسيريس »(١) . وكان عددهم عندما بلغ أقصاه مئتين وخمسين ألف رجل . ولا يسمح لهم بممارسة أية حرفة ؛ ولـكنهم يحترفون الجندية فقط ؛ يتوارثها الولد عن أبيه .

١٦٧ — وليس فى مقدورى أن أقرِّر بدقة ما إذا كان اليونانيون قد تعلموا هذا من المصريين أيضاً ؛ إذ أرى أن «التراقيين» و«الأسكيثيِّين»(٢) و « الفرس » و « الليديّين » وكل البرابرة(٣) تقريبا ينظرون إلى المواطنين الذين يتعلمون حِرَفًا ؛ إليهم وإلى أولادهم ؛ بتقدير أقل من تقديرهم للآخرين. أما الذين يتجنبون المهن اليدوية — وبالذات الذين يتخصصون فى الجندية — فيعدونهم نبلاء . وعلى كل لقد تعلم اليونانيون كل هذا وبخاصة

---

(١) Καλασίρις : أولئك هم طبقة المحاربين . وقد عرض العالم الألمانى Spiegelberg لتفسير هذا اللفظ ،وإرجاعه إلى أصل مصرى هو «خار — شرى» ومعناه « شاب أسيوى » انظر: (Spiegelberg, Mumienetiketten 1901)

كما حاول العالم نفسه أن يرجعه إلى أصل نوبىّ هو Kar - gar بمعنى « ابن » انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 87 - 90) .

ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون أصل هذه الكلمة فيما لدينا من الألفاظ القبطية الآتية ϭⲁⲗⲁϣⲓⲣⲉ بمعنى « الرجل القوىّ الأيِّد » . انظر : (Crum p. 813) ، ثم ϩⲉⲣϣⲏⲗⲓ : ϧⲉⲗϣⲓⲣⲓ : ϩ̄ⲣϣⲏⲣⲉ بمعنى « اليافع » . فإذا صح ذلك ، فإن كلا المعنيين يلائم ما ينبغى أن يكون عليه أهل هذه الطبقة ، ثم ما ينبغى لهم من صفات .

(٢) Scythia انظر : (Rawlinson, Vol. III; Map to illustrate the Scythia).

(٣) انظر كيف يسمى «هردوت» كل من عدا قومه « برابرة » ؛ وتلك كانت عادة الإغريق على كل حال ؛ بل عادة غيرهم من الأمم الكبرى فى القديم والحديث أيضاً ،

(انظر حديثنا عن ذلك فى الفصل الثامن والخمسين بعد المئة من هذا الكتاب ثم ما سبق ذلك ص ٥٩ هامش ٣) .

« اللاكيديمونيُّون » . أما « الكورنثيُّون » فهم أقل من يزدرى الصناع[1].

١٦٨ — وكان المحاربون[2] وحدهم من بين المصريين — ما عدا الكهنة —[3] يمنحون هذه الامتيازات ؛ يوهب كل منهم اثنى عشر فدانا معفاة من الضرائب . والفدان[4] مربع طول كل ضلع من أضلاعه مئة ذراع مصرى[5]. والذراع المصرى يساوى الذراع « الساموسى »[6] . وكان الجميع

---

(١) الواقع أن هذه الظاهرة كانت معروفة عند أكثر من عرفنا من الأمم القديمة ؛ إذ لم يكن لأهل الحرف والصناعات اليدوية كثير من الاحترام ؛ هكذا كانت الحال عند المصريين من آل فرعون (أنظر فى موكب الشمس ج٢ ، ص١٦٠ وما بعدها) . وكذلك كان الأمر عند الإغريق؛ فلم يكن يسمح للأسبرطى الأصيل مثلا أن يزاول عملا يدوياً ، أو أن يعمل فى فلاحة الأرض . فإذا شذت كورنثه عن هذا السلوك ؛ فينبغى أن يكون لمركزها التجارى والصناعى أثر فى ذلك ؛ إذ لم يكن لأهلها من عمل فى غير ميدانى التجارة والصناعة . فأما بقية بلاد الإغريق فكانت تحتقر الحرف اليدوية ؛ لا يعمل فيها عندهم غير العبيد ، وذلك أمر إن دل على شىء ، فإنما يدل على جهل ، وغرور ، وضيق أفق . ولو قد فكر المغرورون يومئذ أن ما تَيَسَّرَ لهم من متاع فى الحياة الدنيا قد كان من عمل أيدى أولئك الصناع والزراع وبقية أصحاب الحرف؛ أقول لو فكّروا فى ذلك قليلا ؛ إذا لما سلكوا مثل هذا المسلك البغيض ، ولرفعوا كثيراً من قدر العمّال وأصحاب الحرف .

(٢) أنظر الفصول رقم ١٦٥ ، رقم ١٦٦ ، ثم رقم ١٦٧ .

(٣) أنظر الفصل ٣٧ .

(٤) كانت مساحة الفدان المصرى القديم حوالى ١٥ ط ٢١ س ، أى أن حظ الجندى من ملكية الأرض قد كان حوالى ٧ أفدنة بحسابنا اليوم .

(٥) الذراع المصرى يساوى ٥٢٣ مليمترا .

(٦) كان الذراع الساموسى فى الغالب يختلف عن الذراع اليونانى . وأكبر الظن أنه كان لدى اليونان بمثابة ذراع دولى بالنسبة لحوض البحر الأبيض ، وذلك نظرا لمكانة « ساموس » فى ميدانى البدل والتجارة .

يتمتعون بهذا الامتياز . كما كانوا يحظون بالامتيازات التالية بالدور الذى لا يصيبهم إلا مرة واحدة : كان حرس الملك يتكون كل عام من ألف من « السكالاسيريس » وألف أخرى من « الهرموتوبيس » . وكان هؤلاء يُمْنحون امتيازات أخرى بالإضافة إلى الأرض ؛ فلكل فرد فى اليوم خمسة أمنان(١) من الحنطة المحمصة . وله منَّان من لحم البقر ، وأربعة أقداح من النبيذ . ذلك ما كان يعطى لأفراد الحرس الملكى بالتتالى .

١٦٩ — عندما وصل « أبريس » على رأس المرتزقة « وأمازيس » على رأس المصريين جميعاً ؛ عندما وصلا إلى مدينة « موممفيس » ، اشتبكا فى معركة . ورغم استبسال الأجانب فى القتال ، فإنهم هُزموا لأن عددهم كان يقل كثيراً عن عدد خصومهم . ويقال إن « أبريس » كان يظن أن أى إله لا يستطيع تحويله عن الملك ؛ لاعتقاده بأن سلطانه قائم على أساس راسخ . ولكنه عندما التحم فى المعركة ، غُلِبَ على أمره ، وأُخِذَ حيًّا ، وسيق إلى مدينة « سايس » ؛ إلى القصر الذى كا يملكه فيما سبق ، والذى أصبح الآن المقر الملكى لأمازيس . وخلال فترة من الزمن كان يطعم هناك . وكان « أمازيس » يعامله معاملة حسنة . ولكن فى نهاية الأمر عندما لام المصريون « أمازيس » لأنه لا يعمل بالعدل ؛ حين يعول ألد أعدائهم وأعدائه ، أسلمه

---

(١) أى ما بين أربعة وخمسة أرطال . والمَنّ مكيال من مكاييل المصريين القدماء كانوا يكيلون به النبيذ والعسل وغيرها .

(أنظر : Wiedemann, Herodot's IItes Buch s. 578)

ثم (Gardiner, Egyptian Grammar, 3d Edit. § 266.)

«أمازيس» لذلك إلى المصريين الذين خنقوه[1] ثم دفنوه فى مقبرة آبائه. وهذه توجد فى « معبد آثينا »[2] ، وتقرب جداً من المحراب الذى يقع على يسار الداخل. ولقد دفن أهل « سايس » فى داخل المعبد كلَّ الملوك الذين أصلهم من هذه المقاطعة[3]. ومع أن قبر « أمازيس » أبعد عن المحراب من مقبرة « أبريس » وأسلافه إلا أنه موجود أيضاً فى ساحة المعبد. وهذه الساحة عبارة عن رواق من الحجر واسع ومزدان بأعمدة تحاكى النخيل، وبضروب أخرى من الزينة باهظة التكاليف. وبداخل هذا الرِّواق، غرفتان لهما بابان، توجد بهما المقبرة.

١٧٠ — ويوجد أيضاً بسايس فى حرم معبد « أثينا » قبر من لا يحلُّ لى ذكر اسمه فى هذا الشأن[4]. والقبر موجود وراء الهيكل. ويمتد محاذياً لكل جدار المعبد. وفى حرم المعبد تقوم أيضاً مسلتان عظيمتان من الحجر، توجد بجوارهما بحيرة مزخرفة ومزينة بحافة من الحجر، متقنة الصنع على شكل

---

(١) هذا النوع البشع من القتل عُرِفَ عند الفرس بين ألوان العذاب. ومن قبل روى هردوت مثل ذلك ونسبه إلى المصريين فى القصة التى رواها عن « نيتوكريس » ونحن نعتقد أنه حين فعل ذلك كان متأثرا بالروايات الفارسية (أنظر الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب).

(٢) انظر: الفصل رقم ١٦٣ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: الفصل رقم ٦٢ من هذا الكتاب؛ حيث كان الناس فى زمان « هردوت » يقولون إن الشهيد « أزوريس » قد دفن فى « سايس ». فأما دفن الملوك والأمراء فى المعابد؛ وإن يكن ذلك أمراً غير مألوف قبل هذا العصر المتأخر. إلا أنه غير مستبعد على كل حال. وأكبر الظن أنه أبيح فى بعض الحالات كما وقع فى « صان الحجر » « وميت رهينة » (= ممفيس)

(٤) يقصد كدأبه « أزوريس » بطبيعة الحال (انظر الفصول رقم ٦١، ٨٦، ١٣٨)

دائرى(١) . وحجمها — فيما بدا لى — كحجم بحيرة « ديلوس » التى تدعى بالبحيرة المستديرة (٢) .

١٧١ — وفى هذه البحيرة ، تُقدَّم ليلا الاستعراضات التى تُمثل مصيره المحزن(٣) التى يسميها المصريون « أسرارا »(٤) . ومع أننى عليمٌ بتفاصيل ما يدور بكل منها إلاَّ أنَّنى ألتزم الصمت بصددها . كذلك فيما يختص بعيد « ديميتير » الذى يسميه اليونانيون ثسموفوريا(٥) ، فلن ألفظ بشأنه حرفاً

---

(١) الغالب أنها كانت فى « صا الحجر » ، وأن بعض آثار منها قد بقيت حتى العصر الحديث . ولكنها كانت أغلب الظن على هيئة نصف الدائرة .

(٢) يقال إن فى هذه الجزيرة كان مولد « أبوللون » (أنظر : Waddell, H. p. 253)

(٣) يعنى « أزوريس » الذى سمع أنه دُفِنَ فى « سايس » ، وكانوا يحتفلون بذكرى مصرعه فى المكان الذى خالوا أنه دفن فيه . وكانوا يمثلون فى احتفالهم هذا مأساة الشهيد تمثيلا واضحا . وإذا صح كل هذا ، فلا نجد مايمنعنا من تصديق ما يقال من أن الإغريق قد اتخذوا من تلك المأساة مثالا لمأساة « ديونيسوس »

(٤) يعنى « بالأسرار » ما كان يجرى فى ذلك الاحتفال ، إذ يقال إن القوم كانوا يأتون بكاهن فيعصبون عينيه ، ثم يقودونه على الطريق إلى معبد «إيزيس» ومن أمامه اثنان من « بنات آوى » كانا يعودان به بعد ذلك .

أنظر : (Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne p. 287 ff) ثم (Erman, Relig. d. Aeg. S. 335)

(٥) يزعم هردوت أن أصل هذا الأحتفال مصرى ، وأن أمره قد ذاع فى أكثر بلاد «البيلوبونيز» ، ثم فى« أثينا » من بعد ذلك . وكان يقع فى ثلاثة أيام من فصل الخريف ، وكان المحتفلون به من النساء ، وذلك تقديسا للمعبودة «ديميتير»

انظر : (Erman, ibd.)

إلا ما تبيح الشريعة الإلهية قوله عنه : إن بنات داناؤس هن اللائى نقلن هذا العيد من مصر وعلمنه النسوة البيلاسجيّات . ولكن عندما اضطر الدوريُون سكّان البيلوبونيز كلها إلى الهجرة ، اختفى العيد ولم يحتفظ به سوى الأركاديّين وحدهم ، وهم الذين بقوا من البيلوبونيزيين ولم يجبروا على الهجرة .

١٧٢ — وهكذا لما هُزم « أبريس » وقضى عليه (١) ، صار « أمازيس »(٢) ملكا . وهو من مقاطعة « سايس » . وكان أصله من مدينة « سيوف »(٣) . احتقره المصريون أول الأمر ولم يقدرُوه على الإطلاق ؛ لأنه كان فيما مضى من العامة ، ولم يكن من أسرة ذائعة الصيت . ولكن بعدئذ اجتذبهم « أمازيس » إليه بفضل حكمته ولينه ؛ إذ كان عنده — بين آلاف أخرى من الأشياء النفيسة — طِستٌ ذهبي . وكان « أمازيس » نفسه وكل ضيوفه يغسلون فيه أقدامهم فى كل مناسبة (٤) . فكسره وطلب أن يُصنع

---

(١) يقصد فى الغالب هزيمته لا موته (أنظر الفصل رقم ١٦٩ من هذا الكتاب) .

(٢) اسمه المصرى « أحموسى » .

(٣) سيوف : إحدى مدن إقليم سايس (صا الحجر) ومكانها على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد وتسمى اليوم « الصفة » .
(انظر Legrand, Hérodote, Livre II, p. 187) .
ثم (Wiedemann, H. IItes Buch S - 593)

(٤) غريب جداً أن يكون « أحموسى » صعلوكا من عامة الشعب ويملك مثل هذا الطست من الذهب . وأكبر الظن أن « هردوت » هنا كان يفكر بعقله الإغريقى ؛ إذ كانت هذه العادة من عادات قومه . ومن الجائز — إن صحت هذه الواقعة — أن يكون « أحموسى » — بحكم علاقاته الطيبة بالإغريق — قد أخذ عنهم هذا التقليد . وعادة غسل القدمين — بهذه المناسبة — كانت معروفة أيضاً عند العبرانيين ، (انظر سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر من التوراة) .

منه تمثال لإله ، نصبه فى المدينة وفى أنسب مكان فيها. فأخذ المصريون يتوافدون على التمثال ويعظمونه تعظيما فائقا . ولما علم « أمازيس » بما كان يفعله أهل المدينة ، دعا المصريين وأوضح لهم أن التمثال مصنوع من الطسْت الذى كان المصريون من قبل يتقيئون ويبولون ويغسلون أقدامهم فيه ، وهم الآن يُجِلُّونه إجلالاً فائقا . ثم استطرد قائلا : إن نصيبى كنصيب الطسْت . فهو إذا كان فيما سبق من عامة الشعب فأنه الآن ملكهم . وطلب إليهم أن يعظِّموه ويُبَجِّلوه . وبتلك الطريقة استمال المصريين نحوه ، حتى وافقوا على الخضوع له.

١٧٣ — ولقد اتبع النظام التالى فى إدارة أعماله . . من الصباح الباكر حتى ساعة امتلاء السوق[١] كان يصرِّف بهمة ما يُعْرَض عليه من أمور ، وبعد ذلك كان يشرب ويشاكس ندماءه مازحا معهم ، وكان يعبث ويلهو . ولما تضايق أصدقاؤه من تلك التصرفات ، لاموه قائلين له : « أيها الملك . . . إنك لا تحكم نفسك بالضبط ، بل تسوقها إلى غاية الانحطاط ، وإنه لينبغى لك أن تجلس فى جلال على عرش مهيب ، وتدبر شئون المملكة طول النهار . وعندئذ يدرك المصريون أن حاكمهم رجلٌ عظيم ، وتكون ذا سمعة أطيب . أما الآن فإن ماتفعله لايليق بملك على الاطلاق» . فردعليهم «أمازيس» بمايلى : « إن أصحاب الأقواس يشدُّونها عندما يحتاجون إلى استعمالها وبعد استخدامها يرخونها ، لأنها إذا بقيت على الدوام مشدودة انقطعت ، فلا يمكن لهم أن يستخدموها عند الحاجة . وتلك طبيعة الأنسان أيضاً ، إذا ابتغى الجد دائماً ولم يسمح لنفسه باللهو ساعة فإنه — من غير أن يدرك — يصير مُخْتَلاً

---

(١) يعنى أنه كان يقضى وقته فى السوق . فإذا ما هَجَّر النَّهار قفل راجعاً إلى قصره .

أو معتوها . ولما كنت أعرف ما أقول ؛ لذا فإنى أجعل من وقتى جزءاً لكلٍّ من الأمرين »(١) . ذلك ما أجاب به أصدقاءه .

١٧٤ — ويروى أن « أمازيس » كان — حتى وهو شخص بسيط — يحب الشرب والمزاح ولم يكن على الإطلاق رجل جد ونشاط. وكان كلما أعوزته لوازم الحياة بسبب الشرب وحياة المجون ، أخذ يطوف ويسرق. فكان يسوقه الذين يَدَّعُون أنه أخذ مالهم ، عندما ينكر ؛ تسوقه كل طائفة منهم إلى الوحى الذى عندها. وكثيراً ما كان الوحى يُدينه ، وكثيراً ما كان يبرِّئه أيضاً. وعندما أصبح ملكاً عمل الآتى: أغفل معابد الآلهة التى برَّأته من السرقة ، ولم يعط شيئاً لأصلاحها ولم يزرها ، ولم يضحِّ لها ؛ لأنها لم تكن جديرة بشىء ما ، ولأن نبوآتها كاذبة . أما الآلهة التى أفتَتْ بأنه سارق ؛ فقد اهتم بها كل الاهتمام باعتبار أنها آلهة لا ريب فيها ، وأنها تنطق بنبوآت صادقة(٢) .

١٧٥ — وفى مدينة «سايس» شيد (هذا الملك) رواقا رائعا لأثينا ، بزَّ به كل (من شيدوا من أسلافه) من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره (المستعملة) ونوعها. وأقام أيضاً الشوامخ من التماثيل وتماثيل كباش بالغة الطول(٣).

---

(١) ذلك قول رجل حصيف يذكرنى — مع الفارق من حيث المقام والقصد والوسيلة — بالقول المنسوب إلى الإمام على كرم الله وجهه «روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ؛ فإن القلوب إذا كلَّتْ عَمِيت » .

(٢) تلك صفة حميدة تدل على صدق الرجل ، وجودة معدنه ، وكمال مروءته وحسبنا من ذلك أنه كان صادقاً مع نفسه . وليس يمنعه ما عرف عنه من الصعلكة من ان يكون صاحب مروءة .

(٣) يحرص « هردوت » على تذكير تلك الأصنام ؛ ذلك لأن مثلها عند اليونان إنما ورد فى صورة الأنثى . وكان أول ذلك اللون من أصنام الفراعنة وأضخمها حجما وأخلدها بين تراثهم ، يمثل فرعون الراحل المؤله الذى صار شمسا. ونعنى تمثال «أبو الهول» المعروف عند هرم «خفرع» وفيه تتضح الفحولة الرائعة =

وأحضر حجارة أخرى للترميم ، هائلة الحجم ؛ جلب بعضها من مقالع الأحجار التى فى «ممفيس» وبعضها الآخر — وهو ذو ضخامة منقطعة النظير — من مدينة «إليفانتينا» (١) وهى على مسافة إبحار عشرين يوما من «سايس». على أن أكثر ما أثار فى نفسى أبلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتى : أمر بإحضار محراب (مشـيد) من صخرة واحدة من «إليفانتينا»(٢) ، واستغرق إحضاره ثلاث سنوات ، وكلف عشرين ألف رجل بنقله وكلهم كانوا

= وكذلك كانت الأصنام التى عُرفت بعد ذلك وانتشرت على جوانب الطرق إلى أبواب المعابد . فهى تمثل الذكور ، بل «الفحول» من معبودات المصريين .

نجد بقاياها على جانبي الطريق بين معبدى الكرنك والأقصر ، والطريق الذى كان يجرى من معبد بتاح فى منف إلى الأماكن المقدسة فى جباناتها منف ، والذى بقى اسمه علماً على القرية المعروفة غرب البدرشين وهى قرية «ميت رهينة» أى «طريق الكباش» .

والعجيب أن «هردوت» الذى تحدث عن كافة عجائب مصر وبخاصة «اللابيرنث» لم يتحدث مطلقاً عن «أبو الهول» وهو إحدى عجائب الدنيا ، وسيظل كذلك مهما تعددت عجائبها . وأغلب الظن أن هردوت لم ير ذلك الأثر العظيم لأنه كان تحت الرمال فى زمانه ، وفى تاريخ البلاد ما يثبت أن «أبو الهول» قد كانت تطغى عليه رمال الصحراء فتطمره وتخفيه .

انظر (Erman, Sitz. Ber. Berl. Akad. (1904), Ein neu·s : Denkmal vor der grossen Sphinx.)

(١) انظر ما جاء فى الفصل (١٧) من حديث عن تلك المحاجر ولا زالت بعض صخورها تحمل من النصوص ما يشير إلى ما قُدَّ منها أيام «أمازيس» لبناء معبده .

(٢) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل (١٥٥) هامش (رقم ٦) . وتزن هذه الصخرة ما يزيد على ستة آلاف قنطار . وفى ذلك ما يجعل نقلها على الأرض واليم من أصعب الأمور .

من الملاحين[1]. وطول هذا المحراب من الخارج إحدى وعشرون ذراعا ، وعرضه أربع عشرة ذراعا ، وارتفاعه ثمان أذرع . تلك هي الأبعاد الخارجية لذلك المحراب المقدود من صخرة واحدة . أما في الداخل فطوله ثمان عشرة ذراعا وعشرون أصبعا[2] . وعرضه إثنتا عشرة ذراعا ، وارتفاعه خمس أذرع . وهو يقع في مدخل المعبد . ويؤكدون أنه لم يُسْحَبْ إلى داخل المعبد لأنَّ المشرف على أعمال البناء قد أرهقه ذلك العمل الشاق الطويل الأمد ، فأشفق «أمازيس» من ذلك ولم يسمح بجرِّه إلى أمام أبعد مما وصلوا به . هذا . ويروى البعض أن واحداً من الذين كانوا يرفعونه قد تهشم تحته ؛ وبسبب ذلك لم يُسْحَبْ إلى داخل المعبد .

١٧٦ — وأقام « أمازيس » كذلك في سائر المعابد العظيمة أعمالا تستحق المشاهدة لضخامتها ؛ وبخاصَّة التمثال الشامخ المُلقى على ظهره ، في « ممفيس »[3] ، أمام معبد « هيفايستوس » . وطول هذا التمثال خمس وسبعون قدماً . وعلى نفس قاعدة هذا التمثال يقوم تمثالان هائلان من الحجر الأثيوبي[4] ، ارتفاع كل منهما عشرون قدماً . ويقف كل واحد منهما

(١) ليس هذا العدد من الملاحين والعمال بالكثير ؛ ذلك لأن الصخرة كما قدمنا قد كانت ثقيلة ؛ بحيث يقتضي نقلها استخدام هذا العدد الضخم من الرجال .

(٢) يعني ما نسميه اليوم بالقيراط .

(٣) الغالب أنه يقصد بذلك كافة التماثيل التي تصور أصحابها جالسين وظهورهم إلى حائط المعبد على عكس التماثيل المنصوبة أمام المدخل ، أو تلك التي تقوم مقام العمد من داخل المعبد والتي اصطلح العلماء على تسميتها بالعمد الأوزيرية .

(٤) يقصد الجرانيت الوردي المحبب أو الأسود . (انظر الحديث عن ذلك في الفصلين ١٢٧ ، ١٣٤) .

على أحد جانبي التمثال الكبير . ويوجد أيضاً في « سايس » تمثال حجري بنفس الحجم ، ملقى بنفس الطريقة كالتمثال الذي في « ممفيس » . و « أمازيس » هو الذي أنجز أيضاً بناء معبد « إيزيس » بممفيس ، وهو معبد عظيم ، جدير بالمشاهدة .

۱۷۷ — ويقال إن مصر كانت تحت حكم « أمازيس » على درجة عظيمة جداً من الازدهار[1] ، وذلك نتيجة لما جاد به النيل على الأرض من طمى ، وما جادت به الأرض على الناس من خير . وكان بمصر على الجملة في ذلك العهد ألف مدينة آهلة بالسكان[2] . كما كان « أمازيس » هو واضع القانون الذي يفرض على كل مصرى أن يُبيِّن سنوياً مورد عيشه لحاكم الولاية[3] . ومن لا يفعل ذلك ، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة ، كان عقابه الموت .

---

(١) تلك رواية لا تكاد تتفق وما جاء في أخبار التوراة (حزقيال ۲۹ ، ۹ وما بعدها) ، حيث جاء « وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعلمون أنى أنا الرب . لأنه قال النهر لى وأنا عملته . لذلك ها أنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخوم كوش ... إلخ » .

ترى أيكون من تحدثوا إلى هردوت قد أخفوا عنه أمر ذلك ، ولم ينبئوه إلا بما كانت عليه أحوال مصر فيما بعد ، حيث رآها هو ، ورأى علاقتها الاقتصادية مع بلاد اليونان ؟ الله وحده يعلم .

(٢) قدَّرَ « ديودور الصقلى » عدد البلاد المعمورة في مصر يومئذ بحوالى ١٨٠٠٠ ، ثم ارتفع عددها أيام البطالمة فبلغ حوالى ٣٠٠٠٠ ، وَقَدَّرَ عدد السكان على هذا الأساس بنحو سبعة ملايين نسمة .

(٣) ظاهر من ذلك أنه كان لكل إقليم حاكم مسئول . وإنا لنعلم فوق ذلك أنه كان لكل ناحية حاكم مسئول أيضاً ؛ مما يدل على دقة النظام الإدارى في مصر يومئذ .

ولقد نقل « صولون » الآثيني (١) هذا القانون عن المصريين ووضعه للآثينيين . وهؤلاء يطبقونه إلى الآن إذ لم يوجَّه إليه أيُّ طعن .

١٧٨ — وكان « أمازيس » محباً لليونانيين ، وعبَّر لهم عن عاطفته تلك بأنه وهب للذين جاءوا منهم إلى مصر مدينة « نوقراطيس » (٢) ليسكنوها . أما الذين لم يرغبوا فى استيطانها ، وكانوا يفدون للسياحة وحسب ؛ فقد أعطاهم أراضى ليقيموا عليها هيا كل ومعابد لآلهتهم . وأكبر هذه المعابد وأشهرها وأكثرها روَّاداً يسمى « الهيلينيوم » (٣) ، وقد ساهمت فى بنائه المدن التالية : مدن إيونيَّة وهى : « خيوس » ، « ثيوس » ، « فوكايا » ، ثم « كلازومنياى » (٤) . مدن دُوريَّة (٥) وهى : « رودس » ، « كنيدوس » ، « هاليكارناسوس » ، « فاسيليس » ، ثم مدينة إيوليـة (٦) واحدة وهى :

---

(١) كان ذلك تشريعاً خاصاً بالضرائب فى مصر ، وبه أخذ « صولون » عندما وضع قانون الضرائب السنوية فى « أثينا » . ولكن ليس من الضرورى أن يكون « صولون » قد أخذه عن « أمازيس » بالذات .

(٢) نوقراطيس « Naukratis » : مر ذكرها فيما مضى من فصول موقعها على الشاطىء الشرقى للفرع الكانوبى وغير بعيد من المكان الذى أقيمت عليه فيما بعد مدينة الإسكندرية . وكانت منزلا للجالية الإغريقية التى تعيش تحت سلطان مصر وتعمل فى البدل والتجارة . وقد ظلت مكانتها التجارية مرموقة حتى تحولت عنها إلى الإسكندرية . وأكبر الظن أن تأسيسها يرجع إلى ما بين عامى ٦١٣ ، ٦١٠ ق . م .

(٣) كان موقعه غالباً فى شمالى المدينة .

(٤) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ٤٢)

(٥) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٤)

(٦) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٩)

« ميتيليني » . تلك هى المدن التى يتبعها المعبد ، وهى أيضاً التى تعيّن القناصل الذين يشرفون على التجارة [1] . أما كل المدن الأخرى التى تدّعى أن لها فيه نصيباً فهى إنما تدّعى شيئاً ليس لها فيه حق . ولقد بنى أهل « إيجينا » — على حدة — معبدا لزيوس خاصاً بهم ، وبنى أهل « ساموس » معبداً لهيرا ، والملطيُّون آخر لأپوللون .

١٧٩ — وقديما كانت « نوقراطيس » البلدة التجاريّة الوحيدة ، ولم يكن بمصر غيرها . وكان إذا بلغ أحد ما داخل مصب آخر من مصاب النيل ، وجب عليه أن يُقسِم إنه لم يأت بمحض رغبته . وبعد القسم كان عليه أن يُبحر بسفينته وحمولتها إلى المصب الكانوبى . وأما إذا استحال عليه الإبحار بسبب رياح مضادة ، فيتحتم عليه أن ينقل بضاعته فى قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل إلى « نوقراطيس » ، وهكذا كانت « لنوقراطيس » مكانة ممتازة [2] .

١٨٠ — ولما تعهد « الأمفيكتيونيون » [3] — لقاء ثلثمئة تالنت — ببناء المعبد الموجود حالياً فى « دلفى » (لأن المعبد الذى كان هناك من قبل احترق من نفسه) [4] تحتّم على أهل « دلفى » دفع ربع المبلغ ، فأخذوا يطوفون

(١) لقد كانوا — أغلب الظن — قناصل مهمتهم الإشراف على التجارة الإغريقية وحمايتها وهم أشبه الناس بمن نسميهم اليوم « الملحقين التجاريين » .

(٢) انظر : (Kees, K. G. S. 106 7)

(٣) الأمفيكتيونيون (= المجاورون) عَـلَمٌ على حِلْفٍ مُكَوَّنٍ من مجموعة مدائن كانت فى الشمال الشرقى من بلاد اليونان .

(٤) يبدو أن هردوت يريد أن يقول — بطريق غير مباشر — إن الحريق لم يكن مصادفة (انظر ما جاء عن الحريق فى الفصل (٥٠) من كتاب هردوت الأول ، ثم فى الفصل (٦٢) من كتابه الخامس) .

بالمدن ، يتقبلون العطايا . ولم يجمعوا من مصر أقل مما جمعوا من غيرها ، إذ منحهم « أمازيس » ألف تالنت من الشبّ [١] ، ومنحهم اليونانيون المقيمون بمصر عشرين منّا [٢].

١٨١ — وتصادق [٣] « أمازيس » مع « الكورنيائيين » وحالفهم ، وأراد أن يتزوج منهم ذلك لأنه اشتهى أن تكون له امرأة يونانية . أو لسبب آخر ، ألا وهو صداقة « الكورنيائيين » . ولقد تزوج منهم على أى حال ؛ تزوج وفقا لقول البعض من ابنة « باتوس » بن « أركيسيلاوس » ، وفى قول البعض الآخر من ابنة « كريتوبولوس » وهو مواطن ذو اعتبار . وكانت تسمى « لاديكى » . وعندما نام معها « أمازيس » ، لم يجد نفسه قادرا على مجامعتها ، على حين كان فى مقدوره أن يجامع نساءه الأخريات . ولما استمر الحال على ذلك وقتا طويلا ؛ قال « أمازيس » لهذه المدعوة « لاديكى » : أيتها المرأة ، لقد استخدمت ضدى وسائل السحر فلا مفر من أن تموتى شر ميتة ؛ (ميتة) لم تلق مثلها امرأة قط . فاحتجت « لاديكى » . ولكن « أمازيس » لم يلن أبدا . عندئذ نذرت بينها وبين نفسها لأفروديت أنه إذا اجتمع بها « أمازيس » فى الليلة التالية — لأن

---

(١) كان « الشبّ » — فى الغالب — من سلع التجارة المهمة المُتَبَادَلة بين مصر و بلاد اليونان .

(٢) أغلب الظن أن الهدية كانت من « الذهب » ، ولم تكن من « الشب » . وإن كان الأمر يبدو غريبا على كل حال ، نظراً لذكر « المَنّ » الذى كان فى الغالب من مكاييل السوائل عند المصريين .

(٣) فى ذلك ما يشير إلى أن « أمازيس » — على العكس من سلفه — قد كان صديقاً للهللينيين (انظر الفصل رقم ١٦١ من هذا الكتاب) .

فى ذلك وقاية لها من الشر — فإنها سترسل إليها تمثالا فى « كورينى » .
وبعد النذر مباشرة جامعها « أمازيس » ومنذ ذلك الوقت ـ كلما أتى عندها ـ
كان يجامعها بها . ثم أحبها بعدئذ حبا جماً .ووفت « لاديكى » بنذرها نحو الآلهة.
(فطلبت) صنع تمثال وأرسلته إلى « كورينى » . ولا يزال التمثال موجودا
إلى يومنا هذا لم يمسه شىء ، وهو موضوع خارج مدينة الكورنيائيين .أما فيما
يتعلق بلاديكى هذه ،فإنه عندما سيطر «قمبيز» على مصر ، وعلم منها من هى أرسلها
إلى « كورينى » دون أن يصيبها مكروه .

١٨٢ — ولقد أرسل أمازيس[١] الهدايا أيضاً إلى بلاد اليونان : فإلى
« كورينى »أرسل،تمثالا لأثينامغطى بالذهب مع صورة له مرسومة،وإلى« ليندوس» ،
تمثالين لأثينا من الحجر ومشدا للصدر جديراً بالمشاهدة[٢]. ووهب أيضاً لهيرا
فى « ساموس » تمثالين لنفسه من الخشب ، لا يزالان حتى وقتنا هذا قائمين
فى المعبد الكبير ، خلف الأبواب . وبعث الهدايا إلى « ثاموس » لتوثيق
صلات الودّ والكرم بينه وبين پوليكراتيس[٣] بن « إيا كيس » . إلا أن
ما أرسله إلى « ليندوس » لم يكن من أجل صلات الكرم والمحبة ، بل لأن
معبد أثينا فى« ليندوس» كان قد شيدته — فيما يقال — بنات « دناؤس » ،
عندما حللن هناك أثناء فرارهم من أبناء « إيجيپتوس » . تلك هى الهدايا

(١) وهنا تقع أيدينا على دليل جديد يؤكد صداقة « أمازيس » للهللينيين .
(٢) انظر فى هذا الوصف ما ذكره هردوت فى كتابه الثالث (فصل ٤٧) .
(٣) Polycrates هو طاغية « ساموس » (انظر ص ١٣) .

التى قدمها أمازيس . وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها دفع الجزية (١) .

---

(١) خضعت « قبرص » قبل ذلك للآشوريين وللفينيقيين . وليس ببعيد أن تكون قد خضعت لفرعون مصر « أمازيس » . ولكنا نحرص — كدأبنا — على إثارة الشك فى أقوال المؤرخين ، وبخاصة إذا كانوا رواة من طراز «هردوت» ، إذ قد تكون العهود التى أُبْرِمَتْ بين «أمازيس» وأشهر مدائن الجزيرة مثل « سلاميس » و « أماثوس » و « إيداليون » قد أول أمرها إلى غير ما ينبغى لها حتى ظُنَّ — خطأً — أن « أمازيس » قد احتل الجزيرة .

محتويات الكتاب

الفصل

قائمة مختصرات المراجع الهامة

An. d. Serv. = Annales du Service des Antiquités de l'Egypte.

Badawi, Memphis = Ahmad Badawi, Memphis als szeite Landshauptstadt im NR. Kairo 1948.

Ball = J. Ball = J. Ball, Egypt in the classical geographers, Cairo Government Press 1942.

Bonnet, Bilderatlas = H. Bonnet, Bilderatlas zur Religionsgeschichte. hrsg. von H. Haas 2-4, Lief. Aegyptische Religion, Leipzig 1924.

Borchardt, Neuserrê, Sahurê = Das Grabdenkmal des Koenigs Neuser-Rê, bzw. Sahw-Rê. Wiss. Veroeffentl. der Deutschen Orient-Ges. Bd. 7 (1907), 14 (1910), 26 (1913).

Brugsch, Gesch. Aegyptens = Geschichte Aegyptens unter den Pharaonen, Leipzig 1877.

Brugsch, Thes. = Brugsch, Thesaurus inscriptionum aegyptiacarum, Leizig, 1883/91.

CAH = The Cambridge Ancient History, Camb. Univ. Press.

Diod. = Diodorus of Sicily with an English translation by C.H. Oldfether. 1946.

Diod. = An account of Egypt by Diodorus the Sicilian, being the 1st. book of his universal history translated into English by W.G. Waddell. Bulletin of the Faculty of Arts Univ. of Egypt. Vol. I part I, 1933.

Drioton-Vandier, l'Egypte = Clio, Les peuples de l'Orient Méditerranéen II, L'Egypte, Paris 1938.

Erman, Aegypten = Adolf Erman, Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum. Neue Bearbeitung von H. Ranke, Teubingen 1923.

Erman, Lit. = Adolf Erman, Die Literatur der alten Aegypter, Leipzig, 1923.

Erman, Relig. = Adolf Erman, Die Religion der Aegypter, ihr Werden und Vergehen in vier Jahrtausenden, walter de Gruyter, Berlin & Leiuzig. 1934.

Gardiner, Admonitions = Alan Gardiner, The admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.

Handbuch der Fremdwoerterte.=Handbuch der Fremdwoerter v. Dr. Friedrich Erdmann Petri XIII, Aufl. Neu bearbeited und vielfach vermehrt von Dr. Emanuel Samostz, Leipzig 1787.

Hopfner, Tierkult = Der Tierkult der alten Aegypter, Deutscher-Wiener Akad. phil.-hist. Klasse Bd. 57, 2 (1913).

J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology, London 1914 —

Kees, G.G. = Hermann Kees, Der Goetterglaube im alten Aegypten, Leipzig 1941.

Kees. T.G. = H. Kees, Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der alten Aegypter, Leipzig 1926.

Klebs, Reliefs = Die Reliefs des Alten Reiches.
Die Reliefs und Malerein des Mittleren Reiches.
Die Reliefs und Malereien des Neuen Reiches.
I. Abt. Heidelberger Akademie 1915, 1922, 1934.

L.D. = R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien, 12 Baende, Atlas in 6 Abteilungen, Berlin 1849 ff. ; 5 Baende Text, 1 Tafelergaenzungsband, Leipzig 1897 ff.

Mém. inst. fr. or. = Mémoires publiées par les membres de l'Institut Français d'Archéologie Oreintal du Caire, Le Caire 1902 ff.

Meyer, Gesch. = Ed. Meyer, Geschichte des Altertums, 5 Bde. Stuttgart und Berlin 1925, 1926, 1928, 1931, Stuttgart 1937, 1944, 1956, 1958.

O.L.Z. = Orientaliche Literaturzeitung, Leipzig.

Otto, Stierkulte = Beitraege zur Geschichte und Stierkulte in Aegypten, Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, Bd. 13 Leipzig 1938.

Plut. Isis et Osiris = Plutarque, Isis et Osiris. Trad. par Mario Meunier, Paris MDCCCCXXIV.

Plut. Isis und Osiris = Plutarch, Ueber Isis und Osiris, Text, Uebersetzung und Kommentar von Theodor Hopfner, Orientaliches Institut in Praga. Bd. IX, Iste. & IIte. teil.

Plut. Moral. = Plutarchus Moralia gr. Plutarchos Ethika.

PSBA. = Proceedings of the Society of Biblical Archaeology.

Pyr. Text. = Sethe, Die altaegyptischen Pyramidentexte, Leipzig 1908 ff.

Sethe, Amun = Kurt Sethe, Amun und die acht Urgoetter von Hermopolis, Abh. Berl. Akad. 1929.

Sethe, Untersuchungen = Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, hersg. v. Kurt Sethe (Leipzig).

Strabo = The Geography of Strabo, with an English translation by Horace Leonard Jones in eight volumes, Harvard Univ. Press. MCMXLIX.

Thucydides = Thucydides Historiae, Edited by C. Hude I & II.

Urk. = Sethe, Urkunden des aegyptischer Altertums, hersg. von G. Steindorff Abt. I-VII, Leipzig.

Waddell, Manetho = Manetho, with an English translation by W.G. Waddell, Loeb Classical Library, Camb. Mass. Harvard Univ. Press, 1940.

Wb. = A. Erman und Hermann Grapow, Woerterbuch der aegyptischen Sprache I-V, Leipzig, 1926/31.

Wiedemann, Aeg. Gesch. = Karl Alfred Wiedemann, Aegyptische Geschichte, Handlehrbuecher der alten Geschichte (Serie I, Abt. 1)

Wreszinski, Atlas = W. Wreszinski, Atlas zur altaegyptische Kulturgeschichte I, Leipzig, 1923.

Z. Ae. S. = Zeitschrift fuer aegyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.

فهرس الأعلام العامّة

(أ)

(ب ، پ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ل)

(م)

فهرس الأعـــلام الجغرافية والأماكن

(أ)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

فهرس أسماء المعبودات والمقدّسات

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)



- **ثانى** كتب هردوت التسعة .. يتحدث فيه «أبو التاريخ» عن مصر بعد زيارته لها قبل الميلاد بنحو خمسة قرون .. أحاديث يقرر فى مطلعها أنها ستطول « نظرا لما تحمل أرضها من عجائب المخلوقات ومن البدائع والروائع فى سائر الفنون والصناعات » .. ويستطرد ليطلع الدنيا على صور الحياة المشرقة الوضاءة التى عاشها أسلافنا على ضفاف النيل .. ولا يدع فرصة تمر - وهو يعرض ماسمع ورأى - دون أن يعبر عن اعجابه الشديد بالمصريين ودون أن يشيد بتفوقهم وعظمتهم وسبقهم فى ميادين العلوم والمعارف ، ودون أن يمتدح فضائلهم ويستريح الى تقواهم ونزاهتهم ، ويثبت لهم الفضل فى الكشف عن كثير من العلوم والمعارف التى أفادت منها الانسانية عامة وأفاد منها قومه الاغريق خاصة .

- **ترجم** الأحاديث عن الأغريقية المرحوم الأستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة .. العالم العربى الموهوب الذى اختطفه الموت وهو أنضر ما يكون شبابا ، وبلاده أكثر ما تكون أملا ورجاء فى علمه ومواهبه وأخلاقه .

- **وقدم** لها وراجعها .. وحققها ونقدها .. وتولى شرحها من فيض علمه واحاطته بدقائق تاريخ الحياة المصرية .. الحجة الثبت على الصعيد العالمى .. العالم الجليل المتواضع .. الأستاذ الكبير الدكتور أحمد بدوى .

- **وفى** جلال مهيب .. كان الأب الروحى الحانى .. الأستاذ الشيخ .. يسعى الى المطبعة .. يشرف على الطبع ويراجع بنفسه التجارب .. ليخرج هذا الكتاب على هذا النحو تقديرا وتخليدا لذكرى تلميذه الحبيب الذى فجعه القدر مبكرا فيه .

فما أكرم العاطفة وما أعظم الأستاذية !

محمد المعلم

الثمن ٨٠ م